

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARIES



32101 004948046

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

*This book is due on the latest date
stamped below. Please return or renew
by this date.*

--	--

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARIES



32101 004948046

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

*This book is due on the latest date
stamped below. Please return or renew
by this date.*

--	--

سفر الحلال بيتا

في احوال

البيتا في احوال

البيتا في احوال

البيتا في احوال

البيتا في احوال

البيتا في احوال

البيتا في احوال

البيتا في احوال

البيتا في احوال

البيتا في احوال

البيتا في احوال

البيتا في احوال

كتب المؤلف

حبة الرمان

وهل يخفى القمر

حقوق الانسان

امرؤ القيس

النقد والدراسة الادبية

مجوسي في الجنة

معالم الوعي القومي

مع العرب في التاريخ والاسطورة

ثورة بيدبا



في الاعداد :

فحن والثقافة العربية

المتنبى (سيرة نفس في ديوان)

رُفَيُّ خُورِي
Ra'if Khuri

الفكر العربي الحديث

al-Fikr al-'arabi al-hadith

أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي

منشورات « دار المكشوف »

بيروت ، لبنان ، ١٩٤٣

طبع من هذا الكتاب ٤٠٠٠ نسخة على ورق ودفري ،
وعشرون نسخة على ورق ممتاز مرقمة من ١ الى ٢٠
وهي خاصة بالمؤلف

الطبعة الاولى ، ١٩٤٣

جميع الحقوق محفوظة



فهرس

١٤ - ٩	• • • • • • • • • •	مقدمة بقلم عمر فاخوري
١٥	• • • • • • • • • •	اعلان حقوق الانسان
١٧	• • • • • • • • • •	فاتحة
١٩-١٨	• • • • • • • • • •	توجيهات من : ج . غيو ، لامنيه ، غوته ، ابي بكر الصديق ، اديب اسحاق ، شوقي ، مصطفى كامل باشا ، ميشله
٢٥-٢٠	• • • • • • • • • •	اهم مراجع الكتاب : الفرنسية ، الالمانية ، التركية ، العربية

القسم الاول

٥٢-٢٩	• • • • • • • • • •	الثورة الفرنسية الكبرى
٧٧-٥٣	• • • • • • • • • •	الفكر وعامله في الثورة
٩٦-٧٨	• • • • • • • • • •	مجاري الثورة الى الشرق
		الادباء والمفكرون العرب امام الثورة :

١١٤	• • • • • • • • • •	١ - عرض عام
١٣٦-١١٤	• • • • • • • • • •	٢ - دروس في الفكر والاصلاح
١٥٣-١٣٦	• • • • • • • • • •	٣ - نقد ورد
١٦٦-١٥٤	• • • • • • • • • •	تياران يتفاعلان

القسم الثاني : نصوص مختارة

١٦٩-١٦٨	• • • • • • • • • •	الامير حيدر الشهابي : الثورة الفرنسية
١٧١-١٦٩	• • • • • • • • • •	اعداد الملك لويس وظهور نابليون
١٧٣-١٧١	• • • • • • • • • •	اول منشور اذاعه نابليون في مصر
١٧٦-١٧٣	• • • • • • • • • •	احمد فارس الشدياق : الوطني الزائف
١٧٧-١٧٦	• • • • • • • • • •	رفاعة رافع الطهطاوي : حق الفرنسيات المنصوب لهم
١٨٠-١٧٧	• • • • • • • • • •	حقوق الناس التي يضمها الديوان
١٨٤-١٨٠	• • • • • • • • • •	ثورة سنة ١٨٣٠

2271
50943
334

٢٢٧-٥١ ٥٨٤
٢٢٧-٥١ ٥٨٤

١٨٥-١٨٦	.	نوفل نعمة الله نوفل الطرابلسي : من اعلام فرنسا في القرن الثامن عشر
١٨٧-١٨٨	.	فرنسيس فتح الله مرآش : بحث في الحرية
١٨٨-١٨٩	.	حالة الصالح العام
١٨٩-١٩٠	.	حالة الاستواء
١٩٠-١٩١	.	تشقيف العقل
١٩١-١٩٢	.	اطلقوا الاموال من عقالها
١٩٢-١٩٣	.	جمال الدين الافغاني : جمال الدين وتوفيق باشا خديو مصر
١٩٣-١٩٤	.	جمال الدين وقصر روسيا
١٩٤-١٩٥	.	جمال الدين وشاه ايران
١٩٥-١٩٦	.	جمال الدين والسلطان عبد الحميد
١٩٦-١٩٧	.	رأس بلا تاج أو تاج بلا رأس
١٩٧-١٩٨	.	الايمان بقدرة الانسان
١٩٨-١٩٩	.	شكل الحكم مسألة اساسية
١٩٩-٢٠٠	.	الاستعمار ككل شيء له عمر ينتهي عنده
٢٠٠-٢٠١	.	الدكتور شاكر الخوري : الانقلابات بقدر استعداد الجمهور
٢٠١-٢٠٢	.	عبد الله نديم : فضل الشورى
٢٠٢-٢٠٣	.	عبد الرحمن الكواكبي : تعريف الاستبداد
٢٠٣-٢٠٤	.	الاستبداد والعلم
٢٠٤-٢٠٥	.	الاستبداد والاخلاق
٢٠٥-٢٠٦	.	شميلي الشميل : دفاع عن حرية القلم
٢٠٦-٢٠٧	.	المستقبل لسيادة الامم
٢٠٧-٢٠٨	.	نظام الحكم
٢٠٨-٢٠٩	.	الحكومة والامة
٢٠٩-٢١٠	.	اديب اسحاق : ربط الانتفاضات الشرقية بثورة فرنسا
٢١٠-٢١١	.	الامة
٢١١-٢١٢	.	الوطن
٢١٢-٢١٣	.	الوطنية
٢١٣-٢١٤	.	الثورة
٢١٤-٢١٥	.	حسين باشا : مسألة الرقيق والغائه
٢١٥-٢١٦	.	
٢١٦-٢١٧	.	
٢١٧-٢١٨	.	
٢١٨-٢١٩	.	
٢١٩-٢٢٠	.	
٢٢٠-٢٢١	.	
٢٢١-٢٢٢	.	
٢٢٢-٢٢٣	.	
٢٢٣-٢٢٤	.	
٢٢٤-٢٢٥	.	
٢٢٥-٢٢٦	.	
٢٢٦-٢٢٧	.	
٢٢٧-٢٢٨	.	
٢٢٨-٢٢٩	.	
٢٢٩-٢٣٠	.	
٢٣٠-٢٣١	.	
٢٣١-٢٣٢	.	
٢٣٢-٢٣٣	.	
٢٣٣-٢٣٤	.	
٢٣٤-٢٣٥	.	
٢٣٥-٢٣٦	.	
٢٣٦-٢٣٧	.	
٢٣٧-٢٣٨	.	
٢٣٨-٢٣٩	.	
٢٣٩-٢٤٠	.	
٢٤٠-٢٤١	.	
٢٤١-٢٤٢	.	
٢٤٢-٢٤٣	.	
٢٤٣-٢٤٤	.	
٢٤٤-٢٤٥	.	
٢٤٥-٢٤٦	.	
٢٤٦-٢٤٧	.	
٢٤٧-٢٤٨	.	
٢٤٨-٢٤٩	.	
٢٤٩-٢٥٠	.	
٢٥٠-٢٥١	.	
٢٥١-٢٥٢	.	
٢٥٢-٢٥٣	.	
٢٥٣-٢٥٤	.	
٢٥٤-٢٥٥	.	
٢٥٥-٢٥٦	.	
٢٥٦-٢٥٧	.	
٢٥٧-٢٥٨	.	
٢٥٨-٢٥٩	.	
٢٥٩-٢٦٠	.	
٢٦٠-٢٦١	.	
٢٦١-٢٦٢	.	
٢٦٢-٢٦٣	.	
٢٦٣-٢٦٤	.	
٢٦٤-٢٦٥	.	
٢٦٥-٢٦٦	.	
٢٦٦-٢٦٧	.	
٢٦٧-٢٦٨	.	
٢٦٨-٢٦٩	.	
٢٦٩-٢٧٠	.	
٢٧٠-٢٧١	.	
٢٧١-٢٧٢	.	
٢٧٢-٢٧٣	.	
٢٧٣-٢٧٤	.	
٢٧٤-٢٧٥	.	
٢٧٥-٢٧٦	.	
٢٧٦-٢٧٧	.	
٢٧٧-٢٧٨	.	
٢٧٨-٢٧٩	.	
٢٧٩-٢٨٠	.	
٢٨٠-٢٨١	.	
٢٨١-٢٨٢	.	
٢٨٢-٢٨٣	.	
٢٨٣-٢٨٤	.	
٢٨٤-٢٨٥	.	
٢٨٥-٢٨٦	.	
٢٨٦-٢٨٧	.	
٢٨٧-٢٨٨	.	
٢٨٨-٢٨٩	.	
٢٨٩-٢٩٠	.	
٢٩٠-٢٩١	.	
٢٩١-٢٩٢	.	
٢٩٢-٢٩٣	.	
٢٩٣-٢٩٤	.	
٢٩٤-٢٩٥	.	
٢٩٥-٢٩٦	.	
٢٩٦-٢٩٧	.	
٢٩٧-٢٩٨	.	
٢٩٨-٢٩٩	.	
٢٩٩-٣٠٠	.	
٣٠٠-٣٠١	.	
٣٠١-٣٠٢	.	
٣٠٢-٣٠٣	.	
٣٠٣-٣٠٤	.	
٣٠٤-٣٠٥	.	
٣٠٥-٣٠٦	.	
٣٠٦-٣٠٧	.	
٣٠٧-٣٠٨	.	
٣٠٨-٣٠٩	.	
٣٠٩-٣١٠	.	
٣١٠-٣١١	.	
٣١١-٣١٢	.	
٣١٢-٣١٣	.	
٣١٣-٣١٤	.	
٣١٤-٣١٥	.	
٣١٥-٣١٦	.	
٣١٦-٣١٧	.	
٣١٧-٣١٨	.	
٣١٨-٣١٩	.	
٣١٩-٣٢٠	.	
٣٢٠-٣٢١	.	
٣٢١-٣٢٢	.	
٣٢٢-٣٢٣	.	
٣٢٣-٣٢٤	.	
٣٢٤-٣٢٥	.	
٣٢٥-٣٢٦	.	
٣٢٦-٣٢٧	.	
٣٢٧-٣٢٨	.	
٣٢٨-٣٢٩	.	
٣٢٩-٣٣٠	.	
٣٣٠-٣٣١	.	
٣٣١-٣٣٢	.	
٣٣٢-٣٣٣	.	
٣٣٣-٣٣٤	.	
٣٣٤-٣٣٥	.	
٣٣٥-٣٣٦	.	
٣٣٦-٣٣٧	.	
٣٣٧-٣٣٨	.	
٣٣٨-٣٣٩	.	
٣٣٩-٣٤٠	.	
٣٤٠-٣٤١	.	
٣٤١-٣٤٢	.	
٣٤٢-٣٤٣	.	
٣٤٣-٣٤٤	.	
٣٤٤-٣٤٥	.	
٣٤٥-٣٤٦	.	
٣٤٦-٣٤٧	.	
٣٤٧-٣٤٨	.	
٣٤٨-٣٤٩	.	
٣٤٩-٣٥٠	.	
٣٥٠-٣٥١	.	
٣٥١-٣٥٢	.	
٣٥٢-٣٥٣	.	
٣٥٣-٣٥٤	.	
٣٥٤-٣٥٥	.	
٣٥٥-٣٥٦	.	
٣٥٦-٣٥٧	.	
٣٥٧-٣٥٨	.	
٣٥٨-٣٥٩	.	
٣٥٩-٣٦٠	.	
٣٦٠-٣٦١	.	
٣٦١-٣٦٢	.	
٣٦٢-٣٦٣	.	
٣٦٣-٣٦٤	.	
٣٦٤-٣٦٥	.	
٣٦٥-٣٦٦	.	
٣٦٦-٣٦٧	.	
٣٦٧-٣٦٨	.	
٣٦٨-٣٦٩	.	
٣٦٩-٣٧٠	.	
٣٧٠-٣٧١	.	
٣٧١-٣٧٢	.	
٣٧٢-٣٧٣	.	
٣٧٣-٣٧٤	.	
٣٧٤-٣٧٥	.	
٣٧٥-٣٧٦	.	
٣٧٦-٣٧٧	.	
٣٧٧-٣٧٨	.	
٣٧٨-٣٧٩	.	
٣٧٩-٣٨٠	.	
٣٨٠-٣٨١	.	
٣٨١-٣٨٢	.	
٣٨٢-٣٨٣	.	
٣٨٣-٣٨٤	.	
٣٨٤-٣٨٥	.	
٣٨٥-٣٨٦	.	
٣٨٦-٣٨٧	.	
٣٨٧-٣٨٨	.	
٣٨٨-٣٨٩	.	
٣٨٩-٣٩٠	.	
٣٩٠-٣٩١	.	
٣٩١-٣٩٢	.	
٣٩٢-٣٩٣	.	
٣٩٣-٣٩٤	.	
٣٩٤-٣٩٥	.	
٣٩٥-٣٩٦	.	
٣٩٦-٣٩٧	.	
٣٩٧-٣٩٨	.	
٣٩٨-٣٩٩	.	
٣٩٩-٤٠٠	.	
٤٠٠-٤٠١	.	
٤٠١-٤٠٢	.	
٤٠٢-٤٠٣	.	
٤٠٣-٤٠٤	.	
٤٠٤-٤٠٥	.	
٤٠٥-٤٠٦	.	
٤٠٦-٤٠٧	.	
٤٠٧-٤٠٨	.	
٤٠٨-٤٠٩	.	
٤٠٩-٤١٠	.	
٤١٠-٤١١	.	
٤١١-٤١٢	.	
٤١٢-٤١٣	.	
٤١٣-٤١٤	.	
٤١٤-٤١٥	.	
٤١٥-٤١٦	.	
٤١٦-٤١٧	.	
٤١٧-٤١٨	.	
٤١٨-٤١٩	.	
٤١٩-٤٢٠	.	
٤٢٠-٤٢١	.	
٤٢١-٤٢٢	.	
٤٢٢-٤٢٣	.	
٤٢٣-٤٢٤	.	
٤٢٤-٤٢٥	.	
٤٢٥-٤٢٦	.	
٤٢٦-٤٢٧	.	
٤٢٧-٤٢٨	.	
٤٢٨-٤٢٩	.	
٤٢٩-٤٣٠	.	
٤٣٠-٤٣١	.	
٤٣١-٤٣٢	.	
٤٣٢-٤٣٣	.	
٤٣٣-٤٣٤	.	
٤٣٤-٤٣٥	.	
٤٣٥-٤٣٦	.	
٤٣٦-٤٣٧	.	
٤٣٧-٤٣٨	.	
٤٣٨-٤٣٩	.	
٤٣٩-٤٤٠	.	
٤٤٠-٤٤١	.	
٤٤١-٤٤٢	.	
٤٤٢-٤٤٣	.	
٤٤٣-٤٤٤	.	
٤٤٤-٤٤٥	.	
٤٤٥-٤٤٦	.	
٤٤٦-٤٤٧	.	
٤٤٧-٤٤٨	.	
٤٤٨-٤٤٩	.	
٤٤٩-٤٥٠	.	
٤٥٠-٤٥١	.	
٤٥١-٤٥٢	.	
٤٥٢-٤٥٣	.	
٤٥٣-٤٥٤	.	
٤٥٤-٤٥٥	.	
٤٥٥-٤٥٦	.	
٤٥٦-٤٥٧	.	
٤٥٧-٤٥٨	.	
٤٥٨-٤٥٩	.	
٤٥٩-٤٦٠	.	
٤٦٠-٤٦١	.	
٤٦١-٤٦٢	.	
٤٦٢-٤٦٣	.	
٤٦٣-٤٦٤	.	
٤٦٤-٤٦٥	.	
٤٦٥-٤٦٦	.	
٤٦٦-٤٦٧	.	
٤٦٧-٤٦٨	.	
٤٦٨-٤٦٩	.	
٤٦٩-٤٧٠	.	
٤٧٠-٤٧١	.	
٤٧١-٤٧٢	.	
٤٧٢-٤٧٣	.	
٤٧٣-٤٧٤	.	
٤٧٤-٤٧٥	.	
٤٧٥-٤٧٦	.	
٤٧٦-٤٧٧	.	
٤٧٧-٤٧٨	.	
٤٧٨-٤٧٩	.	
٤٧٩-٤٨٠	.	
٤٨٠-٤٨١	.	
٤٨١-٤٨٢	.	
٤٨٢-٤٨٣	.	
٤٨٣-٤٨٤	.	
٤٨٤-٤٨٥	.	
٤٨٥-٤٨٦	.	
٤٨٦-٤٨٧	.	
٤٨٧-٤٨٨	.	
٤٨٨-٤٨٩	.	
٤٨٩-٤٩٠	.	
٤٩٠-٤٩١	.	
٤٩١-٤٩٢	.	
٤٩٢-٤٩٣	.	
٤٩٣-٤٩٤	.	
٤٩٤-٤٩٥	.	
٤٩٥-٤٩٦	.	
٤٩٦-٤٩٧	.	
٤٩٧-٤٩٨	.	
٤٩٨-٤٩٩	.	
٤٩٩-٥٠٠	.	
٥٠٠-٥٠١	.	
٥٠١-٥٠٢	.	
٥٠٢-٥٠٣	.	
٥٠٣-٥٠٤	.	
٥٠٤-٥٠٥	.	
٥٠٥-٥٠٦	.	
٥٠٦-٥٠٧	.	
٥٠٧-٥٠٨	.	
٥٠٨-٥٠٩	.	
٥٠٩-٥١٠	.	
٥١٠-٥١١	.	
٥١١-٥١٢	.	
٥١٢-٥١٣	.	
٥١٣-٥١٤	.	
٥١٤-٥١٥	.	
٥١٥-٥١٦	.	
٥١٦-٥١٧	.	
٥١٧-٥١٨	.	
٥١٨-٥١٩	.	
٥١٩-٥٢٠	.	

٢٣٣-٢٢٨	•	•	•	•	روحي الخالدي : فيكتور هوغو
٢٣٥-٢٣٣					المطران يوسف الدبس : من حوادث سوريا ايام السلطان عبد الحميد الاول
٢٣٧-٢٣٥	•	•	•	•	الثورة على الامير بشير والجزار
٢٣٨-٢٣٧	•	•	•	•	الثورة على اولاد الامير يوسف
٢٣٩-٢٣٨	•	•	•	•	عامية انطلياس
٢٤٠-٢٣٩	•	•	•	•	عامية لحفد
٢٤١-٢٤٠	•	•	•	•	ولي الدين يكن : البلب بطل الحرية
٢٤٥-٢٤٢	•	•	•	•	فرح انطون : من مذكرات مفكر حر ايام عبد الحميد
٢٤٥	•	•	•	•	مصطفى كامل باشا : اشتراك الشعب في حكم نفسه
٢٤٦-٢٤٥	•	•	•	•	الشعب هو القوة الوحيدة
٢٤٦	•	•	•	•	المساواة امام الوطن ، المواطنون متكفلون متضامنون
٢٤٨-٢٤٦	•	•	•	•	امين البستاني : الديموقراطية
٢٥٧-٢٤٨	•	•	•	•	امين الريحاني : الثورة الافرنسية
٢٦٠-٢٥٨	•	•	•	•	الشيخ رشيد رضا : جمع بين القدم والجديد
٢٦١-٢٦٠	•	•	•	•	مصطفى لطفي المنفلوطي : أهناء أم عزاء
٢٦٤-٢٦٢	•	•	•	•	جبران خليل جبران : طلائع البعث الجديد
٢٦٤	•	•	•	•	وجوب الثورة
٢٦٦-٢٦٤	•	•	•	•	كتاب محاکمة مدحت باشا : الحرية مفتاح كل شيء
٢٦٧-٢٦٦	•	•	•	•	محمد كرد علي : تحية باريز
٢٦٩-٢٦٨	•	•	•	•	يوسف جرجس زخيم : كل شيء يتوقف على الشعب
٢٧٢-٢٦٩	•	•	•	•	الدكتور ايرب ثابت : الثورة ...
٢٧٤-٢٧٣	•	•	•	•	عبدالرحمن عزام : النبي محمد يضع اسس دولة ديموقراطية
٢٧٦-٢٧٥	•	•	•	•	محمد جميل بيهم : الثورة الفرنسية والمرأة
٢٧٧	•	•	•	•	الشيخ مصطفى الغلاييني : الحرية هي التي بناها الشعب
٢٨٠-٢٧٧	•	•	•	•	القوانين وموافقة البيئة ، حق اللغة

ملحق شعري

٢٨٢	.	.	.	.	.	الياس صالح : الحرية
٢٨٣-٢٨٢	.	.	.	.	.	شوقي : جيل الجبابر لا يدين
٢٨٣	.	.	.	.	.	النفوس لها ثورة
٢٨٤-٢٨٣	.	.	.	.	.	خليل مطران : من قصيدته نيرون
٢٨٤	.	.	.	.	.	جميل صدقي الزهاوي : ملك عن فعله ليس يسأل
٢٨٥	.	.	.	.	.	ارادة شخص واحد
٢٨٥	.	.	.	.	.	معروف الرصافي : يا ملوك الانام
٢٨٥	.	.	.	.	.	بشاره الخوري : بين لويس وعبد الحميد
٢٨٦	.	.	.	.	.	الذساتير والثورات
٢٨٦	.	.	.	.	.	دماء الشباب
٢٨٧-٢٨٦	.	.	.	.	.	يا فرنسا
٢٨٧	.	.	.	.	.	الياس ابو شبكة : الشاعر الحر والسلطان الظالم
٢٨٩-٢٨٨	.	.	.	.	.	خاتمة

تدارك خطأ

ورد في « ام مراجع الكتاب » اسم « مجموعة المحررات السياسية » بين المراجع التريكية والصحيح انها من المراجع العربية .

ووردت في الصفحة ١٠٨ اشارة الى ان مقالة الدكتور شبلي الشميل عن فرنسا بمناسبة حوادث دريفوس ، ستأتي مع مختارات الدكتور شبلي في « نصوص مختارة » والواقع انها وردت في الصفحة ١٣٨-١٣٩ .

ووردت في قسم « نصوص مختارة » مقالة للدكتور شاكر الخوري بدون عنوان وعنوانها : الانقلابات بقدر استعداد الجمهور .

مقالة

« يا عدو التاريخ ! » بهذه الصيحة تلقيت ذات مساء ، صديقنا
رثيف خوري . لست اذكر لاية مناسبة ، لكن اكبر الظن اني
رأيت يومذاك يشن احدى غاراته العنيفة ، الموفقة ، على جزء من
التاريخ ، او على بعض انواعه . فرد علي بابتسامته الطلقة الصريحة التي
لا يعوزها من القهقهة غير الصوت .. ان ابتسامه رثيف خوري هي
« عنوان » الصحة التي يتمتع بها في جسمه وروحه على السواء ، تلك
العافية السابغة التي لا تفتأ تنعكس متضاعفة متزايدة ، من احدهما على
الآخر ، حتى ليس يُعلم ايها الاوفر رجاءاً ، او الاكثر غنيمة . على اني
لم اعرف فتى هو اعظم من رثيف خوري ، انفاقاً مما رزقه الله ..
ومن قبيل العافية ايضاً ما راض عليه رثيف خوري نفسه ، من
ان لا يقبل على « علاته » شيئاً . اعني انه « يصحح » كل ما يسمع
ويشهد ، من اقوال ووقائع . فهو يترجمها رأساً ، دون تقاعس ، او
التواء ، في لغة الحقيقة التي يجيدها قراءة وكتابة ، فكراً وعملاً .
وليس لهذه الحقيقة عنده الا خصمان لا ثالث لهما (لكن لله ، ما
اضخم جيشيهما !) : سوء النية وسوء الفهم .. الحقيقة الاخيرة ، لا
النهائية .. « الاخيرة » بمعنى المحصل الحسابي لوجوه المسألة المتعددة ،
ولظروفها الملازمة لها ، ولاطوارها المتعاقبة التي لا تتغير تماماً كما انها

لا تتشابه تماماً .. اما « النهائي » فليس له ، مع الحياة والصيرورة ، وجود .

« يا عدو التاريخ ! » لقد صحت بها حقاً .. لكن لو اتاني الان من يزعم اني اذ قتلها ، اسمعتُ ايضاً كرجع الصدى : « يا عدو نفسه ! » لم اتهم اذنه ، ولا ذهنه . ان اكبر شطري التاريخ اسماء تود لو تنسى ، واحداث تريد ان تضيع ، بقدر ما يحتمل « الكون » ضياعاً ، او يصبر على خسارة . فلا جرم ان رثيف خوري يخال نفسه موكللاً بصديقه التاريخ ، يسعده على طرح بعض اعبائه ، لانقاذ السفينة من الغرق .. ان صداقة رثيف خوري والتاريخ لمن ذلك النوع الجيد الذي أرسلت في مدحه الامثال : « صديقك من صدقك ، لا من صدقك » .

لقد اولع رثيف خوري زمناً ، بنظم السلسلة الذهبية التي تجمع بين طرفيها « تقليدنا الثوري التحرري » منذ المحاولات الاولى . فطفق يبحث جاداً ، في كتب التاريخ والادب العربية ، عن الحلقات الضائعة من ذلك « التراث الانساني النفيس » . وكان كل مرة يرجع مثقلاً كالنحلة ، مما اشتاره من كلام مأثور ، وصنيع مشكور . وفي النادر ما كان يقف من التاريخ على اطلاله ، حيث تطن النحلة كما يطن الذباب ، انما لا تجني ما يجنيه النحل .

ولعل اطول وقفة لرثيف خوري على اطلال التاريخ ، هذه الفصول عقدها حول « الفكر العربي الحديث » كيف تم لقاحه بمبادئ « الثورة الفرنسية » . سوى اننا نظلم المؤلف اذا نحن لم نسلم عن طيب

خاطر ، بان اكثر تمهله وتأمله هو في الامكنة الطيبة بين رسوم دوارس : زهرة هنا ما تزال متألفة توضع ، وبقية ارج هناك من جنينة مفقودة . وكأي من اسماء منسية يذكرها وصحائف مطوية ينشرها .. تلك خطته في « الانقاذ التاريخي » لم يجد عنها ، لكنه اليوم يجري عليها عكساً لا طرداً ، اذ يعمل على ان يستنقذ « من » السفينة ، بعض حمولتها الثمينة ، ثم يترك المركب لمصيره .

ونضرب لك مثلاً لتنظر كيف « يعامل » رثيف خوري طائفة من الاخبار التي يكفي ان تتواتر حتى تصير « تاريخاً » : يقص المؤلف فيما يقصه علينا ، نبأ المفاوضة بين العرب والفرس قبل القادسية الحاسمة . ففي رواية ان المفاوض العربي كان المغيرة بن شعبه : من معارف التاريخ . وفي رواية اخرى ان المفاوض كان انساناً يدعى زهرة : من نكراته . ليس بمستبعد ان يكون ثمة مفاوضان ، او مفاوض وترجمانه .. لكن هذا يهم التحقيق التاريخي (او الاصطلاحي) وحده . اما « الحقيقة الانسانية » فهي هي ، في كلتا الروايتين على السواء : في اولاهما يسمع رستم قائد الفرس كلاماً من زهرة : « ان الدين الجديد (اي الاسلام) يخرج العباد من عبادة العباد الى عبادة الله . » وهي عبارة تحمل على الظن بانها مترجمة عن الفارسية .. فيحتج رستم بان « اهل فارس ، منذ ولي اردشير ، لم يدعوا احداً يخرج من عمله ، من السفلة . وكانوا يقولون : اذا خرجوا من اعمالهم تعدوا طورهم ، وعادوا اشرافهم . » اما في الرواية الاخرى فيسمع اشراف الفرس كلاماً من المغيرة بن شعبه : « انا معشر العرب لا

يستعبد بعضنا بعضاً .. كان احسن من الذي صنعتم ان تخبروني ان بعضكم ارباب بعض .. اليوم علمت انكم مغلوبون . ان ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا هذه العقول . « فيتهامس الاشراف قائلين : « والله لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون — اي يميلون — اليه . » ويقول رثيف خوري ان « معنى هذا في لغة علم الاجتماع الحديث ان النظام الاجتماعي الفارسي كان نظاماً يقسم السفلة (اي جماهير الشعب) الى طوائف ، يلتزم كل فرد طائفته التي ولد فيها ووضعه الاجتماعي ، لا حق له ان يتزحزح عنه . فهو فلاح قن مثلاً ، يكون ابنه فلاحاً قنّاً ايضاً ، وهو محترف عمل الاحذية مثلاً ، يكون ابنه محترفاً عمل الاحذية ايضاً .. ان هذا الدين الجديد لن يقبل بنظام اجتماعي اقطاعي متحجر كالنظام الفارسي ، ولن يقر الاثوقراطية الفارسية ويلقي الحبل على الغارب للاشراف والدهاقين . » وهكذا نرى رثيف خوري الذي يسمي « الاخبار » عن المفاوضة بين العرب والفرس « محاضر » توكيداً لصحتها رغم كل الظواهر ، يرسل على الناحية « الثورية التقدمية » في الاسلام نوراً كاشفاً . ان المفاوض العربي ، كيفما تسمى ، كان في الحقيقة التي تهم التاريخ الانساني واحداً ، كما ان المفاوض الفارسي كان واحداً في تلك الحقيقة ايضاً ، لان الحوار الذي استؤنف عهد ذاك بينهما ، انما هو الحوار المستمر بين عالمين : قديم وجديد .. حوار واحد لم يتعدد . وذلك وامثاله ، في رأي رثيف خوري ، ما كان يقرأه اعلام نهضتنا الحديثة ، في اثناء التراث العربي القديم ، ويتدبرونه « فيخلق فيهم استعداداً نفسياً كبيراً للاعجاب بالثورة الفرنسية . » فالحادث

التاريخي الذي اراد المؤلف اثباته و « تحقيقه » ليس « خبر » المفاوضة بين العرب والفرس بل « خبر » الاستعداد النفسي عند مفكري العرب الاصلاحيين ، في القرن الماضي ، لتقبل المبادئ الجديدة ، الاجنبية في صيغها او اشكالها ، الاصلية في جوهرها او فحواها « تبعاً لتقارب الاشواق الانسانية واتجاهها في الحياة الاجتماعية نحو الخير والتجديد والعدل والرفق والحرية وسائر المثل والقيم العليا .. على ان الاسلام وثبة تقدمية جبارة ، والوثبات التقدمية الجبارة في كل العصور ، لا يخلو بعضها من مضمون بعض . » واذا كان غوته قد هتف مساء اليوم الذي نشبت فيه معركة فالمي : « من هذا المكان ، منذ اليوم ، تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ الدنيا » ، فان نقولا الترك لم يبعد عنه كثيراً ، اذ ذكر « الثورة الكبرى وقيام المشيخة الفرنسية » في جملة « الحوادث الكونية ، والحركات الكلية » . على ان في الكتاب نماذج شتى وطريفة من هذا « التقارب الانساني » الذي يعد المؤلف بين خيرة ممثليه في الجيل الحاضر .

ان رثيف خوري الاديب في سويدائه ، والشاعر الذي يحرص على صياغة قصائده وصقلها كما كانوا يحرصون على تجويد السيوف والالطاف ، يعرف ايضاً كيف يترسل في نثره الكتابي والخطابي ترسلاً لا اثر للصنعة فيه ، بل لا ضابط له غير المنطق الخفي حيناً ، الظاهر احياناً . وهو في مواقفه هذه ، الغنية السخية ، لا يخشى تهمة ابتذال يقذفه بها متأنق او متظرف ، من اولئك الذين يرتمون في احضان تفكيرهم « الذاتي » كمن يتمتع بجسد خيالي .. حرية ، مساواة ،

اخواننا ! ما ذنبنا ان تكن « الالفاظ » غزيرة الاصدار في السوق ،
 كالنقد المتضخم الذي لا يني ينحط قيمة وثنياً ؟ وما ذنبنا ان تكن
 « المبادئ » ابعد شيء عن الابتذال ، لانها ما زالت أبعد شيء عن
 التحقيق العملي ؟ يقول رثيف خوري في معرض كلامه على روسو :
 « .. ان غيره ظل يفكر في نطاق مكتبة صغيرة او حلقة ضيقة من
 النخبة المختارة ، بينما استطاع روسو ان يحرك اعماق الشعب ويجعل من
 مذهبه دستوراً للعمل . انه من الكتاب القلائل الذين ترن كلماتهم برنة
 الصدق ويشعر القارئ لدى مطالعتهم انهم اذ يدعونه للتفكير ، يدعونه
 الى العمل ايضاً . » كأن الكلمة مقولة في رثيف خوري نفسه !
 وبالجمل ان رثيف خوري ، حتى في كتابته التاريخ ، لا يقف على
 اطلال الماضي مقدار ما يقف على تصاميم المستقبل . ولقد ولد كتابه
 هذا تحت طالع مزدوج من « العقل الذي يبدد سحب الجهالة » ومن
 العاطفة التي تمنح القلوب حرارتها . فبورك في ذلك القران السعيد !

عمر فاخوري

اعلانه حقوق الانسان^{١)}



- ١ الناس يولدون ويظلون احرارا ومتساوين في الحقوق .
- ٢ هذه الحقوق هي الحرية والملك والامن ومقاومة الجور .
- ٣ مبدأ كل سلطة مستقر في الامة . لا يمكن لاي مجموع او لاي فرد ان يستخدم سلطة غير آتية عنها صراحة .
- ٤ قوام الحرية ان يستطيع عمل كل ما لا يضر بالغير .
- ٥ لا يحق للقانون ان يمنع غير الاعمال المضرة بالهياة العامة .
- ٦ الشريعة هي مظهر الارادة العامة ولكل الوطنيين ذاتيا او بواسطة نوابهم حق الاشتراك في سنها . ويجب ان تكون واحدة للكل سواء كان في صون الحقوق ام في العقوبات . ولما كان كل الوطنيين متساوين ازاءها فهم كذلك يقبلون في كل المراتب والمناصب والوظائف العامة بحسب اقتدارهم وفضائلهم ومواهبهم العقلية .
- ٧ لا يمكن الشكوى على اي انسان كان او القبض عليه او توقيفه الا في الاحوال المعينة في القانون وبحسب الكيفية المرسومة فيه .
- ٨ لا يسوغ للقانون ان يضع غير العقوبات الضرورية ضرورة اكيدة وصريحة ولا يمكن معاقبة اي كان الا بموجب قانون وضع ونشر واصبح نافذا قبل وقوع الجرم وعمل به على النظام .
- ٩ لما كان كل انسان يعتبر بريئا الى ان يعلن مجرمًا فاذا ارتوئي وجوب توقيفه واستعمل بحقه
- عنف لم يكن ضرورياً للتأمين من شخصه فعلى القانون ان يعاقب على ذلك بكل شدة .
- ١٠ لا يجوز تنكيد اي كان بسبب آرائه حتى الدينية منها ما دام ابداءها لا يتخل بالنظام العام حسبما قرره القانون .
- ١١ حرية نشر الافكار والآراء حق من اثن حقوق الانسان، فلكل وطني اذن ان يتكلم ويكتب ويطلع ببله الحرية الا انه مسؤول عن خرق هذه الحرية في الاحوال المعينة في القانون .
- ١٢ ضمان حقوق الانسان والوطنيين يستلزم قوة عامة .
- ١٣ يتحتم للقيام بهذه القوة العامة ونفقات الادارة وضع رسوم عامة يجب توزيعها على جميع الوطنيين بالسواء كل على قدر طاقته .
- ١٤ يحق لكل الوطنيين ان يتحققوا بالذات او بواسطة نوابهم لزوم الرسوم العامة وان يقبلوا بها عن رضى وان يحددوا مقدارها ومدتها وكيفية تقسيمها وتحصيلها وان يتتبعوا كيفية صرفها .
- ١٥ يحق للهياة العامة ان تسأل كل موظف عام عن ادارته .
- ١٦ كل هياة عامة لا يكون فيها ضمان الحقوق مكفولا وتفرق السلطة محدودا فليست هي على شيء من القانون الاساسي .
- ١٧ لما كان التملك حقاً مقدساً لا يس فلا يمكن تزعجه عن اي انسان كان الا اذا استلزم ذلك المصلحة العامة استلزماً ثابتاً شرعاً وبشرط دفع تعويض عادل مقدماً .

(١) تعريب الدكتور ايوب ناس، نقلًا عن مجموعة مقالاته « عبرة وذكرى »، ساعده على تعريبه، كما ذكر : « جملة من القانونيين والكتاب الافاضل اخص بالذكر منهم صديقي المحامي شارل دباس » . وهو خير تعريب حرفي لهذا النص التاريخي .

فَاتِحَة

ان الثورة الفرنسية ، وفرنسا الشائرة ، وما أشبه
مما رأيته في عنوان الكتاب ، وراه مردداً في تضاعيف
سطوره ، كلام له ، ايها القارىء ، معنى يجب ان لا
يُخلط بينه وبين غيره من المعاني .

هذه كلمتي الاولى اقولها لك ، واتركك وهذه
الفصول الطويلة ، والنصوص المختارة من كبار ادبائنا
ومفكرينا . وقد كنت احب أن اقول شيئاً في هذه
الفاتحة آثرت ان اتركه للخاتمة . وما دامت مقدمات
الكتب توضع آخر شيء ، بعد الفراغ من التأليف ،
فاني أرى أن تكون مقدمتي آخر صفحات الكتاب
لا اوله .

أما ارنست رينان ، وما عيرنا به من أننا عدمنا
ولو نائراً واحداً ، فارجو ان لا يعطيه هذا الكتاب
إلا نصف الحق على الاكثر .

رُفِيفُ غُورِي

بيروت ٨ ايلول ، ١٩٤٣

تنبية : في هذا الكتاب قسم مستقل اشترنا اليه بعنوان « نصوص
مختارة » . وقد جعلنا النصوص ، التي اخترناها لسلك ادب ، في فصل
على حدة توجناه باسمه .

للحياة وجهان : أحدهما الاغتذاء والهضم ، والآخر الانتاج والخصب .
وبالقدر الذي تأخذ الحياة ينبغي لها ان تعطي . هذا قانونها . . . الحياة
كلاليب ، ليس يمكن حفظها الا اذا هي اعطت من مادتها . يصح هذا
على العقل كما يصح على البدن . ومن المستحيل على العقل (الذكاء) ان
ينحصر في ذاته . انه كلاليب الذي لا بد له من اعطاء النور بطبيعة
خلقه . وهذه القوة نفسها - قوة التمدد - قائمة في احاسيسنا . فعلياً ان
نقاسم (غيرنا) افراحنا واحزاننا . . . ان من طبيعتنا ان نكون اجتماعيين .
نحن لا نكفي ذاتنا بذاتنا . فلدينا من الدموع اكثر مما نحتاج لاحزاننا ،
وندينا من احتياطي السرور اكثر مما نستطيع سعادتنا ان تبرر . يجب ان
نغضي الى الآخرين ، ونكثر انفسنا بالاتصال عن طريق الفكر والشعور .
الحياة هي الخصب ، وبالعكس ، الخصب هو الحياة - (الحياة) الأشد
امتلاء . انه الوجود الصحيح . هناك سخاء وكرم لا ينسلخان عن الوجود ،
وبدونهما غوت ونجف من الصميم . فيجب ان تزهو . والاخلاق الطيبة
والتزاهة تلك هي زهرة الحياة الانسانية . والمثل الاعلى ليس على نقيض
العالم ، ولكنه سابق له . ان المثل الاعلى - في اصله - شبيه بفكرنا
الذي ينشق عن الطبيعة ، ويعيشي قدامها مستظلاً ، مهيباً الرقي المطرد .
الواقع والمثل الاعلى متفاهمان في الحياة ، لان الحياة على وجه العموم كائنة
وفي حالة الصيرورة ، في آن واحد . من يقل الحياة يقل التطور ! - ج .
م . غيو - « صفحات مختارة » .

ماذا اغنت عنا جميع تدابيرنا ؟ ان الايمان والفكر قد حطما قيود
الشعب . ان الايمان والفكر قد حررا الارض . اردنا ان نفرق الناس
بعضهم عن بعض ، ولكن جورنا آلف بينهم وألبهم علينا . هرقنا دماءهم
فوقمت على رؤوسنا . بذرنا الفساد فتشبت جذوره بتربتنا وتأكلت عظامنا .
ولقد حسبنا اننا خنقنا الحرية ، ولكن انفاسها لفحت جذور سلطتنا
وأبستها ! - « لامنيه » (Lammenais) « اقوال مؤمن » .

ما معنى ان يحب الانسان وطنه ؟ ما معنى ان يكون الانسان وطنياً ؟ اذا كان الشاعر منصرفاً مدى حياته الى محاربة التعصب ، وازالة النظرات الضيقة ، واثارة ذعن قومه ، وتصفية ذوقهم وترقية آرائهم وافكارهم ، فقولوا كيف يمكنه ان يكون وطنياً على وجه خير من هذا الوجه ؟ - غوته في كتابه « احاديث مع اكرمن » .

أما بعد ، فقد وليت عليكم ولست بخيركم ، فاذا استقمت فاعينوني واذا زغت فقوموني . - الصديق ، ابو بكر .

... فئة لا يزالون يؤلمون اسماعنا بما يكررون من سفاسف القول ، من مثل اننا تعودنا احتمال الظلم والحيف والعناء والخدمة ، والوق ، فلن يستقل لنا رأي ولن نهتدي سبيل الحرية ، كأننا هم لا يعلمون ان أهل الغرب اجمعين تعودوا مثل ذلك الحيف اعصاراً ، أو كانوا في قديم الايام على ضروب من الرق وانخفاض الجناح ، وان العالم بأسره كان فريقين: احراراً يظهرون ، وعبيداً يطيعون ! - أديب اسحاق .

دم الثوار تعرفه فرنسا ، وتعلم انه نور وحق
جرى في ارضها فيه حياة كنهل السماء ، وفيه رزق
بلاد مات فتيتها لتحميا ، وزالوا دون قومهم ليقوا
وحُررت الشعوب على قناها فكيف على قناها تسترق ؟

احمد شوقي

اذا كانت آلامنا من السياسة الفرنسية شديدة ... فاننا لا نزيد ان ندخل اليأس على قلوبنا من حياة الامة الفرنسية ويقظتها ومستقبلها العظيم - مصطفى كامل باشا .

لا تقولوا لي : كم هي شاحبة فرنسا هذه ! فقد هرقت دمهها من اجلكم ... ولما فرغت يدها اعطت روحها التي منها تحيون . - « ميشله » في كتابه : « الشعب » يخاطب الأمم .

أهم مراجع الكتاب

المراجع الفرنسية :

- Michelet. — Histoire de la Révolution Française (1847-1853).
Encyclopédie Française. — vol. X, chap. IV (Les Libertés Individuelles).
et autres chapitres ...
E. Lavis (en collaboration avec P. Conard). — Histoire de France
(Armand Colin, Paris, 1937).
Rogie et Despiques. — Histoire de la France et de Ses Institutions
(Rieder, Paris).
L'Abbé Courval. — Histoire Moderne, tome II (1896).
E. Herriot. — Précis de l'Histoire des Lettres Françaises (Rieder, Paris).
J. R. Bloch. — Naissance d'une Culture (Rieder, Paris).
R. Rolland. — Les Pages Immortelles de J. J. Rousseau (Editions Correa,
Paris).
Diderot. — Extraits (édités par les Lettres Françaises en Proche Orient).
Montesquieu. — Extraits (édités par les Lettres Françaises en Proche
Orient).

بيير فيلار : الثورة الفرنسية والمستعمرات (فصل نشرته مجلة « الطليعة » عدد
خاص بالثورة الفرنسية ، دمشق تموز سنة ١٩٣٩) .
سنيوبوس : تاريخ التمدن الحديث ، تعريب « الكاتب المحجوب » ، نشر دار
الهلل ، ١٩٠٩ .

دياس (الكبير) : روايته عن الثورة الفرنسية ، نهضة الاسد ، النخ ، ٠٠٠ ، في
اربعة اجزاء ومجلدين ، تعريب فرح انطون ، مطبعة المعارف ، مصر .
غوستاف لوبون : روح الثورات والثورة الفرنسية ، ترجمة محمد عادل زعيتر ، طبع
عبيد اخوان ، دمشق .

المراجع الانكليزية والاميركية :

Carlyle . — History of the French Revolution. (Modern Library Edition).
H. W. Nevins . — The Growth of Freedom . (People's Books, London).
Randall . — The Making of the Modern Mind . (Allen and Unwin).
Encyclopedea of Social Sciences . — Art. Revolution .

المراجع الاطالنية :

جورج كونيو : « بعض الاسس التعليمية للشورة الفرنسية » (مجلة الطليعة ، دمشق ، تموز ، ١٩٣٩) وفي المقال نصوص عن الشورة منقول من كتب المانية عصرية شهيرة كـ « خرافة القرن العشرين » لالفرد روزنبرغ ، الخ . . .
هكذا تكلم زرادشت : تعريب فيلكس فارس ، مصر .

المراجع التركية :

×× محاكمة مدحت باشا : تعريب يوسف كمال حتاته ، مصر .
× عاطف باشا : مذكرات (نقل منها نصوصا الدكتور كامل عياد في مقالته : الشورة الفرنسية والشرق ، مجلة « الطليعة » دمشق ، تموز ، ١٩٣٩) .
مجموعة المحررات السياسية ، المفاوضات الدولية ، عن سوريا ولبنان ، من سنة ١٨٤٠ الى ١٩١٠ - تعريب فيليب وفريد قعدان الحازن .

المراجع العربية :

× محمد صبري : الشورة الفرنسية ، دار الكتب المصرية ، ١٩٣٧ .
× محمد فؤاد شكري : الحملة الفرنسية وظهور محمد علي ، مطبعة المعارف ، مصر .
× كامل عياد : « الشورة الفرنسية والشرق » ، (مقال في مجلة الطليعة ، دمشق ، تموز ١٩٣٩) .
× الامير حيدر احمد الشهابي : الفرر الحسان في اخبار ابناء الزمان ، الجزء ٢ و ٣ ، القسم الثاني في الحملة الفرنسية على مصر واولى حكم الامير بشير الثاني (نشر مديرة المعارف اللبنانية ، ١٩٣٣ ، بعنوان : لبنان في عهد الامراء الشهابيين) .

- نقولا الترك : تاريخ نابليون (اخذنا شيئاً من مقدمته المثبتة في حاشية تاريخ الامير حيدر ، السابق الذكر) .
- انطون ظاهر العقيقي : مخطوطة له عن تاريخ لبنان من ١٨٤١ - ١٨٧٣ (نشرها ، وعلق حواشيها ، يوسف ابراهيم يزبك ، صدرت في منشورات مجلة الطليعة ، ١٩٣٦ ، بعنوان « ثورة وفتنة في لبنان ») .
- رفاعة رافع الطهطاوي : تلخيص الابريز الى تلخيص باريز ، بولاق ، الطبعة الحجرية .
- المطران الدبس : الموجز في تاريخ سورية ، جزء ٢ ، بيروت ١٩٠٧ .
- روحي الخالدي : علم الادب عند الافرنج والعرب وفيكتور هوغو ، دار الهلال ، ١٩١٢) .
- احمد فارس الشدياق :
- ١ (الساق على الساق في ما هو الفاريق ، (طبع يوسف توما البستاني مصر) .
 - ٢ (جل ادبية (مدرجة في القسم الاول من مجالي النور لكتاب القرن التاسع عشر ، جمع يوسف صفي ، بيروت ، ١٨٩٨) .
 - ٣ (كنز الرغائب في منتخبات الجوائب ، الجزء السادس ، طبع الاستانة .
- نوفل نعمة الله نوفل الطرابلسي : زبدة الصحائف في سياحة المعارف ، بيروت ، ١٨٧٩ .
- بطرس البستاني : دائرة المعارف (بيروت ، ١٨٨٢) مواد شتى في اجزاء مختلفة ، كهادة : روسو ، ثورة الخ ...
- فرنسيس فتيح الله المراس : غابة الحق ، بيروت ، ١٨٨١ .
- جمال الدين الافغاني : خاطرات جمال الدين الافغاني الحسيني ، تأليف محمد باشا المخزومي ، بيروت ١٩٣١ .
- عبد الرحمن الكواكبي : طبائع الاستبداد ، مصر ، ١٩٠٥ .
- عبد الله نديم : مجموعة مقالات ، المطبعة الجديدة ، مصر .
- شبلبي الشميل : مجموعة مقالاته ، الجزء الثاني ، مطبعة المعارف ، مصر .

- × اديب اسحاق : الدرر ، المطبعة الادبية ، بيروت .
- فهمي علمي : مصطفى كامل باشا في ٣٤ ربيعاً ، ٩ مجلدات ، القاهرة ، ١٩٠٨ - ١٩١١ .
- ولي الدين يكن :
- × (١) المعلوم والمجهول ، جزءان ، مطبعة المعارف ، مصر ، جزء ١ سنة ١٩٠٩ ، جزء ٢ سنة ١٩١٢ .
- × (٢) دكران ورائف : رواية ، نشرتها مجلة « الف ليلة وليلة » ، بيروت ، عدد ٣٦٤ .
- فرح انطون : مقدمة الطبعة الثانية ، من تعريبه لرواية دياس الكبير ، عن الثورة الفرنسية .
- × شاكور الخوري : مجمع المسرات ، بيروت ، ١٩٠٨ . ×
- نجيب الحداد : منتخبات ، مصر .
- قاسم امين : مجموعة مقالات ، مصر .
- جرجي زيدان :
- (١) تراجم مشاهير الشرق (جزءان)
- (٢) الانقلاب العثماني (رواية)
- (٣) الماسونية
- (٤) رحلة زيدان الى اوربا
- جبران جبران :
- (١) العواصف
- (٢) دمة وابتسامة
- (٣) الاجنحة المتكسرة
- (٤) الارواح المتمردة
- (٥) عرائس المروج
- (٦) البدائع والطرائف
- طبع دار الهلال ، مصر .
- طبعة يوسف توما البستاني ، مصر .

- امين البستاني : مجموعة مقالات ، دار الهلال ، ١٩١٩ .
- امين الريحاني : الريحانيات ، ٤ اجزاء ، بيروت ، صادر .
- محمد الحسين آل كاشف الغطاء النجفي : المراحعات الريحانية ، الجزء الاول ، وهي رسائل بينه وبين امين الريحاني ، المطبعة الاهلية ، بيروت .
- ثورة العرب : بقلم احد اعضاء الجمعيات العربية ، نشر جريدة المقطم ، مصر ، ١٩١٦ .
- رشيد رضا : الخلافة او الامامة العظمى ، طبع مجلة المنار ، مصر .
- فيليكس فارس : رسالة المنبر ، مصر .
- الانسة مي : المساواة ، المطبعة الرحمانية ، مصر .
- محمد كرد علي :
- (١) غرائب الغرب ، جزآن ، الاهلية ، مصر .
- (٢) مجلة المقتبس ، السنة السادسة .
- ايوب ثابت : عبدة وذكرى (مجموعة مقالات كتبت لمناسبة الانقلاب العثماني ، بيروت ١٩٠٩) .
- الشيخ مصطفى الغلاييني : اريج الزهر ، المكتبة الاهلية ، بيروت ، ١٩١١ .
- محمد جميل بيهم : المرأة في التمدن الحديث ، بيروت ، ١٩٢٧ .
- انيس الخوري المقدسي : العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث ، الحلقة الاولى : في العوامل السياسية (بيروت الجامعة الاميركية) .
- X الاب لويس شينخو : ادباء القرن التاسع عشر ، بيروت ، ١٩٠٨ .
- عباس محمود العقاد : الثورة الفرنسية (مقال في مجلة « الطائفة » ، دمشق ، تموز ١٩٣٩) .
- محمد حسين هيكل : جان جاك روسو ، مصر .
- طه حسين : آراء حرة ، مجموعة محاضرات عن نخبة من اعلام حرية الفكر ، بينهم فولتير ، روسو ...
- سلامة موسى : حرية الفكر ، مصر .
- رثيف خوري : حقوق الانسان ، دمشق ، ١٩٣٧ .

- × عبد الرحمن الرافعي : الجمعيات الوطنية ، مصر .
- سليمان غزاله : الحرية البشرية ، ٦ اجزاء ، بغداد ١٩٢٦ .
- محمد عبد الباري : الحرية والدولة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر ١٩٢٦ .
- × الياس ابو شبكه : روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة ، بيروت ، دار المكشوف ، ١٩٤٣ .

القِسْمُ الْأَوَّلُ

تالار الخزان

الثورة الفرنسية الكبرى

أهم الثورات العظيمة المتأخرة هي الثورة الفرنسية المشهورة التي حدثت سنة ١٧٨٩ . وهي المراد في التواريخ عند الاطلاق ، فاذا قيل زمن الثورة الفرنسية كانت هي المقصودة . - (دائرة المعارف للبستاني ، مادة ثورة ، جزء ٦) .

... الانقلاب الكبير الذي حدث فيها (فرنسا) فغير معالمها وثل منها عرش الاستبداد وحرر العقول وبذل الظلام بالنور ووضع العدل في موضع الظلم ، وجرى بسبب ذلك من الفظائع الدموية ما تقشعر من سماع حديثه الجلود . - روجي الخالدي (تاريخ علم الادب عند الافرنج والعرب وفيكتور هوغو) .

وقد اتفق المؤرخون بان هذه الثائرة الفرنسية ، تكون نهاية القسم الثاني من القرن الاخير . - نوفل نعمة الله نوفل الطرابلسي (زبدة الصحائف في سياحة المعارف) .

ثورة الفرنسيين سنة ١٧٨٩... كانت ام الثورات ومطلع فجر الحرية للعالم كله . - امين البستاني (مقالته : الديمقراطية (١)) .

لما كان مدار بحثنا على الثورة الفرنسية ومفكرها واعلامها ، وحوادثها الجسيمة ومبادئها ، وتأثير ذلك كله في الاعلام من ادبائنا ومفكرينا ، فقد وجب ان نلم - ولو المأماً يسيراً - بما هو ضروري لنا من تاريخها .

يجري للكتاب عن الثورة الفرنسية على تقسيم بحوثهم فيها الى الاقسام التالية :
تمهيد يدرسون فيه وضع فرنسا قبل الثورة ، وهو الوضع الذي اصبح يعرف باسم « النظام القديم » « L'Ancien Régime » . فيذكرون الملكية المطلقة وارتكازها

الى حق الملوك الالهى ^(٢) ، وانقسام البلاد الى اربع طبقات وفق المنبت الاجتماعي : طبقة الاشرف ، اسياذ الاكليروس ، الطبقة الثالثة ، (ثم الطبقة الرابعة في ادنى درجات السلم الاجتماعي) . ثم يذكر المؤرخون بذخ البلاط في فرساي ، ووقوع اخترينة في العجز بسبب الحروب وكثرة النفقات . ويذكرون ثقل الضرائب والحاجة المتكررة الى عقد القروض . ويفصلون امتيازات الاشرف والاكليروس في قضية الضرائب ، وفي تسخير المزارعين ، ويذكرون القيود على حرية الرأي وسجن الباسطيل والتجارير المحتومة « Lettres de cachets » وكيف كان من الميسور استصدارها بالرشوة وحبس الابرياء . ويذكرون الحدود الاقطاعية التي كانت تفصل جزءاً من فرنسا عن جزء ، وتعوق حرية التجارة بما يفرضه الاسياذ الاقطاعيون من مكوس . ثم يلتفتون الى ذكر الفئات النامية في حضن المجتمع الفرنسي ، او الى القوى الجديدة التي نبضت في حياة فرنسا الاقتصادية والعقلية ، فكانت قاعدة الثورة

(٢) الملكية المطلقة هي حصر السلطة جميعاً في يد الملك . وحق الملوك الالهى هو الحق الذي يبرر الملكية المطلقة ، نظرياً ، اذ يجعل حصر السلطة في يد الملك بمشيئة من الله . ولا ريب ان هذا المذهب من مذاهب الفكر السياسي قد انتهى دوره ، على انه في مبدأ الامر قام بخدمة تقدمية اذ اعطى الملوك ايضاً حقاً الهياً ، فبرر انفصالهم عن اشرف الباباوات الذين كانوا يعلنون لانفسهم وحدهم حقاً الهياً يخولهم التداخل في حكم الدول ، وهكذا اعان هذا المذهب السياسي على نشأة الدولة المستقلة عن سلطة الكنيسة السياسية . واعان ايضاً على خلق الدول الموحدة بتركيز السلطة حول شخص الملك ، صاحب الحق الالهى دون غيره من اقوياء الاشرف والاسياذ الاقطاعيين الذين كانوا يطمحون الى الاحتفاظ بسلطاتهم المطلقة ، ليكون كل منهم في اقطاعه اشبه بدولة في نطاق الدولة . فالملكية المطلقة وحق الملوك الالهى كانا ضروريين في دور من ادوار التقدم التاريخي لما طرحت مشكلة السلطة بين الباباوات من جهة والملوك والاباطرة من جهة اخرى ، ثم بين الملوك والاباطرة من جهة واشرف الاقطاعات من جهة اخرى . على ان الملكية المطلقة وحق الملوك الالهى اصبحا عائقين في طريق التقدم لما اقبل الدور التاريخي الذي طرحت فيه مشكلة السلطة العليا بين الملك او الامبراطور من جهة ، والشعب والامة من جهة اخرى ، فكان الملك او الامبراطور يستند الى « مشيئة الله » في حصر السيادة بنفسه ، بينما يستند الشعب الى العقل وموجب الاحكام الطبيعية وانبثاق السلطة من الامة وضرورة التقيد بالدستور .

ومركز تكوينها مادياً ومعنوياً . وهنا يذكر المؤرخون اعلام الفكر الذين سبقوا الثورة بمن عرفوا بـ « الفلاسفة » و « الانسكلوبيديين » و « الاقتصاديين » او « الفيزيوكرات » و « البلاتوقراط » وسنفرد لهم فصلاً خاصاً . ويذكرون ايضاً نهضة الطبقة الثالثة « Tiers Etat » وهي الطبقة المملوكة النشطة : طبقة الفلاحين اصحاب العقارات الصغيرة وسكان المدن ^(٦) التجار والمصنعين ، مع من يلحق بهم من المثقفين ولا سيما المحامين .

والطبقة الثالثة هذه هي الطبقة الوسطى ، لانها كانت في مركز وسط بين طبقتي الاشراف والاكليروس ^(٧) والطبقة الرابعة المتشكلة من افقر فقراء الريف والمدينة الذين يمشون من العمل في ارض لا تخصهم أو في محترف لا يملكونه . ولعل احداً لم ينطق بلسان الطبقة الثالثة فيمثل وضعها وطموحها ، كما فعل الاب « سنيه » اذ قال في أحد كرايسه : « ما هي الطبقة الثالثة ، هي كل شيء ! ماذا كانت حتى الآن ؟ لا شيء ! ماذا تريد ان تكون ؟ شيئاً ! »

ولا يغفل مؤرخو الثورة ان يذكروا ايضاً ، في تمهيدهم ، اثر العوامل الخارجية التي مثلت دورها في التشجيع على هذا الانقلاب الكبير كالثورة الانكليزية ^(٨)

٣ (Les Bourgeois)

٤ (وهوؤلاء في حكم الطبقة الواحدة قوة ونفوذاً .
٥ (يقصد بالثورة الانكليزية الحركة التي ظهرت طلائعها في « استدعاء الحقوق » الذي رفعه البرلمان الانكليزي سنة ١٦٢٨ الى الملك شارل الاول يطلب منه ان يكف عن فرض الضرائب واستيفائها بغير موافقة المجلس وينهاه عن اقامة المحاكم العرفية ابان السلم ، وعن اسكان جنوده في منازل الرعايا بالقوة القاهرة . وكان هذا الاستدعاء مبنياً على الماغنا كارتا « Magna Carta » التي انتزعها الاشراف من الملك يوحنا سنة ١٢١٥ ، فرضخ شارل الاول مرغماً ، ولكنه حل البرلمان في السنة التالية واستبد بالسلطة . وطالت المشادة المكبوتة بينه وبين البرلمان والشعب ، حتى انفجرت المقاومة علناً اذ رفض احد الانكليز « جون هامبدن » سنة ١٦٤٠ ، ان يدفع ضريبة السفن ، فاعتقل وحوكم . غير انه لم يحكم عليه الا باكثرية ضئيلة من القضاة . وصادف ذلك اشتداد الخلاف بين شارل الاول والاسكتلنديين ، فوجد ان لا بد من دعوة البرلمان الى الانعقاد بعد ١١ سنة من حله ، وهكذا انتأم البرلمان الانكليزي المعروف بالطويل سنة ١٦٤٠ ، وكان اول ما صنعه ان

والثورة الاستقلالية الاميركية (٦) .

ومن هذا التمهيد ينتقل المؤرخون الى الحوادث التي كانت مقدمة للثورة ، فيذكرون الانهيار المالي الذي بات يهدد الخزينة ويضغط على الملك حتى لم يبق له مناص من التماس المخرج العاجل . ويذكرون كيف استشاط الرأي العام غب انتشار تقرير الوزير « نكر » ، وهو التقرير الذي فصح فيه سنة ١٨٧١ تضعف المالية

رفع الى الملك عريضة حادة اللهجة سميت عريضة التوبيخ الكبير « Grand Remons-trance » ، وفيها طلب جديد بان يكون الملك ووزرائه مسؤولين امام البرلمان . فلم يلبث الامر ان ادى الى شوب النضال المسلح سنة ١٦٤٢ ، فتمت الغلبة للثورة وزعيمها كرومويل ، وحكم على شارل الاول بالاعدام سنة ١٦٤٩ ، واعلنت الجمهورية الانكليزية باسم « Commonwealh » ، ويقول احد المؤرخين الضعيفي النظر ، وهو يقصد المزاح ، ان الانكليز يومئذ حرفوا الصلاة الربانية ، فبدلا من « ليأت ملكوتك » اصبحوا يدعون « لتأت جمهوريتك » .

وقد حاول الملك جيمز الاول ، بعد رجوع العرش الى انكلترا ، ان يبعث السلطة الملكية المطلقة فاضطر الى الحرب سنة ١٦٨٨ . واصدر البرلمان الانكليزي عريضة جديدة اكد فيها حقوق الامة والقيود التي يقيدها الملك . ويظهر ان ذلك كان فصل الخطاب بين العرش ومجلس النواب في انكلترا .

(٦) وهي الثورة التي بدأت سنة ١٧٧٣ ، لما صعد جمهور من الشباب الحائج ، في مدينة بوسطن ، الى مركب من مراكب شركة الهند الشرقية الانكليزية يحمل شايًا فقذفوا بحمولته الى البحر ونشروا الشعار : لا ضرائب بلا تمثيل ! فاخذت الحوادث تتطور بين المستعمرات الاميركية وانكلترا حتى اتسع نطاق الثورة بتولي « واشنطن » القيادة وعلان بيان الاستقلال الاميركي ، هذا البيان الذي كان اشبه بمقدمة لبيان حقوق الانسان في الثورة الفرنسية الكبرى . وقد كان للفرنسيين يد معروفة في ثورة اميركا ، وكان القائد الفرنسي « لافاييت » من اعوان الاميركيين في ساحات القتال . ولما سقط الباستيل سنة ١٧٨٩ بعث « لافاييت » بفاتيحه الى الجنرال واشنطن . اما التمهيد الفكري الذي سبق ثورة الولايات المتحدة ، فيحمل طابعاً واضحاً من اثر الفلاسفة الفرنسيين . وليس يحتاج الى ذكر ان الثورة الفرنسية صادفت قابلية فكرية في اميركا اكبر منها في بريطانيا ، بل كانت حافزا لمعركة من المعارك الذهنية العنيفة الشهيرة في التاريخ ، بين ادمند برك الانكليزي ، مؤلف « خواطر في الثورة الفرنسية » ، ونوم باين الاميركي ، صاحب المؤلف الطائر الصيت « حقوق الانسان » .

واسراف البلاط . ويذكرون الخيبة التي اصطدم بها الوزير « كالون » في حملته الاعيان « Les Notables » على القبول ببرنامج اصلاحه لتعديل الاساءات « Les Abus » في الاوضاع القائمة .

ثم يذكر المؤرخون كيف رضي الملك بالانعقاد لمجلس باريس - اهم المجالس الفرنسية - الموافقة على عقد قرض ، ولكن المجلس ابى ان يتحمل التبعة وحده وجعل انشاء القروض والضرائب من خصائص البلاد الممثلة في مجالسها . ويذكرون كيف فكرت المجالس بالانعقاد ، وطلب دورة عامة تلتئم فيها جميعاً فتبحث في طرق الاصلاح ووسائله . ويذكرون كيف اقدم مجلس اقليم « الدوفينه » على الانعقاد بنفسه في تموز سنة ١٧٨٨ ، فوجد الملك ان لا مناص له مما تتطلب البلاد ، فوافق في شهر آب على دورة عامة تعقدها المجالس جميعها في فرساي في الخامس من شهر ايار سنة ١٧٨٩ .

وهنا يذكر المؤرخون كيف انصرفت طبقات الامة : الاشراف والاكايروس والطبقة الثالثة ، كل الى اختيار نوابها الذين سيمثلونها في فرساي . ويذكرون كيف انعمت المراقبة واطلقت الحريات لمناسبة الانتخابات ، وكيف اقبلت « الطبقة الثالثة » بنوم من الكرايس « Cahiers » تعين وجهة نظرها في الاصلاحات المنشودة . وكانت هذه الطبقة ، بالاستناد الى كثرة (٩٧ بالمئة من الامة) صريحة في طلب عدد من الممثلين لها يساوي مجموع ممثلي الطبقتين الاخرين : الاشراف والاكايروس . وكانت كذلك صريحة في طلب اجتماع النواب كلهم هيئة واحدة ، وفي طلب التصويت بالافراد لا بالطبقة ، ثم في طلب دستور وطني يقيد « السلطة المطلقة التي هي منبع الشرور النازلة بالدولة » على تعبير احد الكرايس . ومن هنا يتقدم المؤرخون الى ذكر انعقاد المجالس في دورة عامة ، في الموعد المضروب ، اي في ٥ ايار سنة ١٧٨٩ . ولم تكن هذه المجالس قد انعقدت في دورة عامة منذ سنة ١٦١٤ ، ايام الملك القاصر لويس الثالث عشر وامه الوصية على العرش ماري المديتشي . وكان ممثلو الطبقة الثالثة لم ينسوا كيف زل احدهم الفكر العربي الحديث

— يومذاك — فقال : « نحن أبناء أسرة واحدة ، الاشراف هم الاخوة الكبار ونحن الاخوة الصغار . » فعلى دم نبيل من النبلاء و « رقص » عليه عصاه جزاء وفقاً لهذه الالهانة . وكانوا ايضاً لم ينسوا كلمات روبير ميرون اذ قال : « الملك هو السيد ، ولكن شرط ان يحكم الحكم الصالح ، فالشعب لا يلبث ان يدرك ان الجندي ليس الا فلاحاً يحمل السلاح ! » فلم يطل الوقت حتى وفد النواب مرة الى قاعة الاجتماع فوجدوها مقفلة ، وقال لهم قائل : لقد احتاج اليها البلاط الملكي لحفلة رقص تقام قريباً ! فعادوا ادراجهم وانطوت القضية .

اجل ، يذكر مؤرخو الثورة الفرنسية كيف ان نواب الطبقة الثالثة كانوا في سنة ١٧٨٩ عازمين على ان لا تنطوي القضية كما انطوت سنة ١٦١٤ . وبدأت المشادة العنيفة الحادة . واصر ممثلو الطبقة الثالثة على ان تكون الجلسات مشتركة بين النواب جميعهم حتى لا يجتمع ممثلو كل طبقة على حدة . واصرروا على طلب التصويت فرداً فرداً ، لا طبقة طبقة . وكان قد سبق لهم ان نجحوا في ارسال عدد من النواب يساوي نواب الطبقتين الاخرين^(٢) ، وهكذا بات في امكانهم احراز الاكثية في الجلسات ، لانهم كانوا يتوقعون ايضاً ان تنحاز اليهم فئة الاشراف الصغار والاكليروس الفقراء ، كما حصل فعلاً فيما بعد .

ولم تطل المشادة حتى اعلن ممثلو الطبقة الثالثة تشكيل « الجمعية الوطنية » في ١٧ حزيران سنة ١٧٨٩ . فكانت تلك خطوة جريئة اسفرت عن هيئة من النواب الوطنيين تمثل اكثرية الامة وتتكلم باسم الوطن وتستند الى ارادة الامة التي تعتبر من حقها اثبات وجودها . فالجمعية الوطنية هي اول برلمان فرنسي بالمعنى الحديث .

ونوى الملك ان يكرر ما وقع سنة ١٦١٤ الا ان الجمعية الوطنية ردت عليه بالقسم المشهور الذي اقسمته في بهو « جي دي بوم » Jeu de Paume وفيه تعهد النواب « بالاجتماع مهما تكن الاحوال والظروف الى ان يصكوا دستوراً للبلاد ! » وفي ٢٣ حزيران سنة ١٧٨٩ ، عقدت دورة عامة حضرها الملك وممثلو الطبقات ، فاسفرت عن غضب الملك وانسحابه من الجلسة تتبعه غالبية الاشراف . على ان قسماً

كبيراً من الاكليروس ، وفئة من الاشراف انفسهم ، لبشوا مع ممثلي الطبقة الثالثة .
وفي هذه الجلسة صرخ ميرابو كلمته التاريخية : « نحن هنا بارادة الشعب ولا نخرج
الا بقوة الحراب ! » وكانت كلمته تلك موجهة الى رسول الملك الذي اقبل يأمر
النواب بالانفضاض .

فاتضح عندئذ ان كل لجوء من الملك الى استعمال القوة ضد النواب سيعني لجوء
النواب والشعب الى المقاومة . وطرحت على بساط التاريخ الفرنسي مسألة طالما طرحت
في حياة الشعوب : أهى السلطة المطلقة التي تحكم ام ارادة الجماعة ؟
كان اذ ذاك في متناول الملك عدد من الجنود الحراس . ولكن هؤلاء كانوا من
ابناء الشعب الباريسي . فهل يطيعونه اذا امرهم بطرد النواب ؟ وكان في متناوله
ايضاً عدد من احيالة الاشراف . ولكن الاحرار (الليبرال) من الاشراف امثال
« لافاييت » افهموا ابناء طبقتهم انهم اذا شرعوا سلاحهم على المجلس قابلوهم بالسلاح .
فوقف الملك موقف الخذر من اتخاذ تدبير غير مأمون العواقب . وفي ٢٧ حزيران سنة
١٧٨٩ اقر جميع مطالب الاكثية من النواب .

وأعلنت الجمعية الوطنية نفسها جمعية دستورية ايضاً في ٩ تموز .
وهنا يذكر مؤرخو الثورة كيف ان الملك ومعظم البلاطيين لم يكونوا ليرضوا
عن تطور الحوادث ، بل لم يكن في نيتهم الرضوخ لها الا انهم تراجعوا ريثما يهيئون
القوة التي بها يردون الضربة بجيش يصح الاعتماد عليه .
واتجهت الجمعية الوطنية الى حشد التأييد الشعبي . وصرف الملك وزيره « زكر »
من الخدمة في ١١ تموز ، لانه حمّله قسماً من المسؤولية عن تطور الحوادث المزعجة ،
فبات الشعب الباريسي يتحدث عن عزل « الوزير الوطني » .
وطفقت جماهير الشعب تظهر على مسرح الحوادث في شوارع باريس ، عنيفة
غاضبة . وبعض المؤرخين ينعنونها بالعمى « Multitude Aveugle » ^(٨) ، فاذا صح
هذا كان غريباً ان ترى هذه الجماهير « العمياء » طريقها الى الباستيل ، في ١٤ تموز
سنة ١٧٨٩ ، فتهدمه ويصبح هذا التاريخ حداً فاصلاً انتهى عنده « النظام القديم »

وعيداً وطنياً تعيده الامة الفرنسية . ومهما يكن من شيء ، فان الجماهير « العمياء » ادركت فوراً معنى طوائف الجنود الاجنبية التي يحشدھا الملك بين فرساي وباريس ، وفهمت مغزى جواب الملك للجمعية الوطنية لما طلب منه النواب صرف الجنود ، فأجابهم : انطلقوا الى « نوايون » او « سواسون » فاعقدوا اجتماعاتكم . فما كان من الجماهير الا ان انطلقت الى Hôtel de Ville فشككت فيه مجلساً بلدياً Commune^٩ . يحكمهم باريس ، والى Hôtel des Invalides فاستوت على الاسلحة ، وألفت الحرس الوطني بقيادة لافاييت ، واتخذت شارة الالوان الثلاثة وشعار الحرية والاخاء والمساواة ، وافتتحت الباستيل .

ومؤرخو الثورة الفرنسية مجمعون على ان سقوط هذه القلعة كان حادثاً (رمزياً) من اعظم حوادث الثورة . ولويس السادس عشر لم يدرك تمام الادراك انه امام ثورة الا لما بلغه احد الدوقات نبأ سقوط القلعة هاتفاً : انه لعصيان ! فاجابه لويس : بل انها لثورة ! وايقن ان الجمعية الوطنية قد اكتسحت الموقف فرأى ان يتحاشى وقتياً صدم ارادته بارادتها .

وكان تشكيل المجلس البلدي الباريسي في Hôtel de Ville والاستيلاء على الاسلحة وتأليف الحرس الوطني والهجوم على الباستيل صيغاً وقوالب للعمل سبقت اليها مدينة باريس فلم تلبث ان حذت حذوها فرنسا كلها . ولعل العالم لا يعرف بلاداً كفرنسا يكاد يكون تاريخها الحديث ، على الاخص ، تاريخ عاصمتها . « ان باريس تجبر فرنسا وراءها . »

وهنا يذكر المؤرخون كيف لم يلبث الهيجان ان سرى الى الاقاليم ، فكانت فترة الهلع الكبير « La Grande Peur » وطلق المزارعون وطوائف الفقراء المتشردين يهاجمون قصور الاشراف واملاك الكنيسة الواسعة ، ويمرقون صكوك الامتيازات الاقطاعية ، ويقومون باعمال العنف . فحاول الحرس الوطني وجنود الملك ان يقمعوهم ولكن بلا جدوى .

(٩) ترجمتها الحرفية : العامة ، وهذا الاسم سماها الفلاحون اللبنايون في انتفاضاتهم على مشايخ الاقطاعية في القرن التاسع عشر .

وكان معنى هذا ان طبقة من المجتمع ظهرت في ميدان العمل الشوري ظهوراً جدياً ، نقصد بها الطبقة الرابعة « Quatrième Etat » . ورأت الجمعية الوطنية ان سقوط الباستيل وان يكن قد صفى حساب النظام القديم من الجهة السياسية فما زالت مشكلة اجتماعية تتعلق بالنظام القديم لا بد من تصفيتها ايضاً . فالتأم النواب في الليلة التاريخية المشهورة بليلة ٤ آب سنة ١٧٨٩ ، فالغوا الامتيازات والحقوق الاقطاعية . وكثيرون من الاشراف والاكليروس اعلنوا تنازلهم عن حقوقهم وامتيازاتهم ، اما نجاراف الحماسة ودافع الاقتناع ، واما بعامل الخوف .

ومن ثم انصرف نواب الجمعية الوطنية ، في شهر آب ، الى اخراج بيان مبدئي يبررون به الانقلاب الذي احدثوه في الحياة الفرنسية . وهكذا اخرجوا للناس نشرة « حقوق الانسان » الشهيرة ، (وقد اثبتناها في صدر من هذا الكتاب) . ومن يقرأها يشعر بما كان للثورة الانكليزية والاميركية ، ولمفكري القرن الثامن عشر من اثر قوي فيها . ويمكن تلخيصها بالنقاط التالية : السيادة للامة ، تساوي الناس في الحقوق والواجبات العامة ، حق الناس في الحرية الفردية والطبعية والكلامية ، حق الناس في الامن على املاكهم ، حق الناس في اختيار العقيدة الدينية واتباعها . . .

وبدا كأن الحركة الانقلابية قد بلغت ذروتها . ولكن بقاء الملك في فرساي ، وغلاء الغذاء ، واجتماع اجناد جديدة الى قصر الملك ، كل ذلك جعل الشعب غير مطمئن على سلامة الاصلاحات والانتصارات التي احرزها .

فرحفت ، في ٥ تشرين الاول ، جبهة غفيرة من النساء المسالحات يتبعها لافايت والحرس الوطني ، الى فرساي . فانتقل الملك بعائلته الى قصر التويليري في باريس حيث باتت الجمعية الوطنية تعقد اجتماعاتها ايضاً .

وعقبت فترة من هدوء . وعيدت فرنسا عيد ١٤ تموز لأول مرة ، وهو اليوم الذي هدم فيه الباستيل . فحضر العيد ممثلون للحرس الوطني اقبلوا من جميع اقاليم فرنسا . واقام هيكلا للوطن ، واقسم لافايت قائد الحرس الوطني بين الولاة للدستور والقانون والملك ، ثم اقسم الملك - الذي حضر العيد ايضاً - بين الولاة للدستور . وعرف هذا العيد بعيد الاتحاد Fête de la Fédération واصبح الفرنسي بعده

لا يتحدث الا عن « امة فرنسية » ، وكان من قبل يقال مثلاً : الامة البريتونية او البروفنسية تبعاً لاسم الاقليم .

وهنا يذكر مؤرخو الثورة كيف ان الملك لويس السادس عشر لم يستطع ان يوطن نفسه على مسايرة الوضع الجديد ، فاخذ ينسج نسجاً ويحبك حبكاً في الخفاء ، وأمل ان يوقع خلافاً في صفوف الجمعية الوطنية من ناحية ، ^(١٠) وان يستعين من ناحية اخرى بتدخل الملوك ، ولا سيما نسييه ملك النمسا . ومن المؤرخين من يحبون ان يزيلوا عنه هذه التهم ، ليحملوها امرأته ماري انطوانيت . وهما يكن من امر ، فالواقع ان الملك هرب مثكراً الى فارين ، في حزيران سنة ١٧٩١ ، وهو ينوي ان يقود جيش المركيز دي بوييه « de Bouillé » الى باريس لقمع فورانها . على ان العيون كشفتته ، فأعيد مخفوراً الى العاصمة . وواقفته الجمعية الوطنية عن ممارسة سلطاته وقتياً . وتشدد الحزب الجمهوري . الا ان اكثية النواب كانوا لا يزالون ملكيين ، فلما انتشبت مظاهرة في الشان دي مارس « Champs de Mars » تنادي بالجمهورية ، فرقتها الجمعية الوطنية بالقوة .

عند هذا الحد يقف مؤرخو الثورة وثمة ، ليلخصوا اعمال الجمعية الوطنية الدستورية . لقد اعطت هذه الجمعية فرنسا دستوراً هو المعروف بدستور سنة ١٧٩١ (صيغ بالتدريج فلم يكتمل الا في هذا العام مع ان البدء به كان سنة ١٧٨٩) . ومؤدى هذا الدستور انه يجعل نظام الحكم في فرنسا ملكية مقيدة ، ويمنح الملك

(١٠) يقال ان لويس السادس عشر كانت له علاقات مريبة بميرابو . وفي عهد الموءقر الوطني « La Convention » ، تقدم عامل الى وزير الداخلية فأخبره ان الملك كان قد كلفه عمل خزانة مخفية داخل جدار في قصر الثويلري . فهرع الوزير الى القصر وكشف مكان الخزانة وفتحها ، فاذا فيها اوراق تفصح علائق بين البلاط وميرابو ، وبين البلاط والوزير النمسوي مترنيخ ، والقائد ديورييه الذي انحاز الى جانب النمسيين ، وبارناف وروساء الاشراف والأكابروس المهاجرين . ومن المؤرخين من يقول ان ذلك كان ترويراً يقصد به التمهيد لمحاكمة الملك السجين واعدامه . ومن المؤرخين من يقول ان هذا يفسر هرب الملك بعد موت ميرابو ، اي بعد ان نئس من معونة داخلية واصبحت كل آماله معلقة على المدد الخارجي .

- سلطات واسعة كحق وقف التنفيذ لأجل « Veto Suspensif » واختيار وزرائه وقادته . الا ان على الملك الخضوع للقانون . وهو ليس ملك فرنسا بل ملك الفرنسيين ^(١٢) والفرنسيون ليسوا رعية « Sujets » ولكنهم مواطنون « citoyens » . فوضع الملك في الدولة شبه بوضع موظف اول وراثي . والقوانين تسنها هيئة نيابية هي الجمعية التشريعية . والسلطات ثلاث : التشريعية والقضائية والتنفيذية . اما التنفيذية فمعظمها بيد الملك . واما التشريعية فللجمعية المسماة بهذا الاسم (او للبرلمان المنتخب) ، ويجري الانتخاب على درجتين ، ولا يصوت الا من يدفعون ثلاثة فرنكات ضرائب ^(١٣) على الاقل (حوالي ٣٠ او ٤٠ فرنكاً اليوم) . وهؤلاء هم المواطنون العاملون « Citoyens Actifs » تمييزاً لهم من المواطنين غير العاملين ، اي الذين لا يملكون ما يدفعون عليه ضرائب . وقد احتج روبسبيين وماراه ، عضوا نادي اليعاقة ، على هذا التدبير الذي يخالف اعلان حقوق الانسان ، ويجرد نحواً من ثلاثة ملايين ناخب من حق الانتخاب ، مسيئاً بذلك الى السيادة الوطنية المنبثقة من الامة . واما السلطة القضائية فجعلت لمحاكم نظمت تنظيمياً جديداً ، يرأسها قضاة كلهم منتخبون . وقسمت الجمعية الوطنية فرنسا تقسيماً جديداً الى مناطق فما دونها ، فسهلت ادارتها ، وجعلت هيئات الادارة انتخابية .
- وسنت للاكليروس دستوراً مدنياً خاصاً ، فمنهم من لم يرض به فسميت فئته الاكليروس المخالف « Réfractaire » ومنهم من قبل به فسميت فئته الاكليروس الدستوري . وكان جل هؤلاء من الفقراء والهابطين في سلم الرتب الكهنوتية ، فاستولوا على الابشيات والكنائس .
- وانتهى دور الجمعية الوطنية ففسحت المجال للجمعية التشريعية ، عملاً بالدستور ، في ٣٠ ايلول سنة ١٧٩١ .
- (١١) اذا وافقت ، على قرار ما ، ثلاثة برلمانات متعاقبة ، اصبح القرار نافذاً بغير تصديق من الملك .
- (١٢) للططاوي تعليق على هذا التفريق في التسمية ، انظره في النصوص المختارة للططاوي في هذا الكتاب .
- (١٣) جعلت الضرائب على اساس الاملاك وسميت « مساهمات » Contributions .

ولكن فرنسا كانت اذ ذاك في خطر من الحرب والمداخلة الاجنبية ، اذ ان مارك اوروبا - وعلى رأسهم امبراطور النمسا - شاؤوا ان يفرضوا ارادتهم على البلاد « الخارجة » فاعلنوا « تصريح بلنتر » الشهير . وايدهم في ذلك نفر من كبار البلاد والاكليروس ممن لم تعجبهم الاصلاحات ، فغادروا فرنسا ليستعينوا بالاجانب على احداث ردة ، واحتشدت منهم فرق في « كوبلنز » ليكونوا طليعة جيوش التدخل الاجنبية .

ويقبل المؤرخون على عهد الجمعية التشريعية ، فيذكرون اعلان الحرب على النمسا في ٢٠ نيسان سنة ١٧٩٢ . وكان اعلان الحرب حقاً من حقوق الملك ، بموجب الدستور . ويقول بعض المؤرخين انه لم يترث في اعلانها لاعتقاده ان المقاومة الفرنسية سريعا ما تنهار ، فيقتضي على النظام الجديد . ثم يذكر المؤرخون كيف اصيبت الجيوش الفرنسية المنظمة حديثاً ، بهزائم كبيرة . ويذكرون كيف اكثر الملك من استعمال حقه في ال « Veto » ، وكيف تظاهر الباريسيون لدى قصر التويلري حيث يقيم الملك . ولكن لويس السادس عشر ، بعد الهزائم العسكرية التي منيت بها الجيوش الفرنسية ، قويت آماله بإمكان احداث الردة ، فتحصن في قصره واستعان بالحرس السويسري للدفاع عن نفسه ضد الشعب الهائج ، بينما حث المتدخلين على اجتياح فرنسا والاسراع لنجدته . فاعلنت الجمعية التشريعية ان الوطن في خطر . فخرج المتطوعون الى الصفوف ، واذاع « دوق برونشفيك » قائد الجيش البروسي الذي حالف النمساويين ، انه سيدمر باريس اذا هاجم الشعب قصر التويلري . فاستقر ذلك الباريسيون بدلا من ترويعهم . فاقاموا « عامية للعصيان الثوري في « الاوتيل دي فيل » ، واندفعوا الى محاصرة قصر الملك بغية افتتاحه . واجتذتهم كتائب من الجماهير زاحقة من مرسيليا وهي تنشد « المارسييلياز » الذي اصبح نشيد الثورة ونشيد فرنسا الوطني ^(١٤) وتغلب الثائرون على الحرس واستولوا على القصر في ١٠ آب سنة

(١٤) ناظمه روجيه ده ليل ، وهو ضابط فرنسي كان في جيش الران لما اعلنت الحرب على النمسا ، وقد نظم ذات ليلة في منزل شيخ ستراسبورغ ثم طبعه باسم اغنية حرب لجيش الران . فلما اقبل ثوار مرسيليا على باريس وهم ينشدونه اطلق عليه اسم المارسييلياز .

١٧٩٢ . فلجأ الملك وعائلته الى الجمعية ، فأودع قصر التامبل وهو سجين . وهكذا
الغيت الملكية عملياً ، وان لم تلغ نظرياً . واقامت الجمعية حكومة مؤقتة من اعضائها
دانتون ، وامرت باجراء انتخابات جديدة لتقوم جمعية جديدة على اساس الاقتراع
العالم ، ^(١٥) « Suffrage Universel » لتقوم جمعية جديدة تعدل الدستور اذا رأت
ذلك مناسباً ^(١٦) .

وكان ايلول . والجيش البروسي المتدخل يزحف على باريس بعد ان استولى على
فردان . فأحس الشعب بدنو معركة حاسمة . فاشتد استعداداه ، ومثل « ماراه »
دوراً عظيماً في استنهاض الهمم . واكثر المؤرخين يستفزعون هذه المذابح ، مذابح
ايلول . ويحتفلون انها جرفت عدداً كبيراً من الابرياء . ولكن قصد الشعب منها كان
تطهير مؤخرته من العناصر التي يمكن ان تكون عوناً للعدو المهاجم بطعنة تطعنها في
الظهر . على ان العدو لم يستطع الوصول الى باريس لان الجيش الفرنسي الجديد بقيادة
ديورييه وكلمان (ولاسيا هذا الاخير) هزمهم في فالمي في ٢٠ ايلول سنة ١٧٩٢ .
ويقال ان فالمي لم تكن معركة هائلة بجوادثها العسكرية ، الا انها كانت عظيمة
بمدى تأثيرها التاريخي . والصيحة التي ملأت افواه الفرنسيين : « لتحي الامة ! »
ذهبت بعيداً في اوروبا والعالم . وهتف غوته ليلة المعركة : من هذا المكان ، ومن
هذا اليوم ، تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ الدنيا .

وانتهى اجل الجمعية التشريعية في النهار الذي وقعت فيه معركة فالمي . وحل
محلها المؤتمر الوطني « La Convention » . وكان اول ما صنع ان اعلن
الجمهورية الفرنسية الاولى في ٢٢ ايلول سنة ١٧٩٢ ، وجعل هذا الحادث تاريخياً يؤرخ
منه وغير اسماء الشهور واصطنع تقوياً جديداً .

وهنا يذكر المؤرخون التشكيل الحزبي الذي تألف منه المؤتمر الوطني . ففي اليمين

(١٥) يستثنى النساء . وكان للثورة (فرنسية موقف من القضية النسائية لخصه احد
كتابنا الاستاذ محمد جميل يهم في فصل موجز اثبتناه مع نصوص هذا الكتاب .

(١٦) يلاحظ ان اطلاق الحق العام في الاقتراع كان بذاته تعديلاً للدستور ، اتخذته
الجمعية التشريعية لتريد في حاسة الشعب واشتراكه في الاعمال الدفاعية عن الوطن .

كان حزب الجيرونديين (نسبة الى الجيروندي ^(١٧)) وزعيمهم بريسو ، ومنهم فرنسيو وكوندورسيه ومدام رولان التي جعلت من بيتها نادياً لهم . وكان الجيرونديون يتوجسون من اعمال الشعب ويخشون نفوذ عامية باريس . وكان من رأيهم ان تتخذ الجمهورية الفرنسية المنوي اعلانها صيغة اتحادية « *Fédérative* » كالولايات المتحدة الاميركية .

والي شمال المؤتمر كان حزب الجبل ، يجلس نوابه على مرتقى في القاعة ، وهم من اليعاقبة والكرادلة (نسبة الى النادي اليقوي ونادي الكرادلة *Cordeliers*) ومن اعلامهم روبسبير ودانتون وماراه وهييت وكاميل ديولان . وكان اهم الاعضاء في احد الناديين أعضاء في الآخر . الا ان الكرادلة كانت تغلب عليهم خطبة تطرف مقرر سلفاً ، وكانوا احياناً يتهجون نهج « المزد العلي » في طلب التدابير والاصلاحات وينادون بما يسمونه « الثورة الى النهاية » . ولكن نادي الكرادلة لم يشتهر كاشتهار نادي اليعاقبة الذي تألف اولاً من نواب مقاطعة بريتانيا فسمي النادي البريتاني . ثم لما استقر النواب في باريس استأجر دير اليعاقبة مكاناً لاجتماعاته فنسب اليه ونشأت له فروع في جهات فرنسا بلغت الاربعماية . وكان يعتمد على هذه الفروع في تقوية نفوذه . ويستند الى تأييد عامية باريس والتدخل الشعبي . اما الصيغة الاتحادية للجمهورية فكان يقاومها ويقول : « ان الجمهورية وحدة لا تتجزأ » .

وفي وسط المؤتمر كان حزب السهل وهو الذي يقوم بدور الترجيح في التصويت . وكان اكثر ما يصوت للجيرونديين قبل سقوطهم .

اعلان المؤتمر الوطني للجمهورية ، ولم يلبث ان اخرج الملك السجين من محبسه فحاكمه وقضى عليه بالاعدام . فقدم الى المقصلة في ٢٠ كانون الثاني سنة ١٧٩٣ . اما التهم الموجهة اليه فكانت المؤامرة على الحرية العامة ، والاتصال بالاجانب ، وتعريض الوطن للغزو الاجنبي ، وسفك دم الفرنسيين . وكان آخر ما وجهه اليه رئيس المحكمة في استنطاقه ، هذا الكلام : لقد احدثت سفك دم فرنسي في ١٠

(١٧) مقاطعة في الجنوب الغربي من فرنسا ، قاعدتها مدينة بوردو .

آب^(١٨) فبِمَ تجيب ؟ وبين مؤرخي الثورة والكتاب عنها جدل طويل حول قضية اعدام الملك^(١٩) .

اما في ساحات القتال ، فقد احزمت الجيوش الفرنسية ، في طليعة عهد المؤتمر ، انتصاراً كمل حلقة فالمي ، فقهرت النمساويين في جاماب (٥ تشرين الثاني سنة ١٧٩٢) وطردتهم من البلجيك ، وضمت كونتية نيس ، ودخلت اقليم السافوا الذي قرر الالتحاق بالجمهورية الفرنسية بعد القضاء على النظام القديم فيه .

ولكن فرنسا لم تلبث ان وجدت نفسها مطوقة ، فقد هبت عليها اوروبا من النمسا الى روسيا الى انكلترا الى اسبانيا . ومن هذه الدول من كانت تحشى اتساع النفوذ الفرنسي ، ومنها من كانت تحشى عدوى المبادئ لاسيا بعد اعدام الملك^(٢٠) وانضم الى هذا التحالف العام ضد فرنسا هولانده وامراء ايطاليا .

وشجع هذا التحالف الخارجي انتفاضاً داخلياً ملكياً في اقليم الفانديه (Vendée) ، فلم يستطع المؤتمر ان يجمع تلك الثورة الا بعد عراك شديد دام حتى تشرين الاول سنة ١٧٩٣ . واصابت الجيوش الفرنسية هزائم في البلجيك فاضطرت الى الجلاء عنها . وبانت ارض فرنسا وهي عرضة للغزو والاجتياح من جهات عدة .

ويذكر المؤرخون في هذه المرحلة كيف قامت عامية باريس باكبر دور مثله حتى الان في الثورة ، اذ حاصرت المؤتمر ، بقيادة هنريو ، وحملته على اعتقال اعضائه من « الجيرونديين » متهمة اياهم بالتساهل في مصلحة الوطن ، وبالمواطاة للقائد ديوربييه الذي خان وانضم الى النمساويين . ومنذ ٢ حزيران سنة ١٧٩٣ انحصرت السلطة في حزب الجبل واليعاقبة . فثار اتباع الجيرونديين ، وبدا كأن الجمهورية الفرنسية الاولى لن يتيسر انقاذها بسبب التمزق الداخلي والضغط الخارجي . ولكن المؤتمر اقام لجنة الانقاذ

(١٨) آب هو يوم حصار التويلري ، والمعركة بين الحرس السويسري والشعب .

(١٩) وفي الادوار التي عاد فيها الملكيون الى نفوذهم في فرنسا استحدثوا من هذا الاعداد قحمة وجوهها الى قتل الملك « Les Régicides » ، فطاردهم ونفوا كثيرين ، واقاموا « الارهاب الابيض » « La Terreur Blanche » .

(٢٠) قال احد زعماء الثوار يصف أثر اعدام الملك : « في هذا اليوم لمس متوجو

اوروبا رؤوسهم يقتبئون من بقائها بين اكتافهم . »

العامية « Comité de Salut Publique » مؤلفة من اثني عشر عضواً ، وهي اللجنة التي وضع روبسبير يده على دفتها فسيرها في اعصاب الاوقات . وبعض مؤرخي الثورة يتفل على اليد الروبسية ، وبعضهم ينصرف الى المفاضلة بينه وبين دانتون . والواضح ان مصير الثورة بل مصير فرنسا كان اذ ذاك معلقاً بشعرة . وكان الوضع يقتضي - اولاً - كفاحاً لا هوادة فيه ضد « ميمنة » الجيروندي التي دفع بها اخراجها من السلطة الى احضان الرجعية النافذة والى استخدام الاغتيال ، كما ظهر من قتل الفتاة الجيروندي ، شارلوت كورداي ، لما راه احد اعلام الثورة الشعبين . وكان الوضع يقتضي - ثانياً - كفاحاً لا هوادة فيه ضد « اليسرة » لا تعرف حداً تقف عنده ، يسكرها النجاح وتصر على استفزازات تقضي التأييد عن الثورة ، كما تبين من تطرف شوميت الى « الغاء الدين » و « عبادة العقل » في شخص امرأة حسناء
نَنْصَبْ اَهِلًا ! (٢١)

تجاه هذا الوضع كان لا بد من ارادة فولاذية بصيرة تقبض على دفعة السلطة فتعين هدف البلاد الرئيسي ، أي : انقاذ الوطن ، وانقاذ الثورة بجشد قوة الشعب وتضيي الوسائل من اسلحة وغيرها لسحق الاعداء في الداخل ، وضربهم في الخارج . ولقد وجد الشعب الفرنسي يومذاك ، هذه الارادة الفولاذية ، في روبسبير ولقبه « المعصوم من الفساد » (L'incorruptible) .

بدأ روبسبير واعوانه تنظيم الجيوش الجديدة ، واشرفوا على تنشيط انتاج العتاد والذخيرة ، وهبأوا الاموال بتصرف الاملاك المصادرة ، وأقاموا المحكمة الثورية « Tribunal Révolutionnaire » فارسلوا الكثيرين الى المقصلة . والمؤرخون يعترفون بان هذا العهد انقذ فرنسا والثورة من سحق تلم ، وكشف الستار عن حيوية في الشعب ادهشت العالم .

(٢١) وكانت احدى ممثلات الاوبرا هي المرأة التي وقع عليها الاختيار الأول لتمثل « العقل » وتصبح معبودة الناس ! وقد ادرك روبسبير ، فوراً ، خطر مثل هذه النظرفات الخرقاء ، وكان رجلاً ينحو في معتقده الديني منحى روسو وفريق الريابيين Déistes وهم يؤمنون بالله ، على انه المنبع الاصلي ، ولكنهم يبنون الدين على العقل واعتبار الطبيعة .

ومن السهل جداً على مؤرخ ان يفرد حادثة اعدام واحدة مثلاً فيقول ويقول الى ان ينتهي بالحكم القاضي على روبسبير « الدموي » وعلى عهد « الارهاب الصغير والكبير » . ولكن التاريخ لا يحكم على جل كروبسبير وعهده بهذا الاسلوب (٢٢) . وفي هذه المرحلة برز قواد فرنسيون مبدعون كالقائد كارنو « منظم النصر » ومنظم غضب الشعب عسكرياً (٢٣) ، والقائد هوش ، ومارسو ، وجوردان الخ . فجزروا الارض الفرنسية من سطو الجيوش الاجنبية التي كانت تدق على ابواب الوطن ، وهي اوفر عدداً واحسن عدة . وقعوا ، كذلك ، الحركات الداخلية واهمها ثورة الفاندية الملكية . ثم ما لبثوا ان دفعوا القوات الفرنسية الى خارج بلادهم فسحق جوردان النمسيين في معركة فلوريس سنة ١٧٩٤ ، واحتل الباجيك ، واستولى الفرنسيون على هولندا واسطولها ، وتقدموا الى الشاطئ الايسر من نهر الران .

وفي الوقت الذي اصبحت فيه ارض فرنسا في مأمن من الغزو تبين لفريق كبير ان لجنة الانقاذ العامة وسيطرة روبسبير لم يبق لها ضرورة . فسقط روبسبير في ٩ ترميدور من السنة الثانية لتأسيس الجمهورية (٢٧ تموز سنة ١٧٩٤) وسبق الى المقصلة مع سان جوست وكوتون ، ولم تستطع عامية باريس ان تحشد من القوة ما ينقذ الرجل ، ذلك لان الحاجة اليه والى عهده انقضت في رأي فئات كثيرة من الناس . وتبين ايضاً بعد المعاهدات التي عقدتها فرنسا المنتصرة مع دول اوربا سنة ١٧٩٥ ان المؤتمر الوطني نفسه لم تبق اليه حاجة ، فانفض في ٢٦ ت ١ سنة ١٧٩٥ . ولم يقتصر عمل المؤتمر على الكفاح العنيف في الداخل والخارج ، بل صك دستور سنة ١٧٩٥ (دستور السنة الثالثة حسب التقويم الجمهوري) وهو القانون الاساسي الذي استهدف تنظيم الجمهورية الفرنسية الاولى فأودع السلطة التنفيذية ايدي خمسة مديرين ، واقام لجاناً محل الوزارات ، وجعل المجلس النيابي قسامين : القدماء (او الشيوخ) (٢٢) للرياني مقال في نقد كتاب كارليل عن الثورة الفرنسية ، راجعه في نصوص هذا الكتاب ، ففيه ما يتعلق بهذه القضية .

(٢٣) كان كارنو يقول : يجب ان ننظم غضب الشعب عسكرياً . وهذا يعني ان الشعوب في ثوراتها تعطي مادة لجيوش لا تقهر . ولكن لا بد مع ذلك من خلق جهاز عسكري نظامي .

« Les Anciens » ومجلس الخمائة ، وقضى على آخر بقية باقية من الحقوق الاقطاعية ، وأمر بنص مجموعة قوانين « Code » واحدة للبلاد كلها ، وبدأ يحول جهده نحو تسوية المشاكل المالية واولها الدين العام الناشئ عن نفقات الحرب . واهتم المؤتمر بالثقافة العالية والعامة اهتماماً جدياً مشمراً ، فقرر التعليم الابتدائي العلماني اجبارياً ، وانشأ المدارس المركزية للتهذيب الثانوي ، الا انه لم يوفق الى استكمال الهدف المنشود ، واسس مدرسة بوليتكنيك « Polytechnique » ودار المعلمين ومدرسة « مارس » للضباط . واقام المجمع الوطني للعلماء « Institut National » ومتحف التاريخ الطبيعي ، وجدد كلية فرنسا و « دار الوثائق الوطنية » للمستندات التاريخية « Archives Nationales » ، وادخل القاعدة المترية في المقاييس والمكاييل ، وهي أوفق مصطلح من نوعه . وهناك ناحية من اعمال المؤتمر الوطني يحب السكوت عنها كثير من المؤرخين ، وبسير منهم من يذكرها ، الا وهي ناحية العلاقة بين الدولة المركزية ومستعمرات فرنسا القليلة اذ ذاك .

كان معظم سكان هذه المستعمرات من العبيد الارقاء ، فلما وصلتهم طلائع انباء الثورة املوا خيراً ، وتهايأوا لاستقبال عهد جديد تقوم فيه العلاقة بينهم وبين الدولة المركزية على اساس جديد . ولم يلبث اعلام الثورة ان وجدوا انفسهم في وضع حرج . فهم امام تعاليم الفلاسفة الذين يستوحونهم ومبادئ حقوق الانسان لا يستطيعون ان ينكروا على العبيد واهل المستعمرات حقوقهم ، الا انهم (الكثيرين منهم) انما قصدوا بهذه المبادئ الانسانية المطلقة ان تكون سلاحاً ضد ذوي الامتيازات في الداخل . اما أن يستعمل العبيد واهل المستعمرات تلك المبادئ سلاحاً حقوقياً يتقنون به ، فهذه مسألة اخرى . وانشق اعلام الثورة الى اقسام : قسم يرفض مطالب المستعمرات والعبيد ، وقسم يتردد ، وقسم يرى من الضروري الاعتراف بهذه المطالب وفقاً لشعارات الثورة . فلما كان عهد المؤتمر الوطني ، عمل روبسبير على الغاء الرق بغير تحفظ ^(٢٤) وهو لا يبالي بما اتهم به من تضييع الحقوق المسماة « حقوق فرنسا » (٢٤) وقع هذا الصدد بين روبسبير ودانتون خلاف في وجهة النظر تشير اليه لانه

أي : حقوق تجار الرقيق وكبار اهل الجاليات . وكانت النتيجة عجيبة . اذ ان بييد المستعمرات وابناء الشعب من الجاليات الفرنسية انتظموا في صفوف واحدة ودافعوا بمؤازرة رسل « الكونفانسيون » عن ارض المستعمرات دفاعاً رائعاً طرد جيوش التدخل الاجنبية واعوانهم من تجار الرقيق وكبار اهل الجاليات ، وابقوا هذه الارض تابعة لفرنسا التي اصبحت لهم وطناً اماً حقيقياً بعد تطبيق قوانينها الثورية عليهم وعلى الفرنسيين سواء بسواء . وفي هذا العهد برز الزعيم الاسود الكبير توسان لوفرتير ، فانشأ في سان دومنغ كلها حكومة حرة في نطاق الكيان الفرنسي ، (بعد ان طرد الاسبان من قسمهم في الجزيرة) .

وابدى هو واعوانه العبيد من الكفاءة ما نقض الزعم القائل بان العبيد لا قدرة لهم على مماشة التمدن وخلقه ، وبالتالي نقض كل زعم يقول بضرورة سيطرة عرق بشري على عرق . وكذلك ايدت تدابير المؤتمر الوطني الرأي القائل بان اعتراف الشعوب بعضها بحقوق بعض ، يقرب بينها ولا يبعد .

ولا جدال في ان المؤتمر الوطني الفرنسي يحتل اجراً صفحة ، وأبكر صفحة ، في تاريخ الغاء الرق وتحرير العبيد . ومعظم الاهتمام بقضية الرق والعبيد كان من قبل مصروفاً الى ارشاد الاسياد وترقيق قلوبهم ، او الى منع الاتجار بالاسود

يكشف عن تفاوت بين الرجلين في عمق الادراك الثوري . فقد اقترح داتون ان تسلم فرنسا بعض مستعمراتها الى الولايات المتحدة . واعتبر ذلك ضرباً من « المهارة السياسية » يشغل بريطانيا بمشادة مع الولايات المتحدة . ولكن روبسيير رفض هذا الاقتراح لسببين : اولهما - ان الشعوب ليست بضائع تتداولها الحكومات ، وثانيهما - ان انصاف الشعوب التابعة لـ « الوطن الأم » يقوي مركز « الوطن الأم » تقوية عظيمة . وجاءت الحوادث مؤيدة وجهة نظر روبسيير . وكثيرون ينعنون هذا التأثير الكبير بانسان « خطفته المبادئ » . ويزعمون انه قال : « لتهلك المستعمرات ولا ينقض مبدأ واحد » . والصحيح انه قال : « لن نضحى من اجل (مصالح) الجاليات الاستعمارية بالامة ولا بالمستعمرات ولا بالانسانية جمعاء ! » والفرق بين القولين واضح . ولما جاء دور نابوليون قضى على « توسان لوفرتير » وحركته في سان دومنغ ، وهو يظن انه هذه الخطأ اغا يؤمن حقوق فرنسا والتصاق البلاد بها . غير ان الوقائع نسفت ظنه . فلما لبثت المعاملة السيئة التي ذاقتها سان دومنغ ان دفعتها الى الانفصال الكلي .

« المساكين » (٢٥) .

على انها صفحة مجيدة ، المؤتمر الوطني ، لم يطل امدها . فان الرجعة النابليونية طوتها . ونابليون هو صاحب الكلمة « الرق شر ضروري » . ويمكن القول بان خطوة المؤتمر الوطني تلك لم تقع بعدها حتى اليوم خطوة تاريخية تعادها جرأة في الدول التي تتعلق بها قضية عبيد ارقاء (٢٦) .

وهناك ناحية اخرى يجب اكثر مؤرخي الثورة السكوت عنها اذ يتحدثون عن المؤتمر الوطني ، وهي : ناحية التموين وتأمين الاعاشة ، في وقت من اوقات الحرب كان عصياً جداً على فرنسا . ولم يقف روبسبيير عند حد في كبح جماح الذين لا يرون في الظروف العسوية الا فرصة للانتفاع الخاص . وكثير من الحملة على العهد الروبسييري

(٢٥) ومعلوم ان روح المبادئ المسيحية صرف تستنكر الاستعباد والاسترقاق . كما ان مبادئ الاسلام صرف تدعو الى معاملة الرقيق بالانسانية وتجعل « تحرير الرقبة » من اعمال الزلفى والتكفير المبرورة . على ان اعلام المسيحية الاول لم يجدوا انفسهم في دور تاريخي يثير مسألة الغاء الرقيق اشارة جدية . فبرروا الرق ، او سكتوا عنه ، او اخذوه مأخذ الشيء الطبيعي (الضروري) كما فعل قبلهم افلاطون وارسطو . يقول القديس اغسطينوس : « ان العبودية شيء واقع بقضاء من الله لاجل الخطيئة . وليست العبودية في نظر الله جريمة على الاطلاق » (من كتاب : مدينة الله ، لاغسطينوس ، السفر التاسع عشر) . وما ينطبق على اعلام المسيحية من هذا القيل ينطبق في موءداه على اعلام الاسلام . ولكن لما اثبت مسألة الغاء الرقيق ، مع سير التاريخ وتقدم المدنية ، كانت المبادئ الدينية ، المسيحية والاسلامية ، من اثبت نقاط الارتكاز التي استند اليها دعاة تحرير العبيد . وفي باب « نصوص مختارة » من هذا الكتاب فصل طريف لحسين باشا ناظر المعارف التونسية ، وجهه الى قنصل الولايات المتحدة في تونس بشأن الرقيق ، وكانت الحرب اذ ذاك مستعرة بين الولايات الاميركية الشمالية والجنوبية حول قضية العبيد .

راجع الفصل ، وتأمل الحادثة التي يذكر حسين باشا انها وقعت لرجل اسود مع رجل اميركي في الاوبرا بباريس .

(٢٦) صحيح ان الولايات المتحدة حررت العبيد ، ولكنها لم تعطهم وطناً خاصاً ، فلبثوا اشبه بالغرباء في مجتمع تعوقهم فيه حواجز نفسية ولونية تعرضهم للمهانة واحياناً لاقسى الاضطهادات ، كاعمال « اللشنغ » وهستيريا « الكلوكلوكس كلان » في ولايات الجنوب على الاخص .

يرجع الى ذكريات مزعجة تركها هذا العهد لجوعي الشعب ، فخافوا ان تصبح خطته سنة تنمّع .

وبعد عهد المؤتمر الوطني يقبل المؤرخون على عهد الادارة « Le Directoire » ، وهي حكومة جمهورية الصيغة قامت على قواعد دستور سنة ١٧٩٥ . ولا يغفل المؤرخون ان يذكروا ان هذه الحكومة سبقها عهد الردة الترميدورية ، على اثر اعدام روبسبير . فعادت الى ميدان العمل عناصر ملكية (وجيرونديّة ايضاً) همها الانتقام للامس واحداث المصائب والمتاعب املا بالرجعة . ومن المؤرخين من يذهب الى ان ترميدور ، وازالة روبسبير ، جاءا قبل الاوان ، فتركا من الاثر والنفوذ للعناصر المعادية للثورة او المتردة فيها . ما جعل حياة فرنسا السياسية عرضة لدفع وجذب داخلين قويين . والذي لا شك فيه ان حكومة الادارة ظهرت قاصرة عن ان تعالج المشاكل التي جابهتها ، فقد وجدت امامها الديون المالبية الناشئة عن نفقات الحرب ، ورأت تأزم التفاوت الاقتصادي بين طبقات الشعب . وكان في اعضائها فاسدون مرتشون ^(٢٧) بعيديون عن النظافة الخلقية التي تجسّمت في اليقوي الكبير روبسبير . وكثرت خروق الحكومة للدستور ^(٢٨) واشتد حنق الشعب واستنكاره لحالة بؤسه ، بينما تنصرف الهيئات الميسورة من المجتمع الى حياة متعة واسراف اوغلت فيها بعد عهد التقنين الروبسبييري والصوفية الثورية . وتكثرت فقراء الشعب في باريس حول غراكوس بابوف ، وطالبوا بالمساواة الاقتصادية مع المساواة الحقوقية فقمعتهم الحكومة ، كما انها اصطدمت بالملكيين ، واتضح انها في الداخل بين ضغطين شديدين من اليسار واليمين . وهكذا طرحت على بساط الضرورة مسألة حكم عسكري يؤمن للطبقة التي قادت الثورة في الاصل (اي : الطبقة الوسطى Tiers Etat) هدوءاً داخلياً ، ويدفع

(٢٧) امثال باراس الذي اراد الانكليز شراؤه بعشرة ملايين ، فطلب المزيد .

(٢٨) نقصد بها Coups d'Etats . ولعل تعريب هذه الكلمة الحرفي هو الفلّة (بالمعنى السياسي) . وقد قال عمر بن الخطاب ان مبايعة ابي بكر كانت « فلّة » ، ويعني بذلك انها ارتجلت بضغط من الظروف ، ولم تكن وفق الاصل سنة وقرآنًا . والسنة والقرآن هما (سياسياً) اشبه بالدستور في الخلافة الاسلامية .

بفرنسا في طريق التوسع الاستعماري . فكان نابليون قنصلاً رئيسياً ، أول الامر ، بعد رجوعه من الحملة على مصر ، وتلك هي « الفتنة » المعروفة بـ ١٨ برير (سنة ١٧٩٩) ، ثم أصبح نابليون امبراطوراً متوجاً موروثاً سنة ١٨٠٤ ، فانهى عهد الجمهورية الاولى رسمياً .

والمؤرخون يرون عادة في العهد النابليوني رجعة كلية عن مبادئ الثورة . ولا شك ان نابليون كان النتيجة المنتظرة للرجعة التي بدأت بتاسع ترميدور واعدام روبسبير . ولكنها رجعة نسبية ، فنابليون ظل يحمل مبادئ تقدمية حتى آخر عهده ، وان اختلفت ادوار حياته من هذا القليل .

ان بونابرت وهو ابن الثورة الذي خرج من رحمها ، وترعرع في حضنها ، قد حمل شيئاً عميقاً من طابعها . ولا شك ان سيرته ، لا سيما بعد اعلان نفسه امبراطوراً ، عملت على تعطيل كثير من ثمرات الثورة . وهذا ناتج من صعوبة التوفيق بين الامانة لروح الثورة واتباع سياسة توسعية باتت تريدها الهيئة التي يمثل نابليون مصالحها بعد ان ضمنت لنفسها سيطرة في الداخل . ولكن الرجل ، في القانون المدني الشهير ، بنى على التشكيل الجديد الذي تشكل به المجتمع الفرنسي نتيجة الثورة . وحمل في فتوحاته كثيراً من بذور المبادئ الثورية بقصد منه او بجمتمية تاريخية . فلقد دفع باوروبا في طريق اليقظة الوطنية والاصلاح ، سواء أراد ذلك ام لم يرد . وصحيح ان الامبراطور نابليون لم يأمر بالاصلاحات التي ادخلها فون شتاين ، مثلاً ، على نظام بروسيا فاستقلت هذه الدولة ونهضت ودرجت في مدارج الشوكة والقوة . ولكن فون شتاين وجماعته لم يكن ليفوتهم ان نهضة فرنسا التي استند اليها نابليون نشأت من الثورة واصلاحاتها . ولذلك اتجهوا نحو الثورة الفرنسية لاستيحاءها ورفع مستوى شعوبهم ^(٢٩) .

(٢٩) فون شتاين هو الوزير الذي قال لملك بروسيا لما اراده على تنظيم جيش لمحاربة نابليون : « كيف يمكنني دعوة ابناء الشعب الى الدفاع عن وطن لا يملكون شبرا من ارضه ، وحقوقهم فيه معطلة ؟ » (كانت بروسيا لا يزال غالباً عليها النظام الاقطاعي) . وطلب « فون شتاين » من ملكه تحرير الاقنان ، وتحسين احوال الفلاحين ، واطلاق كثير من الحقوق الاجتماعية والسياسية للامة . فاجابه الملك الى مطلبه . فكان ان هبت بروسيا في وجه نابليون

والدليل على ان الرجعة النابليونية لم تكن هي الرجعة الكبيرة ، ان مؤتمر فيينا الذي اشرف على تنظيم اوربا كان من اعظم همه محو المبادئ الجديدة ، أي : المبادئ الثورية التي ساعد نابليون على نشرها . فالرجعة الحقيقية هي رجعة مؤتمر فيينا سنة ١٨١٤ بعد سقوط نابليون النهائي . وكان مترنيخ الوزير النمساوي الموهل في كره الثورة ومبادئها يصفها بـ « الوحش الفاجر فكيه لابتلاع النظام الاجتماعي » . واذا ذكرت ايطاليا التي سار بها نابليون شوطاً بعيداً نحو تشكيل « وطن » وتأليف « امة » يقول « ايطاليا اصطلاح جغرافي ! » وهو يقصد بذلك الغاء حقها في تشكيل وطن وتأليف امة .

ولكن من قوايين التاريخ ان الرجعة العامة يستحيل ان يثبت امرها . ولقد اصبحت امور بعد الثورة الفرنسية مستحيلة في العالم . ومن هنا لم يلبث مترنيخ ان وجد نفسه مضطراً الى الهرب من احدى نوافذ قصره في فيينا خوفاً من الجماهير الصاخبة في الشارع . ان مبادئ الثورة لاحقته في عاصمة بلاده وطردته منها . ومن هنا لم يستطع مؤتمر فيينا ان يحل المشكلة التي اثارها الثورة الفرنسية ، فكان تاريخ اوربا في القرن التاسع عشر (ويمكن ان نقول تاريخ العالم كله تقريباً) نزاعاً بين الروح السارية المنبثقة من ثورة فرنسا وروح مؤتمر فيينا . ولا يزال التاريخ اليوم الى حد كبير مظهرًا من مظاهر هذا النزاع .

فبالطبع ان مؤرخ الثورة الفرنسية الكبرى لا يستطيع ، ولو اقتصر على التاريخ الفرنسي وحده ، ان يقف عند انتهاء العهد النابليوني . فان هذه الثورة التي اوجدت الوطن الفرنسي والوطنية الفرنسية بالمدنى العصري ، واعطت فرنسا تقاليد في العمل السياسي ونظام الحكم ، ظلت موضوع تأمر من قبل الجمعية . وقد عقبها في التاريخ الفرنسي ثورات كانت لها اشبه بلاحق قصيرة كثورة الثلاثة الايام المجيدة « Les Trois Glorieuses » سنة ١٨٣٠ ضد شارل العاشر ووزيره بولنيك ، وثورة ١٨٤٨ ضد الملك لويس فيليب وهي الثورة التي افتتحت عهد « الجمهورية الثانية » .

واحرزت استقلالها بعد ان خسرت في معاهدة تليز سنة ١٨٠٧ . وكان « جنايزناو » ، وهو واحد السكسونيين الذين لجأوا الى بروسيا ، يقول : ان السبب في بلوغ فرنسا هذه

ولما استقرت الجمهورية الفرنسية الاخيرة - وهي الثالثة - كانت مرتكزة الى قواعد من ثورة ١٧٨٩ وتواليها ^(٣٠) .
وهنا يخرج بنا الحديث الى ذكر المجاري التي تسربت خلالها مبادئ الثورة وافكار اعلامها ووصف وقائعها الى الشرق والبلاد العربية والأدب العربي .

الدرجة من المنعة والسلطان هو ان الثورة نهبت فيها جميع القوى الاجتماعية ، وما اكثر القوى الكامنة في حياة الامم . وكم في نفوس آلاف الرجال من عبقرية ومواهب تخمدها الظروف الخارجية وتمتها من الظهور . وقد حركت الثورة الفرنسية عند الشعب الفرنسي القوة القومية بجذافها . . . فيجب ان نسير على مثالها وان نوجه القوة الوطنية في تمامها ضد القوى الاجنبية الفاصية (نطق جنائزناو بهذا الكلام سنة ١٨٠٧ ، بعد عقد معاهدة تازيت على اثر انتصارات نابليون المتوالية) .

(٣٠) في فرنسا ثورة أخرى هي ثورة عامية باريس سنة ١٨٧١ ، على اثر هزيمة نابليون الثالث في الحرب الفرنسية الالمانية . وهي ثورة تمت بصلات قوية الى ثورة سنة ١٧٨٩ ، ولكن غلب عليها الهدف العالمي الاشتراكي شأن محاولة « بابوف » في عهد حكومة الادارة ، مع الاحتفاظ طبعاً بفارق الطور التاريخي .

الفكر وعامله في الثورة

الثورات الهائلة التي اجرت الدماء كالمسواقي ، وجعلت الحرية تعبد كالألهة ، كانت فكراً خيالياً مرتعساً بين تلافيف دماغ رجل فرد عائش بين الوف الرجال (١) - جبران خليل جبران في « الاجنحة المتكسرة » .
ان الزرد انما هو صوت واحد ينطق باسم ملايين من الناس الصامتين ، فالرجل العظيم انما هو عظيم بشعبه لا بنفسه . هو يستمد معظم قوته مما يحيط به من الاشياء والظروف وانرجال . - أمين الريحاني في مقاله ينتقد تاريخ « كارليل » عن الثورة الفرنسية .

اما ان الفكر كانت له يد في ايقاد الثورة الفرنسية ، فذلك ما لا يضعه مؤرخ

(١) جماعة الفكر مبالون في الاغلب الى تحميل انفسهم كل مسؤولية الانقلابات والاصلاحات . والذي نراه ان الفكر الاصلاحي فيما يتعلق ببعض الاحداث الاجتماعية يختلف شأنه ، فانه ما تتفق له تجريدات وايالات في المثل تنقطع به - في بعض النواحي - بعيداً عن عصره ، وقد ترجع به احياناً عنه ، فلا يخرج عن نطاق الاحلام والرؤى ، ويقتصر تأثيره في احسن الحالات على ايقاد الشوق الفامض الى ما « يجب ان يكون » اطلاقاً ، فيظل تطبيق محتواه واخراجه الى حيز الفعل متمسراً بل متمذراً . ومن الفكر ما ينظر الى الواقع فيلمس فيه عناصره التي تشيخ وتنحط ، وعناصره التي تنمو وتنض ، فيركز مذهبه الاصلاحي على العوامل النامية في الواقع حوله ، ويطمح لا الى « ما يجب ان يكون » اطلاقاً بل الى « ما يمكن ان يكون » بالنسبة الى وسائل التحقيق التي هيأها وجهيها له الوضع والتطور التاريخي . والفكر الاصلاحي يقوم بأعظم أدواره اذ يعي العناصر الشائخة التي تسير في طريق الاضمحلال ، ويعي العناصر الجديدة النامية ، فيحالف الجديد على الباقي ، وبذلك يصبح سبباً من الاسباب المحركة - لا الاسباب كلها ! - مهما يكن مهماً . والاحداث الاجتماعية لا تقع بمجرد ان مفكراً او جماعة من المفكرين ذهبوا اليها ، بل تقع لان القدم « الأب » الذي ترعرع في حضنه الجديد شاخ بحيث بات تنحيه للجديد « الابن » ضرورة تلح وتنضبط بتقل الجماهير التي تحركها في المجتمع .
على ان الفكر - اذ يفكر - قل ان يتخلل تفكيره عامل الوعي والادراك لمعنى عمله

موضع الشك والجدال . وقد كان للفكر ولا يزال ، اثره الكبير في احداث الانقلابات من عنيفة سريعة او سلمية بطيئة .

اجتماعياً وتاريخياً . ولذلك كثيراً ما نجد في المفكر - اديباً كان او شاعراً او فيلسوفاً - مزيجاً من التفكير « الطوبى » الخيالي حول « ما يجب ان يكون » اطلاقاً والتفكير حول « ما يمكن ان يكون » نسبة الى الوضع التاريخي . بل كثيراً ما نجد في المفكر الواحد مزيجاً مما يخدم القديم ومما يخدم الجديد ، لان المفكر قل ان يسائل نفسه من يخدم اجتماعياً وتاريخياً بعمله ، بل هو قد يظن نفسه ينهض بشيء ، فتكون النتيجة غير ما ظن وما نوى . كان لوثر ، مثلاً ، ينعى العقل باقبح النعوت : « مومس الشيطان » ، « عروس الشيطان » ، « اعدى اعداء الله » الخ . . . ومع ذلك فان الاصلاح الذي كان لوثر رأس دعائه في الكنيسة خدم العقل وحق العقل في المحاكمة والبحث الحر . وعلى هذا يكون للتاريخ منطق غير منطق الأفراد ، واردة الافراد .

ومن التأثيرات في تكوين المفكر ما تخفى عليه وتعمل فيه عملها صامتة وهو غير شاعر بها . ومن هنا كان رأي المفكر في نفسه ، كراي كل انسان ، لا يصح الاعتماد عليه في حالات كثيرة .

وقد يتفق ان يكون تفكير المفكر غير صحيح كل الصحة ، من حيث الحقيقة التاريخية او العلمية ، ثم لا ينعمه ذلك من ان يؤثر أثره اذا استطاع ان يتناول الجماهير ويحركها . فالهم في قيمة الفكر - بصفته مؤثراً تاريخياً - هو ان تقبله الجماهير وتعمل به . ولا شك ان الفكر ، كلما ازداد نصيبه من الصحة ، قبلته الجماهير مدى اطول وعمت به عملاً أنشط واثبت . وتلك فرضية روسو مثلاً عن « الحالة الطبيعية » « Etat de Nature » يغلب انما غير صحيحة من حيث الحقيقة التاريخية . على ان هذه الفرضية وما بنى عليها الفكر الفرنسي من قواعد في الحكم والسياسة وافقت مطالب الجماهير الفرنسية ووجدت سبيلها الى قلوبهم وعقولهم ، فتأثروا بها في ثورتهم الكبرى . ولما كان مغزى هذه الفرضية ومزماها صحيحاً في ضوء الاتجاه التاريخي وخدمة اغراضه كان البناء عليها اثبت وارسخ من البناء على افكار ونظريات كاتلي تدعيها النازية مثلاً . فبذ سنوات كان موسوليني وغوبلز يصيحان : ان عام ١٧٨٩ سيلغى من التاريخ . وعام ١٧٨٩ هو عام « حقوق الانسان » المرتكزة الى نظريات روسو وغيره من مماثليه . فبعد ان ثبتت هذه الحقوق دوراً تاريخياً طويلاً ، الى ان قام موسوليني وغوبلز يعلنان « انتهاءها » ، اقبلت هذه الحرب ، وقد بدأ التاريخ يقول فيها كلمته ، وهي : ان موسوليني وغوبلز نفسهما سيلغيان ، وسيظل عام ١٧٨٩ حجراً ضخماً اساسياً في بناء العالم الجديد .

هذه ملاحظات سريعة أجبنا ان يجعلها القارئ نصب ذهنه وهو يطالع هذا الفصل .

وغني عن البيان ان موضوع هذا الكتاب يستدعي فصلاً عن اعلام المفكرين الفرنسيين الذين سبقوا الثورة ، فكانت آراؤهم ومذاهبهم عاملاً من عوامل التمهيد لها ، ثم كانت اشبه بمصاييح درج على ضوءها كبار الثورة وقادتها . على ان المؤرخ حين يعرض لتأريخ الافكار يجد نفسه فوراً امام عقدة محيرة : من اين يبدأ ؟ فحقول الافكار الذي يحده زاهراً في دور من الادوار يجد منه بذوراً في عصور سبقتة حتى يمدى طويل احياناً ^(٢) .

وقد كان لنا معلم يستخف بنا كلما عاجلنا موضوعاً فبدأننا ببده العالم ، وقلنا في فاتحة الانشاء : خلق الله الدنيا ... على ان عملنا ، والحق يقال ، لم يكن خلوّاً من الحقيقة لان كل موضوع يكاد يبدأ تقريباً ببده العالم .

غير ان مؤرخي الثورة الفرنسية يركزون اهتمامهم حول دور الانقلاب العقلي الذي سبق الثورة في القرن الثامن عشر . كان هذا القرن دور نضج للافكار التي بزغت وتطورت وغلبت على اذهان اعلام الثقافة ، نتيجة لحركة الكشوف الجغرافية العلمية

(٢) والواقع ان هذا شأن التاريخ على عمومه . فكل حدث من احداثه يبدو كأن جميع ما سبقه مما له به ارتباط قريب مباشر ، او بعيد غير مباشر ، قد مهد له وجعله ممكن الحدوث بتأثير الفعل واحياناً بتأثير رد الفعل . والى هذا رعى الكاتب عباس محمود العقاد في قوله عن الثورة الفرنسية :

« ما الثورة الفرنسية لولا فتح الاندلس ، ولولا الحروب الصليبية ، ولولا سقوط القسطنطينية ، ولولا كشف القارة الاميركية ، ولولا الثورة في البلاد الانكليزية (ولا نعلم لماذا فاتته ذكر الثورة الاميركية ؟) بل ما الثورة الفرنسية لولا الاديان التي قررت لكل انسان من الناس « روحاً » يناط بها الخير والشر وتناط بها المكافأة والعقاب ، فقررت بذلك اساس « المسؤولية » الفردية واساس الحقوق والواجبات . وما الثورة الفرنسية لولا الاديان التي رفعت الفوارق بين الاقوياء والضعفاء ، بين الاغنياء والفقراء ، وبين السادة والعبيد ، فاقامت بذلك اقدم الاسس وادومها في بناء الحرية الديموقراطية ، وجعلت العمل الصالح والقوة على الخير مقياس التفرقة بين الاقدار والدرجات ؟ فالיום الرابع عشر من شهر يوليو (تموز) هو يوم من ايام الانسان في تواريخ الازمان . (من مقال للعقاد نشر في مجلة « الطليعة » في تموز سنة ١٩٣٩) .

التي بدأت في القرن الخامس عشر ^(٢) ، ونتيجةً لنهضة الأحياء « La Renaissance » التي ظهرت في القرن السادس عشر ^(٣) .

فحركة الكشوف الجغرافية ، وإن اقترنت بطامع في الكسب التجاري والنهب

(٣) في هذا القرن عثر « فاسكو داغاما » البرتغالي على طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ وعرف كولومبوس أوروبا بقارة أميركا الشمالية سنة ١٤٩٢ . ودار « ماجلان » حول الكرة الأرضية من سنة ١٥١٩ إلى ١٥٢٢ . وفي هذا القرن أيضاً شاع استعمال البارود في أوروبا واستخدام السلاح الناري . وكان البارود قد استعمل أولاً في أواسط القرن الرابع عشر سنة ١٣٤٦ في معركة كريسبي . وفي هذا القرن أيضاً اتقنت البوصلة فساعدت على اتقان الملاحة ويسرت أسفار المكتشفين وفوحاتهم . وكذلك تقدمت الآلة الطباعة تقدماً عظيماً على يد « غوتنبورغ » حتى نسب إليه اختراعها . واجيدت صناعة الورق . وغني عن البيان أن هذه الكشوف الجغرافية والمستنبطات العلمية كان لها أعظم أثر في نهضة أوروبا ومدنيها . فالبارود والسلاح الناري ، مثلاً ، كانا من أعظم وسائل هدم النظام الإقطاعي المحض إذ قضيا على تفوق النبلاء العسكري وجعلنا قلاعهم الحصينة أهدافاً ميسورة المنال وبذلك (إلى جانب العوامل الأخرى) أمكن نشوء الدولة المركزة حول عرش الملك وتثبيت نوع من وحدة للبلاد . وكانت البلاد من قبل أشبه بمجموعة من دول صغيرة ، يستقل بها الأمير الإقطاعي متحصناً بقلعته أو قلاعه ، لا يؤدي إلا خضوعاً اختيارياً للملك والدولة المركزية ، وكثيراً ما يشق عصا الطاعة .

ويلاحظ أن معظم المستنبطات التي كانت ضرورة حيوية لنهضة أوروبا انتقلت إلى الأوروبيين عن طريق العرب من الأندلس وشمال إفريقيا أو صقلية أو سوريا في عهد الصليبيين . فالبارود مادة قبس العرب صنعها من الصينيين ، وحسنوها لخدمة المقاصد الحربية ، إذ جعلوها أقوى وأشد انفجاراً . وكذلك البوصلة عرفها العرب من الصينيين وانتقلت إلى أوروبا عن طريقهم . والتأثير الذي تركته الأسفار العربية البحرية والرواد العرب على المكتشفين الأوروبيين كان كبيراً . ورحلة كولومبوس التي انتهت بكشف القارة الأميركية قد سبقتها محاولة عربية أندلسية لشق بحر الظلمات « الأتلنطيك » وإرتياد ما وراءه (راجعها في التاريخ الذي كتبه الدكتور فيليب حتي عن العرب بالانكليزية ، فصل ما حققته الحضارة العربية الأندلسية) . أما الورق فقد عرفه العرب من الصينيين أيام عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي الكبير . وبلغت في الأندلس صناعة القراطيس من القطن والحرق مبلغاً عظيماً .

(٤) إن ربط حركة الأحياء في أوروبا بالقرن السادس عشر - كما يفعل أكثر المؤرخين - فيه مجال للنظر . فالمفهوم بحركة الأحياء أنها الالتفات إلى الكلاسيكيات ولا سيما الإغريقية . والأندلس العربية بنوع خاص قد عنيت عناية راثية بمعظم نواحي التراث

وكانت مقدمة للاستعمار الحديث ، فقد صرفت نظر الانسان الاوروي الى الارض ، ودفعته نحو التفكير والبحث العلمي والاختراع . وحركة الاحياء بما بعثت من كنوز القديم اليوناني والروماني ، وبما احييت من المثل الكلاسيكية ، وبما استتقت من مناهل الحضارة العربية في الاندلس خاصة ، ايقظت الانسان الاوروي على تذوق الجمال الدنيوي وتلّس المعرفة العلمية وحب الاستقلال في البحث . فكان في اوربا موسم عظيم من اللوحات الفنية والرسامين ، ونتاج خصب من التأليف الفلسفي والادبي في اصول الفكر والخلق والتعامل الانساني ، يضاف الى ذلك فتوحات في الدراسات الفلكية والطبية والطبيعية على وجه عام . ولعل في الافق الاوروي اسماء كليوناردو دافنشي وغاليله ورابليه ومونتيني وسيرفنتس واراسم وكوبرنيك وفيزال الطيب وجيوردانو برونو : اسماء تلتفت الى القديم البعيد او القريب ، وتقترن بارسطو وابوقراط وابن رشد وابن سينا ، وتفتتح تلك القافلة المجيدة ، قافلة باكون وكبلر وديكرت وسبينوزا وليبنز ونيوتون وبسكال ورهط كبير من الادباء ، وتستمر متسلسلة في قافلة القرن الثامن عشر ، قافلة مونتسكيو وروسو وكزندياك وهيوم ولوك ولاميتري وآدم سميث وكسناي وفولتير وهلفيثيوس وديدرو وكوندورسه ودولباخ وغيرهم وغيرهم . . .

وحسبنا وفاء للغرض من هذا الكتاب ان نعيد القول ان حركة الاحياء ، مع ما ساوقها او تبعها من النهضة الصناعية في اوربا ، ومن حركة الانفصال البروتستنتي ، الثقافي اليوناني ، وذلك قبل القرن السادس عشر بكثير . واذا فرد حركة الاحياء في اوربا الى هذا القرن خطأ ، الا اذا اعتبرت اوربا منتهية عند جبال البرانس (البرنه) . وهذه المناسبة ، يجب القول ان خضرة الاحياء العظيمة في اوربا مدينة للعرب في الاندلس وشمالي افريقيا وصقلية حتى سوريا زمن التماس الصليبي بين الشرق والغرب . ولكن الدور الذي قامت به الاندلس العربية في هذا الشأن هو اعظم الادوار .

ويلبني لنا ايضاً ان لا ننسى اثر القسطنطينية قاعدة الامبراطورية البيزنطية في بعث حركة الاحياء الاوروبية . فلما احتل الاتراك العثمانيون هذه العاصمة سنة ١٤٥٣ تشردت منها طائفة كبيرة من علماء الاغريق والاغريقيات ، فاجأوا في الغالب الى ايطاليا ، وساعدت الحروب بين الامارات والدويلات الايطالية على تشريدهم في اوربا ، فبثوا معارفهم فيها واذاعوا ذكرى كثير من كنوز القديم اليوناني ، فكانت حركة بعث بلغ من قوتها ومداهها ان سماها المؤرخون « حركة الاحياء الصغيرة » توطئة للحركة الكبيرة .

قد شجعت روح البحث المستقل ووطدت الثقة بالعقل ووافقت نهضة علمية كبيرة ، وأسفرت عن تغيير عميق في نظر الانسان الى نفسه .

ومن المستغرب ان يكون علم منغل ، كعلم الفلك ، في طبيعة المعارف التي سادت الى مثل هذا التغيير بل الثورة . لقد بين علم الفلك ان كرة الارض ليست بمركز الكون الثابت ، ولا هي اعظم واهم ما في النظام الكوني ، بل هي جرم متحرك من جملة اجرام تدور حول الشمس الثابتة . فكانت النتيجة ان طراً على الانسان شك في انه هو الغاية من الوجود ، والوليد المدلل الذي صنع كل شيء لاجله بتدبير في اصل الخلق . وفكر الانسان انه - اذا كان حقاً غاية - فهو الذي جعل نفسه غاية . وانه في الواقع قد لا يزيد عن كائن بل حيوان صغير ، على كرة صغيرة ، في كون هائل عظيم ، له قوانينه الخاصة المستقلة عن مراعاة الخواطر البشرية . وربما استشعر الانسان في هذا ما يحمله على اليأس والقنوط وفقدان الثقة بالنفس ، كما وقع لـ « غوته » لما ادلع على كتاب « نظام الطبيعة » للبارون « دولباخ » ^(٥) . الا ان الانسان سرعان ما عرف ان لديه من العلم وسائل تشد عضده وتقويه على الطبيعة المحيطة به . وهكذا استعاد اهميته في نظر نفسه ولكن لا عن طريق انفراد به بتدبير عنائية سخّرت له مبدئياً كل شيء ، بل عن طريق شعوره الذاتي ببدى تأثيره وتأثير الوسائل التي يستطيع استنباطها واستخدامها . ومن هنا حول وجهه شطر العلم . ومن هنا ايضاً طفق يزداد اهتمام الانسان بالانسان في مطلع العصور الحديثة في التاريخ الاوروي . واهتمام الانسان بالانسان ادى حتماً الى الاهتمام بمسألة الاجتماع . ومن ذلك العهد بتنا نرى المفكرين في اوروبا منصرفين الى درس المجتمع ، تحتهم فكرة اساسية هي : ان الانسان يقوي الانسان ، أو ان الانسان - بعبارة اخرى - وسيلة للانسان . ودرس المجتمع قادهم الى درس الدولة والسياسة . ولكن مسألة ما لبثت ان عرضت ،

(٥) وهذه كلمات « غوته » لما قرأ الكتاب : شد ما احسنا بالفراغ والخواء ، في منتصف هذا « الليل » الموحش الذي انطمست فيه الارض وصورها والسماء ونجومها . فليس الا مادة تتحرك منذ الازل ، وتنشئ بحركتها هذه ، الى يمين ويسار وكل جهة ، مظاهر من الوجود لا عدد لها ، ولا شيء بعدها !

وهي : ان الانسان يجب ان لا ينسى ان الانسان غاية ايضاً ، لا وسيلة وحسب ! والمجتمع الصالح (والدولة الصالحة والسياسة الصالحة) لما هو الذي يكون فيه الناس جميعاً وسائل وغايات بعضهم لبعض ، باعتبار كل انسان له حقوق محترمة .

افاق المفكرون والادباء الفرنسيون (وهم موضوع الحديث في هذا الفصل) على المجتمع الفرنسي قبل الثورة في القرنين السابع عشر والثامن عشر فوجدوا ان معظم الفرنسيين ، من حيث وضعهم في المجتمع والدولة ومسالك السياسة ، انما هم وسائل لبعض الفرنسيين وليسوا غاية ايضاً كما يحق لهم ان يكونوا .

وعمد المفكرون والادباء الفرنسيون الى الاحتجاج على الحالة الراهنة ، وتلمس اسباب الفساد ووضع الخطط ورسم الهيئة للمجتمع الجديد .

وكان من اليقظة العظمى التي ثارت ثورتها مع حركة الاحياء ، والنهضة الصناعية ، وحركة الاصلاح البروتستنتي ، وفورة البحث والاستنباط العلمي ، مرجع يستمدون منه ودليل يسترشدون به .

وقد ذكرنا كيف ان هذه الحركات نشطت العلم وصرفت اليه الجهود ، والعلم صرح يرتكز على دعائم العقل ، فلا علم بلا عقل يختبر بالاستناد الى الحواس والادوات الفنية المساعدة لها ، ولا علم بلا عقل يرجع الى قوانين المحاكيات العقلية ، لا الى موجبات النقل والتقليد .

ثم لا علم بلا مباشرة الطبيعة . فالطبيعة بما فيها المخلوق الانساني هي ميدان العلم ومجاله الذي فيه يخوض . فلولا الطبيعة ل بقي العلم بلا موضوع او لما كان علم . وهكذا اتجه المفكرون والادباء الفرنسيون الى العقل يصقلونه ويتسلحون به ، والى الطبيعة يدرسونها ويتعلمون منها ، واستخدموا ذلك كله في بحث الاجتماع والدولة والسياسة ، وفتحوا الانظار على النقص الهائل ، واشتقوا طرقاً الى الاصلاح .

ولاريب انهم وجدوا لهم معيناً في المفكرين البريطانيين وغيرهم ، وفي الثورات التي سبقت عهدهم كثورة « البلدان المنخفضة » على فيليب الثاني لاسباني ، وثورة الانكليز ، ثم الثورة الاميركية القارية العهد ^(٦) .

(٦) سبق لنا تعليق على الثورتين الانكليزية والاميركية . أما ثورة « البلدان المنخفضة »

وبالطبع ان قسط كل من هؤلاء المفكرين والادباء في التهييء النفسي للثورة يختلف باختلاف نزعاتهم ودرجاتهم ، وكثيراً ما كانت ادوار بعضهم ، في هذا الصدد ، لا تتعدى هتفة عاطفية يهتفون بها او لغزاً كاللغم يخفي مظهره المموه قوته النافذة . وقد يقرأ قارىء خرافات « لافونتين » في القرن السابع عشر فلا يتنبه الى ما فيها من المغازي الاجتماعية والسياسية . ثم يقرأ كتاب « هيوليت تين » عن « لافونتين » فينشق له حجاب عالم الحيوان ، الذي يسمح فيه الشاعر ، عن عالم الانسان ، بل عن المجتمع الفرنسي في زمانه . ويشي القارىء في بهو مليء بالصور سماه « تين » معرض او متحف « لافونتين » « Galerie de La Fontaine » فيرى لوحات من المجتمع الفرنسي وسياسته معروضة في اشكال من عالم الحيوان ، ووقائع رمزية بين طيور وبهائم . وحكاية المؤتمر العجيب الذي اجتمعت فيه الحيوانات في وقت من اوقات الرباء لتبحث سبب النكبة ، ليست الا نقداً ثوريا لاذعاً سدده الشاعر الى الحالة الراهنة في فرنسا . وقد اسفر « المؤتمر » عن ان جميع الذنوب والاثام التي اقترفتها المخلوقات الصاعدة في سلم العجاوات كالاسد وجماعته (اي الملك وحاشيته والهيئات البلاطية) لم تكن السبب الذي جرّ النكبة ، ولكن قضم الحمار لبعض الحشيش من ساحة احدى الكنائس هو الذي جاب الويل والثبور وعظائم الامور ! وواضح ان ما عناه الشاعر بالحمار الكادح الساذج هو هيئات الشعب التي عليها الغرم ولغيرها الغنم ^(٧) .

Pays - Bas فهي التي وقعت سنة ١٥٨١ ، لما عقد الشعب الهولاندي اجتماعاً لبرلمان المؤلف من ممثلي الطبقة الوسطى في المدن ، ورؤساء الدين والاشراف . فما لبث ان استقل ممثلو الطبقة الوسطى بالرأي وخلعوا ملكهم فيليب الثاني الاسباني ، واعلنوا استقلالهم في شكل « جمهورية البلدان السبعة المنخفضة » وكانت لهم حجة جديدة مبدئية ، مقابل حجة « الحق الالهي » ، تقول : « ان الملك نقض ميثاقه ، فالملك يطرد من وظيفته كخدام غير أمين . »

(٧) تذكر امثال « لافونتين » بكلمة ودمنة التي نقلها ابن المقفع ايام الخليفة العباسي الثاني ابي جعفر المنصور ، وقد نقلت الى اللغة الفرنسية في القرون الوسطى ، من الاندلس العربية ، فاطلع عليها « لافونتين » بشهادته واعترافه . ولا شك انه تأثر بأسلوبها وطريقتها الرمزية في النقد السياسي والاجتماعي . والواقع ان محتوى كلمة ودمنة الثوري لم يبحث بعد بحثاً يستحق الذكر . الا انه ظاهر ملموس في امثال « كمثل النذل والقبرة » و « الارنب والاسد » و « الملك والطائر فترة » .

ولكننا اذا رحنا نتأمل التيار الثوري الفكري ، في القرن السابع عشر في فرنسا ، لم نجد لافونتين منعماً فيه انغمساً صريحاً ، وكان حتماً علينا ان ندير النظر شطر طائفة من الادباء والمفكرين يمثلها لابرويير وفنيلون .

كان لابرويير في ملاحظاته واحكامه الخلقية يرى في الناس فريقين : الشعب ، والعظماء . (بمعنى النفوذ والوجاهة في المجتمع) . « اما الشعب فلهم باطن طيب (جوهر صالح) وليس لهم مظهر البتة . واما العظماء فليس لهم الا الخارج ، الا المظهر وقشرة بسيطة . يجب الاختيار ؟ اني لا اوازن . اني اريد ان اكون شعباً ، » (اي من الشعب) .

وكان الاديب الراهب فنيلون مثلاً رائعاً من امثال الجرأة الفكرية . وفي المؤلفات التي انشأها تهذيباً للدوق دو بورغون ، ولا سيما في محاورات الاموات « Dialogues des Morts » تبدر على سن قلمه بدرات عجيبة لم تلبث ان ايدتها الوقائع في حياة فرنسا السياسية والاجتماعية . ففي فصل الحوار بين سولون وبيزيسترات (وكلاهما رجل دولة اغريقي) يقرر فنيلون ان الاستبداد غالباً ما يكون على الملوك اشد وبالا منه على الشعوب . وفي كتابه : « الواح شولن » « Tables de Chaulnes » يطالب - في احدى مواد البند الثاني - مطالبة صريحة بتأسيس المجالس العامة « Etats Généraux » هذه المجالس التي كان اجتماعها في باريس سنة ١٧٨٩ فاتحة المرحلة الثورية العظيمة . وله رسالة وجهها الى لويس الرابع عشر بلغت غاية في الجرأة والصراحة ، وشجبت سلوك هذا العاهل الذي صاح : « انا الدولة ! » وانفق ما انفق في المغامرات الحربية وشيد بلاط فرساي الرائع ، ولكن كأنه جعله واجهة براقعة لدولة تتأزم مشاكلها ، ولشعب يتماهل ويتهم . قال فنيلون في رسالته : « ان الشعب نفسه (ينبغي ان اوضح لك بكل شيء) ، هذا الشعب الذي احبك كثيراً ، ووثق بك كثيراً ، اخذ الان يفقد حبه وثقته واحترامه ، حتى احترامه لك . . . انه ممتلئ مرارة ويأساً ، والشقاق يشب شيئاً فشيئاً من كل ناحية . ان الشعب يعتقد انك لا تحب غير ساطتك ومجداك ، فهم يقولون : لو كان للملك قلب الاب على شعبه ، أما كان يؤثر ان يستخدم مجده في اعطائهم خبزاً وتنفيس

كربتهم بعد هذا الاذى الكثير ؟ ... فما جواب ذلك ايها السيد ؟ « ثم يذكر فنيون اعمال العصيان التي طفق الشعب يقوم بها ، الى أن يقول له : « فانت الان قد انخططت الى هذه النهاية المنيمة المحزنة ، فاما ان تدع العصيان وشأنه لا تعاقب عليه ، واما ان تريده وتقويه بتغاضيك عنه ، واما ان تجزر بقسوة شعباً طرحتهم مطرح اليأس اذ نزعته منهم ، عن طريق الضرائب لهذه الحرب ، خيراً يسعون الى احرازه بعرق جباههم ! »

وفي فنيون نجد مبدأ اعتبار العقل والرجوع اليه في الاحكام صريحاً واضحاً . يقول الراهب المفكر : « انا في هذا العالم لا ادري من اين جئت ولا كيف وقعت هنا . ولا ادري اين امضي . وبعضهم يحدثني عن امور كثيرة ويعرضها عليّ باعتبارها غير قابلة للنقاش . ولكنني مصمم على الشك فيها بل على رفضها ما لم اجد انها تستحق ايماني بها . ومنفعة العقل الصحيحة - العقل الذي وهب لي - هي ان لا اؤمن بشيء ما لم اعرف سبب ايماني به . »

ولكن بيير بايل « Pierre Bayle » يخطو بنا خطوة اخرى الى امام في طريق الانعتاق الفكري ، ووسيلته الى ذلك كثرة الشك والتساؤل وتقليب القضايا على محتملات وجوها^(٨) . واذا لزمنا ان نجعل المذهب العقلي ونهضته في اوربا

(٨) في كتاب الحيوان للجاحظ : قيل لمصلحة احد العرب : ما اكثر شكك ! فقال : محاربة عن اليقين . والشك في اسلوب التفكير العلمي ضرورة لا بد منها . وللفزالي كلمة في الشك تذكر ببائل وبديكرت . قال الامام : « من لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر بقي في الخيرة والعمى ! » على ان الفزالي ادى هذا الاعتراف والمديح للشك ، ثم الف « تحافت الفلاسفة » الذي رد عليه ابن رشد بـ « تحافت التهافت » . والذي يراه بعض ان الفزالي انما اثر التسليم والتصديق خوفاً من عواقب الشك على العامة وسدا لموضوع لا ينتهي فيه الاخذ والرد العقلاني . الا ان الفزالي ترك لديه فسحة لما سماه « المضنون به على غير اهله » . والحقيقة ان كثيرين من المفكرين من الفزالي الى فولتير ، مثلاً ، كانوا يخافون على العامة الدخول في قضايا فكرية خطيرة كاللعب بالسلاح (الناري) . وفولتير هو القائل للمفكرين : « تفلسفوا فيما بينكم ما طاب لكم ... ولكن احذروا من ان تقوموا بالعزف امام الجملته البهيميين (السوقيين) ... فقد يكسرون آلاتكم على رؤوسكم . » وهذا الخوف الذي نلقاه عند بعض الادباء ، من اشتراك العامة في الافكار الخاصة ، انما هو نتيجة لقلّة

الحديثة ، مديناً لبضعة مفكرين كديكارت وامثالته ، فبيير بايل احدهم . وفيه يقول برونثير الناقد الفرنسي الشهير : في فرنسا وانكلترا والمانيا ، وفي اوربا كلها حيثما بدأ الناس يشكّون ، تخرج من مدرسة بايل جيلان او ثلاثة من الكتاب . وكأن كلاً من مونتنسكيو وفولتير وديدرو وروسو وهلفثيوس - عدا آخرين اقل شأنًا من هؤلاء - تلقنوا في كتاباته ان يقرأوا ويحاكوا ويفكروا .

واهم ما انتجته هذا الاستاذ الواسع العميق ، من اساتذة الفكر ، قاموس تزييني انتقادي . ويمكن القول ان جميع نشاطه الفكري ينتهي الى تقرير حق العقل ، وحق الضمير ، في البحث الحر والرأي المستقل . وقد لخص هذا المبدأ في قوله : لنا حق لا يقصى عنا هو : حق اعلان المذاهب التي نعتقدنا موافقة للحقيقة المجردة ، وفي قوله ايضاً : اعظم المحاكم التي هي المرجع الاخير - لا استئناف منها الى غيرها ! - محكمة العقل الذي يقول مهتدياً بالبدهييات الصادرة عن نور الطبيعة .

ويلاحظ القارىء ان بايل بدأ يتحدث عن « حقنا الذي لا يقصى عنا » « Droit Inaliénable » وعن « البدهييات الصادرة عن نور الطبيعة » ، وهي تعابير وافكار نلتقي بها لدى مفكري الثورة ، بل في نصوص الثورة نفسها .

الثقة ، واثر للخوف من معاني تلك الافكار ومراميها اذا دفعت الى غاياتها في عالم الواقع . ولهذا هتف فولتير : الله دركي ! Dieu est un gendarme . اما المواضيع التي لا ينتهي فيها الاخذ والرد العقلان فقد عمد فيها بيير بايل الى « تسوية » كأنه قسم بموجبهها عالم المعارف الى جزئين : فجزء يستطيع ان يتناول العلم بالمعرفة اليقينية - وهو المجال الذي يجوز فيه بل يجب استعمال العقل - ، وجزء يستعصي على الباحث الوصول فيه الى بت علمي ، فالاجدر بالعقل ان يتنحى عنه الى المواضيع التي يشمر فيها نشاطه . وعلى هذا يقول بايل : يمكننا تشبيه الفلسفة بالمساحيق الاكالة التي تكشط اللحم المصاب ، ثم تمتد الى اللحم الحى ، ثم تضرب العظم وتخرقه حتى تح . . . الفلسفة اذا تركناها تسترسل مع هواها وتخيلائها اوغلت في البعد حتى لم ندر اين هي ، ولم تجد مقعداً تقعد عليه . وهذا يذكر بقول الخوارزمي . « اذا نتبعت الامور كلها فسدت عليك . » ويتابع بيير بايل منهجه فيقول لفريق العقلين : « لا تحاولوا ان تفهموا الغوامض الدينية . » ثم يقول للفريق الاخر : « اذا دخلتم في اسباب مفصلة ، تقدمونها بشأن العقائد ، فانكم في نهاية الامر ، بعد ألف خصومة وشحان ، تضطرون ان تتعلقوا بسببكم الاصلي » (يقصد السلطة المسلم لها) .

ويكفيها هذا القدر من القرن السابع عشر وادبائه ومفكره ، فلننتقل الى القرن الثامن عشر وهو الموسوم بـ «عصر الانوار» و «الاستنارة»^(٩) والعصر الذي وقعت الثورة في اوائل ربهه الاخير وملأت منه هذا الربع كله تقريباً وجعلته في نظر الفكر العالمي ، وفي تقدير التاريخ ، عصرأ فرنسياً على الاعم الاغاب . وتطالعنا في خلال هذا القرن ستة وجوه رئيسية : مونتسكيو وديدرو وفولتير وروسو وهنفيشوس ودولباخ .

اما مونتسكيو صاحب «روح القوانين» و «الرسائل الفارسية» فهو الذي حاول ان يكتشف في التاريخ عوامل اساسية تجعل من حوادثه ظاهرات مفهومة ، لا صدفاً واتفاقات . فهو من هذا القبيل شبيه بابن خلدون في مقدمته . ويتصف مونتسكيو بكثرة الرجوع الى اثر العامل الجغرافي في التاريخ . على ان توسيع البحث في هذا المضمار يخرج بنا عن القصد . وحسبنا ان هذا المفكر الفرنسي نظر الى التاريخ نظرة عقلية ورده الى عوامل من البشر ومحيطهم لا الى اسباب خارجة ، والى العقل الانساني رد الشرائع والقوانين باعتبارها مظهرأ من مظاهر التاريخ ، قال :

« القانون ، بوجه عام ، هو العقل البشري ، ما دام العقل هو الذي يحكم شعوب الارض جميعاً . والقوانين السياسية والمدنية - فيما يتعلق بكل امة - يجب ان لا تكون الا الحالات الخاصة التي يقع فيها تطبيق العقل البشري . »
ثم يقسم مونتسكيو القوانين الى نوعين :

- ١ - تلك التي ترتب نظام الدولة كعلاقة المواطنين بالسلطات وعلاقة السلطات المختلفة بعضها ببعض (وهو ما نسميه الدستور او القانون الاساسي) .
 - ٢ - القوانين المدنية التي تشرف على علاقة المواطنين بعضهم ببعض (وهي ما نسميه الحقوق المدنية والجنائية) .
- اما السلطات المختلفة في الدولة فهي ثلاث :
- اولاً - السلطة التشريعية .

٩ (سمي بالفرنسية : « Siècle des Lumières » ، وبالانكليزية : « Century of Light » وبالالمانية : « Aufklärung » .

ثانياً - السلطة التنفيذية ، التي تجري الامور المتعلقة بحق الناس .

ثالثاً - السلطة التنفيذية ، التي تجري الامور المتعلقة بالحق المدني .

وواضح ما كان لهذا التقسيم من اثر في التصميم الذي اختطه رجال الثورة الكبرى في الدولة الفرنسية ، بل واضح ما في هذا التقسيم من اثر بارز الى اليوم في بناء الدول . ولكن السلطة التنفيذية (رقم ٣) اصبحت في تعبيرنا تسمى السلطة القضائية . ويقول مونتسكيو ان هذه السلطات الثلاث يجب ان تستقل احداها عن الاخرى ، اذا كان المراد توطيد الحرية (١٠) .

ويشيد مونتسكيو بالمساواة ، ولكنه لا يقصد بها انتفاء الحكم . « فالمساواة الصحيحة لا تستهدف ان يخلو الانسان من امر بل تستهدف ان يكون امره مساوياً له . » و « الناس في الحكومة الجمهورية متساوون ، وكذلك هم في الحكومة المستبدة . في الاولى هم متساوون لانهم كل شيء ، وفي الثانية هم متساوون لانهم ليسوا شيئاً . » ومع هذا فلم يكن مونتسكيو جمهورياً بل كان اميل الى حكم الملكية المقيدة (اي : الدستورية) .

ويلقي مونتسكيو على عاتق الدولة واجب النظر في تأمين راحة رعاياها الاقتصادية فيقول :

« ان بعض الصدقات التي نتكرم بها على رجل عارٍ في الشارع لا تعني عن واجبات الدولة التي يانزمها ان تجعل لكل المواطنين حياة مضمونة : غذاء وكساء صالحاً ،

١٠) للكواكي ، في طبائع الاستبداد ، رأي نوره في هذا الصدد . يجعل الكواكي الاستبداد يشمل أيضاً الحكومة الدستورية المفرقة فيها قوة التشريع عن قوة التنفيذ ، لان ذلك ايضاً لا يرفع الاستبداد ولا يخففه ما لم يكن المنفذون مسؤولين لدى المشرعين وهؤلاء مسؤولون لدى الامة التي تعرف ان تراقب وان تتقاضى الحساب ، وهذه افضل الحكومات لو وجدت . وخلاصة ما تقدم ان الحكومة من اي نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والمحاسبة التي لا تسامح فيها كما جرى في صدر الاسلام فيما نغم على عثمان بن عفان (رضي الله عنه) يوم خص بحكمه ذوي قرباه دون المسلمين ، وكما جرى في عهد هذه الجمهورية الحاضرة في فرنسا في مسائل النياشين وبنامها ودريفوس .

ونوعاً من معيشة لا ينفي الصحة . « غير ان مونتسكيو كان في هذا سابقاً لعصره ولهدف الثورة الفرنسية .

وله في تعريف الحكومة الاستبدادية كلمة رائعة حيث يقول :

« عندها يريد متوحشو لوزيانا قطف الثمار يقطعون الشجرة من اصلها ويتناولون منها ما يريدون ، تلك هي الحكومة الاستبدادية ^(١١) . ومقصده هو ان الحكومة الاستبدادية لا تنتج ، ولا تعين على الانتاج ، بل تأخذ ما تريده لساعتها ، ولو كان ذلك بطريقة فيها ائتلاف المنتج وقطع مصدر الانتاج . وفي هذا رائحة تنديد بالسياسة الفجة التي كان ينتهجها البلاط الفرنسي لسد نفقاته وحفظ الموازنة - سياسة شعارها : كلما احتجتم افرضوا على الشعب الضرائب ، واذا اضطررتم فسموها قرضاً شعبياً .

وقد يكون من المفكرين من ينكر على مونتسكيو ثورتيته وتأثيره الثوري . وصحيح ان الرجل كان كما اسلفنا اميل الى الملكية المقيدة ، فهو من هذا القبيل معتدل . ثم هو لا ينظر في السياسة الى ناحية المبادئ وحسب ، بل ينظر ايضاً الى الذين ستطبق عليهم المبادئ ، ويحسب الحسابات لجملة اعتبارات اخرى منها الاقليم والمناخ . ثم هو يعرف الحرية بانها الخضوع للقانون الكامل . وليس في هذا كله ما يلغى ثورتيته وتأثيره الثوري . فالاعتقاد بالملكية الدستورية كان مذهباً انقلابياً خطراً في فرنسا يوم ذاك . وأوجه اعلام الثورة الفرنسية ، في مقتتح شأنها ، كيرابو وبارناف وسيياس كانوا ملكيين دستوريين ، بل ان الثورة نفسها في اول عهدها لم تكن تستهدف اعلان الجمهورية والغاء الملكية . وتقسم النظر بين المبادئ ، والذين ستطبق عليهم ، يزيد في قيمة مونتسكيو العلمية ولا يعارض ثورتيته . اما رأيه في الحرية انها الخضوع للقانون الكامل فعزاه يتوقف على المقصود بالقانون الكامل . ومهما

(١١) تذكر هذه الكلمة بقول منسوب في الكتب العربية الى كسرى انو شروان : مثل الملك الذي ينال من شعبه لنفسه مثل من يخرب الاساس في سبيل سقف البيت . وقد ذاعت لمونتسكيو شهرة كبيرة في البلاد العربية . وفي باب « نصوص مختارة » من هذا الكتاب قطعة لنوفل نعمة الله نوفل الطرابلسي نقلناها عن كتابه « زبدة الصحائف في سياحة المعارف » وهي تدور حول نخبة من اعلام فرنسا في القرن الثامن عشر وبينهم مونتسكيو . فراجعها ...

يكن من شيء . فان مونتسكيو لم يعن به القانون الاستبدادي . اما القانون ، أصلاً ، والرضوخ له فهذا ما لا يشك عاقل في انه شرط من شروط الحرية ووقايتها . ومع ذلك فيجوز لنا القول ان مونتسكيو لما عرّف الحرية بأنها إخضاع للقانون الكامل ، نسي عنصراً لا بد منه للحرية هو : ضرورة اشتراك الذين يطيعون القوانين في وضعها (١٢) .

ومن مونتسكيو ينتقل بنا الحديث الى فولتير ، ملك القرن الثامن عشر غير المتوج ، كما لقب ، والعاقل الذي ليس له صولجان ، ولكن له يراع ، كما قال هو عن نفسه لفردريك الكبير البروسي .

قد يكون فولتير غير عميق ، وقد يكون قليل الثقة بجباهير الشعب . على ان سعة الآفاق التي تناولها وسخره اللاذع وشكّه واحتكامه الى العقل وحماسته للعالم وعناده في المقارنة وتوجيهاته الجديدة في بعض المواضيع (١٣) ودفاعه عن حرية الرأي كل ذلك مضافاً الى قلم من أصفى الاقلام واخصبها ، واسلوب من اقرب الاساليب الى الشعب ، جعله في طليعة الاعلام الذين ايقظوا النفوس والاذهان وبعثوا فيها الحرارة لاستقبال عاصفة الثورة ولفجها الحار .

اضحك فولتير فرنسا واوروبا على الدعوى والسخافة والتعصب والتذرع بحماية المناصب والمقامات ، واغضب فولتير فرنسا واوروبا على جميع هذه العاهات والآفات .

كان اذا باع وكيل الخرج في بلاط لويس الرابع عشر نصف الخيول من اسطبلات الملك يصيح : كم كان اقرب الى المعقول لو صرف نصف الحمير الذين يعج بهم البلاط الملكي ! فكان الفرنسيون يقهقون بالطبع ، ثم لا يلبثون ان يتأملوا بذخ البلاط

(١٢) سترى القارئ كيف نقد اديب اسحاق تعريف مونتسكيو للحرية .

(١٣) ولا سيما فن التاريخ . واشهر آثار فولتير في هذا الباب تاريخ شارل الثاني عشر (الاسوجي) . وفي المقدمة المعنونة « Le Discours » يقول فولتير : « اذا وجد امراء او وزراء في هذا الكتاب ، حقائق مزعجة ، فليعلموا انهم لما كانوا رجالاً يعنون بشؤون العامة ، فللعامة الحق في محاسبتهم على اعمالهم . فهذا الثمن يشترطون العظمة . والتاريخ موءدي شهادة وليس مباحاً . والطريقة الوحيدة لحمل الناس على ان يقولوا فينا خيراً هي ان نعمل الخير ! »

ويستنكروه ويسخطوا عليه .

ولا ريب ان هذا الساهر (الفج احياناً) كان شديد الحُبث والنعومة ايضاً ، فكان يستغلق على سامعه تميز عبثه من جدّه وقده من مدحه . وقد نفث خبثه على كثيرين ، منهم (المسكين) « Fréron » الذي حكى عنه فولتير ان الحية لدغته فماتت ، فلم يعرف أماتت الحية لقداسة الملدوغ ام لأن سمّه اسرى وافتك من سمها (١٤) .

ولعل اول سؤال ينبغي لقارىء فولتير ان يسأله : هل الرجل جادّ في كلامه ام عابث ؟ وسيرى انه كثيراً ما يكون صاحب جد عظيم فينظر الى الشعب « يسبح الله ويرقص حول الجزار » ويستمع « الى الانسان يصرخ بجاره : فكّر كما افكّر يا قليل التقوى والآ قتلتك » ، فيحاول الفيلسوف تعليل ذلك ويقول :

السبب اننا خنقنا صوت الطبيعة .

السبب اننا اضعنا الى شريعتها المقدسة شرائع .

السبب ان الانسان - وهو محب لعبوديته البلاء ، - قد جعل الله على صورته

ومثاله من شدة تعصبه !

وفولتير هو صاحب ذلك الابتهاال البليغ الذي زفه الى الله في مطلع رسالته في

التسامح .

ومنه : « انك لم تعطنا قلباً لتبأغض ولم تمنحنا الايدي ليخنق بعضنا بعضاً . »

اما الوطن ، « ففي ظل ملك صالح يكون للانسان وطن ، ولكنه في ظل

ملك شرير لا وطن له » - هكذا يقول فولتير .

والدين يجب ان يستند الى العقل ، وهذه هي العقيدة الربانية « Déisme » ،

عقيدة الكائن الاعظم « L'Etre Suprême » التي نجلدها فيما بعد لدى اشهر اعلام

(١٥) لفولتير رسالة الى احد المراجع الدينية العالية يتحدث فيها عن النبي محمد وقد نعى

من اجلها مفكران عريبيان : محمد الحسين آل كاشف الغطاء (النجفي) والاستاذ توفيق الحكيم ،

على فولتير صدق مذهبه في التسامح . على اننا اذا نظرنا الى الرسالة في ضوء آراء فولتير

واسلوبه وميله فيها الى المبالغة في التذلل والتفخيم والتعظيم ، اتسع لنا مجال لحمل الرسالة

حمل العبث والتطرف .

الثورة مكسيميليان روبسبير •

وفولتير في الانظمة كونتسكيو أميل الى الملكية الدستورية •

ويؤدي بنا الحديث الى دنيس ديدرو ، فاذا نحن امام الروح المحرك لذلك العمل العظيم الذي رسم بيسم متلائي. جدين القرن الثامن عشر ، نقصد الانسيكلوبيديا التي ساهم فيها عدد من اعلام العصر ، ولكن لم يبلغ فيها نشاط احد منهم ما بلغه نشاط ديدرو وعناده • وكان في فرنسا قانون مطبوعات ، اعلن سنة ١٧٥٧ يهدد بالاعدام كل كاتب او طابع ينشر كتاباً تقضي السلطات ان من شأنه « الاخلال » و « التحريض » • على ان هذا اخطر ، وجميع الصعوبات الاخرى ، لم توهن عزيمة الرجل • ومن يقرأ له صرخته الممزقة احتجاجاً على تشويه المراقبة لعمله في الانسيكلوبيديا لا يملك ان يرتعش اعجاباً بتلك النفس الكبيرة المعذبة •

بنى ديدرو على العقل ، ولكنه رأى ان التأملات العقلية المنقطعة عن الاختبارات العملية لا تعني • ولذلك قال : لدينا ثلاث وسائل رئيسية : ملاحظة الطبيعة والتأمل والتجربة (التطبيق) • اما الملاحظة فتتمش ^(١٥) الحقائق والمظاهر • والتأمل يوفق بينها • والتجربة تصدر حكماً على النتيجة • فالتجربة (التطبيق) الكلمة الفصل في العلم • وكان ديدرو عميق الشعور بطبيعة عصره الانقلاية ولا سيما فيما يتعلق بالعلوم • « نحن على عتبة ثورة عظيمة في العلوم • ولعل احداً في فرنسا لم يمثل كما مثل ديدرو روح الثورة الصناعية الممتدة من الجزر البريطانية الى فرنسا ، عبر القنال • وكل كان اهتمامه عظيماً بالآلات • كان كفرنيس باكون الانكليزي يحس بما سيكون لهذه المستنبطات من اثر يغير طابع الحياة • فكان كثيراً ما يشاهد في حوانيت النجارين ، وفي شتى اماكن العمل ، يرسم الآلات بقلمه ويسجل اوصافها وخصائصها ليدخلها في الانسيكلوبيديا •

حقاً ان ديدرو كان في ميدان الفكر طليعة صريحة للطبقة الصناعية النامية في المجتمع الفرنسي ، اذ ذاك ، وهي الطبقة التي سنرى انها بدأت فرنسا تبديلاً بثورة

سنة ١٧٨٩ •

(١٥) التقميش هو الالتقاط كيفما اتفق •

وكانت ثورتيه حادة في جميع الآفاق التي تناولها بتفكيره . وبينما نجد أحياناً في قراءة فولتير مجرد دعوة الى الضحك على آفات الاوضاع القائمة ، فاننا لنحس ابداً في ديدرو دعوة الى العمل .

وقد لا يختلف مضمون آرائه السياسية والدينية واتجاهاته الاجتماعية عن فولتير ، مثلاً ، فهو في النتيجة يشجب الملكية المطلقة ويطالب بتقييدها ويفضل العقيدة الربانية « Dèisme » - ان كان يفضل - ولا يسمي مواطناً الا الذي يملك ملكاً في الوطن ^(١٦) . غير ان ديدرو احمّد سكيناً من فولتير واشد توغلاً في التشريح والتشهير وربما وضع فولتير سكينه على الضحية ، فشعرت بس الحديد البارد واقشعرت قليلاً ولكن الامر انتهى بخدش بسيط . على ان ديدرو لا يضع سكينه الا ليذمي .

وبعد ديدرو هلفثيوس صاحب كتاب « في الروح » « De l'Esprit » . وان القارئ ليصادف عنده افكاراً وتعايير يصادفها هي بذاتها في الثورة الكبرى . يثق هلفثيوس ثقة قوية بفضيلة الشعب والانسان . ويعتقد ان شرور الشعب ترجع جذورها الى القوانين ، فهناك ينبغي للحافر ان يحفر كي يكشف عن شرور الشعب . . . والشارع الصالح هو الذي ينشئ المواطن الصالح . وبالقوانين الفاضلة ، وحسب ، يمكن انشاء رجال افاضل .

وهكذا يعلق هلفثيوس اهمية كبرى على صلاحية القوانين ، ولكن نظريته الشاملة مبنية اصلاً على قاعدة من التربية الصالحة . يقول : « اذا استطعت ان ادل ان الانسان ليس في الواقع الا نتيجة التربية فاكون بلا شك قد اعلنت حقيقة عظيمة للامم . » ويتساءل : « من يستطيع ان يشك شكاً جازماً بان فروق التربية ليست هي التي تنتج الفروق التي نَجدها في العقول ؟ من يستطيع ان يتأكد من ان الناس ليسوا كالأشجار التي هي من فصيلة واحدة ، بذرتها البذرة نفسها ، ولكنها لما كانت لا تزرع في التربة نفسها ، ولا تعرض للرياح نفسها ، ولا للشمس نفسها ، ولا للمطر نفسه ، فقد لزها في النشأة

(١٦) وقد وافق هذا الذين وضعوا اول دستور لفرنسا فحصروا حق الانتخاب والتصويت ، باصحاب الاملاك ودافعي الضرائب .

والنمو ان تتشكل بعدد لا نهاية له من الاشكال . »

ولا ريب ان هذا رأي فيه كثير من المغالاة . ولو فرضنا من الممكن ان يصبح الناس بالتربية نسخاً بعضها طبق بعض كما قد يشير كلام هلفشيوس لكان ذلك شيئاً مستكبرها . على ان هلفشيوس اعلن عقيدة ثورية بعيدة المرمى اذ قال : « ان استنتاجي العام هو ان العبقريّة عامة » ، فنسف بذلك رأياً يقول بان العبقريّة وقف على عرق من الناس او فئات خاصة من المجتمع ، وقوى الثقة بكفاءات الشعب والانسان ، وجاءت حوادث الثورة مؤيدة له ومحيرة افهام الكثيرين ممن كانوا يزعمون ان الجيش الفرنسي الثوري لا يجدي فتيلاً ما دام افضل ضباطه وقواده هاجروا او طردوا او اعدموا ، فلم يلبث هذا الجيش ان اتى باعمال عسكرية ادهشت اوروبا ، بقيادة قواد برزوا من اعماق الشعب كهوش ونابليون نفسه !

ويقودنا هلفشيوس الى « هولباخ » « Baron d'Holbach » البارون المجري الذي اكتسب الجنسية الفرنسية واصبحت له ندوة منزلية ^(١٧) تنفقت فيها الجدالات والعقول عن مبادئ كان لها اثرها في تمهيد السبيل الى الثورة . واشهر مخلفات « هولباخ » كتابه : « نظام الطبيعة » « Systeme de la Nature » الذي قطع فيه بضرورة انصراف الانسان عما وراء الكون الى الكون نفسه . « ان الانسان موجود في الطبيعة وهو مطوّع لقوانينها لا يستطيع ان يعتقد منها ذاته . وعيشاً يصير عقله على الوثوب الى ما وراء العالم المشهود . ان ضرورة قاهرة ابدأ تشده الى الرجوع . »

وفي ميدان السياسة والاجتماع يطالب « هولباخ » بالحرية ، ويحددها « بانها قدرة الانسان على اتخاذ التدابير التي تؤمن له وجوداً حسناً » . ولا ضمانة للحرية ، في رأيه ، الا بالقوانين التي « تحمي الجميع حماية متساوية : الاغنياء والفقراء ، العظماء والصغار ، الملوك والرعايا » . وهكذا يضع « هولباخ » سلطة القوانين فوق سلطة الجميع حتى الملوك . واذا ذكرنا ان لويس السادس عشر ، مثلاً ، كان يقول معبراً عن رأي الملوك الاوتوقراطيين : لي وحدي سلطة التشريع دون اعتماد على غيري او

(١٧) كان للندوات « Salons » من ادبية وفكرية ، اثر كبير في اليقظة العقلية الفرنسية ، في القرن الثامن عشر .

معاونة - ومعنى هذا انه فوق القوانين لانه يغيرها ساعة يشاء ما دامت سلطة التشريع منحصرة فيه - اجل ، اذا ذكرنا هذا عرفنا ان مبدأ « هولباخ » في جعل القوانين فوق الجميع ، حتى الملوك ، كان مبدأ ثوريا . وكذلك قوله : الحرية ان لا يطيع الانسان الا القوانين ، كان رأياً ثورياً لانه يعرض فيه باصحاب العروش الذين يرون الطاعة واجبة لمطلق اشخاصهم^(١٨) .

اما صيغة هذه القوانين فتشتق من طبيعة السياسة العامة . والسياسة العامة ، في نظره ، يجب ان تكون فن تنظيم ميول الانسان وتوجيهها الى انعاش المجتمع ، والى تيار عام من السعادة . انها يجب ان تنظم عواطف الانسان لتجعلها تنسلك انسلاكا لطيفا من اجل نفع الجميع منفعة عامة .

فينتج من هذا ان القوانين ينبغي لها ان تكون في مصلحة المجموع ، لا في مصلحة ذوي المقامات وحدهم .

وهنا يذهب بنا الكلام الى جان جاك روسو وهو اشد المفكرين صلة بالانقلاب الفرنسي الكبير ، وقد يلقب كتابه العقد الاجتماعي بالخيال الثورة . وكان روبسبير من تلاميذه المتحمسين به . وكان « ماراه » الزعيم الشعبي يقرأ منه صفحات للجواهر في شوارع باريس .

وربما لم يكن روسو مبتكراً في كل ما جاء به ، فان هوبز المفكر الانكليزي في القرن السابع عشر وصاحب كتاب الليفياتان « Leviathan » يعتبر سابقاً له في البناء على نظريتي العقد الاجتماعي والحالة الطبيعية . ولكن هوبز - عدا فروق ثانوية اخرى - سخر النظريتين لخدمة الملكية المطلقة ، بينما سخرهما روسو لخدمة الحكم الدستوري لحق الثورة . ولذلك يعتبر المفكر الانكليزي الآخر ، جون لوك ، ، بين

(١٨) ونرى ان بوادر التنبيه الثوري ، في الامبراطورية العثمانية ، اتخذت أيضاً شكل الدعوة الى مراعاة القوانين بذاتها مجردة عن اشخاص الملوك ورغائب الموظفين . فكما استقال منحت باشا من نظارة العدلية أيام السلطان عبد العزيز كتب في استقالته ما يلي : « ان الدولة لا تدار بقانون ، فكل ناظر يريد ادارة الامور كما شاء وشاءت اغراضه ، ولذا فان الامور السياسية والادارية قد اختلت وخرجت النظامات العسكرية عن السراط السوي . »

سابقى روسو في القرن الثامن عشر . والاتفاق الفكري السياسي بين روسو ولوك عظيم ،
الا ان لوك استهدف الملكية الدستورية ، بينما استهدف روسو الجمهورية . ولعل ابرز ما
امتاز به جان جاك روسو قدرته على حمل آرائه ومبادئه الى صفوف الجماهير . وكان
غيره ظل يفكر في نطاق مكتبة صغيرة او حلقة ضيقة من النخبة المختارة بينما استطاع
روسو ان يحرك اعماق الشعب ويجعل من مذهبه دستوراً للعمل . انه من الكتاب
القلائل الذين ترن كلماتهم برنة الصدق ، ويشعر القارئ لدى مطالعتهم انهم ، اذ
يدعونه الى التفكير ، يدعونه الى العمل ايضاً .

يرجع روسو في فلسفته السياسية الى العهد الذي يسميه الحالة الطبيعية ، وهو
يرى ان الانسان في هذا العهد - الانسان الفطري - كان صالحاً ، وكان خالواً من
شوائب العاهات التي لحقت به فيما بعد . فروسو يعتقد ان الفطرة الانسانية فطرة
خير ، وان الناس في الحالة الطبيعية كانوا على مستوى يقارب المثل الاعلى ، وكان
لكل منهم حقوق مضمونة مقدسة تعرف بالحقوق الطبيعية « Droits Naturels » ^(١٦) .
فكيف تقهر الانسان الى الحالة التي شاهده عليها روسو في المجتمع ؟ وكيف
يمكننا ان نتلافى الشر ونصعد بالخلق الادمي الى حيث هيأته كفاءاته الاصلية ؟
يقول روسو ان الانسان لما حاد عن طريق « الحالة الطبيعية » اصيب بالانحطاط .
وهذا طبعاً لا يعني ان الفيلسوف الفرنسي قصد فعلاً ان يعود الانسان الى وضعه في

(١٩) واضح ان هذه الفروض التي يفرضها روسو عن الانسان الاول لا تطابق الحقيقة
التاريخية . والغالب على الاذهان ان رأي هوبز في « الحالة الطبيعية » هو الاصح ، تاريخياً ،
اذ كانت تطفئ على علائق البشر قاعدة : « الانسان ذئب على الانسان » « homo Homine »
« lupus » وناموس « حرب الجميع على الجميع » « Bellum omnium contra omnes » .
ولكن كما ان فروض روسو بعيدة عن الصحة التاريخية ، فأراء هوبز تغفل ايضاً
عن جانب التعاون بين الناس حتى في تلك الازمنة السحيقة . فالتنازع لم يكن في وقت هو
وحده الغالب على الهيئة البشرية ، بل ان التعاون ليفزو التنازع نفسه ، فلا بد لكل تنازع
من تعاون ولو على صعيد محصور في نطاق احدى الهيئات المتنازعة . وغني عن البيان
بعد هذا ان روسو لما فرض فروضه لم يكن يتوخى كتابة التاريخ بل انشاء مذهب سياسي
فلا تجوز مناقشته على اساس الصحة التاريخية وحدها .

فجر التاريخ . وفولتير لما كتب الى روسو رسالته الشهيرة ينبئه فيها انه شوقه الى « الديب على الاربع » شأن الحيوانات ، انما انساق بدافع نكتة موفقة . وخلاصة ما ذهب اليه روسو هو ان الانسان بذرة صالحة في الطبيعة ، فاذا وافقتها عناية صالحة وجو صالح ، نمت نمواً اقرب الى شروط الكمال والفضيلة . ولذلك اهتم روسو اهتمامه العظيم بالتربية من جهة ، وبنظام الحكم من جهة اخرى ، فالف كتابيه الخالدين « اميل » و « العقد الاجتماعي » .

وفي العقد الاجتماعي ، وهو الكتاب الذي يمس صميم موضوعنا ، يقول روسو : ان الناس اذ يخرجون ، او يضطرون الى الخروج ، من الحالة الطبيعية بفعل تقدم التاريخ ، يتعاقدون على ان يتنازل كل منهم عن امتيازات الحياة التي يتمتع بها في تلك الحالة . ولكنهم لا يتنازلون هذا التنازل الا لان هذا التعاقد يضمن لهم في حالة الحياة الجديدة حقاً لا غنى لهم عنها ولا قيمة للاجتماع الا بها . وفي طبيعة هذه الحقوق الحرية . والحرية في نظر روسو ليست الانسحاق لتزوات العاطفة فتلك هي العبودية . بل ليست الحرية الطاعة للقانون ، كما يعتقد مونتسكيو ، ولكنها الطاعة للقانون الذي نسنه لانفسنا ، اي تسنه الاكثرية .

فنظرية العقد الاجتماعي تخلص بانها التقيد بارادة الاكثرية التي يسفر عنها التصويت الديموقراطي الطليق . ويفرق روسو تفريقاً هاماً بين ارادتين : ارادة الجميع « Volonté de tous » ، وهي بعبارة ثانية ارادة الاكثرية التي يكشف عنها الاقتراع الديموقراطي ، ثم الارادة العامة « Volonté générale » وهي التي تعبر عن مصلحة المجتمع وتعمل في سبيل هذه المصلحة . ولا يني روسو ان ارادة الجميع - اي : ارادة الاكثرية - قد لا تطابق الارادة العامة ، اي : مصلحة المجتمع . على انه وطيد الثقة بان الاكثرية اذا صلحت تربيتهم عرفوا مصلحة المجتمع فاقتدعوا له . ومن هنا كان روسو ، وجميع الديموقراطيين الكبار ، يعلقون اهمية عظيمة على ضرورة تربية المواطنين . فيقول « ماراه » وهو احد المنطبعين بطابع روسو الى حد بعيد : لا بد للشعب كي يتمتع بحقوقه من ان يعرفها ، وهكذا نشأت ضرورة تثقيفه ، ولا بد له كي لا يقع في الشراك التي تنصب له من ان يراها ، وهكذا

نشأت ضرورة تنويره (٢٠) .

اما موئل السيادة في نظر روسو فهو الارادة العامة ، وبمقدار ما تمثل الحكومة التي تنبثق من ارادة الجميع (اي : ارادة الاكثرية) مشيئة الارادة العامة تكون الحكومة شرعية موقفة . وللارادة العامة الحق في استرداد الثقة من كل حكومة لا تمثلها كما يجب . وهذا الاسترداد للثقة يجوز عند الضرورة ان يتخذ صيغة الثورة .

« ان الموكلين بالقوة التنفيذية ليسوا اسياد الشعب ولكنهم خداه . ويستطيع الشعب الذي ينصبهم ان يسقطهم كلما شاء . » « لا ملك بعد اليوم ، الشعب وحده هو السيد ! » وفي هذا القدر ما يكفيننا من روسو (٢١) .

ولا بد لنا قبل اختتام الفصل من ان نلقت الى مدرسة فكرية كان لها اثرها العميق في هذا القرن ، وهي المدرسة الاقتصادية « L'École des Économistes » ، وقد انصرف اعلامها الى البحث في ثروة الامة . وهكذا نهضت بذور العلم الذي نسميه اليوم بالاقتصاد السياسي . واحتدم الجدل حول مصدر الثروة . فقال كسناي (١٦٩٤ - ١٧٧٣) : ان ثروة الامة بزراعتها ، والانتاج الزراعي هو وحده الانتاج الحقيقي . وطلب عناية الدولة بالزراعة فوق كل شيء . ويعرف كسناي بزعم فرقة الطبيعيين « Physiocrates » من الاقتصاديين . وخالفه غورناي

(٢٠) من جريدته التي انشأها خلال الثورة ، جريدة « صديق الشعب » « L'Ami du Peuple » . ومفهوم ان الثرية والثقافة هنا ، وفي نظر روسو ، لا تعنيان محض القراءة والكتابة . وينبغي القول بان اعلام المفكرين الديموقراطيين يدركون حق الادراك ان نتيجة التصويت الديموقراطي (ولو كان حراً تزيهاً) قد لا تحدم دائماً ، المصلحة العامة . ومع ذلك فهم يتمسكون بالديموقراطية ، لان الحكم الذاتي (والديموقراطية هي حكم ذاتي) افضل من الحكم الصالح ، كما يقول السياسي الانكليزي كامبل بانرمان . وما هذا الا لان الحكم الذاتي ، اذا اخطأ ، كانت اخطاؤه ثمتاً لتعلم الشعب وتدرجه نحو الحكم الصالح ، بينما الحكم الذي يصدر عن سلطة فردية ، او خارجية ، سرعان ما ينقلب الى الفساد ولو اتفق له ان يكون صالحاً في فترة قصيرة موقفة .

(٢١) ليذكر القارئ ايضاً ان روسو كان من اتباع « العقيدة الربانية » « Déisme » . ورأيه في المرأة انها خلقت لمسة الرجل هو المذهب النظري الذي تعلق به معظم اعلام الثورة ، وفي باب النصوص من هذا الكتاب فصل للاستاذ محمد جميل يهيم عن هذا الموضوع .

فذهب الى ان الزراعة على اهميتها ليست مصدر ثروة الامة الاساسي ، بل الصناعة هي المصدر الاهم . وطالب كف يد الدولة عن التدخل في الشؤون الاقتصادية . وكان شعاره المفضل : « ألقوا الحبل على الغارب ، افسحوا السبيل « *Laissez passer* » « *Laissez faire* » (٢٢) .

ومعنى هذا : انه كان يطالب بالقضاء الحواجز والمكوس بين مقاطعة ومقاطعة ، في فرنسا ، كي يتسع المجال للتجارة . ومعناه ، ايضاً ، انه كان يطالب بفض الكوربوراسيون (٢٣) ليصبح العمال احراراً في التماس العمل الذي يريدونه . ومعناه ، كذلك ، انه كان يطالب باطلاق المدى للانتاج وقذف البضائع في الاسواق ، لان « قانون العرض والطلب » كفيل بضبط الامور وتسييرها كما يجب . ووضح ان غورناني كان لسان حال الصناعيين الذين ظهروا على اثر الثورة الصناعية في اوربا « *Révolution Industrielle* » ، وكانت مبادئه اسبق النظريات الاقتصادية في التعبير عن ارادة الفئات المتقدمة اذذاك . ويعرف غورناني بزعم فرقة البلوتوقراطيين « *Ploutocrates* » (٢٤) من الاقتصاديين . وقد نفذت الثورة الفرنسية ما اقترحه من اصلاحات ، فالغت الحواجز والمكوس بين مقاطعات فرنسا ، وفضت الكوربوراسيون ، وهيات الاساس لازدهار نظام الاقتصاد الرأسمالي الحديث .

ويلحق بغورناني وكسناي ، الوزير الشهير ترغو ، الذي حاول التوفيق بين هذين المفكرين الاقتصاديين ، واخرج الملك برنامج اصلاح قبل الثورة لم يوفق الى تنفيذه . ومن المفكرين الفرنسيين الذين لا بد لنا من ذكرهم ، في هذا القرن ، موريالي : مؤلف كتاب « قانون الطبيعة » . وكان بابوف الثائر الفرنسي ، الذي اشتق نغمة

(٢٢) كان كسناي وغورناني ، من هذا القبيل ، متفقين .

(٢٣) الكوربوراسيون نقابات عمالية ، على اساس الحرفة ، تختلف عن النقابات الحديثة بأنها كانت تسيطر سيطرة اجبارية على العمال المنتسبين اليها ، كل عامل يبدأ فيها « متدرجاً » « *Apprenti* » ، فاذا طمح الى ان يكون معلماً « *Maitre* » وجب عليه أن يحرز شهادة من الكوربوراسيون . ولما كان « المعلمون » حريصين على بقاء عددهم قليلا ، كان انتقال العامل من « متدرج » الى « معلم » صعباً جداً .

(٢٤) البلوتوقراطيون : المليون .

اشتراكية جديدة في الثورة ، أيام حكومة « الادارة » ، يكثر الرجوع اليه ويستقي من آرائه .

ولعلنا ، وقد بلغنا هذا المبلغ من بحث الفكر الفرنسي ، بتنا نلمس صحة ما قلناه من ان المفكرين والادباء الفرنسيين افاقوا على المجتمع ، قبل الثورة ، في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فوجدوا ان معظم الفرنسيين من حيث وضعهم في الهيئة والدولة ومسالك السياسة انما هم وسائل لبعض الفرنسيين ، وليسوا غاية كما يحق لهم ان يكونوا . فعمد هؤلاء الادباء والمفكرون الى الاحتجاج على الحالة الراهنة وتلمس اسباب الفساد ، ووضع الخطط ورسم الهيئة للمجتمع الجديد . وكان لهم من « العقل » مصباح ، ومن « الطبيعة » دعامة يرتكزون عليها . وكان لنشاطهم وتوجيههم اثر بليغ في الثورة ونهضتها . ولقد ادى الثوار سنة ١٧٨٩ واجبه في الاعتراف بفضلهم ، اذ نقشوا بيان حقوق الانسان الخالد وجعلوا في أعلاه عينا مظلّة مضيئة هي « عين العقل الرفيعة التي طلعت تبديد سحب الجهالة ! »

مَجَارِي الثَّوَرَةِ إِلَى الشَّرْقِ

كيف اتصلت الثورة الفرنسية بالشرق العربي ؟ واية هي المجاري التي سلكتها ؟
يعرض لنا هذا السؤال ، وفيه ما فيه من اسباب الصعوبة ، لانه لا يزال
موضوعاً غير مطروق ، ولان تعيين الانتقالات الفكرية في التاريخ امر بطبيعته يتعذر
البت فيه . وقد تيسر للانتقالات الفكرية مسالك خفية لا يدركها المؤرخون على
رغم اهميتها ، او هم يدركونها ولكن ادراكاً عاماً غامضاً ، يعوزه التدقيق
وينقصه التفصيل .

ومع ذلك فليس البحث في مجاري الثورة الفرنسية الى الشرق العربي خلوّاً من
كل اساس ، ولا شك ان ما سنكتبه في هذا الفصل محاولة جد بدائية تقبل
التحسين والتوسيع فيما بعد .

ان اول مجاري الثورة الفرنسية الى الشرق العربي - ولعله اعظمها - كان الفتح
النابليوني لمصر سنة ١٧٩٨ ايام حكومة الادارة . وكانت الرجعة النابليونية ، اذ
ذاك ، في اوائلها على انها كانت بارزة الاثر . وقد اذاع نابليون منشوره
الاول على المصريين فتكلم باسم التجار الفرنسيين ، غير انه صدر ايضاً في كلامه عن
بعض مبادئ الثورة فتحدث الى المصريين عن تسلط المماليك واستئثارهم باجود الاراضي .
وهذا بعض نص المنشور :

باسم الله الرحمن الرحيم - لا اله الا الله ولا ولداً له ولا شريك بملكه .
من طرف الجمهور الفرنسي المبنى على اساس الحرية ، والساري عسكر الكبير
بونابرت امير الجيوش الفرنسي ، يعرف اهالي مصر جميعهم : ان من زمن مديد ،
السناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة
الفرنساوية ، ويظلمون تجارها بانواع الباص والتعدي ، فحترت الآن ساعة عقوبتهم

وحسرة من مدت عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من جبال الالبازا والكرجستان يفسدوا في الاقاليم الاحسن ما يوجد في كرة الارض كلها . فاما رب العالمين القادر على كل شيء قد حتم في انقضاء دولتهم . يا ايها المصريين ! قد يقولوا لكم انني ما نزلت في هذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم . فذلك كذب صريح ، فلا تصدقوه . وقولوا للفكرتين انني ما قدمت اليكم الا لكيما اخلص حقكم من يد الظالمين ، وانني اكثر من المماليك اعبد الله سبحانه وتعالى ، واحترم نبيه محمد والقرآن العظيم . وقولوا لهم ايضاً ان جميع الناس متساويين عند الله ، وان الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم بعض فهو العقل والفضائل والعلوم فقط . وبين المماليك ما العقل والفضل والمعرفة التي تميزهم عن الآخرين وتستوجب انهم ان يملكوا وحدهم كلما يحلو به حياة الدنيا ؟ حيثما يوجد ارض مخصصة فهي مخصصة للمماليك . والجواري الجبال والحلال الحسان والمساكن الاشهى فهذه كلها لهم خاصة . فان كان الارض المصرية التزام للمماليك فليوردون الحجة التي كتبها لهم الله . ولكن رب العالمين هو رأوفاً وعادلاً على البشر . بعونه تعالى من اليوم وصاعداً لا يستثنى احد من اهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية ، وعن اكتساب المراتب العالية . فالعقلاء والفضلاء والعلماء بينهم سيدبروا الامور وبذلك يصلح حال الامة كلها . سابقاً في الديار المصرية كانت المدن العظيمة ، والخلجان الواسعة ، والمتجر المتكاثر ، وما زال ذلك الا لطمع وظلم المماليك ...^(١)

وواضح ما في هذا الكلام من صلة متينة بمبادئ الثورة وبيان حقوق الانسان^(٢) . ويقول الامير حيدر الشهابي ان اعيان مصر استعربوا هذا « الخطاب المهول والامر الجهور » فقد كان جديداً على الاسماع والافهام .

ولم تستقر قدم نابليون في وادي النيل حتى هياً ديواناً استشارياً من كبار العلماء

(١) نقلنا النص من تاريخ الامير حيدر وحافظنا على لغته .

(٢) جعلنا تحت الكلام ، الذي يتصل بمبادئ الثورة ، خطأ .

والتجار، فكان في عمله بذرة، وان تكن طفيفة، من تمرين الامة على الادارة الذاتية .
 هز الفتح النابليوني جو الجلود الذي كان مخبأ على مصر، فنهضت فيها بعد ايام
 محمد علي الكبير نهضة سياسية عسكرية، صناعية وثقافية، واخذت من عهد نابليون
 تتجه الميول الثقافية المصرية الى الارتشاف من ينابيع فرنسية، حتى كان زمن محمد علي،
 فقوي الترابط الثقافي بين البلدين وعززه التفاهم السياسي . وانفذ محمد علي باشا البعث
 العلمية، فكانت تلك البعث من اسباب الاطلاع على فرنسا الثائرة والمبادئ
 التحريرية التي حركت شعبها الى انتفاضات جبارة، ثم كانت في مصر تلك القافلة من
 الادباء والمفكرين من رفاة رافع الطهطاوي الى طه حسين اليوم .

ومن حسن الحظ ان احد اعضاء هذه البعث، وهو الطهطاوي، قد ترك لنا كتاباً
 نفيساً عن رحلته الى باريس وما تلقاه فيها من ثقافة، وما شاهده وتأثر به في فرنسا،
 لاسيما عاصمتها العظيمة . واسم الكتاب : تلخيص الابريز في تلخيص باريز، او
 الديوان النفيس بايوان باريس . ولا نغالي اذا قلنا ان الطهطاوي مؤلف الكتاب عقل
 من اعمق العقول الشرقية العربية، التي ماست الغرب، كما يتجلى في فرنسا، وفهمته
 فهماً واعياً لفضائله وحسناته من وجوه عدة . وصادف عهد الطهطاوي في باريس عهد
 الملك شارل العاشر ووزيره بولنيك . وكانت ملكية شارل العاشر، نظرياً، ملكية
 دستورية مقيدة بالصك « الشارت » « La Charte » التي تولى العرش على اساسها لويس
 الثامن عشر . ولكن شارل العاشر كان نزاعاً الى الملكية المطلقة، ومن اقواله : انه
 يؤثر ان ينشر الخشب على ان يكون ملكاً من الطراز الانكليزي (اي دستورياً) .
 وكان وزيره بولنيك يستهدف الغاء كل اثر من آثار الثورة الفرنسية الكبرى ويقول :
 غرضنا ان نعيد تنظيم المجتمع، ان نرجع الى الاكليروس نفوذه في الدولة، ونخلق
 ارستقراطية قوية نسيجها بالامتيازات . ولم يتورع شارل العاشر من فض المجلس النيابي
 فأعاد الشعب انتخاب اكثر اعضائه، ولا سيما الاعضاء الذين عرفوا بمقاومة الملك .
 فأصدر شارل قوانينه المشهورة « Les Ordonnances » بالغاء حرية الصحافة، وفض
 المجلس مرة ثانية، فاندلعت الثورة في باريس سنة ١٨٣٠ وطالت ثلاثة ايام من شهر
 تموز (٢٦ الى ٢٩ منه) وهي الايام المعروفة « بالثلاثة المجيدة » . فسقط شارل

العاشر واقم مكانه الملك لويس فيليب على اساس صك جديد .

وقد شهد الطهطاوي ثورة الايام الثلاثة المجيدة ، وهي تعتبر صفحة تالية للشورة الكبرى ، ووصفها وصفاً طريفاً دقيقاً اثبتناه مع النصوص في هذا الكتاب . وعني عناية خاصة بالدستور الفرنسي وسماه تسميته الفرنسية فدعاه الشرطة « La Charte » ، ونقله الى العربية قبل التعديل زمن شارل العاشر ، وبعد التعديل زمن لويس فيليب ^(٢) ، وتحدث عن مجلس النواب الفرنسي ، او المجلسين على الأصح : ديوان « رسل العمالات » الذين « هم وكلاء الرعية المنتخبون » « Les Députés » ، وديوان البير اي اهل المشورة الاولى .

ولم ينس ان يلمّ بشؤون اخرى تتصل بنظام فرنسا السياسي . وفيما يلي نص الخلاصة التي وضعها الطهطاوي للشرطة ، مع تعليقه عليها ، في اول ملك لويس فيليب : « الفرنسية مستوون في الاحكام على اختلافهم في العظم والمنصب والشرف والغنا ، فان هذه مزايا لا نفع لها الا في الاجتماع الانساني والتحضر فقط ، لا في الشريعة ^(٣) . فلذلك كان جميعهم يقبل في المناصب العسكرية والبلدية ، كما انه يعين الدولة من ماله على قدر حاله . وقد ضمنت الشريعة لكل انسان التمتع

٣ (اشترك الطهطاوي ايضاً في نقل القانون المدني الفرنسي بكامله . ونشطت حركة مصرية قوية لتعريب القوانين الفرنسية عامة . وقد جاء في مقالة للدكتور محمد حسين هيكل ما يلي : « واذا كانت مبادئ الثورة الفرنسية قد تسربت الى مصر بطريق الحملة النابليونية في سنة ١٧٩٨ ، ومن طريق الشبان المصريين الذين اوفدوا الى فرنسا ثم عادوا الى مصر ، فقد اتجهت الفكرة الى تعريب القوانين الفرنسية التي وضعت ايام نابليون ، وعهدت الحكومة الى جماعة من افاضل المترجمين المصريين بهذه المهمة . فער القانون المدني (الفرنسي) رفاعة بك رافع ، وعبد الله بك رئيس قلم الترجمة ، واحمد افندي حلمي ، وعبد السلام افندي احمد . واما قانون المرافعات فعره ابو السعود افندي ، وحسن افندي فهمي احد مترجمي وزارة الخارجية . وعرب قدرتي باشا قانون العقوبات . وعرب صالح مجدي بك قانون تحقيق الجنائيات . وجمعت هذه القوانين كلها ، وطبعت بالمطبعة الاميرية سنة ١٢٨٣ هـ . » (السياسة الاسبوعية ، السبت ١٩ مارس سنة ١٩٢٧ ، المقالة عن محمد قدرتي باشا) .

٤ (الشريعة ، اصلا في اللغة العربية ، اسم للمأموس الديني .

بحريته الشخصية حتى لا يمكن القبض على انسان الا في الصور المذكورة في كتب الاحكام ، ومن قبض على انسان في صورة غير منصوصة في الاحكام يعاقب عقوبة شديدة . ومن الاشياء التي ترتبت على الحرية عند الفرنساوية ان كل انسان يتبع دينه الذي يختاره يكون تحت حماية الدولة ، ويعاقب من تعرض لعباد في عبادته ، ولا يجوز وقف شيء على الكنائس واهداء شيء لها الا باذن صريح من الدولة . وكل فرنساوي له ان يبدي رأيه في مادة السياسات او في مادة الاديان بشرط ان لا يخل بالانتظام المذكور في كتب الاحكام . كل الاملاك على الاطلاق حرم لا تهتك ، فلا يكره انسان ابداً على اعطاء ملكه الا لمصلحة عامة ، بشرط اخذه قبل التخليه ، قيمته ، والمحكمة هي التي تحكم بذلك . كل انسان عليه ان يُعين في حفظ المملكة العسكرية بشخصه ، بمعنى انه كل سنة يُجمع اولاد احدى وعشرين سنة لتضرب القرعة لاخذ العساكر السنوية منهم ، ومدة خدمة العسكرية ثمان سنوات ، وكل فرنساوي عمره ثمانية عشر سنة - وله حقوقه البلدية - يمكنه ان يتطوع ويدخل العسكرية ، ويعافى من العسكرية عدة اناس ؛ الاول : من طوله دون متر وخمسة وسبعين سنتمتر يعني اربعة اقدام وعشرة برامق ؛ الثاني : اصحاب العلل ؛ الثالث : الابن اكبر الاخوان الايتام من ايهم وامهم ؛ الرابع : الابن البكري ، او المنفرد ، وابن الابن الاكبر او المنفرد عند فقده ، اذا كانت الام او الجدة لا زوج لها ، او كان ابوه اعمى ، او سنه سبعون سنة ؛ الخامس : البكري احد الاخوين الذين وقعا في قرعة لمة واحدة ؛ السادس : الاخ الذي اخوه فاضل تحت البيرق ، او مات في الخدمة ، او جرح في الحرب . ولو اراد انسان ان ينوب عنه غيره فان المنوب عنه يضمن النائب سنة من خوف الحرب ، الا اذا كان الهارب قبض عليه في السنة او مات تحت بيرق الفرنساوية . وفي واحد وعشرين في شهر ديسمبر من كل سنة ، كل العساكر التي تمت خدمتهم يؤذن لهم بالعودة الى محالهم . ولما كان لا يمكن لكل انسان ان يدخل بنفسه في عمل الدولة وكلت الرعاية بتمامها عنها في ذلك اربعماية وثلاثين وكيلا تبعثها الى باريس في المشورة ، وهؤلاء الوكلاء تختارهم الرعاية وتوكلهم بان يمانعوا عن حقها ويصنعوا ما فيه مصلحة لها . وذلك ان كل

فرنساوي مستكمل للشروط التي منها ان يكون عمره خمسة وعشرين سنة ، له ان يكون ممن له مدخل في انتخاب رسل عمالاته . وكل فرنساوي له ان يكون رسولا اذا كان عمره ثلاثين سنة ، ويكون موصوفاً بالشروط المذكورة في كتاب الاحكام . وفي كل مأمورية مجمع اختيار وانتخاب ، ومجامع انتخاب الاقاليم الصغيرة ، ومجامع المأموريات الكبيرة مؤلفة من المنتخبين الكبار ، وتعين ١٧٢ رسولا . ومجامع انتخاب الاقاليم الصغيرة تعين ٢٥٨ رسولا ، ودفاتر ارباب الانتخاب تطبع وتكتب في الطرق شهراً قبل فتح مجامع الانتخاب حتى انه يمكن لكل انسان ان يكتب اعلاماً به ، وكل منتخب (بكسر الحاء) يكتب رأيه سراً في ورقة يعطيها للرئيس مطوية ، والرئيس يضعها في اناء القرعة ، وديوان رسل العمالات يتجدد اهلها بالكلية ، كل خمس سنوات ، ولا يمكن اخذ الفرد^٥ الا بخلصة من مشورة الديوانين مقررة من طرف الملك . يمكن لاهل البلدان ان يرسلوا اهل الديوانين بطرق العرضحال ليستكروا من شيء او يعرضوا شيئاً نافعاً . القضاة لا ينزلون فلا يحكم على انسان الا بقضاة محل استيطانه . والدعاوى تقام جهراً ، وذنوب الجنائيات لا يحكم فيها الا بجحزة جماعة يسمون الجوريين « Les Jurés » . والعقوبة بالقبض على الاموال بطلت . للملك ان يعفو عن المعاقب بالموت وان يخفف العقاب الشديد . على الملك وورثته ان يحلفوا عند ارتقاء الكرسي بان يعملوا بما في كتاب قوانين المملكة . ثم انه يطول علينا ذكر الاحكام الشرعية والقانونية المنصوبة عند فرنساوية ، فلنقل ان احكامهم القانونية ليست مستنبطة من الكتب السماوية ، انما هي مأخوذة من قوانين آخر غالبيتها سياسية ، وهي مختلفة بالكلية عن الشرائع ، وليست قارة الفروع . ويقال لها الحقوق فرنساوية ، اي حقوق فرنساوية بعضهم على بعض ، وذلك لان الحقوق عند الافرنج مختلفة . ثم ان بياريس عدة محاكم وفي كل محكمة قاض كبير كأنه قاضي القضاة ، وحوله رؤساء وارباب مشورة ، ووكلاء الخصوم ، ومحامون للخصوم ، ونواب عن المحامين وموقع الوقائع .

وطبيعي ان يتنبه الطهطاوي الى كل هذا ، وهو الشرقي العربي ، الذي يلتبس

لوطنه اسلوباً في الحكم يسير عليه ويساير الامم الناهضة في نظام يشترك فيه المواطنون جميعهم ، في حقوق وواجبات مفصلة . مصونة . متساوية ، [مبدئياً على الاقل] .
وقد اشرفنا الى ان الطهطاوي عرّب « الشرطة » الاصلية التي ملك لويس الثامن عشر وفاقاً لها ، غب سقوط نابليون النهائي ، وانعقاد مؤتمر فيينا . وكتب الطهطاوي في مقدمة تعريبه لتلك الشرطة :

« فيها امور لا ينكر ذوو العقول انها من باب العدل . ومعنى الشرطة في اللغة اللاتينية ورقة ، ثم تسومح فيها فاطلقت على السجل المكتوب فيه الاحكام المقيدة . فلنذكره لك وان كان غالب ما فيه ليس في كتاب الله تعالى ، ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لتعرف كيف قد حكمت عقولهم بان العدل والانصاف من اسباب تعمير الممالك وراحة العباد ، وكيف انقادت الاحكام والرايا لذلك حتى عمرت بلادهم وكثرت معارفهم وتراكم بناهم وارتاحت قلوبهم ، فلا تسمع فيها من يشكو ظلماً ابداً ، والعدل اساس العمران . ولنذكر هنا نبذة مما قاله فيه العلماء والحكماء او في ضده . من كلام بعضهم : ظلم اليتامى والايامى مفتاح الفقر . والحلم حجاب الآفات . وقلوب الرعية خزائن ملكها ، فما اودعه اياها وجده فيها . وقال آخر : لا سلطان الا برجال ، ولا رجال الا بال ، ولا مال الا بعمارة ، ولا عمارة الا بعدل . وقيل فيما يقرب من هذا المعنى : سلطان الملوك على اجسام الرعايا لا على قلوبهم . وقال بعضهم : ابلغ الاشياء في تدبير المملكة تسديدها بالعدل ، وحفظها من الخلل . وقيل : اذا اردت ان تطاع فاطلب ما يستطيع . ان المولى اذا كلف عبده ما لا يطيقه فقد اقام عذره في مخالفته . »

وفي هذا ما يجب ان يستوقفنا لاننا نرى الطهطاوي ، وهو من اعلام مفكرينا الاول ، ينظر الى مبادئ الشرطة ، اي : المبادئ التي استوحيت من الثورة الفرنسية الكبرى ، نظرة اعجاب وتقدير . ولكنه يرى ان اكثرها مما ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله ^(٦) .

(٦) يقصد من حيث النص الصريح .

ومع ذلك فهو يضرب في تأييدها الحكم العربية وما قصده الا ان يبين ان هذه المبادئ ليست غريبة عنا . فيكون الطهاوي قد حاول شيئاً من التوفيق بين تقاليدنا ، والمبادئ التي انبثقت من الثورة الكبرى . وسنجد ان المفكرين قد خطوا خطوات ابعد في التوفيق ، فبينوا ان روح هذه المبادئ تساوي روح كتاب الله وسنة رسوله .

وبعد ان يفرغ الطهاوي من تعريب الشرطة ، يكتب معلقاً عليها :
 « فاذا تأملت رأيت اغلب ما في هذه الشرطة نفيساً ، وعلى كل حال فأمره نافذ عند الفرنسيات ، ولذا ذكر هنا بعض ملاحظات فنقول :

قوله ، في المادة الاولى : سائر الفرنسيين مستنون قدام الشريعة معناه سائر من يوجد في بلاد فرنسا من رفيع ووضيع لا يختلفون في اجراء الاحكام المذكورة في القانون ، حتى ان الدعوة الشرعية تقام على الملك وينفذ عليه الحكم كغيره ، فانظر الى هذه المادة الاولى فان لها تسلطاً عظيماً على اقامة العدل واسعاف المظلوم وارضاء خاطر الفقير ، بانه العظم نظراً الى اجراء الاحكام . ولقد كادت هذه القضية ان تكون من جوامع الكلم عند الفرنسيات وهي من الادلة الواضحة على وصول العدل عندهم الى درجة عالية وتقدمهم في الآداب الحضارية . وما يسمونه الحرية ، ويرغبون فيه ، هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والانصاف ، وذلك لان معنى الحكم بالحرية هو اقامة التساوي في الاحكام والقوانين ، بحيث لا يجوز الحاكم على انسان ، بل القوانين هي المحكمة والمعتبرة ، فهذه البلاد حرية بقول الشاعر :

وقد ملأ العدل اقطارها وفيها توالى الصفا والوفا

وبالجملة اذا وجد العدل في قطر من الاقطار فهو نسي اضافي ، لا عدل كلّي حقيقي ، فانه لا وجود له الآن في بلدة من البلدان ، فانه كالايان الكامل والحلال الصرف .

واما المادة الثانية ^(٧) فانها محض سياسية ، ويمكن ان يقال ان الفرد ونحوها لو

(٧) نص المادة كما عرجها الطهاوي : يعطون من اموالهم بغير امتياز شيئاً معيناً ليت المال كل انسان على حسب ثروته .

كانت مرتبة في بلاد الاسلام ، كما هي في تلك البلاد ، لطابت النفس خصوصاً اذا كانت الزكوات والفيء والغنيمة لا تفي بحاجة بيت المال ، او كانت ممنوعة بالكلية ، وربما كان لها اصل في الشريعة على بعض اقوال مذهب الامام الاعظم ^(٨) . ومن الحكم المقررة عند قدماء الحكماء : الخراج عمود الملك ، ومدة اقامتي بباريس لم اسمع احداً يشكو من المكوس والفرد والجيابات ابداً ولا يتأثرون بحيث انها تؤخذ بكيفية لا تضر المعطي وتنفع بيت مالهم خصوصاً واصحاب الاموال في امان من الظلم والرشوة . واما المادة الثالثة ^(٩) فلا ضرر فيها ابداً ، بل من مزايها انها تحمل كل انسان على تعهد تعلمه حتى يقرب من منصب اعلى من منصبه ، وبهذا كثرت معارفهم ولم يقف تمدنهم على حالة واحدة مثل اهل الصين والهند ممن يعتبر توارث الصنائع والحرف ، ويبقى للشخص دائماً حرفة ابيه . وقد ذكر بعض المؤرخين ان مصر في سالف الزمان كانت على هذا المنوال ، فان شريعة قدماء القبط كانت تعين لكل انسان صنعته ، ثم يجعلونها متوارثة عنه لاولاده . قيل سبب ذلك ان جميع الصنائع والحرف كانت عندهم شريفة ، فكانت هذه العادة من مقتضيات الاحوال لانها تعين كثيراً على بلوغ درجة الكمال في الصنائع ، لان الابن يحسن عادة ما رأى اياه يفعلها عدة مرات بحضرته ، ولا يكون له طمع في غيره ، فهذه العادة كانت تقطع عرق الطمع وتجعل كل انسان راضياً بصنعة لا يتمنى اعلى منها ، بل لا يبحث الا عن اختراع امور جديدة نافعة لحرفته توصل الى كمالها (انتهى) . ويرد عليه انه ليس في كل انسان قابلية لتعلم صنعة ابيه ، فقصره عليها ربما جعل الصغير خائباً في هذه الصنعة ، والحال انه لو اشتغل بغيرها لتجبح حاله وبلغ آمله . واما المادة الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة ^(١٠) فانها نافعة لاهل البلاد والغرباء فلذلك كثر اهل هذه البلاد وعمرت بكثيرون من الغرياء . واما المادة الثامنة ^(١١) فانها تقوي كل انسان على ان يظهر رأيه وعلمه وسائر ما يخطر بباله

(٨) يقصد ابا حنيفة .

(٩) نصها حسب تعريب الطهطاوي : كل واحد منهم متأهل لاختد اي منصب كان واي

رتبة كانت .

(١٠) مواد تتعلق بجرية الشخص الانساني ، وحرية الاعتقاد الديني للجميع (الغرياء ايضاً) .

(١١) تتعلق باطلاق حرية الرأي .

مما لا يضر غيره ، فيعلم الانسان سائر ما في نفس صاحبه ، خصوصاً الورقات اليومية المسماة بالجرنالات والكازيطات ، الاولى : جمع جرنال ، والثانية جمع كازيطة « Gazette » ، فان الانسان يعرف منها سائر الاخبار المتجددة سواء كانت داخلية وخارجية ، اي : داخل المملكة او خارجها ، وان كان قد يوجد فيها من الكذب ما لا يحصى ، الا انها قد تتضمن اخباراً تتشوق نفس الانسان الى العلم بها . على انها ربما تضمنت مسائل عملية جديدة التحقيق ، او تنبيهات مفيدة ، او نصائح نافعة ، سواء كانت صادرة من الجليل او الحقير ، لانه قد يخطر ببال الحقير ما لا يخطر ببال العظيم ، كما قال بعضهم : لا تحتقر الرأي الجليل يأتيك به الرجل الحقير ، فان الدرة لا تستهان لهوان غواصها

ومن فوائدها ان الانسان اذا فعل فعلاً عظيماً او رديئاً ، وكان من الامور المهمة ، كتبه اهل الجرنال ليكون معلوماً للخاص والعام ، لترغيب صاحب العمل الطيب ، ويرتدع صاحب الفعلة الخبيثة ، وكذلك اذا كان الانسان مظلوماً من انسان كتب مظلّمته في هذه الورقات فيطلع عليها الخاص والعام فيعرف قصة المظلوم والظالم ، من غير عدول عما وقع فيها ولا تبديل ، وتصل الى محل الحكم ، ويحكم فيها بحسب القوانين المقررة ، فيكون مثل هذا الامر عبء لمن يعتبر ، واما المادة التاسعة ^(١٢) فانها عين العدل والانصاف وهي واجبة لضبط جور الاقوياء على الضعفاء ، وتعقيبها بما في العاشرة ^(١٣) من باب اللياقة الظاهرة . . . « الخ .

وليس في كل هذا الا ما يدل على ان الطهطاوي تأثر اعظم التأثير بما رآه في نظام فرنسا من نتائج ثورتها الكبرى . وله في كتابه « تخليص الابرز » ملاحظات موزعة تدل على تقديره للتفكير الفرنسي المبني على احكام العقل ، وهو التفكير الذي ازهر زهره واثّر ثمره في القرن الثامن عشر في اعلام المفكرين قبل الثورة . والى القارىء شيئاً من ملاحظاته : « ان الباريزيين يمتصون من بين كثير من النصارى بذكاء العقل

(١٢) تتعلق بجرمة الملكية الخاصة .

(١٣) تتعلق بحق الدولة في التصرف باي ملك من املاك الرعايا ، لقاء تعويض ، اذا اقتضت ذلك المصلحة العامة .

ودقة الفهم وغوص ذهنهم في العويصات . وليسوا اسراء التقليد اصلاً ، بل يحبون دائماً معرفة اصل الشيء ، والاستدلال عليه ، حتى ان عامتهم يعرفون ايضاً القراءة والكتابة ويدخلون مع غيرهم في الامور العميقة كل انسان على قدر حاله . فليست العوام في هذه البلاد من قبيل الانعام ، كعوام اكثر البلاد المتبررة . والفرنساوية من الفرق التي تعتبر التحسين والتقبيح العقليين . واقول هنا : انهم يذكرون خوارق العادات ويعتقدون انه لا يمكن تخلف الامور الطبيعية اصلاً . ان الاديان انما جاءت لتدل الانسان على فعل الخير واجتناب ضده ، وان عمارة البلاد وتطرق الناس وتقدمهم في الآداب والظرافة تسد مسد الاديان ، وان الممالك العامرة تصنع فيها الامور السياسية كالامور الشرعية^(١٤) .

غير ان الطهطاوي ، اذ يباغ به الحديث الى مسألة القضاء والقدر ، يخالف التفكير الفرنسي المبني على احكام العقل . فهو يترك للقضاء والقدر مجاله « وان كان لا ينبغي للانسان ان يحيل الاشياء على المقادير اذ يحتاج بها قبل الوقوع . »
وللطهطاوي فصل خاص في الكتب التي طالعها في باريس ، واكثرها يرجع الى القرن الثامن عشر ، وتأخذ باسباب التفكير المبني على احكام العقل . وفيما يلي نص كلام الطهطاوي عن مطالعته :

« قرأت كثيراً من كتب الادب . فمنها ٠٠٠ عدة مواضيع من ديوان ولثير ٠٠٠ وديوان رسو خصوصاً مراسلاته الفارسية التي يعرف بها الفرق بين آداب الافرنج والعجم وهي اشبه بميزان بين الآداب المغربية والمشرقية^(١٥) . وقرأت في الحقوق الطبيعية ، مع معلمها ، كتاب برلماكي وترجمته وفهمته فهماً جيداً . وهذا الفن عبارة عن التحسين والتقبيح العقليين يجعله الافرنج اساساً لاحكامهم السياسية المسماة عندهم شرعية . وقرأت ايضاً مع مسيو شواليه جزئين من كتاب يسمى « روح الشرائع » ، مؤلفه شهير بين الفرنسيين ، يقال له مونتسكيو ، وهو اشبه بميزان بين

(١٤) قال : الشرعية لان كلمة شرعية تطلق على النواميس الدينية في اللغة العربية .

(١٥) ظاهر ان المؤلف وقع هنا في هفوة ، فالمراسلات الفارسية لمونتسكيو ، عدا ان

روسو ليس له ديوان .

المذاهب الشرعية والسياسية ومبني على التحسين والتبحيح العقلين . ويلقب عندهم مونتسكيو بـ « ابن خلدون الافرنجي » . كما ان ابن خلدون يقال له عندهم ايضاً مونتسكو الشرق ، اي : مونتسكو الاسلام . وقرأت ايضاً في هذا المعنى كتاباً يسمى عقد التانس والاجتماع الانساني ، مؤلفه يقال له روسو وهو عظيم في معناه . . . وقرأت عدة محالّ نفيسة في معجم الفلسفة للاخواجه ولثير وعدة محال في كتب فلسفة « قنديلانق » « Condillac » .

ومن الامور التي يبدي الطهطاوي اعجابه بها ثقافة المرأة الفرنسية ، فيقول : ان للنساء تأليف عظيمة . ومنهن مترجمات للكتب من لغة الى اخرى ، مع حسن العبارات وجودتها . ومنهن من يُتمثل بانشائها ومراسلاتها المستعربة . ومن هنا يظهر لك ان قول بعض ارباب الامثال : جمال المرأة عقله وجمال المرأة لسانها ، لا يليق بتلك البلاد .

وهكذا نستطيع ان نقول ان رفاة رافع الطهطاوي ، مع رجال البعث الذين انفذهم محمد علي باشا الكبير الى فرنسا ، كانوا من اعظم المجاري التي تسربت خلالها الى الشرق العربي آثار من مبادئ الثورة الفرنسية وكبار مفكرها .

ولكن هناك مجرى آخر ، اذا شئنا ان نرجع الى أصله في التاريخ وجب علينا ، ايضاً ، انرجوع الى الحملة النابليونية . فان هذه الدفعة العسكرية القوية تجاوزت مصر وبلغت اسوار عكا حيث حاصرت احمد باشا الجزائر في قاعدته ، وطارت اخبارها الى لبنان زمن الامير بشير الشهابي .

بين ايدينا هذا الكتاب الغني الذي تركه المطران يوسف الدبس عن تاريخ سوريا . فلنكتف منه بالنسخة الموجزة ، ولنراجع وقائع التاريخ اللبناني خلال الايام التي كانت تهب فيها رياح الثورة الفرنسية على الدنيا ^(١٦) .

سنرى ان هذا الوطن البديع النشيط ، القائم على ساحل الابيض المتوسط ، كان هو ايضاً في غليان دائم . والقصة واحدة : امير حاكم على لبنان ، يحتاج الى المال او

(١٦) راجع المختارات ، من كتاب المطران الدبس ، في قسم النصوص .

يطلب منه اسياده الذين ولوه الامارة مبلغاً من المبالغ ، او هو يتبرع بتقديم المبلغ مزاحمة لامير آخر رشح نفسه لحكم لبنان ، ويأتي موعد الدفع ، فيضرب الضريبة على السكان وعلى مواسمهم ، ويبيث جباته ، فيمتنع الناس ، وتندلع نيران الثورة ، الى ان يسقط الامير او يغلب الاهالي على امرهم ، فيؤدوا المال ، الا ان روحهم تبقى على حداثها وتوفرها ، غير مثالومة ولا منكسرة .

واذن ، فقد كان في اللبنانيين استعداد عقلي وقابلية روحية ، لما لفجرتهم اولى انباء الثورة في البلاد المقابلة لبلادهم عبر البحر الذي يطلون على امواجه . اما كيف وصلتهم هذه الانباء ، فقد سبق ان الحملة النابليونية على مصر هي التي حملت اليهم تباشيرها . كانت تنمو في لبنان ، اذ ذاك ، بواكير الزهرات الادبية ، التي بشرت بمطلع النهضة الحديثة وموسمها المقبل . ونخص بالذكر من تلك البواكير الكاتب الشاعر نقولا الترك .

ونستطيع ان نتصور الناس في لبنان وقد بلغتهم انباء الحملة الفرنسية على مصر ، وامتدادها الى اسوار عكا . فان اميرهم ، الامير بشير ، كان موالياً للجزار . فما يكون موقفه الآن والجزار محصور في قاعدته ؟ وهذا القائد الفرنسي بونابارته يشدد عليه الخناق . ومحتمل كل الاحتمال ان يفتح عكا ويتقدم بجيوشه الى لبنان . ولكن من بونابارته هذا ؟

ولا شك ان حديث الناس عن الفاتح الجديد الذي حط رحاله في وادي النيل ومشى يريد اكبال الفتح ، صرف الناس الى الحديث عن فرنسا وما طرأ عليها قبل ان يبرز بونابرت .

وهكذا وقعت الانظار على الثورة الفرنسية الكبرى والانقلاب العميق الذي أحدثته في فرنسا . ولسنا نعرف بالضبط كيف اطلع اللبنانيون على حوادث الثورة ، فربما حملها اليهم التجار الذين كانت لهم صلات قديمة بين هذا الشاطئ . من المتوسط والشاطئ المقابل . وربما جاءتهم اخبارها على السنة مسافرين كانوا في مصر وعرفوا جنود نابليون وخاطبواهم .

على اننا نعلم علم اليقين ، استنتاجاً من تاريخ الامير حيدر الشهابي ، ان اللبنانيين سمعوا ببعض حوادث الثورة في عهد باكر ، كهجوم الشعب ، سنة ١٧٩٢^(١٧) ، على القصر الملكي في باريس (التويلري) ، وعرفوا ان الشعب طالب مجلساً نيابياً « ديواناً عظيماً ومحفلاً جسيماً يكون فيه للملك الصوت الاول » ، وعرفوا كذلك ان الملك حاول ان يهرب ، فقبض عليه وسجن في حبس « الطامبل » (Temple) ، ثم اعدم ، وانفردت « المشيخة » بالتدبير . ولكن اللبنانيين اذا استندنا الى تاريخ الامير حيدر لم تخل معلوماتهم عن الثورة من اضطراب ظاهر ، وقد يكون هذا طبيعياً ومنتظراً في مثل تلك الظروف والايام .

أما رأيهم في الثورة وحوادثها ، فكلام الامير حيدر يدل حيناً على عطف ، وحيناً على تشجيع . ونقدر ان موقف كثير من الاوساط الدينية تجاه الثورة والحكم على الملك بالاعدام ، ساعد الدعايات المعارضة للثورة وغشى حقيقتها بغشاء كثيف . ولا تزال الدعايات تستغل هذه الامور وامثالها للتشجيع على الثورة الى اليوم . وطريف حقاً ان نقرأ الوصية التي اثبتتها الامير حيدر على لسان لويس السادس عشر ، قبل اعدامه ، فان في اسلوبها ما يذكر ببعض الادباء المعاصرين الذين يكتبون عن الثورة ، فيكتفون بالحديث عن « القوغاء » و « الحزن الملكي » وما اشبه . ومنهوم ان لاثورات بواد من بطش وعنف . ويمكن القول ان كثيرين من اللبنانيين ، لما انتقلوا الى الثورة الفرنسية - على بعد المسافة - غلبت على ابصارهم مشاهد العنف والبطش . وجاءت الدعايات المعارضة تضخم تلك المشاهد في ابصارهم ، وتجرد الثورة من فضائلها ، فهي « الفتنة » او « الفتنة العمياء » وكفى . وستكون لنا امامة ثانية بهذا الموضوع فيما بعد .

ولكن اللبنانيين منذ الساعات الاولى ساورهم شعور ادى بهم الى المقايسة بين شيئين : فظاعة الثورة والتخريب الذي احدثته من جهة ، ونهضة فرنسا من جهة اخرى وظهور رجل كتابليون على مسرح الحوادث العالمية . وبين الثورة ونابليون صلة وصل متينة ، فكيف تكون الثورة فظاعة وخراباً وتنتهي بهذه القوة الباهرة ؟

ومن يقرأ مقدمة الكتاب الذي ألفه الشاعر الكاتب ، نقولا الترك ، في الثورة الفرنسية والحروب النابليونية يشعر بالشعور الغامض الحائر الذي خالج النفوس بازاء الثورة والحكم لها او عليها . يقول نقولا الترك :

« جرت عادة الاوائل ، بتأليف الكتب والرسائل ، وذكر ما یر عليهم من الحادثات الكونية والحركات الكلية ، من قيام دولة على دولة ، وانتشار الحروب المهولة ، وما يتعلق بها من المواقع المريبة والامور الفظيعة ، فحق لنا ان نورخ في هذا الكتاب ، لانتفاع الطلاب ، ما حدث من التغيير والانقلاب ، مما اجرته يد الاقدار ، في هذه الامصار ، ومما آذنت العزة الالهية ، بظهور المشيخة الفرنسية ، وما تكون بسببها من الفتن في البلاد الافرنجية ، وديار الرومية ، وتتل سلطانهم ، وخراب بلدانهم ، وانتشار شانهم ، ورجحهم من بعد (خسرانهم) ، وذلك بظهور فرد افرادهم ، وقايد اجنادهم ، الليث الشديد ، والبطل الصنديد ، امير الجيوش — الامير بونابارته ، وذكر الحروب التي ثارت بتلك الممالك ، وحدثت الشرور والممالك ، وقهر البلاد التي اتصلوا اليها ، والانتصارات العظيمة التي حصلوا عليها ، بانتقالهم الغريب من الغرب الى الشرق ، ومرورهم العجيب اسرع من البرق ، ونزولهم على جزيرة مالطة ، كالصواعق الهابطة ، وفتوحهم ثغر الاسكندرية ، واستيلائهم على الاقطار المصرية ، وذكر ما تم لهم من التملك ، في حروبهم مع الغز والممالك ، وسيورهم على الاقطار الشامية ، ومحاصرتهم لمدينة عكا القوية ، مسكن ذلك الوزير الجبار ، المعروف باحمد باشا الخزار ، ورجوعهم الى ارض مصر ، وما تم لهم في ذلك العصر ، وكفاحهم مع الدولتين العظيمتين ، الدولة العثمانية والدولة الانكليزية ، ومصادمتهم للعساكر البرية والبحرية ... » الخ .

فاذا تأملنا هذا الكلام ، وجدنا ذكر الثورة الفرنسية مقروناً بالفتن وقتل السلطان ، (اي الملك لويس) ، وخراب البلدان . ولكن سرعان ما وجدنا المطاف يفضي بنا الى : انتشار شان الفرنسيين ، ورجحهم بعد خسرانهم ، وانتصاراتهم العظيمة ، وانتقالهم الغريب من الغرب الى الشرق ، وهلم . وكما كان نقولا الترك موفقاً حين اتى على ذكر الثورة وقيام المشيخة الفرنسية في جملة « الحادثات الكونية والحركات

الكلية » . فالثورة الفرنسية حقاً حادث كوني وحركة كلية وهذا من اوجز وابدع ما يقال فيها .

وكأنّ اللبنانيين ما لبثوا ان تقدموا تقدماً سريعاً في فهم الثورة وحقيقة معناها . واننا لنصادف في التاريخ اللبناني ، حوالي هذا العهد ، بعض حركات وانتفاضات يعمل فيها وعي الشعب عمله الملموس ، كعاميتي انطلياس وحفد سنة ١٨٢٠ - ١٨٢١ ، وكالثورة على ابراهيم باشا والاحتلال المصري سنة ١٨٤٠ ، وكغضبة طانيوس شاهين على التحكم الاقطاعي سنة ١٨٥٩ .

ويهمنا ان نلاحظ في هذا الصدد ، ان كلمة « العامة » انما هي تعريب حرفي لكلمة « Commune » الفرنسية . وكان اللبنانيون يشكلون العاميات ، في مناسبات خاصة ، للامتناع من دفع الضرائب ، كما وقع في عاميتي انطلياس وحفد اذ طلب عبد الله باشا الوالي العثماني في عكا مبالغاً مالياً من الامير بشير ، ففرضه الامير على اللبنانيين وبث الجباة لجمعه ، فكانت عاميتا انطلياس وحفد . ولسنا نعلم هل كان اللبنانيون متأثرين في عامياتهم بشيء من الثورة الفرنسية .

ولكننا نعلم علماً لا يشوبه الظن ان اللبنانيين في المنشور الذي اذاعوه سنة ١٨٤٠ م يدعون فيه الى الثورة على ابراهيم باشا ، ضربوا للشعب مثلاً من البأس والثبات الفرنسي في القتال . يقول المنشور :

فليرقد بسلام رفات اخواننا (يقصد الحورانيين وكانوا قد ثاروا على الحكومة المصرية) الذين ماتوا في سبيل الحرية ، فانهم ضاهوا بشجاعتهم الفرنسيين الذين عندما هُددوا بالاستئصال ، اذا لم يستسلموا ، فضأوا الموت فحاضوا غمرات الوغى وقتلوا ١٥٠ الف رجل . فهذا ايها الاخوان حادث تاريخي ، يجب ان لا يذهلكم ، فان مواطنينا الذين قاتلوا في حوران كانوا قليلي العدد ، ومع ضعف وسائلهم كما تعلمون قد فاقوا الفرنسيين (١٨) .

ولسنا نعرف بالضبط الحادثة انتي يشير اليها المنشور في التاريخ الفرنسي . على اننا نرجح انها تلك الوثبة الجبارة التي وثبها الباريسيون ايام الثورة الكبرى ، حين

بعث الدوق دي برونشفيك البروسي ، يتهددهم بسحقهم وبحق عاصمتهم اذا مستوا الملك وقصره ، فردوا عليه بحاصرة قصر التويلري واقتاحه في ١٠ آب سنة ١٧٩٢ ، واعتالوا الملك ، وصادوا جيش التدخل الاجنبي ، وظفروا به في معركة فالمي الشهيرة .

اما حركة طانيوس شاهين ، فليس في اخبارها اشارة صريحة الى تقاليد فرنسا الثورية ، على ان في مخطوطة انطون ضاهر العقيقي ^(١٩) التي تحدث فيها عن هذه الحركة ، ذكراً لشكل السلطة التي كان يستند اليها طانيوس شاهين اذ كان « يقول بقوة الحكومة الجمهورية » . ويدعو صاحب المخطوطة طانيوس شاهين وجماعته « الجمهور » . ويغلب على الظن ان كلمة « الجمهورية » و « الجمهور » ، بالمعنى السياسي ، عرفها اللبنانيون بتأثير من الثورة الفرنسية الكبرى . وقد رأينا ان اول منشور اذاعه نابليون على المصريين ، يحمل في فاتحته هذه العبارة : « من طرف الجمهور الفرنسي المبني على الحرية . »

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن مجاري الثورة الفرنسية الى الشرق العربي من طريق مصر وفلسطين ولبنان ، فينبغي لنا ان نحول النظر منذ الآن شطر الشمال ، شطر البلقان وتركيا ، وكانت هي والشرق العربي داخلة جميعها في نطاق الامبراطورية العثمانية الضخمة .

ومعلوم ان ريجاً من الثورة الفرنسية ما لبثت ان هبت من غرب اوربا على البلقان ، في شرقها ، فساعدت على ايقاد لهيب من الثورات الوطنية الاستقلالية على الحكم العثماني . وكانت ابعد هذه الثورات صدق في الشرق العربي ثورة اليونان التي حرتهم ، بعد نضال طويل دام من سنة ١٨٢٧ الى ١٨٢٩ . ونفذت لفحات من ريح الثورة الفرنسية الى صميم الامبراطورية العثمانية وقاعدة السلطنة .

وغني عن البيان ان الامبراطورية العثمانية كانت اذ ذاك تحرك رجلاً للهبوط في سلم التاريخ . وقد بدأت طلائع فيها من اهل العقول النيرة تشعر بوجوب الاصلاح . والسلطان سليم الثالث الذي ولي الحكم سنة ١٧٨٩ ، وهي اولى سني عهد الثورة ،

• ما لبث ان احس بضرورة شيء من التعديل والتبديل ، ولكنه قصر جهده على الجيش وكان كثير من اصلاحاته مظهرياً • ومع ذلك فقد شق عليه جيش الانكشارية عصا الطاعة ، وخلعوه ، ثم قتلوه ، والقوا ما سماه « النظام الجديد » • وبالطبع ان الثورة الفرنسية وحوادثها ومبادئها حملت الاوساط الرسمية العثمانية فوراً على استنزاز وامتناع شديد • وعاطف باشا الذي صادف ان كان رئيس الكتاب (وزير الخارجية) ايام السلطان سليم الثالث ، علق على الثورة الفرنسية بما يلي :

« ان جان جاك روسو وغيره من مشاهير الزنادقة والدهريين قد قاموا بتأليف الكتب الالحادية المفسدة في سب الانبياء وإبطال الاديان وذم الملوك والاشراف ، ونزاهم في هذه الكتب يميلون الى التهكم ، ويستخدمون الفاظ العوام واساليبهم حتى يفهم منهم الناس ويتذوقوا طعم المساواة والجمهورية • • • وهم الذين دعوا الى الغاء اصول الالتزام (اي : نظام الاقطاع) الذي يعتبر اساس كل دولة (!) ومدار ارتباطها ونظامها • ثم حرصوا على الالحاد ونبد الدين والشرع والمذاهب ، وبذلك مهدوا لانقلاب سكان فرنسا الى هيئة البهائم • وليت الامر وقف بهم عند هذا الحد ، بل انهم تجاوزوا ذلك ، فقد وجدوا في كل مكان اشياء مماثلين لهم ترجموا بيانهم المنعم بالطغيان والمسمى بـ « حقوق الانسان » الى جميع اللغات ونشروه بين عامة الامم والملل التي كانوا يحرضونها فيه على حكامها (٢٠) • »

غير ان الطلائع الذين المعنا الى ذكرهم ، من اهل العقول الثيرة ، في الامبراطورية العثمانية لم يكونوا ليوافقوا عاطف باشا ونظراءه على مثل هذه الاحكام ، والآراء التي تجري مجرى التهم الباطلة • ولم يتحاشوا ان يسددوا سهام نقدهم الى الحكم السلطاني المطلق ويطالبوا بالدستور • وما زال عددهم يتزايد وتأثيرهم ينمو حتى كانت حركة مدحت باشا ودستوره ، ثم الرجعة الحميدية (نسبة الى عبد الحميد) ثم حركة تركيا الفتاة والانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ •

(٢٠) نقلناه عن الدكتور كامل عياد في مقال له : الثورة الفرنسية والشرق ، نشرته

ولا يحتاج الى قول : ان الحركة الدستورية العثمانية من مدحت باشا ^(٢١) الى شباب تركيا الفتاة ^(٢٢) بل الى الانقلاب الكبالي ، تأثرت بالثورة الفرنسية ومبادئ مفكرها تأثراً واضحاً . ولقد عرف الشرق العثماني والعربي ايام عبد الحميد قافلة كبيرة من احرار الفكر استلهموا فرنسا النائرة واعلام ادبائها الثائرين وهاجروا الى الارض الفرنسية ، ونقلوا آثاراً فرنسية ^(٢٣) من نتاج العقول الحرة ، وكانت هجرتهم وما نقلوه من المجاري البارزة التي سلكتها الثورة الى الشرق .

ولكن هذا كله يدخل بنا في فصل جديد ، كثير شعاب الموضوع ، طويل الشقة .

(٢١) كان تأثر مدحت باشا بالتقاليد الفرنسية صريحاً ومشهوراً ، حتى انه لما قبض عليه للمحاكمة ، اخرج مستنطقه راغب بك مكتوبين باللغة الفرنسية من مطروفين وقال له : ما قولك في هذين ؟ (راجع كتاب محاكمة مدحت باشا تعريب يوسف كمال حتاته) .

(٢٢) نرى جرجي زيدان يشير الى تأثر شباب تركيا الفتاة (جمعية الاتحاد والترقي) بمبادئ الثورة الفرنسية اشارة جلية حين يجعل عزت باشا في رواية « الانقلاب العثماني » يقول لرامز الكاتب وهو يستنطقه في السجن : « قد اندفعت بتيار الافكار الفرنجية التي ييشها الاعداء باسم الدستور والحرية ... من هم هؤلاء المؤسسون ؟ اظنهم بعض المتفرجين الذين كانوا في باريس او جنيف ؟ »

(٢٣) نخص بالذكر كتاب « شرائط الاجتماع » لروسو ، نقله الى التركية الاديب التركي الكبير محمد نامق كمال ، فعرفه كثير من الادباء العرب الذين كانوا لا يحسنون غير التركية من اللغات الاجنبية . اما التسمية « شرائط الاجتماع » فهكذا نقلها جرجي زيدان في فصله عن محمد نامق في « مشاهير الشرق » ، والمقصود طبعاً Le Contrat Social .

الأدباءُ والمفكِّرون العربُ أمام الثورة

١ — عرض عام

... والحقيقة هذه هي : ان الانسان لا يفلح ولا يسعد ولا يرتقي الا بممارسة حقوقه الطبيعية ، وان الامم لا تنشأ الا بنشوء افرادها ، وان الحكومات الحرة لا تقوم الا بشرائع عادلة تسنها المجالس النيابية لا باوامر تصدرها الملوك والولاة . واول حقوق الانسان : الحرية ، حرية الفكر وحرية القول وحرية العمل . واول اسباب الرقي في الامم : الحرية الاجتماعية والحرية السياسية والحرية الدينية . واول دلائل الحياة الحرة الراقية ان يجمع افراد الامة على السواء بهذه الحقوق الطبيعية ، فيسمعون دائماً في تعزيزها ، وينهضون للدفاع عنها عندما تقيد او تقتن . ومن اكبر دعائم الحكومات الحرة المستقلة قانون يكفل لشعبها هذه الحقوق الاولوية ويوجب عليهم الدفاع عنها يوم ينهض عليها الظالمون ويحاولون قتلها .

امين الريحاني في « الريحانيات »

ها نحن في زمن السلطان عبد الحميد الثاني !
وواضح ان السلالة العثمانية كانت تأخذ باسباب « الحكم المطلق » وتستند الى حق الملوك الالهية شأن غيرها من السلالات المالكة القديمة ^(١) .
وكان عبد الحميد الذي قبل الدستور ، اول الامر ، شديد النزعة الى الحكم المطلق يريد حصر السلطة بيده ، وقد فعل . فباتت تكال له ألقاب [التفخيم

(١) ذكر جرجي زيدان في « مختاراته » ان السلطان سليمان القانوني ارسل الى فرنسيس الاول ملك فرنسا كتاباً بهذه فاتحته : « انا سلطان السلاطين وملك الملوك وواهب الاكابر لملوك العالم ، ظل الله على الارض ... »

والتمجيد ، فهو « ظله (ظل الله) الاكرم وخليفته الاعظم ^(٢) . » وهو « وارث الانبياء بلا امتنان ، وخلاصة بني عثمان . »

ولعلنا نحسن صنعاً اذا وقفنا قليلاً لنجسّ تيار الفكر السياسي الذي كان يديحه عبد الحميد ، فان هذا ليزيدنا فهماً لتيار الفكر السياسي الذي انطلق بدافع من الثورة الفرنسية ، ويعيننا على فهم الاصطدام القوي الذي وقع فيما بعد بين التيارين .

ولعلنا لا نجد احداً يمثل الفكر السياسي الحميدي « مفلساً » كما يمثل لبناني من ادباء ذلك العهد ، هو الدكتور الظريف شاكر الخوري . والارجح ان الدكتور شاكر كان لا يشعر بانه يث « فلسفة » السياسة الحميدية ، بل الارجح انه كان لا يريد ان يثبتها ، الا انه مع ذلك كان يكره جلب الاذى لنفسه ، و « المسكين » - في نظره - « من تقدمت افكاره عصرها ، فهو الذي يكون الضحية الاولى . » وما اغناه عن ان « يفحص كلف الشمس بالعين العارية ويعرض نفسه للعمى بلا فائدة . » وباختصار « اكرم رئيسك ولو كان حماراً ^(٣) . »

مع ان الدكتور في خاتمة كتابه « مجمع المسرات » يعلن ان مؤلفه « جبل به في الظلم وولد في الحرية » لان صدوره مطبوعاً سنة ١٩٠٨ وافق سقوط عبد الحميد واعلان الدستور العثماني ، وبهذه الكلمة نفس عن صدر متضايق كان ينفس عنه قبلاً بلذع التوريات والنكات .

وفي الكتاب فصل عن « ضرورة السياسة للهيئة الاجتماعية » كتب في العهد الحميدي ، وهو الفصل الذي يساير فيه الدكتور شاكر تيار الفكر السياسي الحميدي « مفلساً » مجلباً مجلباب من « المنطق » و « القياس » فيثبت الدكتور اولاً ، ضرورة « القوانين التي تعطي كل ذي حق حقه » ثم يثبت ضرورة « اناس مخصوصين يديرون حركة القوانين ويسيرون بموجبها وهؤلاء هم الساسة . » اما القوانين فقمان : قسم يتعلق « بحقوق الافراد بين بعضهم » ، وقسم يتعلق « بحقوق الهيئة عموماً مع هيئة اخرى » ولا بد للهيئة المختصة التي تتولى ادارة القوانين من ان « يرأسها شخص تعطى له السلطة »

(٢) مجمع المسرات لشاكر الخوري .

(٣) جميع هذه المقتطفات من مقدمة كتاب مجمع المسرات للدكتور شاكر الخوري .

ويكون له مساعدون وقوة تنفيذ هي الجيش . وثلاثاً تحرب الجمعية « حصر الباري السلطة بيد واحد . »

ومن ثم يقابل الدكتور بين الحكومة والجسم ، مقابلة طريقة لا نلبث اذا حققنا فيها النظر ان نجد ان الحكومة هي الدولة العثمانية الحميدية ، شبهها الكاتب بالجسم الانساني ليثبت موافقتها للخلق الطبيعي .

ف (الرأس هو الملك) . والرأس عليه « مدار الحياة » وهو « مركز العقل يميز النافع من الضار . » ولذلك « نرى هذا التحفظ الكلي للرأس » اذ « تحيطه اخصون من كل ناحية . » ثم (الرئة) التي هي (الصدر الاعظم) ووجه الشبه ان الرئة تدخل الهواء الجديد وتنقي الدم ، والصدر الاعظم وظيفته ان يدخل كل شي نافع لبلاده . ثم (القلب) وهو (وزير المالية) ، القلب يوزع الدم في الجسم ووزير المالية يسهر على الامداد بالنفقة . فالدم هو المال .

اما المعدة (فهي الخزينة) .

واما الاعصاب فهم الولاة ، صلة الوصل بين الملك الذي هو الرأس وبين البلاد . ثم تأتي (الاطراف) ، وهؤلاء هم (العسكرية) ، و « الاطراف العليا تشبه اخيالة ، والسفلى المشاة » ، و « كلها تتحرك بأمر الملك . » و « كما ان الاطراف تقنع بالغذاء القليل كذلك العسكرية التي عليها مدار شرف المملكة وحمايتها فتكتفي بغذائها فقط ، لان ليس لها سلطة الادارة . فالقساوة على الاطراف كالقساوة على العساكر ، لان الاطراف - لتعودها مس الارض - فيقسو جلد لها ويصير قليل الاحساس كالعسكر الذين يعتادون على الشغل والتعب والحر والبرد ولا يجوز لهم الترفه لانه يضرهم ! » ثم تأتي الحواس ، التي هي السفراء .

اما الافرازات التي يلفظها الجسم فكالاشخاص المفسدين والمقلقين في المملكة . واخراج هذه الافرازات وظيفة من وظائف (العسكرية) . ويخلص الدكتور الى النتائج الآتية :

« الوظائف مختلفة في الاهمية ، واكل عضو وظيفة . ويكون مؤلفاً بهيئة تجعله قادراً على اقام هذه الوظيفة . وكلما كثرت اهمية العضو كان اكثر كمالاً وتركيباً . »

وهذا التفضيل سنة من الخالق ليس من العضو ذاته . وليس من الحكمة ان يتساوى الرأس والقدم لانهما لو تساويا لاختل النظام وخربت الحياة اذ لا يمكن القدم ان يقوم بواجبات الرأس ، ولا لهذا ان يختلف ذاك . ولكل منهما وظيفة خصوصية يتكافى او يتجاوزى حسب ضرورتها وحاجة الحياة اليها . وهذا التمييز هو عين العدل . مثلاً يجب للرأس بتغذيته خمسون غرام من الدم وللقدم يلزم عشرة غرامات . فيلزم ان يعطى الخمسون غرام من الدم اولاً للرأس ، اذ بدونه لا تقوم قائمة للقدم . ولذا ترى ان الدم اول ما يتوزع للرأس !

وبعد ذلك يرش الدكتور على هذا « المعجون الحميدي » شيئاً من الكلام العسلي « اساس السياسة الحق واساس الاجتماع المحافظة على الحقوق . »

ولسنا بحاجة الى ان نشرح للقارىء كيف ان الدكتور يبتث الفكر السياسي الحميدي « مفلساً » ومجلبباً لجلباب من المنطق والقياس ، فهو يقرر ضرورة حصر السلطة في فرد ، ويدعو كل عضو الى الاهتمام بوظيفته ، والى الرضى بقسطه من الدم (اي من المكافأة على عمله) ، فيكون محصل كلامه توطيد الاوضاع الحميدية . ومما يسترعي انتباهنا بوجه خاص ، رأيه في وظيفة الجنود . واذا ذكرنا ان الاوتوقراطية الحميدية تلقت ضربتها فيما بعد من الجيش ، ظهر لنا معنى دروس الدكتور شاكر الخاصة بالعسكرية .

وغني عن البيان ان مقابلة الدكتور بين الحكومة والجيم لا تصمد للنظر ، والمثل الالماني يقول : كل تشبيه اعرج . وتشبيهه هذا كسيح لا اعرج وحسب ! ولحظة تعرفنا ان الملك ، للهيئة او الجمعية ، ليس كالرأس للجسم . فالرأس اذا قطع هلك الجسم . وقد قطعت رؤوس ملوك فلم تهلك الهيئة بل زكت نافيتها وربت صحتها .

وكان طبعياً ان يتصدى لهذه « الفلسفة » السياسية الحميدية من يخالفها . بل ان هذه « الفلسفة » ، وهي مجلى من مجالي التعبير عن مشروعية الحكم المطلق ، اخذت بها الاوتوقراطية العثمانية قديماً . ووجدت طليعة من المعارضين ايام السلطان عبد الحميد بل قبله ايضاً . وكان عبد الحميد نفسه على جانب من الاستنارة ، فعمد الى شي .

من الاصلاح في نظام الحكم ، فادخل وزيره رشيد باشا « القانون المسمى بالتنظيمات الخيرية للمساواة بين رعايا الدولة المنسوبين الى غير العنصر الحاكم » . ولم يلبث عبد المجيد ان ايسد التنظيمات الخيرية بنحط يعرف بنحط الكوخانة . وسارت الدولة العثمانية خطى نحو الملكية المقيدة .

فلما ولي العرش السلطان عبد العزيز « ساقته عظمة الملك الى حب الاثرة والاستبداد ورأى اللذة في الانفراد بالاحكام ، فلم يجسر احد على التلطف بكلمة واحدة في امر الاصلاح . فقامت مقام التنظيمات وخط الكوخانة والقوانين الجديدة ادارة استبدادية » . و « ظن عبد العزيز الحكومة غير الامة . وبذر اموال الدولة في غير طائل كشرء الاسلحة واعداد الجنود لمقابلة الشعب بقوة مكوّنة من ابنائه ^(٤) » وحارب الوزيرين المستنيرين عالي باشا وفؤاد باشا ^(٥) .

وفي هذا العهد اشرق نجم مدحت باشا ، وهو احد الاعلام الساطعين في الكفاح من اجل الحكم الشوري في الشرق . وكان يتجه الى الغرب بنظره الاصلاحى . وكانت الثقافة الفرنسية صلة الوصل بينه وبين الغرب . وكان عميق التأثير ببادئ الثورة الفرنسية ، الا انه في الاغلب كان يرمي الى ملكية مقيدة بدستور ديموقراطى عصري لا الى جمهورية ، وان يكن ظهر من خصومه من « يتهمه » بالجمهورية وتفكيك الدولة العثمانية وحب الاستقلال ببعض اجزائها .

(٤) هذه المستندات من كتاب محاكمة مدحت باشا ، تعريب حتاته .
(٥) « كان هذان الوزيران قد اعلنا قانون الولايات ، وهو يوجب انتخاب مجلس عمومى في كل سنة لمشاركة الوالى في اعماله . وانتخبا اعضاء مجلس شورى الدولة من الولايات . فقال السلطان عبد العزيز في نفسه انهما سيتدرجان الى احداث مجلس نيابى . وكان قد رأى اثناء زيارته في اوربا ، الخطوط الحديدية والمصانع والطرق فشوقه الرجلان الى احداث مثلها في الاستانة ، ولكنه لم يسمع شيئاً مما قاله ، بل كان جل مقصده وقصارى جهده احداث مصانع ومتاجر باسم خزينته الخاصة لا باسم الشعب . فتذمر الشعب وكثر اللفظ ورأى السلطان ان في بقاء عالي باشا وفؤاد باشا ما يخالف مشربه لانهما لم يروجا غايته ولا خدما شخصه وروجا مطالبه . فنفر منهما نفور الظي من حباله القانص » (كتاب محاكمة مدحت باشا) .

ووفق مدحت باشا واعوانه الى خلع السلطان عبد العزيز وتولية السلطان مراد ليحكم بموجب دستور تقره الامة . ولكن عبد العزيز انتحر بمقراض لشدة غيظه . ولم يطل حكم مراد ، فعهد بالسلطنة الى عبد الحميد ، والنية لا تزال معقودة على اعلان الدستور . وعلان الدستور ، الا ان عبد الحميد ما لبث ان اتهم مدحت واعوانه بقتل السلطان عبد العزيز ، ودبر لهم محاكمة ، انتهت باعدام مدحت . وهكذا استطاع السلطان عبد الحميد ان يتابع سيرة الاوتوقراطية العثمانية ، واستبد بالامور وبالغ في استبداده .

وقد سبق لنا ان رأينا تيار الفكر السياسي الحميدي كما مثله الدكتور شاكر الخوري « مفلساً » ومجلبباً بجلباب من « المنطق » و « القياس » . فما هو التيار الفكري المعارض الذي كان يمثله مدحت باشا واعوانه ومفكرون وادباؤنا الأولى نزوعاً نزعته ، متأثرين بالثورة الفرنسية ومبادئها ؟

من اقدم آثار هذا العهد كتاب بعنوان : محاكمة مدحت باشا ، عربيه يوسف كمال حتاته ، وصدر تعريبه في مصر . وفيه نقرأ ما يوجهنا الى فهم مذهب الاحرار المعارضين لعبد الحميد ونلمس مدى تأثرهم بالثورة الفرنسية ومفكرها . يقول الكتاب : « الحرية تحدد الانسان حدوده ، وتعرفه موقفه في الهيئة الاجتماعية ، وهي التي تفرق بين الانسان وبين الحيوان ، وهي التي اوصلت الحكومات المتمدنة الى درجة الرقي ... »

« خلق الله الانسان وخلق اعضاءه فهو مختار في استعمالها ، حر في تصرفاته وحر كاته وسكناته ، له حق العمل كما يريد والتوجه الى اي مكان يرى فيه مصلحة نفسه ، وهذه هي الحرية الشخصية . ومع هذا فالانسان يميز بواسطة العقل النافع والضار والحسن والقبيح . والعقل يختلف بين الناس ولا يقدر الانسان على الوقوف عند حده وعدم التجاوز على حقوق الغير ، ولذلك فقد وجدت القوانين لوضع حدود للبشر وتعيين حقوق افراد الشعب ... » الخ .

ولقد اثبتنا في باب النصوص ، من كتابنا هذا ، مقطوعة طويلة نقلناها عن كتاب محاكمة مدحت باشا . فاذا راجعها القارئ - ولا بد له من مراجعتها - وجدها

اشبه بمنهج كامل كان اساساً فكرياً بنى عليه اعلام مفكرينا وادبائنا العرب . فكما
كثرت الالتفات في هذه المقطوعة (التركية) الى « العدل ، والمساواة ، والحرية ،
والشعب ، والحقوق ، ومونتسكيو » - وفي ذلك ما فيه من اثر يبين للثورة
الفرنسية ومبادئها - كثرت كذلك الالتفات اعلام مفكرينا وادبائنا الى هذه القيم
والمذاهب في الحكم والى « مونتسكيو » و « روسو » والثورة الفرنسية ومبادئها .
ولسنا نظن انفسنا بحاجة الى المعارضة بين التيار الفكري السياسي الذي تمثله تلك
المقطوعة ، والتيار الفكري السياسي الحميدي كما عرفناه في مقال الدكتور شاكرو
اخوري . فان نقاط الخلاف والتناقض بين التيارين ظاهرة للقارى .

ويلاحظ من المقطوعة ايضاً ، ان الاعلام من مفكرينا وادبائنا لم يكتفوا بالنظر
الى الثورة الفرنسية ، بل نظروا معها الى الاسلام ومبادئه ، فوجدوه يؤيد مطامحهم في
الاصلاح والشورى والدستور . (وهذه شعبة من الموضوع سنعالجها معاملة خاصة) .
واندفعت هجمة فكرية عنيفة على الاستبداد الحميدي ، في سبيل الحرية والدستور
والاصلاح . فكان الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ ، ولكن بقوة الجيش . واستمرت
اليقظة العربية الفكرية ، وقد كانت - وما برحت - للثورة الفرنسية يد
قوية فيها .

وسنبين في هذا الفصل ان نعرض لقافلة من كتابنا ومفكرينا الذين تأثروا بالثورة
الفرنسية ومبادئ اعلامها ، وسنرى ان القافلة عظيمة حقاً تكاد لا تخلو من اسم
كاتب او مفكر عربي شهير . وغني عن البيان اننا سنقتصر على اسماء الذين كان
تأثرهم واضح السمة عميق الطابع .

وليكن ابتداءنا بالسيد جمال الدين الافغانى (١٢٥٤ هـ - ١٣١٤ هـ) ،
١٨٣٩ م - ١٨٩٧ م) . وهو وان لم يكن عربياً فقد اتصلت حياته اتصالاً
وثيقاً بالشرق العربي ، واتفق اللغة العربية ، وله فيها آثار ادبية (كلمات وخطب
مقطعة ورسائل) ، تتزله منزلة الاديب العربي .

ولسنا نعلم كيف بدأ اطلاع الافغانى على الثورة الفرنسية ومبادئها ، ولكننا نعلم
انه انضم الى الحركة الماسونية في مصر ايام الخديوي توفيق ، والتحق بالمحلل

الاسكتلندي ظناً منه ان الماسونية حركة تحريرية . ولا يزال هناك اعتقاد الى اليوم بان الماسونية لها يد قوية في كل الثورات ، ومنها الثورة الفرنسية . على ان التحقيق التاريخي ، كما يقول زيدان ^(٦) ، دل على ان هذا الظن لا يستند الى اساس . وبالفعل اصطدم الافغاني بنجية مرة لما رأى ان المحفل الاسكتلندي الذي التحق به ، جعل من شعاراته : « الماسونية لا دخل لها في السياسة ! » فألقى كلمات نزويها كما حفظها لنا السيد محمد باشا الخزومي ، مؤلف كتاب « خاطرات جمال الدين الافغاني الحسيني » اوسع كتاب في موضوعه . قال الافغاني :

« اذا لم تدخل الماسونية في سياسة الكون - وفيها كل بناء حر ، واذا آلات البناء التي بيدها لم تستعمل لهدم القديم ولتشيد معالم حرة صحيحة واخاء ومساواة ، وتذك صروح الظلم والعتو والجور ، فلا حملت يد الاحرار مطرقة حجارة ، ولا قامت لبنائتهم زاوية قائمة ... »

« اول ما شوقني للعمل في بناية الاحرار عنوان كبير خطير - حرية ، مساواة ، اخاء - ، غرض منفعة الانسان ، سعي وراء ذلك صروح الظلم ، تشيد معالم العدل المطلق - فحصل لي من كل هذا وصف للماسونية وهو همة للعمل وعزة نفس وشتم واحتقار الحياة في سبيل مقاومة الظلم . »

وظاهر ما في هذا الكلام من تأثر بشعارات الثورة الفرنسية . ولما لم ير السيد الافغاني أن اشتراكه في المحفل الاسكتلندي يهيء له ما يريد من النشاط والتوجيه السياسي ، انشأ محفلاً وطنياً تابعاً للشرق الفرنسي ، وركز جهوده على المطالبة بدستور ومجلس شوري ، مستنداً الى ما تأثر به من شعارات الثورة الفرنسية ومبادئها ، مستمداً من روح الشورى في الاسلام ، مقتنعا بان الاصلاح الداخلي في طريقة الحكم يقوي الشرق في ثباته للعرب الزاحف عليه . وترتبط سيرة جمال الدين الافغاني بثلاث حركات شورية في الشرق هي : الحركة التركية الدستورية ، والحركة المصرية النيابية في عهد الخديوي توفيق وبعده ، والحركة الايرانية النيابية ايام ناصر الدين شاه .

(٦) في كتابه عن الماسونية . راجع فصله : الماسونية والثورة الفرنسية .

ويلاحظ ان باريس ، وما وراءها من تقاليد ثورية ^(٧) كانت جواً استأنس به جمال الدين الافغاني فأصدر من مدينة ثورة ١٧٨٩ مجلته « العروة الوثقى » بمساهمة صديقه الشيخ محمد عبده . ومع ان هذه المجلة لم ينتشر منها الا ثمانية عشر عدداً ، بين ١٣ آذار و١٦ تشرين الاول سنة ١٨٨٤ ، فان صدى صوتها كان عظيماً في تنبيه الافكار في الشرق العربي عامة .

ويجد القارئ في باب النصوص من هذا الكتاب ، طائفة مختارة من اقوال الافغاني تشف جميعها عن تأثر واضح بثورة فرنسا ومبادئ مفكرها الاحرار . وينتقل بنا القول الى مفكر آخر من طلائع مفكرينا : فرنسيس فتيح الله مراش الحلبي ، وقع في يدنا منه كتابان : « غابة الحق » (طبع في بيروت سنة ١٨٨١) و « مشهد الاحوال » (طبع في بيروت سنة ١٨٨٣) . كان فرنسيس مراش عميق التأثير بما بلغته فرنسا من التقدم في صحة اساليب الحكم وروعة المظاهر العمرانية ، وكان شديد التفاؤل بتيار الاصلاح الذي دبّ ديبه ايام السلطان عبد العزيز . فهو في كتابه : « غابة الحق » قوي الايمان بفوز العدل والحرية والعلم والعقل ، قوي الدعوة الى تأمل الطبيعة واحكامها وعبرها ، كثير التحدث عن « نزاهة الطبع الانساني » و « حرية النظرة » ^(٨) .

على انه في كتابه : « مشهد الاحوال » الذي انشأه ، او انشأ معظمه في غربته في باريس ، ميّال الى التشاؤم ، وان كان اكثر تشاؤمه معلقاً بسوء حظه الشخصي . والارجح انه لم يفقد يوماً ايمانه بفوز العدل والحرية والعقل ، الا انه ما لبث ان ادرك ان موجة الاصلاح التي لمسها ايام عبد العزيز ضعيفة سطحية ، فلا بد من امد طويل قبل اندفاع موجة اصلاحية قوية عميقة النبع كما يريد . ولئن يكن فرنسيس فتيح الله مراش لم يذكر الثورة الفرنسية ومبادئها ذكراً صريحاً

(٧) من اقوال جمال الدين : الدعوة لطلب الحرية في فرنسا - وهي دعوة حق ومطلب حق - كم صادف اهلوها من المحن وكيف استحر فيهم القتل وسالت الدماء ، واليوم فالعالم يقدّمهم ولسوف يقتدي بهم - خاطرات جمال الدين الافغاني ص ٢١١ - ٢١٢ .

(٨) وفي هذا ما يذكر بروسو .

فان وشائج الارتباط بينه وبينها ، وبين اعلامها المفكرين ، صريحة ملموسة ولا سيما في كتابه « غابة الحق » .

وانه لكتاب فريد في نوعه ، قص فيه المؤلف قصة حلم تراءى له ، واودعه آماله وأمانيه في مصير بلاده والدنيا . يدور هذا الحلم الرمزي العجيب على حرب نشبت بين « مملكة الحرية » و « العبودية » ، فظفرت فيها مملكة الحرية ، ووقع ملك العبودية في الاسر ، واقيمت محكمة ، اجتمع فيها ملك الحرية وامراته « ملكة الحكمة » ورئيس جنده « نائد جيش التمدن » ووزيره وزير « محبة السلام » ، وسبق اليها ملك العبودية واعوانه ليحاكموا ، وكان « الفيلسوف » يمثل دوره الاساسي في توجيه المحاكمة وتوضيح طرق التسوية والاصلاح .

ولما كان اجتراء الاقوال القصيرة من كتاب « غابة الحق » لا يعني بغرضنا ، فقد آثرنا ان يرجع القارئ الى باب النصوص من مؤلفنا هذا ، ففيه فصول اخترناها لظهار اثر الثورة الفرنسية ومبادئها في كاتب يعد باكورة زكية من موسم نهضتنا الفكرية والادبية .

ومن فرنسيس مراث ينتقل بنا الحديث الى اديب اسحق تلميذ الافغاني وصديقه ورفيقه . وقل بين كتاب العرب ، في مطلع النهضة الحديثة ، من تصرف بقلم وبيان كنلم اديب اسحق وبيانه . وان القارئ ليحس بجرارة الشباب تتنفس في كلماته . ولعل الشيخ اسكندر العازار وفق الى تصوير الرجل وانصافه خير توفيق ، حين قال يؤينه : « عاش حر الضمير فكراً وقولاً وفعلاً ، ومات حر الضمير فكراً وقولاً وفعلاً . يبيكه ضمير الاحرار ، وتندبه الحرية . نشأ وطنياً خالصاً صحيحاً ، وعاش جندياً لاشرف الاصول واسمى النفايات . . . اي ، والانسانية ! كان للانسانية نصيراً ولاعدادها نذيراً وبالانسانية بشيراً ، فلتبكه الانسانية ! »

واديب اسحق من اعمق كتابنا صلة بالثورة الفرنسية ومبادئ وفكرها . وله لفتات الى الثورة عملاً جميع ما سطره قلمه ، وله فلتات رائعة في وصف هذه الثورة واستنباط العبرة منها وضرب المثل بها . وفي كتاب « الدرر » (منتخبات من آثاره طبعت في بيروت سنة ١٩٠٩) رسائل بليغة بعنوان « نفثة مصدور » خطها ،

كما يقول ، في فرنسا « تحت سماء الانصاف على ارض الراحة » بين اهل الحرية ، يسمع أحياناً في مجالس العدل ، فيذكر انين قومه في مجالس الظلمة وتحت سيطر الجلادين فينوح نوح الثاقلات ، ويرى علائم النعمة في معاهد المساواة فيذكر شقاء سربه في ربوع الظلمة فيذرف الدمع ممتزجاً بسواد القلب ويكتب به اليهم . . . »

وقد اثبتنا في باب النصوص من هذا الكتاب رسائله الاربع التي تتعلق بالثورة الفرنسية ، واثبتنا كذلك جزءاً من مقالته « حركة الافكار » وهي تدور في اساسها حول الثورة الفرنسية وسريان روحها من الغرب الى الشرق ، كتبها لمناسبة خلع السلطان عبد العزيز ، وظهرت حركات معارضة للشاه في بلاد فارس . وكثيرة هي النصوص الملائمة التي يمكن اختيارها من اديب اسحق ^(١) . الا اننا اثبتنا النصوص الرئيسية التي سبق ذكرها وعززناها بقتطعات قصيرة من اقواله ، واضطررنا الى الاكتفاء بذلك نظراً لضيق المجال .

ونغادر اديب اسحق الى كاتب آخر من طلائع كتاب العرب ومنكريهم الذين ناضلوا الظلم في سبيل « قيم » ومبادئ يظهر عليها طابع من الثورة الفرنسية وآراء مفكرها . ذلك الكاتب هو عبد الله نديم الذي اضطر الى الاختفاء من ملاحقة السلطات عقداً كاملاً من حياته ، على اثر الثورة العربية في مصر . وقد دون تيمور باشا في كتابه « اعيان القرن الثالث عشر » قصة عبد الله نديم واختفائه فاذا هي حقائق عجيبة كاختلاقات الخيال . ولم يترك الشيخ نديم كثيراً من الآثار ، ولا ريب ان يد الاضطهاد مسؤولة عن ضياع بعض روائع قلمه . الا اننا وقعنا على احدى مقالاته التي تبين ما نحن بصده ، فاثبتناها مع النصوص . وسيروى القارى ان عبد الله نديم يدعو ملوك الشرق الى الشورى ، ويؤيد دعوته بشاهد من الغرب ، ويعدد بانه سيؤيدها بشواهد من القرآن الكريم في مقالة ثانية .

والى جانب عبد الله نديم ، يرتفع امامنا شخص بقامة معنوية ، فكرية ، شاهدة ، اعني عبدالرحمن الكواكبي مؤلف كتابي : « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » . وغني

(١) نلفت انتباه القارى الى مقالته : « الثورة » في الدرر ص ١٧٢ ، والى مقالته

عن البيان ان الكواكبي ، كغيره من الاعلام الذين نسوق الحديث عنهم ، لم يكن نتيجة لتيار واحد ، وانما اشتركت في تكوينه تيارات منها الثورة الفرنسية ومبادئها . وقد عرض الكواكبي في « طبائع الاستبداد » لذكر السبيلين الرئيسيين من سبل الاصلاح - في نظره - فكان أولهما : « سبيل النبين » وثانيهما : « سبيل الفئة التي اتبعت اثرهم » ، يعني « فئة الحكماء الذين لم يأتوا بدين جديد ولا تمسكوا بعبادة كل دين ، بل رتقوا فتوق الدهر في دينهم بما نقحوا وهذبوا وسهلوا وقربوا » . وضرب مثلاً هذه الفئة فذكر « مؤسسي جمهورية الفرنسيين » . وكان الكواكبي ، مجاً بيتظة الشعب الفرنسي وتوثبه الثوري ، ويرى « ان الحكومة من اي نوع كانت لا تتخرج عن وصف الاستبداد ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والمحاسبة التي لا تسامح فيها ، كما جرى في صدر الاسلام فيما نقيم على عثمان بن عفان (رضي الله عنه) يوم خص بحكمه ذوي قرباه دون المسلمين ، وكما جرى في عهد هذه الجمهورية الحاضرة في فرنسا ، في مسائل النياشين وبناما ودريفوس » .

ويستطيع القارئ ان يرجع الى النصوص التي اختارها للكواكبي من « طبائع الاستبداد » واثبتناها في هذا الكتاب ، فانها اوضح دلائل على عمق تأثره بثورة فرنسا واحرار مفكرها .

وينتقل بنا الكلام من الكواكبي الى الدكتور شبلي الشميل وهو فلة زهانة في قبول النظريات الجديدة ، في العلم والسياسة ، واعتناقها اعتناقاً مدركاً واعياً . ترك الرجل مجلدين غنيين يحويان جل آثاره الادبية ، نشرتهما مجلة « المقتطف » باسم مجموعة الشميل ، وليس يهمننا منهما في هذا الكتاب الا الجزء الثاني . وطبيعي ان يكون الدكتور شبلي تأثر بالثورة الفرنسية ومبادئها ، على انه لم يقف عند حدها بل اعتبرها حادثة عالمية تؤلف مرحلة من مراحل التطور البشري الذي كان يعتقد انه سائر نحو الاشتراكية . ويكفي هنا ان ثبت له هذه الكلمة في الثورة الفرنسية : « لولا تلك الثورة لما ارتقى الانسان واصطلح نوع الاحكام الى ما هما عليه الآن ، ليس في فرنسا وحدها بل في اوروبا كلها ، بل في العالم قاطبة » . وليرجع القارئ في باب النصوص ، من هذا الكتاب ، الى مقالاته التي علق فيها على اضطرابات فرنسا بعد حادثة

دريفوس ، فيرى قوة اعجاب وعمق تأثر بفرنسا الثائرة ويقظة شعبها .
ومع الدكتور الشميل يعرض ذكر فرح انطون صاحب « مجلة الجامعة » . وفرح هو
معرب رواية « ديماس الكبير » عن الثورة الفرنسية ، طبعت ثلاثة اجزاء في مجلدين :
« نهضة الاسد » و « وثبة الاسد » . وكان فرح اول الامر ، شديد الايمان بمبادئ
الثورة يعتقد انها الدواء لكل داء ، ثم ضعف ايمانه الا انه - كما قال عن نفسه - تغذى
بهذه المبادئ حتى أصبح يحرم على نفسه رشقها ولو بوردة حتى في المبادئ التي بطل
اعتقاده بها . والواقع أن ترتيب فرح انطون في قيمة الثورة ناتج عن أنه لم يرها ،
كما رآها الشميل ، مرحلة من مراحل التطور البشري ، واعتبرها - وهي التي حدثت
في اواخر القرن الثامن عشر - دواء لكل داء في نظام الهيئة الانسانية ولو بعد مضي
قرن خطأ فيه التقدم خطى جبارة ، وجدت مشاكل تستدعي اصلاحات جديدة . ولنا
فيا بعد رجعة الى هذا الموضوع .

وقد كتب فرح انطون كلمة تمهيد للطبعة الثانية ، من تعريب رواية « ديماس » ،
اثبتنا قسماً منها في باب النصوص ، لانها تدل على مدى تأثره بالثورة الفرنسية وصلة
الانقلاب العثماني بها ، وضغط العصر الحميدي على الفكر وحرية .

وما كان لنا ان ننسى في هذا العرض ، الزعيم المصري الوطني ، مصطفى كامل ،
وهو الذي نشر كثيراً من مبادئ ثورة فرنسا وآراء أحرارها . ولقد قضى مصطفى
كامل رداً من حياته في باريس ، ويكاد لا يخلو كتاب في سيرته من الصورة التي
عرضها في شوارع باريس ، تمثل مصر فتاة مكبلة مسلوقة الارادة ، تستنجد بفرنسا لرد
حريتها . ويفهم من نص العريضة التي وجهها مصطفى كامل الى فرنسا ، في سبيل
اسعاف مصر ، انه انما علق امه على روح الثورة الكبرى وما رافقها من مبادئ .
وفي العريضة يشيد الزعيم الوطني المصري بفرنسا « التي اعلنت حقوق الانسان » . ومفهوم
ان استنجاد مصطفى كامل كان عملاً سياسياً فيه كثير من السذاجة ، الا انه في الوقت
نفسه يدل على عمق أثر الثورة الفرنسية في الشرق العربي ، وجمال الهالة التي احاطت بها
الثورة وجه فرنسا .

ولمصطفى كامل خطب كثيرة تشف عن صلة قوية ، وعدوى بمبادئ فرنسا الثائرة .

وكان اول هدف يثوخاه « الحزب الوطني » الذي يقوده مصطفى كامل : « اعلان مبادئ الحرية الدينية والسياسية ، وتشكيل مجلس نواب مصري وتحديد كل سلطة » . وقد اوردنا في باب النصوص مقتطفات من خطبه يستطيع القارىء مراجعتها .

وبين طلائع كتابنا ومفكرينا اديب ناضل الظلم ، وقاسى النفي والاضطهاد ، واتصل اتصالاً روحياً عميقاً بالثورة الفرنسية واعلام المنكرين الذين اوقدوا شعلتها في الضمائر قبل أن يندلع لهب نارها في مدن فرنسا وقراها ويرسل ضوءاً كبيراً قشع ظلمة عن العالم . اردنا ولي الدين يكن ، صاحب « القلم الذي أصبح غازياً في حرب الاستبداد » كما قال عنه في كتابه « المعلوم والمجهول » . وما أشد ما يذكرنا ولي الدين بفواتير حين قال هو لعبد الحميد « لاهزن بقلمي أركان قصرك هزاً » . وكان متأثراً بما قاله ساحر فرنسا الساحر لملك بروسيا فردريك الكبير : « ليس لي صولجان ولكن لي يراع ! » ولقد سالت من ولي الدين على سن قلعه كلمات قصيرة تذهب مذهب المثل ، وكلها تشف عن تأثر الثورة الفرنسية ، كقوله : « الحرية عدوة الملوك وحمية الشعوب ! » وكان مشهد ثورة ، كالثورة الفرنسية ، تشب في وجه عبد الحميد لم يفارق باصرة ولي الدين . فهو ينظر الى الامة أيام عبد الحميد ويراه « اجملت الصبر حتى تنفست عن البارود » . ويرى قصر عبد الحميد وكراسي ملكه ، ثم « ما هي الا صيحة اخذتهما فتساقطت تلك اللبنات الذهبية ، وقعقت هاتيك العروش ، وقضى الأمر ! »

ولولي الدين رقة على باريس وحنين اليها . وما مقالته فيها ، يوم طغى عليها نهر السين سنة ١٩٠٠ فنكبتها نكبة مؤلمة ، الا قصيدة ناعمة والهة . ومن ابرز ما يشاهده اديبنا بعين الخيال ، من المدينة العظيمة « برج ايفل كأنه خطيب الحرية ! » ويجد القارىء بين النصوص المختارة في هذا الكتاب قطعة لولي الدين عن « الببل » ، اجترأناها من روايته « دكران وراثف » ، وهي الرواية التي اراد بها تصوير جوايس عبد الحميد ، وسعي الشباب الاحرار في سبيل الانعتاق من نير السلطة المطلقة المستبدة . وولي الدين متأثر في قطعه هذه التي اخترناها ، بفكرة استلهم الحرية من الطبيعة ، ومعلوم انها فكرة روسوية . ويلاحظ ان ببل ولي الدين « يترفع عن تمليق الملوك »

وهو « على ضعفه وضعفه بطل الحرية ما اودع قفصاً الا ومات فيه غمّاً او انتحر يأساً » .
ولن ننسى ، من كبار ادبائنا ومفكرينا الذين تأثروا بالثورة الفرنسية ، أمين
الريحاني ، وقد توجهنا هذا الفصل بكلمة له تنادي مناداة على صلتة الواضحة الوثيقة
بالثورة الفرنسية ومبادئها ، وتكاد لا تخلو صفحة من « ريحانياته » ، في اجزائها
الاربعة ، من أثر من آثار ثورة فرنسا وأعلام مفكرها . ولأمين الريحاني فصل ناقش
فيه كتاب كارليل عن الثورة الفرنسية ، ودار في نقاشه حول مسألة تاريخ الثورة
وقضية العنف ، فاثبتناه في باب النصوص من هذا الكتاب ، لقيمتة . والذي
يقرأ القصيدة المنشورة التي كتبها الريحاني في الثورة ، اطلاقاً ، ترتسم في ذهنه صورة
راسخة من حياة هذا المفكر الجريء ، وهو لا يفتأ يذكر الظالمين ويردد قوله :
« الم نقص عليهم قصص باريس ؟ »

ويقودنا الريحاني الى جبران خليل جبران . وقد تأثر هو الآخر بفرنسا الثائرة^(١٠)
واحرار مفكرها تأثراً عميقاً ، الا انه غير ظاهر فيه ظهوره في الريحاني . والارجح ان
ذلك راجع الى ان جبران تعاطى السياسة قليلاً ، وطرات عليه طوارئ افكار في
القسم الاخير من حياته ، فلان العصب النضالي في ادبه كما لم يان في الريحاني ، وذهب
مذهب الاكتفاء بتأملات نفسية حلوة مخدرة . على انه في مطلع سيرته الادبية اعرب
عن ثورية غاضبة ، متسمة بسجات بارزة من الثورة الفرنسية ومبادئها . ويجب بعض
ان ينسوا تلك البواكير القوية التي انتجتها براعة جبران في اول امره كـ « الاجنحة
المتكسرة » و « الارواح المتمردة » و « عرائس المروج » ، ولكن لها من القوة ،
والحيوية الثورية ، ما يكفل بقاءها . وان الهيئات التي سدد اليها جبران ثورته
تجعلنا في هذه الظروف نؤثر الاقتصار على رسالة له بعث بها الى احدى الاوروبيات
المهتات بشؤون الشرق فراجعها في باب النصوص . اما هنا فنكتفي منه بهذه الفقرات

(١٠) وكان جبران معجباً اعجاباً صريحاً لا حد له ، بما سماه « الذات الفرنساوية » .
وهو القائل : « واغرب الذوات العامة في التاريخ هي الذات الفرنساوية ، فقد عاشت الي
سنة امام وجه الشمس ولم تزل في شبيبة نضرة » (من كتابه العواصف) . وغني عن
البيان ان الروح الثائرة سمة قوية من سمات هذه الذات التي يتحدث عنها جبران .

النارية المنيرة . قال في مقالته : « يوم مولدي » :

« قد احببت الحرية فكانت محبتي تنمو بنمو معرفتي عبودية الناس للجور والهوان ،
وتتسع بالتسع ادراكي خضوعهم الاصنام الخيفة التي نحتتها الاجيال المظلمة ونصبتهما الجمالة
المستمرة ونعمت جوانبها ملامس شفاه العبيد . لكنني كنت احب هؤلاء العبيد
بمحبتي الحرية ! »

وقال في مقالته التي كتبها يصف بؤس لبنان وجوعه ، ايام الحرب العظمى الماضية ،
وعنوانها « مات أهلي ! » :

« لو ثار قومي على حكامهم الطغاة وماتوا جميعاً . تمردين لقلت ان الموت في سبيل
الحرية لا شرف من الموت في ظل الاستسلام . »

عند هذا الحد نقف في عرض الاعلام من مفكرينا وادبائنا الذين انطبعوا بطابع
ذهني ونفسي عميق من ثورة فرنسا واحرار ادبائها ومفكراتها . وكان يمكننا ان
نطيل السلسلة فنذكر كثيرين ممن لم نذكرهم ، ونقف عندهم ، كروحي الخالدي ^(١١) ،
وجرجي زيدان ^(١٢) ، والدكتور طه حسين ^(١٣) ، والدكتور حسين هيكل ^(١٤) ،

(١١) وهو من اعلام الفكر والادب (فلسطيني . كان قنصل الدولة العثمانية في مدينة بوردو
ثم اصبحت بعد الانقلاب العثماني عضواً في مجلس المبعوثان . ألف كتاباً نفسياً سماه « علم الادب
عند الافرنج والعرب وفكتور هوغو » . وقد اثبتنا منه فصولاً في باب « نصوص مختارة » .
(١٢) وهو القائل في كتاب « رحلة زيدان الى اوروبا » : « هي (يعني آثار فرنسا
في المدينة الحديثة) كثيرة منها : الحرية واستقلال الفكر . ان للفرنساويين الفضل الاول في
نشر روح الحرية باوروبة وغيرها . وهم قدوة الامم في بث هذه الروح على اثر نهوضهم
خلع نير الملكية ، والمناذاة بالحرية والاخاء والمساواة . »

(١٣) ألف كتاباً عن حرية الرأي وعن ابطاله فاتى بخمسة احدهم يوناني ، هو سقراط ،
والآخرون : فولتير وروسو ورينان وتين « Taine » ، جميعهم فرنسيون . وقال في فصله
عن روسو : « لم يقف تأثير روسو السياسي عند انشاء الثورة ، فانتم تعرفون اثر الثورة الفرنسية
في نشر الديمقراطية في اوروبا ، بل في بلاد الشرق بعد الحرب الكبرى . فحياتنا نحن
الديموقراطية ، ومذهبنا نحن في فهم الحكم وفي ما نريد من المثل السياسي الاعلى تتأثر بهذه
الفكرة التي كان جان جاك اول من اشاعها واذاعها في كتاب العقد الاجتماعي . »

(١٤) مؤلف كتاب ضخيم عن روسو .

والاستاذ عبد الرحمن الرافعي^(١٥) ، والاستاذ محمد كرد علي ، وغيرهم وغيرهم^(١٦) . ولكننا اكتفينَا بن سبقوا ، واوردنا لاحد هؤلاء (الاستاذ محمد كرد علي) في باب النصوص من هذا الكتاب ، قطعتة الشهيرة عن باريس . وكذلك اثبتنا مقالا لاحد كتّابنا المهاجرين عن الاصلاح والصحافة ، وفيه يبرز جلياً كيف كان يفكر مهاجرونا متأثرين بعوامل عدة منها الثورة الفرنسية^(١٧) .

(١٥) كاتب مصري سياسي ، له كتاب عن الجمعيات الوطنية ، اصدره سنة ١٩٢٢ ، وقد اراد به ان يقدم « نموذجاً لما تبذله الامم من الجهود في سبيل تحررها من رق العبودية ، ومقاومة الاخطار التي تتهدد كيانها ، وتدعيم حياتها المستقلة على ارقى القواعد السياسية والاجتماعية . » بدأ الكتاب بفرنسا وجمعياتها ابان ثورة سنة ١٧٨٩ ، واستغرق نصف الكتاب وهو لا يزال يرافق تاريخ الثورة . وتطيب لنا حماسة الكاتب حين يجلو جبين الثورة وعليه هذا القرار من الجمعية الوطنية الكبرى « La Convention » : « ان الجمعية الوطنية الكبرى تعلن باسم الامة الفرنسية انها توادى وتساعد كل الشعوب التي تريد حريتها ، وتسكف قواد الجيش الفرنسي بان يمدوا يد المساعدة الى كل ابناء البلاد المضطدة الذين ينالهم اذى بسبب دفاعهم عن الحرية . »

(١٦) كالاديب الاستاذ سلامة موسى ، مؤلف كتاب « حرية الفكر » وفيه يقول : « ليست الثورة الفرنسية فرنسية الا بالاسم ، اما حقيقتها فعلالية . وانت ايها القارىء المصري لو قرأت الدستور الذي وضع لمصر منذ نحو اربع سنوات لوجدت عليه مسحة « حقوق الانسان » التي اعلنتها الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ ، ووجدت فيه الفاظاً وعبارات تنم عن هذا الاصل . »

ويعجبنا ان نعلم ان الثورة الفرنسية بلغ من احترامها واحترام مفكرها في الادب العربي الحديث ، أن ادلى مثل الامير شكيب ارسلان بمثل هذا الاعتراف : « لو فرضنا ان القائد العام اليوم او الامبراطور او القيصر لا يقود الى الهيجا ثلاثة او اربعة ملايين ، بل لو اعتبرناه قائدا لجميع سكان مملكته لبقى قاصرا عن جان جاك روسو ، مثلاً ، وهو الذي كان خادماً في احد المنازل ، ثم كان اعظم الاسباب في الثورة الفرنسية التي حمل سيلها ايضاً بقية الممالك فاتقادت لافكاره الجماهير ولا يزال ينقاد منها الى ما شاء الله . . . »

(١٧) يلاحظ اننا لم نعرض لذكر شعرائنا ، وتأثرهم بفرنسا الثائرة واحرار مفكرها . ذلك لاننا رأينا الانصراف الى الشعر العربي ، من هذا القبيل ، لا يجدي ولا يشمر كالانصراف

ولما كان الادباء اللبنانيون والسوريون في طليعة من تصدى لتصرفات الحكم العثماني وفي مقدمة من بث المبادئ المنبثقة عن الثورة الفرنسية في الشرق العربي ، لا سيما مصر ، فقد اثبتنا مقالاً للكاتب الشهير مصطفى لطفي المنفلوطي يؤدي فيه واجب التقدير والاعجاب لاولئك الاعلام الاحرار .

والآن ننتقل الى فصل آخر ، او الى ناحية اخرى من هذا الفصل نفسه ، فنذكر الدروس الفكرية التي تلقاها اديباؤنا ومفكرونا من فرنسا الشائرة واعلام ثورتها .



٢- دروس في الفكر والاصلاح

ان بين الاستبداد والعلم حرباً دائمة وطرادا مستمرا ، يسعى العلماء في نشر العلم ويمتهد المستبد في اطفاء نوره . والطرفان يتجاذبان العوام . ومن هم العوام ؟ هم الذين اذا جهلوا خافوا واذا خافوا استسلموا . وهم الذين متى علموا قالوا ومضى قالوا فعلوا . . .

عبد الرحمن الكواكبي

ولكن ما هي الدروس الاساسية التي قبسها اديباؤنا ومفكرونا من فرنسا الشائرة واعلام مفكرها الثوريين ؟ يبدو ان هذا هو المحور الذي يدور عليه كتابنا . وليس من ريب ان اديباؤنا ومفكرينا لما اتجهوا بقلوبهم وعقولهم شطر فرنسا الثورية ، كانوا يرمون الى دروس ومبادئ يتعلمونها ، لا الى تأييد دولة في غرض من اغراضها الخاصة .

الى النثر . ومع ذلك فللثورة الفرنسية ومفكرها اصدااء ظاهرة في شعرنا وشعرائنا . وقد اثبتنا لاحمد شوقي ، في صدر من هذا الكتاب ، ابياته القافية الرائعة التي غنى بها الثورة السورية ، عائدا بالذكرى الى الثورة الفرنسية . ولحافظ ابراهيم ابيات يميح بها ذكرى الانقلاب العثماني ويتذكر الثورة الفرنسية ، وسيأتي نص الابيات في فصل آت . واذا رجع القارئ الى باب « نصوص مختارة » وجد في خاتمتها قطوفاً لطائفة من شعرائنا ، وأحسن بهللة تربط هذا الشعر بالثورة الفرنسية ومفكرها السابقين .

أما أول هذه الدروس التي تعلموها فهو فكرة الثورة نفسها . لقد رأوا ان حياة الامم ربما اعترتها المفاصد والظلمات في شؤون الحكومة والسياسة والاجتماع والاقتصاد ، ورأوا ان الاصلاح ربما اصبح غير ممكن عن طريق الاقناع والتسوية السلمية فأمنوا بوجود الثورة في بعض الاحوال ، ورأوا ، بناء على الانقلاب الفرنسي العظيم ، ان الثورة اذا اجيدت وكانت في موضعها ، اتت بنجر كثير ، بل خلقت الامة والبلاد خلقاً جديداً .

واننا لنجد هذا الخط من التفكير شديد الوضوح والجلاء عند امين الريحاني ، ولكنه ملموس عند مفكرينا وادباؤنا الاحرار جميعهم . يقول الريحاني ، في رسالة وجهها الى نفسه ، على لسان صديق : « من الحقائق الرائعة : ان الثورة للامة كالحمام للانسان تنبه فيه الدم وتوقظ النشاط ، ناهيك بالنظافة . فالحمود الملازم لحكومات الشرق كلها ، والفساد الذي اعترها ، والاقدار التي تراكت عليها لا يزيلها غير الحمام ، حمام الثورة العالي . » ويقول ملتفتاً الى الثورة الفرنسية : « في الامة الفرنسية ، من نتائج الثورة العظيمة ما تبقى آثاره بادية حية نامية في ترقى الامم والناس . »

وقد ذهب ادباؤنا ومفكروننا في تبدير الثورة الى شبهه بما ذهب اليه الادباء والمفكرون الفرنسيون ، فاعلنوا ان السلطة والسيادة هما الامة والشعب ، وان الهيئة الحاكمة ليست الا خدمة الامة والشعب ، وهي مسؤولة امامهما ، فاذا هي اساءت التصرف حقت محاسبتها ، فاذا هي اضررت وعاندت جازت ازلتها بقوة السلاح . ولنذهب الى امين الريحاني ، مرة اخرى ، فنقرأ : « الحكومة للرعية ، لا الرعية للحكومة » ؛ « واول دلائل الحياة الحرة الرقعية ان يتمتع افراد الامة على السواء بالحقوق الطبيعية ، فيسعون دائماً في تعزيزها وينهضون للدفاع عنها عندما تقيد او تمتن . ومن اكبر دعائم الحكومات الحرة المستقلة قانون يكفل لشعبها هذه الحقوق الاولية ويوجب عليهم الدفاع عنها يوم ينهض عليها الظالمون يحاولون قتلها (١) . »

(١) تذكر هذه الكلمات بما اذاعته الثورة الفرنسية سنة ١٧٩٣ : متى خرقت الحكومة حقوق الشعب اصبحت الثورة حقاً مقدساً للشعب ، واصبحت لكل هيئة منه واجباً لا مناص منه .

ولما كان الريحاني يحاول ان يقيم لنفسه تفكيراً متسلسلاً في موضوع الثورة ، من الوجهة النظرية ، فقد انتقل من ميدان السياسة والاجتماع الى ميدان الحياة كلها ، والطبيعة كلها ، شأن المفكرين الفرنسيين ، فرأى هنا وهناك شواهد على روح الثورة وفعل الثورة ، وانتهى عند هذه القاعدة « ازرع العاصفة تحصد القاصفة » ؛ « ان روح الثورة حية عاملة في دوائر الحياة كلها » (٢) .

وما لبث ان عرض لأدبائنا ومفكرينا السؤال التالي : ان الثورة لا بد لها من عنف وتدمير وسفك دم ، فهل يجوز ذلك ؟ هل توازي الفوائد المرجوة من الثورة ما يرافقها من اعمال القسوة والتقتيل والتخريب ؟

غني عن البيان أن الثورة لم تكن في نظر مفكرينا لهواً ولعباً يصح ان تقدم عليه الامة أو هيئة من الشعب اقداماً اعلى او ارفع . بل من المقرر ان مفكرينا ، جميعهم ، كانوا يتمنون تلافي الثورة باصلاح عن طريق الاقتناع والتسوية السلمية ، ولذلك رأيناهم ، في برهة النشوة والاغتراب بالانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ ، يعملون من مميزات سرعته ، وحقنه للدماء وامساكه للارواح . ويلاحظ ان كلمة ثورة ، بمعناها الحديث ، مستجدة في اللغة العربية . اما التسمية القديمة فهي الفتنة ، وقد تركها مفكروننا الحديثون لتسمية النزاعات الداخلية المسلحة ، التي يصطدم فيها فريق بفريق سفهاً وتعصباً وهوساً ، عن غير مبدأ ولا فكرة ولا طلب اصلاح او حق . ومنهم من أن أصحاب الاغراض يخلطون بين الثورة والفتنة ، وقل ان قامت ثورة لم يقيم من شنع عليها بانها فتنة وفوضى . و « دائرة المعارف » البستانية في الفصل الذي عقده عن روسو تدعو الثورة الفرنسية « الفتنة العظمى المشهورة » ، كما ان نوفل الطرابلسي في كتابه « سياحة المعارف » يدعوها « الفتنة » ايضاً ، ونعتقد أن للمناخ العقلي الحميدي ، يداً في ذلك مباشرة او غير مباشرة .

زبد بهذا ان غمد للقول : ان مفكرينا الاحرار كانوا يفرقون بين الثورة والفتنة من جهة ، وكانوا من جهة ثانية لا يجيزون الثورة الا اذا لم يكن سبيل غير سبيلها . وقد تقرر لديهم ، بناء على شواهد في مقدمتها الثورة الفرنسية ، ان الانقلابات الضرورية

التي تستدعي تحلياً عن امتيازات بطل وجه الحق فيها ، وتستهدف تبديل وضع راهن ، وترمي الى احداث تحويل جديد في مجاري الحياة ، لا تقع ، أو قلّ ان تقع ، سلمية بقوة الاقتناع والاقتناع وحدها . ولنقرأ ما يقوله جمال الدين الافغاني في هذا الصدد : « والتاريخ لم ينقل لنا أن ملكاً أو اميراً أو دخيلاً بقوة على شعب يرضى عن طيب خاطر ان يبقى مالكاً اسماً وامته هي المالكة فعلاً ، لادارة شؤونها وزمام امورها على مطلق المعنى » ؛ « اذا صحّ أن من الاشياء ما ليس يوجب ، فأهم هذه الاشياء الحرية والاستقلال^(٢) . »

وهنا نفضي الى القول : ان مفكرينا الاحرار ، الذين فرقوا بين الثورة والفتنة ، ورأوا أحوالاً يصبح فيها التبديل والتحويل ضرورياً ، وادركوا أن اصحاب الامتيازات وانصار الوضع الراهن ، لهم منطق يبتعد بهم عن فهم منطق طلاب الانقلاب ومريدي الاصلاح ، (بحيث يتعذر الحل السلمي الناجع) ، رأوا عند ذاك ان الثورة ضرورة واجبة . ولما كانت واجبة كان لا بد من قبول كل ما يرافق طبيعتها ، اعتقاداً بان ذلك مغرم لا مفر منه لمغرم مرغوب فيه . وهكذا أجاب ادباؤنا ومفكرونا عن السؤال الذي عرض لهم فيما يتعلق بعنف الثورات وقسوتها بما يلي : « ان التنديد برجال الثورة والاستياء من النهضة بجملتها والنفور من هولها والفرار من نارها المحرقة المنيرة ... ذنوب لا تغتفر للمؤرخ اذا اقترفها . فالطفل يولد في الألم والعذاب ، والجمهوريات تنشأ في الثورات والحروب ، والامم تتألم ساعة الولادة وكذلك الامة^(٣) . »

والذي يستفاد من احدى كلمات اديب اسحق انه لا يحمل الثوار تبعة أعمال العنف التي ترافق الثورات ، بل هو يرى أن ما يأتيه الثائرون ليس سوى رد على فعل سبق ، ويخاطب الجماهير الهائجة بقوله : « ما انتم باصحاب الثورة ، ولما اصحابها الذين يوجبونها بنا يظلمون !^(٤) . »

(٣) شاع هذا القول بصيغة اخرى : « الحرية تؤخذ ولا تعطى » ، « الاستقلال يؤخذ ولا يعطى » ونسب الى غير جمال الدين ، ولكن جمال الدين مصدره الاصيل .

(٤) من مقال الريجاني في مناقشة كارليل حول قضية العنف في الثورة ، راجعه في باب النصوص من هذا الكتاب .

(٥) من مقاله : « الثورة » في الدرر .

ولكن مسألة أخرى عرضت لأدبائنا ومفكرينا فيما يتعلق بقضية الثورة ، وكان أهم ما احدث هذه المسألة وقوع الانقلاب العثماني وعلان الدستور وانطلاق موجة من الحماسة والفرح اسفرت بعد قليل عن فتور وانقباض . لقد سدد الانقلاب العثماني ضربة الى سلطة مطلقة هي سلطة عبد الحميد . ولقد صك دستوراً ديموقراطياً يعترف « بحقوق الانسان » ويؤكد حمايتها . ولقد اقر مجلساً نيابياً منتخباً من الشعب ، وجعل الامة موئل السيادة ، وافر مبدأ الحكم الشوري الحديث ، فكان في ذلك كله شبيهاً بالثورة الفرنسية . على أنه مع ذلك لم يثمر الثمرة المنتظرة ^(٦) ، لم يتناول الدولة وحياة البلاد بتغيير عميق ثابت كما تناولت ثورة سنة ١٧٨٩ دولة فرنسا وحياتها .

فما السبب ؟ ما السر ؟ هكذا تسأل أدباؤنا ومفكرونا .
وكان جواب الدكتور شبلي الشميل نافذاً . قنعاً ، فقد رد السبب والسر في تقصير الثورة العثمانية الى « عدم اشتراك الامة فيها اشتراكاً محسوساً بسوى الاكثار من التغيي في اول الامر ، وهي اليوم تكثر من العويل ولا تتعداه الى عمل حازم ، وتخرسها اقل كرامة ، فثورتنا حتى الان عسكرية اقتصر فيها التغيير على صورة الهيئة الحاكمة ،

(٦) وكان العنصر العربي في طليعة العناصر العثمانية التي أحسنت بسطحية الانقلاب العثماني . راجع كتاب ثورة العرب بقلم احد اعضاء الجمعيات العربية ، فتجد فيه ما يلي : « تحققت طبيعة الاستبداد في الامة العثمانية على عهد الحكومة المطلقة ولم تتحقق طبيعة سلطة الامة في عهد الحكومة الدستورية ، فلم يستبدل الضعف والتقاطع والتخاذل والذل ، والرضوخ لسلطة الفرد ، بالقوة والاتحاد والعزة وتحقيق سلطة الامة والتكافل العام على توطيد دعائم الحكومة الدستورية ، حكومة البدل والحرية والاخاء . » واحس بذلك ايضاً بعض احرار الترك كالدكتور رضا توفيق ، فصرح بما يلي : « ان الدستور لا يكون الا كلمة لا معنى لها اذا لم تحترم الحرية السياسية والحقوق الاساسية وحرية القول والكتابة والخطابة ، واذا لم تعامل العناصر كلها معاملة واحدة بمقتضى احكام الدستور . » وبما تجب ملاحظته ان الحركة القومية العربية لم تتخذ في مبدأ أمرها شكل حركة انفصالية ، بل طالبت باللامركزية وبالاشتراك في ادارة الدولة على اساس ديموقراطي . وقد جمعت الجمعية الاصلاحية البيروية رأس موادها : « الحكومة العثمانية حكومة دستورية نياية . » فيمكن القول ان الحركة القومية العربية الحديثة ولدت في الشوق والسعي الى الديموقراطية .

فلم تغير شيئاً من اخلاقنا ولم تتصل الى علومنا وصناعتنا وتجارتنا . «
وضرب شاهداً للثورة التي تشترك فيها الامة اشتراكاً محسوساً ، وتأتي بنتائج عميقة
باقية ، فكان شاهده الثورة الفرنسية .

ويحسن بنا هنا ان نسوق كلام الدكتور الشميل بنصه ، قال : « ان الاجتماع لا
بد له في بعض الاحوال من ثورة تخلصه من خطر الهلاك . ويلزم ان تكون الثورة
صادرة عن استعداد باطن كأنها اتفاق خفي بين اعضائه ، موافقة لامياله ، اي ان تكون
عبارة عن صوت الشعب لكي تكون قانونية والا انقلبت شراً عليه . والثورة التي
تكون كذلك هي ثورة لا تغلب ولا تقاوم لانها ليست من افعال الاحاد ، بل هي
عبارة عن تخلص الجيم كله مما ثقلت وطأته عليه تخلصاً طبيعياً قانونياً . ويلتفت
الدكتور ليلمس قياساً يقيس عليه ، فيقول فوراً : « كالثورة الفرنسية ، فانه لم يصدها
شيء ، ولم يقوَ عليها شيء . مع انه اعترضها موانع داخلية وخارجية قوية جداً ، وما
ذلك الا لانها كانت موافقة لميل الشعب وناشئة عن استعداده .

وذهب الشيخ مصطفى الغلاييني الى شبه ما ذهب اليه الدكتور الشميل فقال :
« ان الحرية الصحيحة هي التي ينالها الشعب بقوته دون مساعدة خارجة عنه ، كالجيش
مثلاً ، أو كأن تمنح الحكومة الحرية للشعب من قبل نفسها دون مجبر (٧) . »

والواقع أن الجيش هو الذي زحف من سلازيك واسقط عبد الحميد وقام وحده
بالانقلاب العثماني . ومع أن رؤساء الانقلاب قالوا في ندائهم الذي اذاعوه على الشعب :
« ان الجيش هو الشعب ، والشعب هو الجيش (٨) » فقد ظل الواقع ان الفرق بعيد
جداً بين انقلاب تحدته القوات المسلحة وحدها وانقلاب تفرضه الجماهير المتحفزة .
وكان طبعياً ان يعتمد ادباؤنا ومفكرونا ، ولا سيما اثر تجربة الانقلاب العثماني ،

(٧) من كتاب « اريج الزهر » للغلاييني وقد اثبتنا في باب المختارات (الفصل الذي
اقتطفنا منه هذه العبارة ، مع قطع اخرى من سائر الكتاب . وتعلق بهذا المعنى نفسه مقالات
للدكتور ايوب تابت نشرت بعنوان « عبرة وذكرى » وقد اثبتنا منها في باب « نصوص
مختارة » جزءا غير يسير .

(٨) صدر النص الكامل للنداء في جريدة المشير لسليم سرريس .

الى النظر في قضية الانقلابات الناجمة وخصائصها ومميزاتها ، وفي مقدمة هذه الانقلابات الناجمة الثورة الفرنسية الكبرى . تساءل ادباؤنا ومفكروننا : من يهيئ للثورة ويقوم بها ؟ ما هي مقاصد الثورة واهدافها ؟

فأما السؤال الاول ، فتزى في جوابه مذهبين : مذهباً يقول ان المفكرين هم مهيئو الثورة وموقدو شرارتها . فالثورة الفرنسية انشأتها ^(٩) افكار جان جاك روسو وفولتير مثلاً . وكتاب « الاتفاق الجمهوري » الذي وضعه جان جاك مؤذناً « بوجوب المساواة هو الذي ادّى الى الفتنة العظمى المشهورة ^(١٠) . » وزى مذهباً آخر يقول : « ان الفرد انما هو صوت واحد ينطق باسم ملايين الناس الصامتين ، فالرجل العظيم انما هو عظيم بشعبه لا بنفسه ، هو يستمدّ معظم قوته مما يحيط به من الاشياء والظروف والرجال ^(١١) . »

وقد سبق لنا في تعليق طويل ، في الفصل الذي عقدناه عن مفكري الثورة الفرنسية في هذا الكتاب ، ان اوضحنا رأينا في قيمة الفكر ودوره في الانقلابات ، وقلنا ما خلاصته : « ان الفكر الثوري ، السياسي الاجتماعي ، اذا هو قاطع او عدم الدعائم المادية الجديدة ، التي تهيئها النشأة التاريخية الحديثة ، لم يكن له وزنه في الثورات والنهضات . فجان جاك روسو اشترك في تهيئ الثورة الفرنسية ، ولا ريب . ولكن اشتراكه في تهيئها كان ممكناً ، لان فكره وافق مطامح الامة الفرنسية ، اذ ذاك ، وصح ان يكون مرشداً ، وسلاحاً نظرياً لها في ثورتها . ومطامح الامة الفرنسية ، اذ ذاك ، لم يوجد لها روسو ، ولكن التطور التاريخي الذي قوى الطبقة الثالثة « Tiers Etat » ودفعها الى طليعة المجتمع نفوذاً واهمية ، هو الذي اوجد هذه المطامح ، فعملها واحسها وعبر عنها ، ونبه اليها جان جاك روسو . بل ان روسو نفسه لم يكن الا ثمرة من ثمرات هذا التطور التاريخي ، ومظهراً من مظاهر تلك

(٩) كلمة نوفل (طرابلسي في كتابه : « سياحة المعارف » .

(١٠) من الفصل المعقود عن جان جاك روسو في دائرة المعارف للبستاني ، المقصود بالاتفاق الجمهوري كتاب « Le Contrat Social » .

(١١) الكلمة للريحاني استعملناها في تزيين فصلنا عن مفكري الثورة في هذا الكتاب .

المطامح التي تحركت بها اعماق الامة الفرنسية ، اذ ذاك . فروسو لم يكن ممكناً في فرنسا في القرن السادس عشر مثلاً .»

ولنقل : ان هذا الانقسام النظري لا يزال ظاهراً في تفكيرنا الحديث بين فريقين : فريق يؤمن « ببعقري » او « نجبة مختارة » يفرضون انفسهم وبرامجهم الاصلاحية على الامة ، وفريق يؤمن بامة تناضل بجاهيزها نضالاً يشاركها فيه افذاذ الرجال ، وتنجب ائنه الرجال الافذاذ ، وتعلمهم ويعلمونها ، وتقودهم ويقودونها . ولنقل ايضاً : ان فريقاً كبيراً من ادبائنا ومفكرينا السابقين ، في مطلع النهضة ، ادركوا انهم ، مهما سمت آراؤهم وطابت مقالاتهم ، لا يستطيعون وحدهم ، كما لا يستطيع زعيم ، ولا تستطيع هيئة كالجيش مثلاً ، ان تحقق انقلاباً عميقاً واصلاحاً راسخاً في امة لم تتيقظ صفوفها ، وفي بلاد لم تقم فيها دعائم مادية لبناء الاصلاح . هذا اديب اسحق ، في فصله عن الثورة ، يتصور جماهير غربية (الارجح انها فرنسية) تثور وتنطلق في تيار الثورة وينتهي الصخب والعنف باستقرار الحرية ، وتثبيت الجامعة الوطنية ، واستتباب وحدة الحقوق ، وانتشار العمران والرخاء . ثم يتصور جماهير شرقية تأتي ما يأتيه الغريبيون في ثوراتهم من صخب وعنف ، ولكنها (اي : الجماهير الشرقية) لا تنال بعض ما نال اولئك . والسبب هو ان الشرقيين ، كما عرفهم ، « لا يقاتلون عن انفسهم ولا نحسبهم على بيئة مما يقصدون ... فهم في الثورة دعاة زعيم وعصاة زعيم ... » وظهر من كلمات اديب اسحق : ان الثورة لا تنجح الا اذا انبعثت من جماهير ، جماهير « يقاتلون عن انفسهم » ، اي : يطالبون بحقوقهم ويدافعون عن مصالحهم ، وهم « على بيئة مما يقصدون » ، اي : انهم مدركون واعون ، وليست حركتهم « دعوة لزعيم او عصياناً لزعيم » اي : انها غير قضية شخصية .

وهذا امين الرياني ، يبحث في « الثورة الحقيقية » فيقول : « الثورة الحقيقية ، ونحن من انصارها ، من رسلها ، انما هي التي يزرع الزمان بذورها في قلوب الناس وفي عقولهم ... هي الثورة التي يتقدمها ري العراق مثلاً وسكة الحجاز وحرية الطباعة والتجارة والتعليم ... الثورة الحقيقية ، او بالحرى الانقلاب العظيم ، هو

الذي يساعد في ارتقاء الاشياء والحياة الى ما ينبغي ان تكون . » وواضح ان امين الريحاني لا يصدق الثورة المرتجلة ، التي لم « يزرع الزمان بذورها في قلوب الناس وفي عقولهم . » فاذا قام مفكر او مفكرون ، مثلاً ، تضم افكارهم بذور ثورة ، فان ذلك لا يكفي ، اذ لا بد من (الزمان) الذي يزرع البذور ، ولا بد من (التربة) التي هي القلوب والعقول ، قلوب الناس وعقولهم ، والناس هم الكثرة لا عشرون ولا مئة . ثم لا بد ايضاً من ان تكون البذور صالحة والتربة قابلة ، اي : لا بد من ان تكون الافكار الثورية تجاوب مطالب قلوب الناس وعقولهم ، في العهد الذي تلقى فيه اليهم . وفوق ذلك ، ان الثورة ليست افكاراً في افكار ، ولكنها ايضاً تقوم على دعائم مادية عمرانية ، كسكة الحجاز مثلاً وري العراق ، وتظهر في مظاهر قانونية نظامية تفسح المجال للنشاط الحر في ميادين ثقافية واقتصادية كالطباعة والتعليم والتجارة ، و « تساعد » بالنتيجة « في ارتقاء الاشياء والحياة الى ما ينبغي ان تكون ! »

وفي قول الريحاني : « يتقدمها ري العراق ، مثلاً ، وسكة الحجاز ، وحرية الطباعة والتجارة والتعليم . . . » امر يجب ان يستوقفنا . فما الذي اراده كاتبنا بكلمة « يتقدم » ؟ فالمعروف ان الثورات تقوم لكسب حرية كحرية الطباعة والتجارة والتعليم ، والمشهور ان الثورات تهب خلق ظروف يتيسر فيها انشاء المشاريع العمرانية . فهل قصد الريحاني وهو يتحدث عن الثورة الحقيقية ان يصفها باعتبار ما يكون من نتائجها فذكر في مقدمتها بعض نتائجها ، زيادة في التأكيد ، لكي لا يُخال ان حادث الثورة غاية في ذاته لا وسيلة الى غاية ؟ ام انها فلتة من فلتات القلم ؟

نرجح ان الريحاني اراد ضمناً ان يفرق بين نوعين ، او مرحلتين من الثورة ، فهو في خطبة عنوانها « روح الثورة » ، القاها في « جمعية تهذيب الشبيبة » سنة ١٩١٣ ، يبحث في الاصلاح ، ثم يقول : « ولكن هذا الاصلاح لا يتم بلا انقلاب في الاحكام ، ولا يتم انقلاب بلا ثورة سياسية » ، والذي يقصده بالثورة السياسية استيلاء العناصر الجديدة على السلطة ، تأميناً لظروف يصبح فيها الاصلاح ممكناً ، بل واجباً ، اذ ان الثورة اذا اكتفت بالاستيلاء على السلطة لم تكن في الحقيقة ثورة ، بل

كانت كما قال الدكتور الشميل عن الانقلاب العثماني « تغييراً يقتصر على صورة الهيئة الحاكمة . »

وهذا يخرج بنا الى معالجة السؤال الذي طرحناه سابقاً : ما هي مقاصد الثورة واهدافها ؟ (مع العلم ، طبعاً ، اننا نسوق الحديث عن ادبائنا ومفكرينا ، والدروس التي تلقوها من الثورة الفرنسية) .

يؤخذ من مغزى كلمات الريحاني السابقة ، ومن اقوال غيره ، ان الثورة تتدرج من مقصد الى مقصد ، ومن هدف الى آخر . ويكون احد المقاصد والاهداف في وقت ما هو الغاية ، ولكنه اذا تحقق بات وسيلة الى مقصد وهدف آخر يصبح هو الغاية عندئذ ، وهكذا حتى تتحقق الغاية النهائية .

فاما المقصد الاول ، والهدف الاول ، فهو ان تعمل العناصر الجديدة ، الثورية ، في سبيل « انقلاب في الاحكام » او « ثورة سياسية » او استيلاء على السلطة . ولما كان ادبائنا ومفكروننا يواجهون سلطة مطلقة ، في نظام الحكم العثماني ، لاسيما ايام عبد الحميد ، فقد غلب عليهم رأي الاستيلاء بالقوة على زمام الاحكام ^(١٢) . وكان « شاهد » الثورة الفرنسية قدوة لهم . وكان الاستيلاء على السلطة بالقوة معناه ، في نظرهم ، خلع السلطان ، ونصب سلطان يوافقهم ويسلم بطلاب الانقلاب . وقليلون جداً منهم من كانوا يريدون الجمهورية ^(١٣) ، فالرأي الاعم الاغلب كان طلب الملكية ، او السلطنة المقيدة بالدستور .

فاذا تم الخلع ، ونُصب السلطان الجديد ، اعلن الدستور ، واطلقت الحريات الديمقراطية المعروفة ، ودعيت الرعية الى انتخاب مجلس نيابي يمثلها ويشارك السلطان الحكم .

ولكن هذا كله ليس الا مرحلة من المراحل ، بل هو بدء الطريق . هكذا قالت طليعة من ادبائنا ومفكرينا رأيت ان الانقلاب العثماني وقف عند هذه الغاية .

(١٢) لم ينشأ بينهم خلاف حول قضية الوصول الى الحكم عن طريق القوة او البرلمان ، مثلاً ، لانهم كانوا يطالبون ببرلمان .

(١٣) كان من رأي جمال الدين الافغاني أن الشرق في زمانه لا تصلح له الجمهورية .

فلقد نسخ الانقلاب العثماني الصفحة الاولى من الثورة الفرنسية واكتفى . ولم تكن له جماهير تؤيده في الشوارع كما كانت الحال في الثورة الفرنسية .

وكان الدكتور شبلي الشميل وامين الريحاني وغيرهما في مقدمة الطليعة من ادبائنا ومفكرينا الذين لمسوا التقصير في الانقلاب العثماني وأحسوا طبيعته السطحية ، وادركوا ان الانقلاب يجب ان تكون له اهداف ومقاصد تعليمية ثقافية ، وصناعية زراعية تجارية . ان اعلان الدستور واحداث المجلس النيابي انما هو اصلاح - اذا وقع كما وقع - الانقلاب العثماني بقوة الجيش واشتراك فئة قليلة - لا تتم فائدته الا اذا سيق الى اذهاب الشعب بالتثقيف المتواصل المخلص ، والا اذا طهر جهاز الدولة القديم ، فان موظفاً قبل الدستور يعمل بروح ما قبل الدستور ، لا ينقلب بسرعة ما تصله القوانين الجديدة والتعاليم الجديدة .

كان هذا رأياً في نقد الانقلاب العثماني أخذت به الطليعة من ادبائنا ومفكرينا ، فدلّت على انها فهمت طبيعة ذلك الانقلاب السطحية ، واكدت - كما اكد مفكرو القرن الثامن عشر في فرنسا - ضرورة تعليم الامة وتنقية جهاز الدولة وتربية القائمين باعمال الحكومة تربية جديدة .

اما من حيث الصناعة والزراعة والتجارة ، فلعل الرأي الاقتصادي السائد كان يعتبر نشاط الدولة في انشاء الصناعات امراً غير مرغوب فيه ، بل محظوراً^(١٤) . وهو رأي مستعار من مفكري النهضة الصناعية الاوروبية الحديثة ، في مفتتح شأنها ، ومستعار ايضاً من الثورة الفرنسية واعتمادها - بالنتيجة - على قاعدة ما نسميه « الاقتصاد الطليق » . غير ان دولة كالامبراطورية العثمانية تأخرت في احداث انقلابها الدستوري الى اول القرن العشرين ، وهي جد متأخرة في بنائها الاقتصادي - نصف القطاعي - وعرضة لمآرب الدول الاستعمارية ما كان لها ان تكتفي بالنشاط الفردي في ميدان الصناعة (لا سيما الصناعة !) والزراعة والتجارة اعتقاداً منها بان مجرد اعلان الدستور واحداث المجلس النيابي كنبيل بسير كل شيء على ما يرام . فالنشاط الفردي ، الاقتصادي ، واطلاق

(١٤) راجع في باب النصوص فصلاً بعنوان : « وجوب حرية الانشاء الاقتصادي من تدخل الدولة » وهو فصل اجترأناه من كتاب « محاكمة مدحت باشا » تعريب : حنا .

الحرية لهذا النشاط الفردي، كل ذلك واجب ومشمر ايضاً، الا انه وحده لا يكفي للوثب بدولة افاقت متأخرة على السباق الاقتصادي العالمي .

على اننا قد نكون ، هنا ، جاوزنا بعض الشيء . ما قاله ادباؤنا ومفكروننا في نقد الانقلاب العثماني . والواقع ان ثقافة ادبائنا ومفكرينا ، من الوجه الاقتصادي ، كانت ولا تزال ضعيفة في الغالب . ولكن يجب القول : ان ادباءنا ومفكرينا اذا كانوا قد «الوا الى مذهب الاقتصاد الطليق ، وآثروا ان ترفع الدولة - ولو كانت منبثقة من الامة - يدها عن البناء الاقتصادي ، فقد ادركوا كل الادراك ، هذه الحقيقة الاساسية وهي : ان وجود حكومة شورية ، (او دستورية او ديموقراطية) ، تطلق الحريات وتحميها ، حاجة اولية لا بد منها لتقدم الشعب ونهضة البلاد .

وهكذا دعوا الى العناية ، وايدوا الاهتمام الكلي بمسألة السلطة ، لانها مفتاح كل شيء . « وكأنما جعلوا شعارهم ان « المرء الذي لا يكثرث لامور حكومته يعد خاملاً »^(١٥) . ووجهوا الفكر والادب الى السياسة والاجتماع ، شأن الاعلام الفرنسيين في القرن الثامن عشر ، ورأىهم الحرية السياسية التي هي « العافية المفقودة » كما سماها عبد الرحمن الكواكبي في طبائع الاستبداد .

ويتصور اديب اسحق فريقتاً يقول له : « دع السياسة لاهل الرئاسة ، فهم فيها احق ، وبها اعلم ، وعليها اقدر . » وقد اراد اديب اسحق ان يعرض بنوع من ذهنية تعتقد ان السياسة وقف خاص او احتكار ، وراح ينقض هذا الرأي فقال : « الف الكاتب الفرنسي روسو كتاب الميثاق الاجتماعي في السياسة ، وشعر من اهل زمانه بمثل ذلك الاعتراض فأجاب : يقولون أنت امير ام انت حاكم لتكتب في السياسة ؟ واقول لا . ولكنني من اجل هذا كتبت ، فاني لو كنت اميراً او حاكماً لما اضعت الزمان في كتابة ما ينبغي ان افعل ، بل كنت افعله او استأتم السكوت ! » ويستأنف اديب اسحق كلامه فيقول : « من حقوق الانسان الطبيعية بل من واجباته ان ينظر فيما يمس وما يحيط به من الامور الدنيوية والاحوال الاجتماعية . ولقد جاز للمرء ان يبحث عن اسرار الوجود ويستكشف نوااميس الطبيعة

في حالة كونه لا يستطيع تغيير شيء من نظامها ولا يقوى على مخالفة حرف من احكامها ، فكيف يحظر عليه النظر في النظام الذي هو جزء منه والاحكام التي هي من وضع الانسان ؟ »

وينظر كاتبنا الى الفلاسفة ، فلا يعترف بانها « مخصوصة بطائفة من الناس دون الآخرين . » ثم يقول : « ان الالم خرجت من خطة الغنمية . . . وانتقلت من دور الطفولية ، وسئمت انفسها الغذاء من لبن الخرافات والرموز ، فلا بد لها من العلم بالحقائق السامية كما تُعلم المعارف الدانية ، فقد اذف الوقت الذي يخرج فيه عن صفة الانسانية من لم يكن عارفاً بكل ما اكتشفه عقل الانسان . » ويذهب كاتبنا الى التصريح بان الفلسفة اداة ، او يجب ان تكون اداة من ادوات الكفاح الثوري في شؤون الاجتماع وقضايا السلطة ، فـ « تأثير (علمها) غير منحصر في المعلومات الانسانية ، ولكنه يتجاوزها الى هيئة الاجتماع فتظهر فيه آثار تغييره (اي : الاجتماع) بظواهر من ثورات اخاطر وتجليات الالباب . ولا بدع في ذلك فهو (اي : علم الفلسفة) علم الانسان ، فلو قدر ان يكون من نتائجه الحكم بكون الناس نوعين اثنين احدهما للامر والسلطة ، والآخر للطاعة والانقياد ، للزم من ذلك ان يكون في الارض ظلام لا يرحمون وعبيد لا يأبقون . ولو فرض ان تلك النتيجة قد هذبت فيه ولطفت فلم تقض الا بان يكون في كل جمعية مدنية فريق يتدبرون الأمور عن الكافة ، وان تكون الكافة وفقاً على خدمة ذلك الفريق ، لحصل من ذلك مبدأ الامتياز الارستوقراطي القبيح لزوماً . »

ويلتفت اديب اسحق الى الكتاب فيجرهم الى المعمة ، ويريدهم مكافحين مناضلين ، ويجعل من واجباتهم « السعي الى جنة الحرية مع ثقل سلاسل العادات وقيود القوانين » . . .

ووجد ادباؤنا ومفكرون انفسهم امام قيم ومثل ومعقولات جديدة ، شاعت على الالسنه والاقلام ابان الثورة الفرنسية ، وتناقلتها الافواه والقرائيس في الشرق العربي . فقد طفق الناس يتحدثون عن « الوطن » و « الوطنية » و « الامة » و « القومية » و « الحرية » و « المساواة » و « الحقوق الطبيعية » وشؤون اخرى ، فكان النظر فيها

واجباً على ادبائنا ومفكرينا .

١٥ الوطن ، فلا نعلم أن احداً من طلائع ادبائنا ومفكرينا ، حاول البحث فيه كما حاول اديب اسحق . وقد اثبتنا له في باب النصوص من هذا الكتاب قطعتين تدوران حول الموضوع . ويلاحظ ان اديب اسحق بنى على المفكرين الفرنسيين قبل الثورة ، وأيد نفسه بقول من « لارويير » : « لا وطن في حالة الاستبداد . » وخلاصة رأي كاتبنا في موضوع الوطن أنه « خير وحدة » يرجع اليها المواطنون و « يجتمعون عليها اجتماع دقائق الرمل حجراً صلباً » ، ولا بد للوطن - حتى يكون وطناً بصحيح المعنى - من حرية وحقوق وواجبات تسري على الجميع ، ف« ان امتياز بعض الناس عن بعض في وطن واحد يلحق بذلك الوطن الضرر العظيم حساً ومعنى » (١٦) .

والوطنية هي حب الوطن ، والمواطنين ، مع ما يستدعي ذلك من الخدمة والتضحية ، والفداء في بعض الاحيان . وقد تطرق اديب اسحق الى بحث الوطنية ، فاثبتنا بحشه في باب النصوص . ولاحمد فارس الشدياق فصل ممتع في نقد الوطنيين الزائفين ، اثبتناه ايضاً وهو يشف عن روح الرجل الفكهة ، اللاذعة ، وقرابتها من « رابليه » وفولتير (١٧) . وبديهي أن ادباءنا ومفكرينا انصرفوا الى تعزيز الشعور الوطني وتقويته ، واعتبروا

(١٦) هذه العبارة الاخيرة مأخوذة من مقالته في الدرر : « اماني » .

(١٧) لا نظن ان احمد فارس الشدياق كان متأثراً متأثراً مباشراً بالثورة الفرنسية ، ولم يكن طبيعياً ان يشيد بالثورة وهو في ظل عبد الحميد . غير ان حملته على سلطة معينة في لبنان ، وبراعة سخره ، واستنكاره لاحراق الكتب (وكان شديد الخوف من ان يحرقوا كتابه الفارياق) ، كلها عوامل اثرلته منزلة فولتيرية في ادبنا ، وجعلته من دعاة حرية الرأي والفكر . وقد يقال ان الشدياق كان مسوقاً الى ثورته بدافع فاجعة عائلية ، مسته في الصميم (فاجعة اخيه) ، ولكن ذلك لا يغير شيئاً من نتيجة الحكم بشورته . والذي يؤخذ من آثاره انه كان معجباً جداً باعلام فرنسا الفكريين ، وفيهم يقول :

وكم فاتح منهم وما بارح الحمى
كتائبه اقلامه والقراطيس

ولئن يكن كتب فصلا في « كشف المخبا عن فنون اوروبا » تناول فيه كومين باريس ، سنة ١٨٧١ ، وانخرف بتيار الاحكام التي لا تزال سائدة بحق الكومين ، فذلك لا ينقض انه كان معجباً : « الفعلة » في باريس ، كما سمي الحال في « الفارياق » .

الوطنية خير جامعة يجمعون بها صفوف الامة لحمايتها وانهاضها . وما كاد الشيخ عبد الله النديم يطرح هذا السؤال الذي جعله عنوان احدى مقالاته : « هذه يدي في يد من اضعها ؟ » ، حتى اجاب في اول سطر من المقالة : « ضعها في يد وطنيك ! »

اما الامة ، فيبدو لنا ان ادباءنا ومفكرينا لم يطيّلوا الوقفة عندها ، وسبب ذلك - على ما نرجح - أن معظم ادبائنا ومفكرينا الاول كانوا يأخذون بالجامعة العثمانية^(١٨) . ومفهوم ان امبراطورية السلاطان العثماني لم تكن تتألف من امة واحدة . فاذا استعمل ادبائنا ومفكروننا لفظ الامة تجوزوا فيه وتوسعوا . والواقع ان تعريف الامة ، في الفكر العالمي ، لا يزال الى اليوم موضوع جدل كثير . وفي باب النصوص . من هذا الكتاب ، بحث قصير لاديب اسحق ، حاول فيه تحديد الامة فجعلها « الجماعة من الناس » « تتجنس جنساً واحداً » و « تخضع لقانون واحد » و « تتعارف باسم تنسب اليه وتدافع عنه . » اما « وحدة اللغة » فاستحسنها^(١٩) ، ولم يذكر الرابطة الدينية مطلقاً^(٢٠) . وعنى بقوله : « تتجنس جنساً واحداً » ان ليس من الضروري ان تكون الامة من اصل واحد في النسب ، لان التقلبات التاريخية ادت بمعظم

(١٨) راجع العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث جزء ١ (العوامل السياسية) لانس الحوري المقدسي .

(١٩) ان وحدة اللغة ضرورية للامة . ولكن اديب اسحق كتب في العهد التركي ، ولم تكن في الامبراطورية لغة واحدة . . .

(٢٠) خالف ذلك نفر قليل من مفكرينا ، جعلوا وحدة الدين من شروط الامة ، واستندوا الى قول القرآن : « كنتم خير امة اخرجت للناس . . . » وقالوا انه يقصد بالامة المسلمين . على ان القرآن استعمل كلمة الامة في موضع آخر ، فقال : « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير . . . » وظاهر ان الامة هنا لا يمكن ان يكون معناها المسلمين ، بل الجماعة . وبما يسب الى الرسول قوله في قس بن ساعدة : « يبعث امة وحده » وقيل ان معناها هنا : الطريقة . وقد قصد الرسول : ان قساً كانت له طريقة اخرجته عن حكم ما سبق (اي : الجاهلية) ولما لم يدرك الاسلام فقد لبث امة (اي : طريقة) وحده . وعلى هذا فالطريقة - الطريقة الواحدة ، او المتشعبة في الحياة والعادات ، مثلاً - عنصر مندرج في معنى الامة . ولكن يجب ان لا ننسى ان الالفاظ تكتسب ، باختلاف الاحوال ، معاني مستحدثة ، فتقييد استعمالها الجديدة باستعمالها القديمة يورط في الاخطاء .

البشرية الى الاختلاط والتمازج . ولا ريب ان اديب اسحق وفق الى الصواب في النقاط التي ذكرها ، وكان موقفاً ايضاً في سكوته عن ارابطة الدينية . والذي يمكن استنتاجه من فحوى كلامه : ان الامة هيئة تتكون تاريخياً (يكونها التاريخ) ولا توجد في اصل الخلق . وانها حقيقة من الاهمية بكان عظيم . على ان اديب اسحق غفل في تحديد الامة عن بعض نقاط اساسية ^(٢١) .

اما كلمة القومية ، فكان استعمالها قليلاً جداً ، في إبان انتشار فكرة « الجامعة العثمانية » ولم تشع الا بعد نهضة فكرة العروبة ^(٢٢) . والقومية اسم لشعور وفهم بنيا على النسبة الى القوم . وقد ذهب اديب اسحق الى ان « الامة من الرجل هي قومه » . ومعنى ذلك ان كاتبنا جعل القوم الامة ، والامة القوم ، فتكون « القومية » من « الامة » بمثابة « الوطنية » من « الوطن » . وهذا هو المعنى الاغلب الذي قصده ويقصده اكثر كتابنا وادباؤنا بالقومية ، مع العلم ان بعض الفوضى لا تزال منتشرة في استعمال هذه الكلمات التي لم تعين مدلولاتها الحديثة تعيناً واضحاً في لغتنا واذهاننا . ويعالج ادباؤنا ومفكرون موضوع الحرية ، وكلهم مجمعون على انها الضالة الحبيبة المنشودة ^(٢٣) . ومن الخير انهم لم يقفوا في امرها عند حد المدح والثناء ، بل اعملوا

(٢١) اوفى تعريف اطلعنا عليه للامة هو قول ستالين : الامة ١ - جماعة ثابتة من الناس ، (اي : احكام تتألف عرضاً بنجاح موقت في الفتح كإمبراطورية الاسكندر) ، ٢ - مؤلفة تاريخياً (اي : تكونت بمرر التاريخ) ، ٣ - لها لغة مشتركة ، ٤ - وارض مشتركة ، ٥ - وحياة اقتصادية مشتركة ، ٦ - وبيان نفسي مشترك ، يجد تعبيراً له في الثقافة المشتركة . . . ان اجتماع كل هذه المحيزات هو وحده الذي يوحد الامة . (كتاب المسألة الوطنية) .

(٢٢) راجع كتاب « ثورة العرب » بقلم احد اعضاء الجمعيات العربية ، فقرأ فيه ان الاختبارات المرة « اظهرت للعرب كافة ان اتفاقهم مع الترك كان شراً عليهم لانه لم يكن قائماً على اساس القومية » . ص ٤٣ - ٤٤ .

(٢٣) « ايها الحرية ، يا مصدر كل امر جليل في الارض ، لقد علمنا انه لا نجاح بدونك ، ولا سعادة مع البعد عنك ، فان الامة الحرة تكون كفرس مقيد يسير رافعاً رأسه ويتشقق ملء صدره الهواء النقي ، ويسرح في المرعى النضير . اما الشعب المستعبد فهو كفرس مستعبد يدور حول الرحى مغضض العينين يسير السنة بتمامها ولا ينتقل من مكانه » . - اديب اسحق .

الفكر المحلل ، وكانت القاعدة التي بنوا عليها ما ورد في « بيان حقوق الانسان » :
 « حد الحرية انه يباح للمرء عمل كل ما يريد شرط ان لا يؤدي غيره . » واتفقوا
 على ان لا بد للحرية من قوانين نافذة ، فهم بذلك قد ماشوا مونتسكيو ، ولكنهم ،
 بلسان اديب اسحق ، اخذوا على مونتسكيو « ذهوله عن ماهية القوانين . » في
 واشنطن قانون وفي طهران قانون . وكذلك الامر في لندرا وبكين . ولكن التقيد
 بالقانون في طهران وبكين لا يعني الحرية ، كالتقيد بالقانون في واشنطن ولندرا .
 والسبب راجع الى ماهية القوانين ، ففي واشنطن ولندرا دستور وشورى وديموقراطية ،
 بينما في بكين كانت تنفذ ارادة الامبراطور المطلق ، وفي طهران كانت تنفذ
 ارادة الشاه المطلق . واذن ، فالحرية هي التقيد بقوانين يشترك الشعب في وضعها
 عن طريق ممثليه . وفي هذا عرق من روسو نجده في ادبائنا ومفكرينا .

وكما سعت الثورة الفرنسية وسعى اعلامها الفكريون الى حرية الرأي والعقيدة
 الدينية والطباعة والخطابة والانتخاب ، وحرية التصرف بالاملاك وتنظيم الجمعيات ،
 وحرية الشخص الانساني بحيث لا يُقبض عليه ولا يسجن ولا يحاكم ظالماً ، كذلك
 سعى ادباؤنا ومفكرونا الى هذه الحريات اجمع ، في مدى قانون يحميها ويضع لها حداً
 تقف عنده هو الاضرار بالغير وبالمصلحة العامة .

وكما رجع اعلام الفكر الفرنسي الثائر الى الطبيعة يؤيدون بها مذهبهم ، كذلك
 رجع ادباؤنا الى الطبيعة ايضاً .

وجميل ان نغير الثقافة خاصة الى مفكر عربي خرج عن نطاق الحرية المدنية
 والسياسية (وكل ما ذكرناه سابقاً يدخل في هذا النطاق) فس موضوع الحرية
 فلسفياً . ذلك المفكر هو فرنسيس فتيح الله مرآش الحلبي ، فقد رأى ان بناء
 الحرية على الطبيعة مذهب سطحي . فالطبيعة كلها قواعد ونواميس تضبطها
 في حركاتها وتطوراتها ضبطاً حديدياً . فأين هي الحرية في الطبيعة اذن ؟
 ولكن المرآش لم يخلص من هذا الى الغناء الحرية ، بل كان مؤدى فكرته ان
 كل شيء في الوجود الطبيعي لا يمكنه ان يكون حراً الا اذا خضع لقواعد
 ونواميس هي ضرورة كافلة لوجوده . ومعنى هذا : ان لا حرية الا مع القيام

بالضرورات ، لا حرية الا مع اقام الحاجات التي لا بد منها . فالحرية ليست ، فقط ، حقوقاً نزع فيها ، وهي تضمن لنا بمجرد قانون نضعه ، ولكنها ايضاً واجبات لا بد من الوفاء بها حتى تحقق الحقوق . ولذلك لم ينظر المراس في الوجود الاجتماعي والمدني ، الى مجرد الرغبة في الحرية ، والى مجرد قانون يُزال او قانون يوضع ، بل نظر ايضاً الى الضرورة ، وقرر ان اطلاق الحرية بالغاء كل قيد لا حاجة اليه هو قانون صوابي . ولرب قائل يقول : ولكن من يثبت ان هذا القيد ، او ذاك ، بات ولا حاجة اليه فيجب الغاؤه ؟ وليس من شك ان المراس فطن الى مثل هذا الاعتراض ، وعرف ان القيد اذا أصبح عائقاً للتقدم لا ضابطاً يخدم نظاماً صالحاً ، فللثورة عند ذلك محلها اللائق ، فأيد المراس الحرب الاهلية الاميركية التي وقعت في زمانه لتحرير العبيد ، مع انه علم ان كثيرين كانوا في اميركا لا يزالون يجادلون في وجوب استعباد الرقيق ويدافعون بالسلاح عن هذا الحق . ومن اقوال المراس : ان الكون لا يزال مملوءاً برائحة البارود في سبيل الحرية . ومن معاني الحرية التي نظر اليها بعض كتابنا وادبائنا : الحرية النفسية (٢٤) . والمقاصد بهذا النوع من الحرية كثيرة . فمنها ما يتصل بالاخلاق ويرجع الى التربية . واديب اسحق بناء على روسو وكتاب « اميل » قد ادرك شدة الحاجة الى الحرية في التربية ، وعرض بالدين « يربون الاولاد كما تضرب الدراهم » ، درهم منسوخ عن درهم . ولكن من الحرية النفسية ما قد يعني اكتفاء الانسان بمحض الاعتقاد انه حر ، وتلك حرية الوهم . ومن الحرية النفسية ما قد يعني استغناء الانسان بنفسه ، وانسلاخه عن محيطه ، تحرراً من الواقع وتوصلاً الى شهود الزيب ، وتلك حرية لا تدخل في بحثنا (٢٥) .

(٢٤) كما سماها الدكتور سليمان غزالي في كتابه : الحرية .

(٢٥) عرض المفكر العربي الكبير ، ابو اسحق النظام المعتزلي ، الى جماعة « هجروا الديار والاوطان واقبلوا على اكل الحشيش ومساكنة الجبال ومرافقة الوحوش ، فخف دماغهم واخذتهم المايلخوليا ، فتعجلوا بالمعد السوداء وذهبت اعمالهم هباء ولم يحصلوا الا على سراب يحسبه الظن ماء . » (مفيد العلوم للخوارزمي) ، وهو كلام شديد الانطباق على جماعة « الحرية »

وعالج ادباؤنا ومفكروننا قضية المساواة ، وفهموها كما فهمتها وأقرتها الثورة الفرنسية ، اي : مساواة امام قانون واحد ، يسري على جميع المواطنين ، يمثلون كلهم امامه ، لا فرق بين غني وفقير ، وضعيف وقوي ، وابناء مذهب ومذهب^(٣٦) . ومن يراجع آثار الطلائع من ادبائنا يجدهم جميعاً كثيري الالتفات الى قضية المساواة . ذلك لان الامبراطورية العثمانية كانت مبنية الاحكام على الدين والتفريق في القضاء بين ابناء المذهب والمذهب ، يضاف الى ذلك نقائص صارخة ، كهضم حقوق الطبقات الهابطة في السلم الاجتماعي ، ومحاربة الطبقات الرفيعة ، ومراعاة « المحسوبيات » ، وشيوع الرشوة ، وما اشبه . وقد اتخذ التدخل الاجنبي حجة من هذا كله ، لفرض محاكم خاصة تنظر في قضايا الاجانب ، ونجح في استغلال الاستياء المشروع الذي كانت تبديه عناصر مختلفة في البلاد . فكان من الطبيعي ان يشتد طلب ادبائنا ومفكرينا للمساواة ، حرصاً على مماشاة الرقي وانصافاً لجميع المواطنين ، وقطعاً للحجج الاستعمارية . وتفرعت من قضية المساواة لدى ادبائنا ومفكرينا مسألة الرجل والمرأة وهل يتساويان ؟ وقد القى الدكتور شبلي الشميل محاضرة جنح فيها الى ترجيح جانب

الذين يستهدفون شهود النيب . وغني عن البيان ان حرية الشroud في البراري ، والتنسك ، والرياضات الروحية قليلة الجدوى الاجتماعية والسياسية ، وهي رد فعل اهزامي امام الظلم ، ولكنها لبست ، احياناً ، اشخاصاً يروعننا سموهم الخلفي وتقاؤهم النفسي كابن ادم .
(٣٦) نستطيع ان نسوق شواهد لا حصر لها في هذا الباب . ولكننا نكتفي بشاهدين من ادب اسحق والمراس . قال ادب اسحق : « اما حقيقة المساواة ان تكون الاحكام سواء على من هم بالنظر اليها سواء ، يعني ان تجرد النصوص الحكمية من كل ما يجعل بعض الناس فوق بعض ، وتنتزه عن كل ما يفتح باب النجاح لبعضهم دون الآخرين ، وتظهر من كل ما يشف عن شيء من ذلك ان يؤدي اليه ، فتكون امن الخائف وملاذ الفازع ونصفة المظلوم وسدا سديدا في وجه الجريء . » وقال المراس : « ان اعظم المقومات لصحة السياسة واقامة الحق ، هو مجرى شرائعها متساوية على كل ابنائها بدون ادنى امتياز بين الأشخاص او تفريق بين الاحوال . فلا يجب الاخذ بيد الكبير ودفع الصغير . ولا الالتفات الى الغني والاعراض عن الفقير . ولا مؤازرة القوي ومواراة الضعيف . بل يجب معاملة الجميع على حد سواء كيلا يقع خلل في نظام الحق . » (راجع تتمتها في باب النصوص من هذا الكتاب) .

الرجل ، فكانت موجة قوية من الاخذ والرد . وسبق لأديب اسحق ان نظر في الموضوع ، فشخص الى هيكل وحيه ، الى الثورة الفرنسية ، فرأى - على تعبيره - ان « روبسبير رسول المساواة الكبير . . . نسي نصف النوع الانساني . » وبالفعل ، ان الثورة الفرنسية لم تعترف للمرأة بحق مساواة الرجل ، وكان اعلام مفكري الثورة ، لاسيما روسو ، متحاملين على المرأة . الا ان اديب اسحق قرّر ان « المرأة غير الرجل » وبذلك ترك الباب مفتوحاً ، فلم ينف مساواتهما ، كما انه لم يشبتها . واذا خرجنا عن موضوع المساواة وجدنا ادباءنا ومفكرينا جميعاً يعترفون بسمو مكانة المرأة وبوجوب احترامها وتعليمها وانهاضها . ومن هنا شاع على ألسنتهم القول : الامة نسيج الامهات !

اما النظر الى الطبيعة والتعلم منها ، شأن اعلام فرنسا في القرن الثامن عشر ، فهو سمة بارزة من سمات أدبائنا ومفكرينا . وقد مر معنا كيف ان فرنسيس المراس رأى ان بناء الحجّة ، في وجوب الحرية ، على شاهد الطبيعة مذهب لا يخلو من السطحية ، وكان فرنسيس المراس في ذلك اعظم من غيره . إلا ان ادباءنا ومفكرينا - على وجه عام - اتجهوا الى الطبيعة اسوة بالمفكرين الفرنسيين في القرن الثامن عشر ، واستخلصوا ، كما استخلص اولئك ، ان الحرية والمساواة وسائر المطامح الانسانية انما هي حقوق اثبتتها الطبيعة للانسان . واذن ، فقد كان مبدأ الرجوع الى الطبيعة له مغزى سياسي اجتماعي ، وتلك هي أهمية هذا المبدأ بقطع النظر عن خطاه او صوابه . فاديب اسحق ، مثلاً ، حين يقرر الحرية الطبيعية لا يقف عند حد التقرير ، ولكنه يرسل الصيحة الى النضال فيقول : « كل ما يذهب بالحرية الطبيعية تقييداً او إضعافاً او محوّاً كلياً ، فهو اختلاس او جهل بماهية الوجود ، لان العبودية ، اما ان تكون اجبارية ، فهي من جانب المستعبد سرقة واتلاف لاقدس حقوق الوجود ، واما ان تكون اختيارية فهي من جانب العبد جهل وعى قلب يخرج بهما عن ان يكون انساناً . »

يضاف الى ذلك ان التوجه الى الطبيعة كان له أثر مبارك في حقن أدبنا وادبائنا بدم جديد . فانهم لما خرجوا الى جو الطبيعة الطلق بدأوا يخرجون عن الكتب

والتقييد بالقواعد المرسومة في الاساليب والافكار . هذا المغلوطي يهتف بالشاعر داعياً
ايه الى التفلت والانطلاق :

« انت كالطائر السجين في قفصه ، فزق عن نفسك هذا السجن الذي يحيط بك
وطر بجناحيك في اجواء هذا العالم المنبسط الفسيح ، وتنقل ما شئت في جنباته
واكتافه ، واهتف باغاريك الجميلة فوق قمم جباله ورؤوس اشجاره وضفاف انهاره ،
فانت لم تخلق للسجن والقيد ، بل للهتاف والتغريد ! »

وهذا جبران خليل جبران يحاول دفع الناس الى الاحساس بالبون الشاسع بين
حالتهم والحالة الطبيعية ، ويدعوهم الى الحرية ونور الشمس :

« امام عرش الحرية تفوح الاشجار بداعبة النسيم ، وامام هيبتها تبتهج بشعاع
الشمس والقمر . على مسامع الحرية تتناجى العصافير ، وحول اذيلها ترفرف بقرب
السواقي . في فضاء الحرية تسكب الزهور عطر انفاسها ، وامام عينيها تبسم لمحي
الصباح . اما البشر فمحرومون هذه النعمة لانهم وضعوا لارواحهم الآهية شريعة
عالمية محدودة وسنوا لاجسادهم ونفوسهم قانوناً واحداً قاسياً ، واقاموا لاميلهم
وعواطفهم سجناً ضيقاً مخيفاً ، وحفروا لتلوبهم وعقولهم تبراً عميقاً مظلماً . فاذا ما قام
واحد من بينهم وانفرد عن جامعتهم وشرائعهم قالوا : هذا متهم شرير خالق بالنبي ،
وساقط دنس يستحق الموت . ولكن هل يظل الانسان عبداً لشرائعه الفاسدة الى
انقضاء الدهر ؟ ام تحرره الايام ليحيا بالروح وللروح ؟ ايبقى الانسان محمداً بالتراب ؟
ام يحول عينيهِ نحو الشمس ليحيا بنورها ويحترق بنارها ؟ »

والخلاصة ان مبدء الرجوع الى الطبيعة يعني في الحقيقة ان الانسان ينظر الى
الطبيعة فيفيض عليها حياة من حياته ، ويقيمها مقام المشارك له في عواطفه وافكاره
وامانيه . وهذا هو جوهر الرومانتيكية . الا ان من الرومانتيكيين من يتصور
الحالة الطبيعية - وهي الحالة المثلى - ويرى ان لا امل في العودة اليها ، فيعتبر نفسه ،
والانسان جملة ، اشبه بملاك طرد طرداً نهائياً من الفردوس ، فهو حزين كئيب
والطبيعة حزينة كئيبة ^{٢٧} . ومن الرومانتيكيين من يشهد الفرق بين الحالة الطبيعية

— الحالة المثلى — والحالة الراهنة ، فيرسل الصيحة الى النضال . ولئن كانت هذه الصيحة مبعثها في الغالب شعور يحسّ الهدف ، ولا يرسم طريق الوصول ، فإنها مع ذلك خير من رومانتيكية الندب والعيول .

بقي معنى لا بد لنا من ذكره ، يقصده ادباؤنا ومفكرونا حين يقولون : « الطبيعي » . فلقد نظروا في اشياء الطبيعة وتصرفاتها ، فاذا بهذه الاشياء والتصرفات لها خصائص ونواميس تسري عليها . فالحجر اذا افلت من فوق وقع الى تحت ، وهذا طبيعي . والفحم اذا تمت فحميته اسود ، وهذا طبيعي ايضاً . ونظر ادباؤنا ومفكرونا في السياسة والاجتماع فاذا الامور والتطورات السياسية والاجتماعية خصائص ونواميس تسري عليها . فالاستبداد ، مثلاً ، اي : « حكم الحاكم بامر » كما عرفه الكواكبي ، له في صفاته ومسالكه طبائع ملازمة له . ومن هنا كان عنوان كتاب الكواكبي « طبائع الاستبداد » . ولا يجوز القول بان ادباءنا ومفكرينا قبسوا هذا الاستعمال من اعلام الفكر الفرنسي وحدهم ، فقد سبق اليه ابن خلدون اذ يقول ، مثلاً : « من طبيعة الملك الانفراد بالمجد »^{٢٨} .

ولم ننبه الى هذا المعنى من معاني « الطبيعة » و « الطبيعي » ، لنبيين محض طريقة من طرق استعمال الكلمة ، ولكن لنظهر ما وراء ذلك من صحة وعمق فكر . فان معرفة ادبائنا ان الامور والتطورات السياسية والاجتماعية — كالانظمة واشكال الحكم والانقلابات — لها طبائع مخصوصة انما هي معرفة ثمينة تمكننا من انتظار ما يجوز ، او يجب انتظاره ، في شأن هذا الضرب من ضروب السياسة او هذا النوع من انواع الاجتماع . فاذا كنا امام « حاكم بامر » توقعنا الاستبداد والجور لان ذلك طبيعي ، ولم يحق لنا ان نتوقع زوال الاستبداد والجور الا بتغيير النظام الذي يحكم فيه حاكم بامر ، لان طبيعة الشيء لا تتغير الا بتبدل الشيء نفسه ، فالفحم لا يخرج عن الفحمية اذا دهن بالطبشور ، ولكنه ينقلب اذا صار ماساً .

وهناك درس آخر افاده ادباؤنا ومفكرونا من الثورة الفرنسية وعلامها الفكريين ، ذلك هو فصل الدين عن الدولة . وقد شاءت بعض الجهات في الثورة الفرنسية ان

تتدخل في امر الدين ، فتقسم للناس عبادة جديدة هي عبادة العقل ممثلاً في امرأة ، ولكن الرأي الاخير قرّر على ان يفصل الدين عن الدولة ويحال بين السلطات الروحية والتدخل في الشؤون الزمنية . وصحيح ان عدداً من ادبائنا ومفكرينا كالشدياق في « الفاريق » ونوفل الطرابلسي في « سياحة المعارف » وقفوا موقف المستنكر من الثورة الفرنسية لمساهمتها في شأن الدين . وصحيح ايضاً ان بعض مفكرينا كالدكتور شاكر اخوري في « مجمع المسرات » وقفوا موقف النقد من روسو وفولتير لانهم خالوها يريدان نقض ^(٢٩) الدين . ولكن ليس من شك ان رجال الادب والفكر عندنا ايدوا جميعاً . طلب فصل الدين عن الدولة وحصر نفوذ السلطات الروحية في نطاق خاص بها لا تتمدها . ومفهوم ان اوضاع الامبراطورية العثمانية كان فيها ما يدفعهم دفعا الى تأييد هذا المطلب ، فشاع على اللسان والاقلام الشعار التالي : « الدين لله والوطن للجميع » .

وبهذا ننهي جانباً آخر من بحث ادبائنا امام الثورة الفرنسية ومفكرينا . وواضح اننا كنا الى هذا الحد نستعرض الذين رأوا في الثورة دروساً ونتائج ايجابية ، فلنلتفت الآن الى الذين حاولوا ان ينقدوا الثورة نقداً يصحّ اعتباره .



٣ - نقد ورد

هل جاءت الديمقراطية بكل ما ينتظر منها ؟
هل جاء العلم لتأييدها ، فيقوم
ناتش ونوردو فيلسوفا الالمان ، مدفوعين برغائب حكومتها العسكرية ،
يشدان ازر القوي في القضاء على الضعيف ، وتحطيم اسنان الفير ، واحتكار
الحياة والقوت والارتقاء ، هي تربية فاسدة تماماً ، تخر الانسانية الى
الوحشية وتجعل العالم غار وحش ضارٍ كله بتايا عظام رجسة . ولذا وجب

دك معلمها وتقويض اساسها الراسخ واقتلاع جذورها واحراقها وتذريتها في
الآفاق .
قاسم امين

قد تغيرت القيود وتنوعت السلاسل واستبدل النخاسون بغيرهم .
أمين الريحاني (فوق سطوح نيويورك)

نعم ، لا يقتضي ان يتساوى العالم الذي صرف حياته في تحصيل العلم
النافع او الصنعة المفيدة بذلك الجاهل النائم في ظل الحائط ولا المجتهد
المخاطر بالكسول الخامل ...

(ولكن) الانسان لا يكون انساناً ما لم تكن له صنعة مفيدة
تكفي معاشه باقتصاد ، لا تنقصه فتذله ولا تريد عايله فتطفيه ...
وقد أصبح للثروة العمومية اهمية عظمى لاجل حفظ الاستقلال .
كلمات للكواكي

جعلنا سبيلنا في هذا الفصل ان نعرض لادبائنا ومفكرينا الذين حاولوا ان
ينقدوا الثورة الفرنسية الكبرى نقداً يصح اعتباره ، ونحن نعني ، بالطبع ، اننا لن
نعرض للذين لم يستطيعوا ان يروا في الثورة الا بعض مظاهر وقفوا عندها فأسأوا
حتى فهم تلك المظاهر ، وكتبوا ، وهمهم التشجيع على الثورة او الاغراب الادبي في
سرد القصص والحوادث . وقد كان للروايات التي نقلتها الى العربية « مجلة روايات
الجيب » عن رافائيل سباتيني والبارونة اوركزي اثر سي . في تصوير الثورة الفرنسية .
فنحن هذا النحو بعض ادبائنا المحدثين كالاستاذ حسن الشريف في كتابه : « تاريخ ما
اهمله التاريخ » اذ راح يشبع قراءه حديثاً عن مواضيع كالمملكة . اري انطوانيت
و « حزنها الملكي » كأن الحزن ايضاً طبقات كطبقات المجتمع ! ومن هذه الطائفة
ايضاً الاستاذ عبدالله عنان الذي كتب سفرأ في المؤامرات السياسية في التاريخ ،
فذكر غراكوس بابوف وحركته ، وظهر في ما سطره عجزاً ذريعاً عن فهم الثائر
الفرنسي وحقيقة مكانته ^(١) .

مر بنا ان الادباء والمفكرين العرب ، على وجه الجملة ، وقفوا موقف المعجب

(١) لعل خير الكتب التي تعالج مرحلة من الثورة الفرنسية ، وتجري على الاسلوب
الروائي ، كتاب « ١٢ تموز » للاستاذ يوسف ابراهيم يربك .

المتعلم من الثورة الفرنسية وافذاذ مفكرها . ولكن تقصير الانقلاب العثماني عن تحقيق الإصلاح المنشود أضعف الحماسة ، بعض الشيء ، المبادئ التي رفع الانقلاب لواءها ، وهي مبادئ الثورة الفرنسية . كما ان « حقوق الانسان » وشعارات « الحرية والاخاء والمساواة » لم تصدّ دولاً تدين بها ، او بما يائنها ، عن الزحف نحو الشرق بغية التسلط عليه . يضاف الى ذلك ان « حقوق الانسان » وشعارات « الحرية والاخاء والمساواة » رغم قيامها في المجتمعات الأوروبية لم تلغ كفاعلاً داخلياً مستمراً في تلك المجتمعات ، ومنها فرنسا نفسها . فقد ظل ادباؤنا ومفكرونا يسمعون ، مثلاً ، بعمال يضربون ، وبمفكرين يطالبون بالحرية والمساواة والإصلاح ، فخالط بعضهم شك في ان الثورة الفرنسية غيرت شيئاً ، بل بات بعضهم يعتقد بان مبادئ شيعة بمبادئ الثورة الفرنسية ، تخالف طبيعة الامور ولا يتيها تحقيقها . وبلغت اذهان الادباء العرب اصداء من فردريك نيتشه الذي حمل حملة شعواء على الثورة ومبادئها . وكذلك لم تلبث ان بلغتهم اصداء من غوستاف لوبون وموقفه العدائي من الثورة . وقامت الحركات النازية والفاشية ، فكانت مبادئ الثورة الفرنسية من اهم الاهداف التي صبت عليها نيرانها . كل هذه عوامل اضعفت الاعجاب لدى بعض مفكرينا وادباؤنا بالثورة الفرنسية ، وضاءات الثقة بقيمة مبادئها .

وكان فرح انطون في طبيعة ادباؤنا الذين اخذوا يديرون ظهورهم الى مبادئ الثورة بعد ان كانوا شديدي الحماسة لها . على ان فرح انطون ، وقد انتهى الى الاعتقاد بالاشتراكية ، ظن ان اعتقاده الجديد يضائل من قيمة الثورة الفرنسية ومبادئها ومثلتها في التقدم التاريخي . وكان الدكتور شبلي الشميل قصد الرد على فرح انطون حين كتب القطعة التالية ، وفيها يبين ان الثورة الفرنسية كانت مرحلة عظيمة في سير التقدم ، ولكنها ليست بالمرحلة الاخيرة ، ولا هي تفي بمطاب الإصلاح جميعها على ممر الايام . قال الشميل :

« ... الغريب ان هؤلاء الذين كان امثالهم يجورون في الحكم على فرنسا في الثورة الاولى يعترفون جهارة اليوم بانه لولا تلك الثورة لما ارتقى الانسان واصطلح نوع الاحكام الى ما هما عليه الآن ليس في فرنسا وحدها بل في اوروبا كلها ، بل في العالم

قاطبة . وهؤلاء الذين يعترفون بذلك اليوم يؤخذون شعب فرنسا على عدم رضاه من نظام احكام كانت تصلح له من مائة عام ولم تبقى تصلح له اليوم ، لان الهيئة الاجتماعية المتمدنة ارتقت كثيراً عما كانت عليه من مائة سنة مع بقاء نظام الاحكام على حاله فاضطراب فرنسا وعدم رضاها من نظام جمهوريتها لا يفيدان كما يتوهمه قصار النظر انها تميل للرجوع الى الملكية ، او انه اذا قام فيها ملك حازم يستطيع ان يقبض عليها بيد من حديد ويسير بها كيف شاء . فهذا حلم يجوز على عقول الاطفال ولكن لا يجوز على الذين يدركون بعض الشيء من اسرار العمران ، ففرنسا ان تعود الى الملكية . ولكن الجمهورية التي تطلبها فرنسا عن حاجة في النفس مندفة اليها بالطبع لا عن اجهاد في قوى العقل ، والتي تتوقعها اوربا ، هي الجمهورية الحقيقية الديمقراطية التي تصبح فيها الامة الكل والحكومة لا شيء ، بخلاف حكومات اوربا وجمهورية فرنسا اليوم ، فانها كلها متقاربة في نظاماتها متساوية في نقصها ، ولو اختلفت في اسمائها ، وكلها مقصرة عما تتطلبه الهيئة الاجتماعية اليوم وفي المستقبل القريب » ولا سيما ان الاسباب الداعية اليوم الى النفور من نظمات الهيئة الاجتماعية واحكامها هي اثقل جداً على عاتق الامم مما في عصر الثورة الاولى ، فالثورة الاولى اسبابها الاستئثار بالاعناق والارزاق لشرف المولد . وقد كان الناس قليلهم يدرك حق المساواة واما اليوم فالثورة هي . . . بين قوى العقل المستنبط واليد العاملة ، وبين فساد نظام الاحكام ، حتي أصبحت مستنبطات العقول وأعمال الايدي خادمة لـ (نفر) يستفيدون منها . »

وقد كان على التاربين ان يقطع شوطاً كبيراً ، فتقع الحرب العظمى الاولى ، وتقع الثورة الروسية سنة ١٩١٧ ، ثم تقع هذه الحرب بين قوى التقدم من جهة وقوى الرجعية التي تتزعمها المانيا النازية . كان على كل ذلك ان يقع ، وان تعثر فرنسا ثم تأخذ في النوض من جديد وبهتف الجنرال ديغول : من يقل فرنسا يقل ثورة ، ويتحدث عن « فرنسا الغد التي لن تكون كفرنسا الامس » ، وعن الجمهورية الرابعة ، وتثار في بريطانيا وكل مكان مشكلة الضمان الاجتماعي ، وقتلى الدنيا حديثاً عن الديمقراطية الصحيحة ، والعهد العالمي الجديد ، كان على كل ذلك ان يقع

حتى يظهر كلام الدكتور الشميل في مدى عمقه وصحته .
قبل فرح انطون ، ارسل أديب اسحق هذه الكلمات التي تجذبنا الى النظر والتأمل فيها ، قال :

« ليس في الوجود الطبيعي ولا المدني من واجب الا بحق يائله . وليس فيه من حق الا بواجب يقابله . فاذا وجب على الوالد للهيئة المدنية تعليم ولده فقد حق له امكان ذلك التعليم على قدر الكفاءة . واذا حق للهيئة الحاكمة اجباره عليه فلقد لزمها توفير اسبابه وتجهيد سبيله على قدر الامكان . فان كان الوالد من الذين اصابهم النظام المدني باختلاله . . . فهو فقير معدم . . . لا يقوى على تعليم ولده . . . فالهيئة الحاكمة مأمورة بأن تيسر له ما لا يستطيع . »

وهي كلمات ايدها الكاتب بقول الاقتصادي الفرنسي الشهير ساي : « ان مركز المحترف العامل يدني مقدار دخله الى حد انه لا يكاد يفي بحاجته الا بشق النفس ، فاذا استطاع تربية الولد وتعليمه حرفة فهو لا شك عاجز عن ان ينيله من العلم القدر الذي يقتضيه حسن الحال في الهيئة المدنية ، فان رامت هذه الهيئة التمتع بنفائح هذا القدر من العلم في النة المحترفة العاملة ، وجب عليها ان تبش فيهم على نفقتها بانشاء المدارس المجانية . » (الاقتصاد ، الكتاب ٣ ، الفصل ٦) .

فاديب اسحق يثير ، قاله وما قبسه من ساي ، مشكلة عظمى هي مشكلة الذين يصيبهم النظام المدني باختلاله ، على حد تعبيره ، وهو يعني اولئك الذين يقعون ضحية العجز الاقتصادي فلا يستطيعون ان يعملوا اولادهم . والى جانب ذلك يثير اديب اسحق مبدءاً عاماً يتناول بمده شؤناً كثيرة غير التعليم الالزامي ، فما هو هذا المبدء العام ؟

يقول كاتبنا : « اذا وجب على الوالد للهيئة المدنية تعليم ولده ، فقد حق له امكان ذلك التعليم على قدر الكفاءة . واذا حق للهيئة الحاكمة اجباره عليه ، فقد لزمها توفير اسبابه وتجهيد سبيله على قدر الامكان . »

واذن فليس يكفي فرض الواجبات على الناس والمجتمع ، بل يتحتم على الهيئة الحاكمة ان تيسر لهم وسائل القيام بالواجبات المفروضة . وبطريق القياس ، ليس يكفي

ايضاً منح الحقوق للناس في المجتمع ، بل يتحتم على الهيئة الحاكمة ان تيسر لهم الوسائل الضرورية لممارسة الحقوق الممنوحة .

وبكلمة مختصرة ، ان القوانين والقرارات ، مهما تكن عادلة ، نزيهة ، انسانية ، تنجو منحي المثل الاعلى ، فهي لا تفني بالغرض المقصود منها ، بل قد تظل حبراً على ورق ، بل قد تنقلب ظالمة جائرة ، ان لم تكن قائمة على اساس يمكن من مراعاتها وتنفيذها ويغلق باب العذر والحجة على من يخالفها .

ولقد عرض كاتبنا نجيب الحداد شي من هذا ، تنبه اليه بتأثير من فيكتور هيغو وكتاب البؤساء ، قال :

« وضع » فيكتور هيغو « كتابه المشهور بعنوان « البؤساء » في ستة مجلدات كبيرة بناها على حكاية رجل حسن الاخلاق طيب القلب لم يخلق للشر والعدوان ، قضت عليه الضرورة القصوى ، وهي ضرورة الجوع او ضرورة البقاء التي فطر عليها الانسان ان يسرق رغيماً من الخبز لاهل منزله وفيهم صغار اطفال يتضورون من الجوع . فقبضت عليه الحكومة بهذا الذنب الكبير وحكم عليه القضاة بتوجب قانونهم بالاشغال الشاقة الى امد بعيد . وقد افرغ هيغو في هذا الكتاب كل ما حواه عقله الكبير من فلسفة الشقاء ، وكل ما شعر به فؤاده الكريم من واجب الرحمة والحنان ، وكل ما سمح به برهانه القاطع وحجته الدامغة من الطعن على القضاء في مثل هذا الظلم الشديد على فقير بائس يسرق رغيماً لاسد الرمق وقوام الحياة ، دفعته اليه ضرورة العيش وحب البقاء ، فاقدم عليه مضطراً غير باغ ولا عاد ، وليس من طبعه السرقة وحب الاذى ، فحكم عليه القانون القاسي بمثل ما يحكم به على سارق المال الكثير تدفعه اليه يد الطمع وفساد الطبع وحب الاذى والميل الى السرقة والاختلاس . »

وقال الكاتب نفسه يعالج مشكلة صغار الموظفين :

« لا يخفى ان حياة الانسان وحفظ وجوده هو الدافع الاكبر له في كل امر ، بل هو الطبع الغريزي الذي ينقاد اليه بالفطرة الحيوانية حتي يفضل به بحكم الطبيعة على كل شيء سواه . . . فاذا ضاقت يد العامل (يقصد عامل الحكومة اي : موظفها) وكثر عياله وقل مورد رزقه من ضيق راتبه ووجد نفسه مدفوعاً الى حفظ وجوده بوسائل

الحلقة والفطرة ، هانت عليه الذنوب وسهلت لديه اسباب المخالفة واخرج عن الواجب الخفي في سبيل صيانة الحياة الظاهرة ، وعن الغرض الوهمي في الحصول على الوجود الحسي الذي هو حقيقة الانسان وانسان الحقيقة . ولما كانت اعمال الحكومة التي تمس جانب الشعب مباشرة من طريق الحس قائمة على ايدي صغار العمال كالجندي والجاوي والكتائب والناظر ونحوهم ، وكان هؤلاء الصغار في ضيق من العيش وقلة في الرزق وحاجة الى الانفاق ، لم يكن يؤمن على الرعية من اهتضام حقوقها تلك اليد التي تسلمها الحكومة رعاية الشعب من جانب ، وتدفعها الفاقة والحاجة الى ظلمه والتضييق عليه من جانب آخر ، لا عن رغبة في الظلم او حب في السلب والاهتضام ، ولكن عن حاجة في النفس وضيق في اليد ، وكهم قاد شر الى شر . »

وبكلمة اخرى ، يريد اديب اسحق ونجيب الحداد ان يوجها النظر الى ما للضمان الاقتصادي من شأن عظيم في ضمان القوانين ، وحسن سير الحكومة ، بل حسن سير المجتمع على وجه عام ، وكون الحقوق والواجبات فيه ذات معنى للجميع . ولكن ، ما علاقة هذا كله بالثورة الفرنسية ، وبانتقادها ؟

ان الثورة الفرنسية قد اعطت الانسان والمواطن حقوقاً اساسية جداً ، على ان ديدرو ، مثلاً ، كان يقول : ان الملكية (اي ما يملك الانسان) هي التي تجعله مواطناً^(٢) . وبالفعل ، انما نجد في الثورة الفرنسية تياراً قوياً يأبى اعتبار الذين لا يملكون شيئاً مواطنين ، ويريد تجريدهم من حقوق المواطن كحق الانتخاب مثلاً . وهو تيار قاومه الشائرا مارا مقاومة عنيفة كان من تأثيرها بالنتيجة ان تراجع هذا التيار واندحر . ومع ذلك ، فلا شك ان حقوق الانسان والمواطن ، وان شملت جميع المواطنين ، نظرياً ، فان كثيرين من المواطنين لا تنهياً لهم عملياً ممارستها كما ينبغي . اذ ليس يكفي ان تعلن المواطن حريته الفكرية ، مثلاً ، وحقه في الدعوة الى رأيه ، مع كون هذا المواطن لا يستطيع القراءة والكتابة ولا يتمتع بالطاقة الاقتصادية التي تمكنه من بث فكرته عن طريق التأليف والطباعة . وبكلمة اخرى ان الحرية السياسية والمدنية لا تتوطد ويعز شأنها ما لم توفر باليسر الاقتصادي الشامل .

وهذا هو وجه النقص الذي حاول ان يتلمسه كاتبنا اديب اسحق ونجيب الحداد ،
الا انهما لم يهتديا اليه صراحة ، بل لمساه لمساً عابراً من طرف ربما خفي عليهما . وقد
ذهب نجيب الحداد مع هينغو الى ان الرحمة المفقودة من قلوب القضاة ، هي النقص
الذي اذا عوض فض المشكلة او كاد . وربما مرت هنيئات بالكاتبين كليهما طغت
في نظرهما الالوان القالقة على نظام اوربا عامة ، لا فرنسا خاصة ، فقررا ان الحرية
فيها « اسم بلا مسمى عند القوم ، وان تكرار ذكرها في محافلهم ، ورسمها في
مجامعهم ، هو من قبيل اللغو الساقط والتمويه والتطرئة ^(٢) » ، وان الممجيّة السوداء عند
الزنج تقابلها « الممجيّة البيضاء » ^(٣) في اوربا ، فكأن الثورة الفرنسية وهبات
الاصلاح جميعها لم تكن ، او لم تجد فتيلاً . وقد يكون مصدر هذا الاجحاف ذهاباً مع
عاطفة وطنية مستفجرة ، الا انه عند التأمل والتحليل يرجع الى ان الكاتبين لم يستطيعا
ان يفهما حق الفهم وجه النقص الذي ذكرناه في الحرية التي اسفرت عنها الثورة الفرنسية .
وكأنه كان على اديب اسحق ونجيب الحداد ، كما كان على فرح انطون ، ان
يدعوا مثل هذا المجال للدكتور شميل يخوض فيه . وقد رأينا كيف تصدى له الدكتور
الشميل من غير ان يسّ بتزلة اوربا وقيمة الثورة الفرنسية ، وما حقته من
نهوض ورتقي .

على اننا يجب ان لا ننسى ان فرح انطون وأديب اسحق ونجيب الحداد ، في
هذا الموقف الذي وقفوه من الثورة الفرنسية ، كانوا يطمحون الى مزيد من الاصلاح ،
لا الى نقصان ، وكانوا يريدون مضياً في التقدم لا رجعة ، فاذا نقدوا الثورة فلائها
قصرت عما ينشدون .

أما غوستاف لوبون فقد نقد الثورة لانها كانت في رأيه حادثاً عبثاً ، ولو انها لم
تحدث قط لما ضاع شيء على فرنسا من نتائجها . وغوستاف لوبون مؤلف مدح الحضارة
العربية ، فكان ذلك ممهداً لاشتهاره في البلاد العربية ، فنقل اكثر كتبه الى لغة
الضاد ، ومنها كتاب اسمه « روح الثورات والثورة الفرنسية » ، عربيه محمد عادل

٣ (الكلمة لاديب اسحق .

٤ (الكلمة لنجيب الحداد .

زعيتر . ولعله الكتاب الوحيد الذي يستطيع ان يتناوله القارى . باللغة العربية ، ويطلع فيه على محاولة طويلة في تقدير الثورة الفرنسية . ذلك لان الكتب الخاصة بالثورة معدومة تقريباً في لغة الضاد ، وقد تناولنا نحن سفراً يجمع بين الثورة الفرنسية ونابليون ، ألفه محمد صبري ، وجله من باب تقرير الوقائع .

وهكذا كاد يخلو الجو لغوستاف لوبون . وتتمثل خلاصة رأيه ، في الثورة ، في هذه السطور التي حوتها مقدمة كتابه « روح الثورات ... » : « ولا ريب في نيلنا منذ زمن طويل ، ما بلغنا اليه ، وما بلغت اليه اهم كثيرة قبل الثورة الفرنسية من المساواة والحرية سواء اشتعلت هذه الثورة ام لم تشتعل . »

وأقل ما يقال في هذا الكلام انه فاقد البرهان . وكيف نستطيع ان نحزم ان فرنسا كانت تنال نتائج الثورة بدون الثورة ؟ وقول غوستاف لوبون : ان امماً كثيرة بلغت قبل الثورة ما بلغته فرنسا من المساواة والحرية ، فيه موضع للنظر . فان هذه الامم الكثيرة ليست في الحقيقة الا اثنتين : الامة الانكليزية والامة الاميركية ، وكلاهما نالت الحرية والمساواة بثورة كبيرة شبيهة بثورة فرنسا !

وقد رد اميل اوليفيه على غوستاف لوبون ، فقال : « هل يأسف لوقوع الثورة الفرنسية من لا يريد ان يكون مسخراً لصيد الضفادع في الغدران كي لا تقلق الامير الاقطاعي في نومه ، وهل ينوح لحدوثها من يريد ان لا يرى كلاب شاب عات تحرب حقله ، وهل يحزن لنشوبها من يريد ان لا يسجن في الباستيل لولوع رجل من بطانة الملك بزوجته او لتفوهه بكلمة ضد رجل نافذ او لغير ذلك ، وهل يغم لاشتعالها من يريد ان لا يبغي عليه وزير او موظف او وكيل ، وان لا يكون تحت رحمة احد من الناس ، وان لا يؤخذ منه اكثر مما يفرض عليه ، وان لا يهينه ويشتمه من يدعي بانه فاتح ؟ ولذلك فاني بصفتي من الطبقة المتوسطة اشكر اولئك الذين انقذوني بعد عناد شديد من الانيار التي لولاهم لبقيت رازحاً تحت اثقاليها ، وابارك لهم رغم زلاتهم . »

• نقلنا العبارة كما عرجها محمد عادل زعيتر ، وفيها اضطراب ، وصوابها : « ولا ريب في اننا كنا نلنا منذ زمن طويل الخ ... »

فكان ان رد عليه غوستاف في مقدمة «روح الثورات ...» بما يلي : «مصدر هذا الوهم الشائع - حتى بين كثير من اقطاب السياسة - هو المبدأ القائل بان طرق الحياة عند الامة تكون بحسب نظاماتها ، والواقع ان الطرق المذكورة تابعة للمبتكرات العلمية والاقتصادية ، فتأثير القاطرة في التسوية بين الناس خلاف تأثير المقصلة .»

وصحيح الى حد كبير أن طرق الحياة عند الامة لا تكون بحسب نظاماتها ، كما يقول لوبون . ولكن لماذا حدثت الثورة الفرنسية ؟ انها حدثت لان الحياة الفرنسية جرت شوطاً في التغير ، عقلياً ومادياً ، بينما بقيت النظمات على ما هي ، فوقع التناقض بين الحياة الفرنسية الجديدة ، الآخذة في الظهور والنمو ، وبين النظمات القديمة . ولما كان من المستحيل ان يقتنع جميع ممثلي النظمات القديمة بان دورهم انتهى ، وقع الاصطدام بينهم وبين ممثلي الحياة الجديدة . واذن فالثورة الفرنسية نشبت لتقيم نظمات جديدة ترضي بها مطالب الحياة الجديدة ! على ان طرق الحياة عند الامة تتأثر ايضاً بنظماتها . وقول لوبون ان الطرق المذكورة (طرق الحياة) تابعة للمبتكرات العلمية والاقتصادية ، يشف عن اختطاف لتعابير ماركسية لم يزلها حق منزلتها . وكأنه شعر باخطأ فقال : «ان تأثير القاطرة في التسوية بين الناس خلاف تأثير المقصلة» مع ان سياق فكرته كان يجب أن يدعوه الى اثبات كل التأثير للقاطرة ونفي التأثير عن المقصلة ! اما ان تأثير القاطرة في التسوية بين الناس خلاف تأثير المقصلة ، فهذا مما لا يجادل فيه احد ، الا ان القاطرة بمجرد وجودها لا تكفل التسوية بين الناس ، بل لا بد من نظام يضمن هذه التسوية مع القاطرة ، ولا بد لهذا النظام ، في ولادته وحمايته ، من تأييد حتى بالمقصلة احياناً ! غير ان غوستاف لوبون كان اقل شراً على سعة الثورة الفرنسية من رجل آخر هو فودريك نيتشه ، بلغت آراؤه وافكاره البلاد العربية عن طريق النقل . وكان فرح انطون في طليعة من اهتموا من ادبائنا بنيتشه ، وان يكن فرح لم يقف منه موقف المسلم الحبيذ . والى القارىء ما نقله فرح انطون عن الكاتب الالماني بشأن الثورة الفرنسية ، قال :

«ومن اقواله (اي نيتشه) ان الاديان والثورة الفرنسية هي التي افسدت مبادئ

الفكر العربي الحديث

البشر في الدنيا وخربت طريق الانسانية ، وصرفتها الى طريق اخرى ادت الى الاضطراب والفوضى الحاضرة . فان (المساواة والاخاء والحرية) التي وضعت تلك المبادئ اساسها قد ادت الى تسويد الصغار على الكبار وترجيح الخاملين القاصرين على اهل الكفاءات ، وجعلت الفضل في الدنيا لكثرة العدد لا للاستعداد الطبيعي ، واقامت « سلطنة الشعب » التي هي سلطنة قطيع المواشي . وقال في فصول عديدة في كتابه « بدء الظلام » وكتابته « ما بين الخير والشر » وكتابته « زاراتوستا » : « ان الاديان ومبادئ الثورة الفرنسية المتولدة منها ، والناشئة عنها ، هي أشد وباء اصاب الانسانية وهدم الكفاءات فيها ، ويكاد يفتني قواها كما يفتني داء التدرن قوى المسولين . وان نتيجة هذا الداء ستكون انحطاط الانسانية الى ما هو ادنى من انحطاطها الحالي اذا لم يحتبط البشر له ويحدث لديهم رد فعل في شأنه » (٦) .

واهتم اديب آخر ، هو فيليكس فارس ، بنيتشه فعرّب له كتابه : « هكذا تكلم زرادشت » . وفيلكس من ادبائنا الذين ابتهجوا بالدستور العثماني . واكثروا عنه الخطب فعرفوا بـ « خطباء الدستور » . ولا شك ان فيليكس ، اذ ذاك ، كان يجب الثورة الفرنسية ويستلهمها ، بل هو ثابر على هذا الحب ، فنحن نقرأ له في احدى خطبه ، في كتابته « رسالة المنبر » ما يلي : « هدم الرجل الباستيل لانه اصبح معقلاً لمن اختلسوا حق الحرية والحياة ، وجاءت المرأة بدورها تهدم جدران بيته (اي بيت الرجل) ، لانه كأسياد الباستيل اساء استعمال سلطته . » وهذا كلام يشف عن تأييد للثورة الفرنسية .

الا ان فيليكس ، مع ذلك ، وقف موقف المؤاخذ للثورة ، فقال (الكلام من رسالة المنبر) :

« خرجت اوروبا الى عهدا الجديد ولكن عيسى لم يكن مهديها ولا محمد »

(٦) نسخنا هذا الكلام عن مقدمة فرح انطون ، لرواية ديماس ، (التي عرجا عن الثورة . وقد وقع فرح في بضع هفوات ، فكتاب بنيتشه « ما بين الخير والشر » هو في الاصل « وراء » ، او « فوق الخير والشر » ، وكتابته « زاراتوستا » هو في الاصل « هكذا تكلم زاراتوستا او زرادشت » .

ماشياً في طبيعتها . كان انجيلها حقوق الانسان التي كتبها الثائرون بالدم المتمرد .
وكان قرآنها القوانين التي سنّها نابليون لاقامة الموازنة بين الحقوق . ولكن هذا
الانجيل الحديث الذي استمد من انجيل عيسى المساواة والانصاف لم يتناول سواهما من
مبادئ الاحسان والعطف والمغفرة والرحمة . وهذا القرآن الجديد ، قوانين نابليون
المستمدة من مذاهب الائمة في الشرع الاسلامي ، وقف عند حد التنظيم المادي للحض
لحقوق الناس ، فقصر عن الأخذ بما في قرآن النبي الهادي من الدعوة الى المعروف
والبر بالأذنين والأباعد من بني الانسان . »

وهكذا نجد كاتبنا يود لو كانت الثورة لم تحمل القيم الدينية المعنوية ، كالعطف
والمغفرة والدعوة الى المعروف ^(٧) . فهو من هذا القبيل مخالف لنيته الذي يتزل الثورة
الفرنسية والاديان مثلة واحدة ، كما عرفنا مما ذكره فرح انطون .

ولقد كاد يعلق شيء من « النيتشية » بادية كبيرة من أدياننا ، هي الانسة
مي زيادة ، مؤلفة كتاب « المساواة » . تقول مي في مقدمة هذا الكتاب :

« لاجلها (أي : لاجل المساواة) شئت الثورة الفرنسية وانبتت تعلن للانسان
حقوقه المدنية المرتكزة على الحقوق الطبيعية ، فاثبتت في مطلع بيانها بنسداً اول
يشاركها اليوم فيه العالم المتمدن ، وهو ان الناس « يولدون ويظنون متساوين احراراً
ازاء القانون » . فحذفت بهذا البند نظام الاقطاع القائم على تفاوت الحقوق
والواجبات . »

ثم تقول : « انها (اي : المساواة) مع الحرية والاخاء تهز نفسي ، وقد
لمستها منذ ان كان لي نفس تتحرك . غير اني وصلت الى نقطة اود عندها تحليل كل
شعور وكل تأثير . ما هي المساواة ، وأين هي ، وهل هي ممكنة ؟ هذا ما
أرغب في استجلائه في الفصول الآتية ... »

وليس في هذا الكلام كله ما يدل على صلة بين مي ونيته . والحق ان مي
لم تسلم يوماً بجميع ما ذهب اليه الكتاب الالماني ، على انها وقفت مثله موقفاً منكرًا

(٧) الواقع ان فيليكس فارس اهل شعار الثورة الفرنسية : الاخاء ، وهو ينطوي على
شيء كثير مما اراده ادينا .

للمساواة ، مؤمناً بعدم امكانها ، بل بضررها . وهذا ما توضحه فصول كتابها .
 وخطأ الاسامي عند مي هو انها لا تتمهل لتقيد كلمة المساواة بمعانيها التي لا يستها
 في التاريخ والحركات التاريخية ، كما انها لا تتمهل ايضاً لتقيد كلمات كثيرة بمعانيها في
 مختلف العصور والاجيال . وهذا جدير ان يؤدي الى شطط في التقديرات والاحكام .
 ان الانسة مي لم تجب السؤال الذي سمعناها تطارحه على نفسها : « ما هي
 المساواة ؟ » راحت تتساءل مثلاً : « أي قوة اقامت دولة المماليك في مصر ان لم
 يكن التطاع الى المساواة ؟ » وهنا لا يتمالك القارىء من ان يسائها : أي
 مساواة تعنين ؟ ولكنها تستمر فتقول : « لاجلها (اي : لاجل المساواة) شبت
 الثورة الفرنسية . . . » وبديهي ان جعل المساواة هدف المماليك في حركتهم في
 مصر ، وهدف الفرنسيين في ثورتهم سنة ١٧٨٩ ، انما هو حكم يعبث به تحليل تاريخي
 عجيب . فالمماليك آنسوا قوة وفرصة ، فاستولوا على الامارة في بلاد حكموها حكماً
 استبدادياً مطلقاً ، بينما ثار الفرنسيون فاقاهوا نظام حكم مصدره سلطة الامة ،
 والناس فيه امام القانون سواء . ولعل مي قصدت ان المماليك ارادوا ان تكون لهم
 امارة يحكمون فيها ويستبدون كغيرهم ، فكانوا بذلك متطلعين الى « المساواة » .
 غير ان هذا عنت واخلال باستعمال الكلمات ، والا لجاز ان نقول مثلاً : ان خروج
 (فلان) ليصبح لصاً كـ (فلان) ، فيه ايضاً « تطلع الى المساواة ! »
 يقرأ القارىء كتاب مي فيجدها تبدأ بمسألة « الطبقات الاجتماعية » ، وتذكر
 شيئاً تسميه « التنوع بين الطبقات » ، تريد بذلك ان تهرب « تمايز الطبقات » في تصوير لا
 ينفر . وتذكر ايضاً « التنوع بين الافراد » ، وتعرض لروسو الذي « طال تأمله في
 حالة البداوة الاولى ، وقام هو واتباعه ينادون بالعودة اليها لتحصل الانسانية على
 الهناء المفقود وترتع في بجوحة السلام والحرية . وقد نسوا ان الهمجي مستعبد بجعله
 الفادح ، وان له من اخرافات سجيناً لعقله ، ومن الاوهام حجاباً لروحه . فهو وان
 كان حراً حرية نسبية ، من حيث علاقته بامثاله ، وبقناعته - التي لا يمكن ان
 تدوم اكثر من زمان ما - فهو اسير احط انواع العبودية واطورها . وهيئات
 الرجوع الى الماضي ! »

على ان الثورة الفرنسية لم تقصد بشعار المساواة الغاء التنوع او التمايز بين الطبقات ، الا فيما يتعلق بسريان القانون على الجميع ، كما ان احداً من اعلام الثورة لم يفكر بالغاء التنوع بين الافراد . وقد قفرت مي في تعرضها لروسو من موضوع الى موضوع . فالحرية غير المساواة وان تكن بينهما قرابة . وروسو لم يطالب بالغاء الطبقات او التمايز بين الافراد ، بل ان الثورة الفرنسية لم تنشب ، وروسو لم يكتب ، الا في سبيل تغيير نظام يحصر الامتيازات حصراً صريحاً في طبقة معينة . اما حالة البدانة الاولى - او الحالة الطبيعية على الاصح كما يسميها روسو نفسه - فقد اصابته مي في نقدها ، على اننا لا نظن ان روسو اراد الرجوع اليها فعلاً ، بل هو تصورهما تصوراً ، واتخذها موطئ وحي يستلهمه .

ثم تتقدم مي الى مسألة الارستوقراطية ، فاذا مر القارئ بفصلها هذا وتسامح بكثير مما فيه وجدها تقرر ما يلي : « ستمثل الارستوقراطية ، ارستوقراطية الجماعة ، وارستوقراطية الفرد ، ما دامت الطبيعة ، ولو تحوات منها الانواع وتغيرت المظاهر وتعددت الاسماء » ولكن السر - كل السر - هو في تحول هذه الانواع ، انواع الارستوقراطية ، اذا شئنا الاصرار على الاسم . فان الثورة الفرنسية ، مثلاً ، ازلت سيطرة ارستوقراطية الاقطاع وشرف المولد ، وفسحت السبيل لارستوقراطية الصناعة والتجارة والمال . هذا صحيح . على ان الارستوقراطية الجديدة وثبت بفرنسا وثبة هائلة الى امام . فلا يصح اطلاق الحكم الواحد على الارستوقراطيتين . وتستأنف مي كلامها فتقول : « سيمثل التفوق . وجوداً ما بقي بين البشر جماعات وافراد يسرون بخطوات الجبارة نحو قم الوجود ، فيتجلون على طور القدرة والمجد فوق صياح الصائحين وتجديف المجدفين » . وفي هذا رائحة ، بل الفاظ نيتشوية ظاهرة . ولكن مي هنا تنتقل بكل يسر وسهولة ، من الارستوقراطية الى التفوق . والمعنيان ، حسب المتعارف ، متباعدان جداً . فالمفهوم بالارستوقراطية انها تشمل طبقة من المجتمع تنسب الى نفسها شرف الدم والمولد ، وتتغنى بالقب خاصة ، وتكون ثروتها عقارية في الغالب كأمرأء الاقطاع في القرون الوسطى ، مثلاً . فاذا كانت ثروتها نقدية اجيز تسميتها بارستوقراطية المال . الا ان هذه في الغالب لا تنسب الى شرف المولد ، ولا تسبغ عليها الالقاب

الخاصة . ولسنا ندري ما علاقة هذا بالتفوق ، والسير بخطوات الجبارة نحو قمم الوجود ، والتجلي على طور القدرة والمجد فوق صياح الصائحين وتجديف المجدفين ؟ لعل مي تقصد الفاتحين العسكريين . لعلها تقصد العباقرة المفكرين والمخترعين واصحاب المواهب والكفاءات . لسنا ندري بالضبط . الا ان مي تتابع طريقها فتقول لنا : « سيوجد ابداً هؤلاء ، ومنهم من ينعكس خيال ارستوقراطية في الاجيال الآتية ويمتد حتى اطراف الدهور القصية مهما تقلبت الثورات والنظم والعمارات . هذا اذا كانت الارستوقراطية من الطراز « الاصلح » وهو الطراز الذي قررت له الطبيعة الفوز اولاً وآخرأ . »

فما هي هذه الارستوقراطية التي هي من الطراز « الاصلح » ؟ وما هو هذا الطراز الذي قررت له الطبيعة الفوز اولاً وآخرأ ؟ ان مي لا تجيب بكلمة . وبمثل هذه الغوامض كان يتحدث نيتشه ، ولا يزال الباحثون الى اليوم مختلفين في معنى الارستوقراطية التي قصدها ومعنى « السوبرمان » .

غير ان هذا كله لا يس حقيقة موضوع المساواة . فالمساواة التي سارت تحت لوائها الثورة الفرنسية حاربت الارستوقراطية التي تتربع على ظهر المجتمع ، وتسبيج نفسها بالامتيازات تجاه القانون ، وفي احتلال الوظائف واداء الضرائب ، وغير ذلك . ولا شك ان الثورة الفرنسية ، لما ازاحت تلك الارستوقراطية ، واعلنت المساواة ، وسعت المجال لكفاءات كثيرة ومواهب كثيرة جديدة . فلم تعن المساواة التي اعلنتها كبحاً لطفرة العبقريات والحيويات الدينية في اعماق الامة بل هي التي شجعتها واطلقتها من مكائنها وعقالاتها .

وما مقصدنا ، هنا ، ان نوافق مي في جميع كتابها . فهي احياناً ترجع في نقد الثورة الفرنسية ، والمساواة التي اعلنتها ، الى ما ذكرناه سابقاً من ان هذه الثورة لم تعزز الحقوق السياسية والاجتماعية بكفالة الحقوق والوسائل الاقتصادية . وقد كان هدفاً ان ندل على شيء من النيتشوية علق ، او كاد ، بتفكير ادبينا .

ومن نيتشه ، وموقفه من الثورة الفرنسية ، يخرج الباحث الى النازية والفاشية وموقفهما من هذه الثورة . فنيتشه هو الكاتب الذي اتخذ النازي والفاشي اباً روحياً .

وفي غير مكان من هذا الكتاب يجد القارىء كيف أن موسولينى وغوبلز يشددان الهجوم على الثورة الفرنسية ومبادئها وأعلام مفكرىها . « ان التعاليم الفاشستية هي التعاليم المعاكسة لجميع نظريات سنة ١٧٨٩ الخالدة (يستعمل هذا النعت متهمكماً) . » « ان الفاشستية رد فعل لحركة مجازين القرن الثامن عشر ومعتوهي الانسيكلوبيديا (٨٠٠) . » « ان عام ١٧٨٩ سيلغى من التاريخ (٠٩) »

ولست هذه الاقوال كلمات عابرة . ففي كثير من الكتب النازية الهامة يرد ذكر الثورة الفرنسية مشفوعاً بالهجوم عليها . فكتاب « مباحث عن بعث المانيا » يزعم ، طبعاً ، ان الجرمانى خالق المدنية الحديثة . ثم يندد بكارثة مشؤومة « هي الثورة الفرنسية الكبرى التي قضت على زعماء الشعب الفرنسى الجرمانيين » ، لان « طبقة الاشراف - كلها ، او معظمها ، بما فيها سلالة البوربون - كانت جرمانية الاصل . وهذا ما حدا بالجهائير غداة الثورة الفرنسية ان تصب جام حقدھا على طبقة الاشراف خاصة . . . » والحق ان هذا مضحك ، لان الشعب الثائر ، ان لم يوجه سخطه الى طبقة الاشراف ، في جملة اصحاب الامتيازات ، فالى من يوجهه ؟ واذا كان الشعب يرى ان طبقة الاشراف هي اشد اصحاب الامتيازات تشبهاً وتمسكاً ، اذا كان الشعب يرى قليلين من هذه الطبقة ينجحون الى جانبه بينما ينحاز اكثر الاكليروس ، اذا كان الشعب يرى اكابر هذه الطبقة يهجرون البلاد ليعودوا غازين مقاتلين تحت لواء اجنبى ، فعلى من يصب جام حقدھ ان لم يصبه عليهم بصورة خاصة ، لا لانهم جرماني ، بل لانهم اعداؤه ؟

وكتاب « اسطورة القرن العشرين » لالفرد روزنبرغ « يتنازل » الى حد الاعتراف بالفكر والعقل لاعلام فرنسا ، من ادباء وفلاسفة ، في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ولكنه يجعلهم جميعاً « محرومين كل سمو حقيقي في الشعور ! » ويستنتج من ذلك ان « يوم ١٤ تموز اصبح رمز ضعف في الاخلاق ! » ويذهب الى ان الثورة الفرنسية مثلت فيها مسألة اللون دوراً خطيراً . « فالجهائير اليعقوبية ، ذات اللون القاتم (!)

٨ (القولان لموسولينى .

٩ (القول لغوبلز .

كانت تجر الى المقصلة كل من كان ممشوق القامة اشقر الشعر ! « (اي : آرياً) .
واخيراً يقرر روزنبرغ « ان الانسان الجديد ، وليد اختلاط انسان جبال الالب
بانسان البحر الابيض المتوسط ، احتل المكان الاول منذ هذا اليوم ! » (يوم انتصار
الثورة الفرنسية) .

وهكذا يرى النازيون في ثورة فرنسا سنة ١٧٨٩ ضربة مسددة الى « طبقة
الاشراف الجرمانية الاصل » ، والى كل « ممشوق القامة اشقر الشعر » . وعلى تعبير « ايوالد
. اغولد » في كتابه « فرنسا وفكرة الجنس » ، يرى النازيون في الثورة الفرنسية « شق
عصا الطاعة » من الجماهير القاطنة ما بين البحر الابيض المتوسط وجبال الالب ، على
سيطرة طبقة الفوهرر ! « ويكاد لا يحتاج الى ذكر انهم يرون فيها ايضاً اثراً من
آثار « الاجرام اليهودي » اذ لا بد من الاصبع اليهودية في كل شيء لا يعجب
النازيين . فيقرر جيرهارد أوتيتيكا في كتابه « الجريمة اليهودية التقليدية » ان
اليهود هم الذين قاموا بالثورة ، ولكن عن طريق الماسون !

في كلمات نيتشه التي نقلناها عن فرح انطون ، يقول الكاتب الالماني : « ان
الاديان ومبادئ الثورة الفرنسية المتولدة منها ، والناشئة عنها ، هي اشد وباء اصاب
الانسانية وهدم الكفاءات فيها ، ويكاد يفني قواها كما يفني التدن قوى المسؤولين .
وان نتيجة هذا الداء ستكون انحطاط الانسانية الى ما هو أدنى من انحطاطها
اخالي ، اذا لم يخط البشر له ، ويحدث لديهم رد فعل في شأنه . »

والنازيون الذين يتخذون من نيتشه اباً روحياً ، يزعمون انهم ، وحركتهم ، هم
رد الفعل الذي ينتشل الانسانية من وهدة انحطاطها التي قدفتها فيها مبادئ الاديان
والثورة الفرنسية وشقيقتها . وفي بعض الآراء التي نقلناها عن مؤلفي النازيين يبدو
من تهوسهم بالجرمانية وعمق عقولهم وتنورهم في البحث انهم ، حقاً ، أكفاء للقيام
بهذا الواجب الانساني العظيم !

ولكن لندع المزاح . ان التاريخ يصدر حكمه الآن في ميادين النضال والقتال .
انه يلغظ قراراً رهيباً في اي الجانبين يجب ان يعيش ويكمل سير تطوره وتقدمه :
القيم الدينية ، ومبادئ الثورة الفرنسية وشقيقتها ، ام مبادئ رد الفعل النازي ؟

ومن قبل ، اصدر احد ادبائنا ومفكرينا حكمه في هذا الموضوع . ففي خاتمة رواية الريحاني « خارج الحرم » ، بعد ان تنتحر بطلة الرواية جهان ، يطالع القارىء هذه الاسطر :

« أما المديّة وكتاب نيتشه (هكذا تكلم زرادشت) ، فقد كانا على الارض الى جانب الديوان (المقعد) معموسين بالدم ، كأنهما يشهدان شهادة حق على ما ينبغي ان يموت في الشرق والغرب قبل ان تولد روح العالم الجديدة ! »
غير اننا نتحدث عن هذه الروح الجديدة كأنها لم تولد بعد ، وهي في الواقع مولودة ، سائرة في طريق الشباب .

ولربما غشيت المنكر ساعات من الحدة العصبية ، تجلت له فيها الانسانية شائعة الفرق بين ما هي عليه وما ينبغي لها ان تكون ، فصرخ صرخات جبران خليل جبران (١) في مقالته العبودية . وتراى له « الشبح الهزيل » الذي تراه جبران فسأله : « من أنت ؟ » واذا به الحرية ! فسأله : « من اولادك ؟ » فاذا بهم ثلاثة : « واحد مات مصلوباً وواحد مات مجنوناً وواحد لم يولد بعد ! » ثم توارى الشبح خلف الضباب ...

الحق ان الحرية منذ عصور لم تبق شبحاً هزيلاً ، ولها ابناء كثيرون لم يموتوا مصلوبين او مجانين .

والحق انها لبثت عصراً فمصرّاً تغالب الضباب الذي ينعقد ليوارى شمسها ، واذا باشعتها تتكاثر وترداد قوة ، وتبدد الظلام ، وتثير بقاء اعظم فاعظم من الكون .
... الخنجر وزرأتوسترا نيتشه ، شاهدا شهادة الحق ، على ما يجب ان يموت في الشرق والغرب ، كما قال الريحاني .

(١٠) يقول الاستاذ ميخائيل نعيمة ، في كتابه عن جبران ، ان صاحب النبي تأثر بنيتشه في كتاب هكذا تكلم زرادشت . وقد يكون ان جبران ونيتشه تلاقيا في اشياء هي من مشاعات الفكر ، ولكن المؤكد ان الروح الجبرانية بعيدة جدا عن النيتشية كما يصورها دعاة النازية . وهذا لا يعني ، طبعاً ، اننا ننفي ان يكون جبران تأثر بنيتشه ادبياً من حيث الاسلوب والقالب . فتصميم كتاب النبي فيه مشابه من كتاب هكذا تكلم زرادشت .

تَيَّارَانِ يَتَفَاعَلَانِ

متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً ؟

عمر بن الخطاب

يولد الناس ، ويلبثون ، احراراً ، متساوين في الحقوق .

من البند الاول من « اعلان حقوق الانسان »

« متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً ؟ »

شدد ما تذكر هذه الكلمة التاريخية التي فاه بها عمر بن الخطاب بفتحة اعلان حقوق الانسان والمواطن ، وشدد ما تذكر ايضاً بكلمة روسو : يولد الانسان حراً ، ولكنه في كل مكان مقيد بالحديد ، وهي الكلمة التي افتتح بها كتابه : الميثاق الاجتماعي .

فهنا قرابة فكرية نفسية بادية للعيان . وقد سبق لنا ان ذكرنا كيف ان الاعلام من مفكرينا وادبائنا لما انفتح لهم سبيل الاطلاع على الثورة الفرنسية ومبادئها ومفكراتها رأوا محيطهم وظروفه فلم يلبث ذلك ان ردهم ايضاً الى عصر النبوة والراشدين ومبادئ الاسلام في طلعته البكر . فسموا الحكم الديموقراطي الذي كانوا يستهدفونه بالحكم الشوري ، ونقشوا على الراية الديموقراطية التي رفعوها الآية الكريمة : « وامرهم شورى بينهم » . واذا طالبوا بحرية الفكر مثلاً نادوا بالآية : « لكم دينكم ولي دين » .

وقد عزز الكواكبي حق المفكرين في الحماية من الاضطهاد والاستبداد بالآية : « ولا يضار كاتب ولا شهيد » .

وبالطبع ان الفرق بعيد بين العصر الذي تلقى فيه الناس آيات القرآن لأول مرة ، والعصر الذي وقعت فيه الثورة الفرنسية او العصر الذي طلع فيه الافذاذ المفكرون

من اعلام نهضتنا الحديثة . ولكن فهم المفكرين للكتب الدينية يكون عادة ، من خلال مطالب عصرهم ، ولا سيما المفكرون المصلحون والثوريون . ومن اسرار البقاء في الكتب الدينية انها تتسع في كل عصر لمضمون فكري يطاوع مطالب العصر الاصلاحية . والاسلام بدأ وثبة تقدمية جبارة ، والوثبات التقدمية الجبارة في كل العصور لا يخلو بعضها من مضمون بعض ، وكثيراً ما تتقارب تعابيرها اللغوية عن اهدافها العامة ، تبعاً لتقارب الاشواق الانسانية واتجاهها في الحياة الاجتماعية نحو الخير والتجديد والعدل والرفق والحرية وسائر المثل والقيم العليا .

ولا شك ان مثل هذا التراث العظيم الذي وجد مفكرون المصلحون انفسهم متكنين عليه ، خلق فيهم استعداداً نفسياً كبيراً للاعجاب بالثورة الفرنسية وتقبل مبادئها . كانوا يرجعون الى القرآن فيصادفون الآيات النارية التي تتوقد غضباً على العتاة والجبارين وترن بالبنداء الى الثورة :

« ان فرعون علا في الارض وجعل اهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحي نساءهم ، انه كان من المفسدين . وزيد ان غنّ على الدين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الارض ، وزوي فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون . »

« وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينتقلبون . »

وكانوا يرجعون الى سيرة النبي واقواله ، فيجدونه في ساعة عصيبة من العهد الذي ذاق فيه ألوان الاضطهاد يقيم ان لو وضع خصومه كلا من القمر والشمس بيديه لم يرجع عن رسالته . وهو مثال يتبع في الثبات على العقيدة ، وفي الايمان بحق الاعلان عن الرأي . وكانوا ايضاً يرددون من مأثور حديثه : اذا رأيت امتي تهاب الظالم ان تقول له : انك ظالم ، فقد تودع منها .

وفي زمن الراشدين ، كانوا يرون كره الخلفاء للملكية الوراثية المطلقة وما يصحبها من ابهة وبذخ في طريقة الحياة ، وما تستدعيه من حراس وحجاب وابتعاد عن الشعب . كانوا يسمعون قول القرآن في الملوك : « ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة . » ويسمعون رأي ابي بكر في الجالسين على العروش ، وتصريح عمر

ابن الخطاب : ما انا بملك فاستعبدكم . وكانوا يقرأون ما تسجله التواريخ عن ابن الخطاب من مباشرته امور الناس بنفسه ، ومراقبته العمال (الولاة) ، وحرصه على بيت المال ، وان لا تثري الاسر ذات النفوذ على حساب الرعية . كانوا يسمعون قوله للناس : كلكم راع وكلكم مسؤول ، ويرددون جوابه الشهير للبديوي : الحمد لله الذي جعل فيكم من يقوم اعوجاج عمر ، فيستتجون ان الامة حقاً في محاسبة حكامها . وكانوا يتمثلونه نائماً كأحد الناس ، يوقظه الفارسي متعجباً من رئيس دولة يرقد ولا حارس له ، فيجيبه الفاروق : عدلت فامنت فنمت !

وكانوا اذا راحوا يقرأون اخبار الفتوحات الاولى ، يرون كيف التقت جيوش العرب تحت لواء المبادئ الشورية الجديدة في اصول الحكم ، لجيوش الفرس وهي تحت لواء الاوتوقراطية الكسروية .

كانوا يقرأون كيف وقف رستم قائد الفرس على قنطرة القادسية قبل المعركة الشهيرة ، فواجه مفاوضاً عربياً هو فيا سماه التاريخ زهرة . فحدثه المفاوض العربي عن الدين الجديد الذي تألق نوره في سماء الجزيرة العربية ودعا ودعا الفرس اليه . فقال رستم : أرأيت ان اجبت الى هذا ومعني قومي كيف يكون امركم ؟ أترجعون ؟ قال المفاوض العربي : اي والله ! ففكر رستم . لقد كان سمع من المفاوض العربي ان هذا الدين الجديد « يخرج العباد من عبادة العباد الى عبادة الله » . وفي ذلك - معنوياً وعملياً - ما فيه من المس باوتوقراطية التاج الفارسي ومصالح الاشراف والدهاقين ، والنظام الاجتماعي الفارسي جملة . فقال للمفاوض العربي : « ان اهل فارس منذ ولي اردشير لم يدعوا احداً يخرج من عمله من السفلة . وكانوا يقولون : اذا خرجوا من اعمالهم تعدوا طورهم وعادوا اشرافهم . » ومعنى هذا في لغة علم الاجتماع الحديث ان النظام الاجتماعي الفارسي كان نظاماً يقسم السفلة (اي : جماهير الشعب) الى طوائف يلتزم كل فرد طائفته التي ولد فيها ووضعها الاجتماعي ، لا حق له ان يتخرج عنه ، فهو فلاح قن ، مثلاً ، يكون ابنه فلاحاً قناً ايضاً ، وهو محترف عمل الاحذية ، مثلاً ، يكون ابنه محترفاً عمل الاحذية ايضاً ، وهكذا ...

فأجاب المفاوض العربي بقوله لرستم : نحن خير الناس للناس . فلا نستطيع ان

تكون كما تقولون بل نطيع الله في السفلة ولا يضرنا من عصى الله فيما .
ولم يكن رسم غيبياً ، فأحسن ان هذا الدين الجديد لن يقبل بنظام اجتماعي
اقطاعي متحجر كالنظام الفارسي ، وان يقر الاوتوقراطية الفارسية ويلقي الجبل على
الغارب للاشراف والدهاقين .

وكانوا يقرأون محضراً آخر من محاضر المفاوضة بين العرب والفرس قبل القادسية ،
اذ طلب رسم مفاوضاً من العرب يأتيه في الخيمة ، فأرسل اليه سعد بن ابى وقاص
المغيرة بن شعبة . فأقبل المغيرة فوجد القوم عليهم التيجان والشباب المنسوجة بالذهب ،
قد فرشت بسطهم على مسافة غلوة ، فلا يوصل الى صاحبهم حتى يمشى عليها . وكان
رسم قد تأخر عن الحضور مبالغ في الابهة والعظمة . فما زال المغيرة منطلقاً على
البسط حتى انتهى الى مقعد فخيم ، فارغ ، كان مقعد رسم ، فجلس عليه . فوثب
رجال الحاشية وانزلوه ومعهكه ، فصاح بهم : قد كانت تبلغنا عنكم الاحلام ، ولا
ارى قوماً اسفه منكم . انا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضاً ، فظننت انكم
تواسون قومكم كما نتواسى . كان احسن من الذي صنعتم ان تحبوني ان بعضكم
ارباب بعض . اليوم علمت انكم مغلوبون . ان ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا
هذه العقول !

وكانوا يقرأون كيف ان اشراف الفرس لما سمعوا كلام المغيرة قالوا : والله لقد
رمى بكلام لا يزال عبيدنا يتزعون اليه (اي : يميلون اليه) ^(١) .
ثم كانوا يقرأون خبر النخعة على عثمان لما خص اقرباءه ، وكيف قيل له : اعتدل
او اعتزل . ثم يقرأون خبر الثورة عليه ، فيستتجون ان ولي الامر يمكن دعوته الى
التنحي عن منصبه وخلعه .

وفي عصر بني امية كانوا يجدون الخلافة تتحول على يد معاوية الى ملكية . بدأ
هذا التحول باستحداث تغييرات في غط حياة الخليفة ، اذ ابتنى قصراً وجعل له حجاباً
وحراساً ، وفصل بين شخصه وسائر المصلين في المسجد ، واخذ البيعة لابنه يزيد ،

(١) راجع امر مفاوضات العرب والفرس قبل القادسية ، في كتاب « الفتوحات
الاسلامية » ، لدحلان ، الجزء الاول .

فأقر بذلك قاعدة الملكية الوراثية ، واصبحت البيعة من بعده مظهراً شكلياً ، لانوعا من الانتخاب ، كما كانت قبلاً .

قال الجاحظ : فعندها استوى معاوية على الملك واستبد على بقية الشورى وعلى جماعة المسلمين من الانصار والمهاجرين في العام الذي سموه عام الجماعة ، وما كان عام جماعة بل كان عام تفرقة وقهر وجبرية وغلبة ، والعام الذي تحولت فيه الامامة ملكاً كسروياً والخلافة غصباً قيصرياً^(٢) .

كانوا يجدون هذا التحول ويسمعون اصوات الاحتجاج ، وفي مقدمتها صوت عبد الرحمن بن ابي بكر : لا تحدثوا علينا سنة الروم كلما مات هرقل قام مكانه هرقل . وكانوا كذلك يقرأون ما يذكر المؤرخون وعلماء السياسة بهذا الصدد اذ يقررون ان الخلافة انقلبت الى « ملك عضوض » .

اجل ، بات الاعلام من ادبائنا ومفكرينا في النهضة الحديثة يرجعون الى التراث القديم . ويرافقون عصور التاريخ العربي فيستلهمون من عبره ما يوجههم شطر الحرية ومقاومة الاستبداد ، ويفتح نوافذ قلوبهم واذعانهم على الثورة الفرنسية ومبادئها وقواعد الحكم الديموقراطي الحديث .

ونستطيع نحن ان نستأنف السير طوال عصور التاريخ العربي ايام الامويين وبعدهم ، فنرى كم هي كثيرة الوقائع والافكار الخليفة بان تذكر بالثورة الفرنسية ومبادئها . نستطيع ، مثلاً ، ان نتلو هذه الرواية عن جارية بن قدامة ومعاوية ، قالوا :

(٢) تظهر نظرية « حق الملوك الالهي » في التاريخ العربي جلية ايام معاوية ، ولكن على لسان ولاته ودعائه اكثر من ظهورها على لسانه الخاص ، فيقول زياد بن ابيه ، في الخطبة البتراء ، لاهل العراق : « نسوسكم بسلطان الله الذي اعطانا » . على ان اجلى مظهر لهذه النظرية ، في التاريخ العربي ، جاء على لسان المنصور الخليفة العباسي الثاني : « ايها الناس ، انما انا سلطان الله في ارضه اسوسكم بتوفيقه وتسديده ، وانا خازنه على فيثه اعلم بعشيته ، واقسمه بارادته ، واعطيه باذنه . وقد جعاني الله عليه قفلاً اذا شاء ان يفتحنى لاعطياتكم وقسم فيئكم وارزاقكم فتحنى ، واذا شاء ان يقفلني اقفلني ، فارغبوا الى الله ايها الناس وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهب لكم فيه من فضله في كتابه الخ ... ان يوفقني للصواب ويسدني للرشاد ويلهني الرأفة بكم والاحسان اليكم ، ويفتحنى لاعطياتكم وقسم ارزاقكم بالعدل عليكم . انه سميع قريب ! » (خطبها في الحج) .

« دخل جارية بن قدامة على معاوية فقال له الخليفة الاموي الاول : ما كان اهونك على قومك اذ سموك جارية . فاجابه : ما كان اهونك على قومك اذ سموك معاوية (وهي الانثى من الكلاب) . فقال الخليفة : اسكت لا ام لك . فاجابه : بلى ، ام لي ولدتي . اما والله ان القلوب التي ابغضاك بها لبين جواحننا ، والسيوف التي قاتلناك بها لفي ايدينا . وانك لم تهلكنا قسوة ولم تملكنا عنوة . ولكنك اعطيتنا عهداً وميثاقاً ، واعطيناك سمعاً وطاعة . فان وفيت لنا وفينا لك ، وان نزعنا الى غير ذلك ، فاننا تركنا وراءنا رجالاً شداداً واسنة حداداً . فقال معاوية : لا اكثر الله في الناس مثلك يا جارية . فاجابه : قل معروفاً فان شر الدعاء محيط باهله . »

أوليس من المعجب ان يستعمل المفكر الفرنسي روسو ، كلمتي جارية بن قدامة « عهداً وميثاقاً » في جبين كتابه الذي كان إنجيل الثورة الفرنسية كما لقبوه ؟ أوليس من المعجب ان يقول جارية للخليفة : اعطيتنا عهداً وميثاقاً ، واعطيناك سمعاً وطاعة . فان وفيت لنا وفينا لك ، وان نزعنا الى غير ذلك ، فاننا تركنا وراءنا رجالاً شداداً واسنة حداداً ؟ وفي هذه الكلمات المعدودات زبدة للفكر الثوري الذي ارتكزت عليه الثورة الفرنسية ، وخلاصته ان ازمة السلطة الحكومية امانة في ايدي الحكام سلمتها اليهم الرعية ، فاذا اساؤوا التصرف بها عدوا غير أهل اللامانة وحق تجريدها منهم ^(٢) .

(٣) وعلى اساس من هذا المبدأ اصدر شيخ الاسلام ، السيد محمد ضياء الدين ، فتواه بخلع السلطان عبد الحميد وقد تليت في مجلس المبعوثان (النواب) وهذا نصها :
« اذا حذف (زيد) امير المؤمنين بعض مسائل شرعية مهمة من كتب الشرع المقدسة ومنع ومزق واحرق الكتب المذكورة ، وبذر واسرف في بيت المال بدون مسوغ شرعي ، وقتل وسجن ونفى رعاياه بدون سبب شرعي ، وتعود ارتكاب غير ذلك من المظالم الاخرى ، ثم بعد ان اقسم بان يرجع الى الصلاح حنث بيمينه واصر على احداث فتن عظيمة تخل تمام الاخلال بانتظام امور المسلمين واحوالهم وحرص على المذايح ، واذا كانت الاخبار تتوالى من جميع انحاء البلاد الاسلامية طالبة خلعه تخصصاً من ذلك الجور ، وكان في بقاءه ضرر محقق وفي زواله صلاح ملحوظ ، فهل يجب اجراء ما يرجحه ارباب الحل والعقد واولياء الامور

وكذلك نستطيع ان نقف وقفة عند فرقة الخوارج التي كانت ترى ان الخلافة بالانتخاب ، وليست مقصورة على اسرة او قبيلة ، والقرآن ، كلام الله ، ينزل عندهم سياسياً منزلة الدستور في اللغة السياسية الحديثة ، وعلى الخليفة ان يتقيد به ، فاذا لم يفعل وجب الخروج على طاعته اذ « لا طاعة لخلق في معصية الخالق » . وقد اتخذ الخوارج هذه القاعدة شعاراً^٤ . ومن شعاراتهم ايضاً ما جاء على لسان ابي حمزة الخارجي : الناس منا ونحن منهم الا ثلاثة : حاكماً جاء بغير ما انزل الله ، او متبعاً له ، او راضياً بعمله .

وفي وجوب الخروج على السلطان الجائر ومجاهدته بالسلاح ، يلتقي الخوارج بالمبدأ الثوري الذي اعلنه المؤتمر الوطني « La Convention » ، وفيه يثبت حق الثورة على الحكومة الظالمة .

ولنراجع هنا خبر حادثة وقعت بين الخليفة عبد الملك بن مروان واحد الخوارج ، فانها تتعلق بالموضوع الذي نحن بصدده .

روى الشيباني عن الهيثم عن ابن عباس ، قال : كنا عند عبد الملك بن مروان ، اذ اتاه كتاب الحجاج يعظم فيه امر الخلافة ويذم ان ما قامت السموات والارض الا بها ، وان الخليفة عند الله افضل من الملائكة المقربين والانبياء المرسلين ، وذلك ان الله خلق آدم بيده واسجد له الملائكة واسكنه جنته ، ثم اهبطه الى الارض وجعله خليفته ، وجعل الملائكة رسلاً اليه . فاعجب عبد الملك بذلك ، وقال : لوددت ان عندي بعض الخوارج فاخاصمه بهذا الكتاب . فانصرف رجل من جلساء عبد الملك الى منزله فجالس مع ضيفائه وحدثهم الحديث . فقال له حوار بن زيد الضبي ، وكان هارباً من الحجاج : توثق لي منه ثم اعطني به . فذكر الرجل ذلك لعبد الملك بن مروان ، فقال الخليفة : هو آمن على كل ما يخاف . فانصرف الرجل الى حوار فاخبره بذلك فقال : بالعداة ان شاء الله . فلما اصبح حوار اغتسل

من الزامه بالتنازل عن السلطة والخلافة او خلعه ؟ الجواب نعم ! - كتبه الفقير السيد محمد ضياء الدين عني عنه . » (كتاب سمير الليالي لمحمد امين الصوفي السكري ، طبع طرابلس)
 (٤) كان الريحاني كثير الذكر للخوارج . راجع مقالته في الريحانيات : حكومة المستقبل .

ولبس ثوبين ثم تحنط وحضر باب عبد الملك ، فقال الخليفة : ادخله يا غلام . فدخل رجل عليه ثياب بيض يوجد عليه ريج الحنوط . ثم قال : السلام عليكم . ثم جلس . فقال عبد الملك : ائت بكتاب ابي محمد يا غلام . فاتاه به ، فقال : اقرأ . فقرأ حتى اتى على آخره . فقال حوار : اراه قد جعلك في موضع ملكاً (ملاكا) وفي موضع نبياً ، وفي موضع خليفة . فان كنت ملكاً فمن انزلك ؟ وان كنت نبياً فمن ارسلك ؟ وان كنت خليفة فمن استخلفك ؟ عن مشورة من المسلمين ام ابتزت الناس امورهم بالسيف ؟ فقال عبد الملك : قد امّناك ولا سبيل اليك ، والله لا تجاورني في بلد ابدأ ، فارحل حيث شئت . قال : فاني قد اخترت مصر . فلم يزل بها حتى مات عبد الملك . (العقد الفريد ، جزء ٣) .

واهم ما يعنيننا من هذا الحديث الطويل سؤال حوار الضبي لعبد الملك : ان كنت خليفة فمن استخلفك ؟ عن مشورة من المسلمين ام ابتزت الناس امورهم بالسيف ؟ فكان حواراً قال لعبد الملك : الخليفة الشرعي (او الدستوري) ليس الذي يبتز الناس امورهم بالسيف بل هو الذي يتولى منصبه عن مشورة منهم . الخليفة الشرعي هو الذي تصدر خلافته عن الشورى .

واننا لنستطيع كذلك ان نعرض لذكر مشهد المنافرة الذي ألمّ به الكواكبي ، بين الوليد بن عبد الملك وقيس ، اذ خرج قيس مغضباً يقول للخليفة : « تريد ان تكون جباراً ؟ والله ان نعال الصعاليك لا طول من سيفك . »

ثم نستطيع ان نردّد هذا البيت لابي العلاء المعري في الحكماء :

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم اجراؤها
وفيه يقرر ابو العلاء ان الحكماء ليسوا فوق الرعية ولكنهم مأجورون لها ، فوجبت عليهم خدمة مصالحها لا ظلمها وكيدها .

... كان اعلام مفكرينا وادبائنا يتجهون الى هذا كله ، في ثنايا التراث القديم ، كما يتجهون الى الثورة الفرنسية ومفكرها والقواعد التي انبثقت عنها في اصول الحكم . فاذا قال الكواكبي : « ان الحكومة من اي نوع كانت لا تخرج عن وصف

الاستبداد ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والمحاسبة التي لا تسامح فيها ، نظر
اولاً الى التاريخ العربي فقال : « كما جرى في صدر الاسلام فيما نقيم على عثمان بن
عفان (رضي الله عنه) ، وكما جرى في عهد هذه الجمهورية الحاضرة في فرنسا ، في
مسائل النياشين وبناما وديفوس . »

واذا كتب الدكتور شبلي الشميل في الاجتماع البشري او العمران - وقد عرفنا
تقديره للثورة الفرنسية واثرها في ارتقاء الانسان واصلاح الاحكام - نظر ايضاً في
ثنايا التراث القديم فذكر كلمة منسوبة الى انوشروان يقول فيها الملك الفارسي :
« ورأس الكل افتقاد الملك حال رعيته بنفسه واقتداره على تأديبها حتى يملكها
ولا تملكه . » ثم عارض الشميل هذا الرأي برأيٍ سواه خلاصته ان انفراد الملك
بالسلطة دون ما محاسبة ، يؤدي به الى اساءة استعمالها ، فيفسد هو وتفسد بطانته ،
ويسري الفساد في الرعية جملة . ثم يعمد الشميل الى تلاوة اثر من التراث القديم ،
ساقه ابو الفداء في تاريخه ، وهو امر يبين كيف يفسد الحاكم اذا اعفي من المحاسبة
وكيف تفسد الرعية . ويبين ايضاً ان التراث القديم لم يخل من ذكر شجعان تعرضوا
- ولو فردياً - لمحاسبة الحكام المطلقين . ونكتفي هنا باثبات بعض هذا الاثر :

• بينا الخليفة المنصور يطوف بالكعبة ليلاً اذ سمع قائلاً يقول ، اللهم اني اشكو
اليك ظهور البني والفساد في الارض وما يحول بين الحق واهله من الطمع . فخرج
المنصور الى ناحية من المسجد ودعا القائل وسأله عن قوله فقال له : يا امير المؤمنين ، ان
امنتي انبأتك بالامور على جليتها واصولها ، فأمنت فقال : ان الذي دخله الطمع حتى حال
بين الحق واهله هو انت يا امير المؤمنين ! فقال المنصور : ويحك ! وكيف يدخلني
الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي والخلو والحامض عندي ؟ فقال الرجل : لان الله
استراعاك المسلمين واموالهم فجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر وابواباً من
الحديد وحجاباً معهم الاسلحة وامرتهم ان لا يدخل عليك الا فلان وفلان ، ولم تأمر
بايصال المظلوم والملهوف ولا الجائع والعاري ولا الضعيف والفقير ، وما احد الا وله
في هذا الامر حق . فلما راك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على
رعيته تجبي الاموال فلا تعطيتها وتجمعها ولا تقسمها ، قالوا : هذا قد خان الله تعالى

فما لنا لا نخونه وقد سخر لنا نفسه ، فاتفقوا على ان لا يصل اليك ، من اخبار الناس الا ما ارادوا ، ولا يخرج لك عامل فيخالف امرهم الا اقصوه ونفوه حتى تسقط منزلته ويصغر قدره . فلما انتشر ذلك عنك وعنهم عظمهم الناس وهايوهم . فكان اول من صانهم عمالك بالهدايا ليتقوا بهم على ظلم رعيتك . ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا به ظلم من دونهم . فامتلات بلاد الله بالطمع ظلماً وفساداً وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وانت غافل . فان جاء متظلم حيل بينه وبين الدخول اليك ، فان اراد رفع قصة اليك وجدك قد منعت من ذلك وجعلت رجلاً ينظر في المظالم ، فلا يزال المظالم يحتلف اليه وهو يدافعه خوفاً من بطانتك ، فاذا صرح بين يديك ضرب ضرباً شديداً ليكون نكالا لغيره وانت تنظر ولا تنكر ، فما بقاء الاسلام على هذا ؟ »

هذا ، ولما كان الحاكم يفسد بتحرره من المحاسبة ، وكان فساد فساد الرعية ايضاً ، كان نوع الحكم في المجتمع مفتاح التقدم او التأخر ، والسعادة او الشقاء ، وكان الاهتمام بالسياسة امراً لا بد منه لكل انسان ، ولا سيما رجال الادب والفكر والفلسفة . وفي ادوار التاريخ واعمار الامم عهود خاصة هي عهود الرجات والانقلابات تطرح فيها مسائل الحكم على بساط البحث طرْحاً لا مناص منه لاحد .

وكان اعلام ادبائنا ومفكرينا يستندون ايضاً الى التراث القديم في تقرير اهمية الدور الذي تمثله السياسة في حياة الانسان . كانوا يقرأون قول الطرطوشي في كتابه سراج الملوك : ان الانسان اعز جواهر الدنيا واغلاها قدراً واشرفها منزلة ، وبالسلطان صلاح الانسان . ويقرأون ايضاً : ليس فوق رتبة السلطان العادل رتبة ، كذلك ليس دون رتبة السلطان الشرير الجائر رتبة . وكانوا يقرأون ايضاً : اربعة اشياء ينبغي ان تفسر للفهم كما تفسر للبليد ، ولا يتكل فيها على ذكاء احد : تأويل الدين واخلاط الادوية وصفة الطريق الخوف والرأي في السلطان ، فيعزز ذلك مذهبهم في ضرورة الاهتمام بالسياسة وبحث قضايا الحكم .

وانما لنستطيع ان نمضي في هذا الكتاب الى غاية يمتد معها اجل الكلام في اثبات التوفيق الذي ذهب اليه اعلامنا ومفكروننا بين الثورة الفرنسية ومبادئها والتراث القديم

وصفوة مثله وقيمه . على اننا نكتفي بهذا الشاهد الشعري الاخير من احد كبار الشعراء في الفترة الاخيرة . دعي حافظ ابراهيم الى انشاء قصيدة في حفلة اقيمت بصر سنة ١٨٩٩ ابتهاجاً بعيد الدستور العثماني ، فقال :

فمن يطالب الدستور بالشر بعدما	حمته يد الفاروق فالله طالبه
اذا شوكت الفاروق قام منادياً	الى الحق لباه نيازي وصاحبه
ثلاثة آساد يجانبها الردى	وان هي لافاها الردى لا تجانبه
روت قول بشار فثارت واقسمت	وقامت الى عبد الحميد تحاسبه
اذا الملك الجبار صعر خده	مشينا اليه بالسيوف نعاتبه

فهذه التفاتة من الشاعر الى التراث القديم ، الى بشار ، وكان يتزع مززع الشورى في الحكم ، وقد رافقتها على الاثر التفاتة الى الثورة الفرنسية وعيد ١٤ تموز :

لك الله يا تموز انك بلم	لجرحى الاسى والدهر تعدو نوائبه
فكم رعت جباراً وارهقت ظالماً	وانصفت مظلوماً توات مصائبه
ففي الغرب عيد ينظم الغرب حسنه	فتهاز من وقع السرور جوانبه
وفي الشرق عيد لم ير الشرق مثله	تدقق في دار السلام مواكبه

ومفهوم ان العيد الذي في الغرب ، كما يقول شارح ديوان حافظ ، هو عيد الحرية في فرنسا ، وهو في شهر تموز .

وليس بالغريب مطلقاً ان تتلاقى ، عند اعلام ادبائنا ومفكرينا ، صفوة من التراث القديم بصفوة الثورة الفرنسية ومبادئها . ليس من الغريب ان يقول الكواكبي مثلاً : « لما كان ضبط اخلاق الطبقات العليا من الناس من اهم الامور اطلقت الامم الحرة حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات ، مستثنية القذف فقط . ورأت ان تحمل مضررة الفوضى في ذلك خير من التحديد لانه لا ضامن للحكام ان يجعلوا الشعرة من التقييد سلسلة من حديد يخنفون بها عدوتهم الطبيعية ، اي : الحرية . وقد حمى القرآن قاعدة الاطلاق بوضعه قاعدة : ولا يضار كاتب ولا شهيد .

» وهذه الامم الموفقة خصصت منها جماعات باسم مجالس نواب وظيفتها السيطرة والاحتساب على الادارة العمومية السياسية . وذلك منطبق تماماً على ما امر به القرآن

الكريم في آية : « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . » وفي كماله هذه الآية وهي « واوائك هم المغلجون » من التبجيل ما يحمل نفوس الابرار على تحمل مضض القيام بهذه الوظيفة الشريفة في ذاتها، المعقوتة طبعاً عند المستبد واعوانه . »

ليس من الغريب ان يقول الكواكي هذا القول وهو يعلم ان النتائج التي تستقر عندها افكار المتكلمين « في مسائل السياسة وطبائع الاستبداد خاصة » انما هي نتائج متحدة المدلول مختلفة التعبير على حسب اختلاف المشارب والانظار في الباحثين .

« فيقول المادي : الداء القوة والدواء المقاومة . ويقول السياسي : الداء استعباد البرية والدواء استرداد الحرية . ويقول الحكيم : الداء القدرة على الاعتساف والدواء الاقتدار على الاستنصاف . ويقول الحقوقي : الداء تغلب السلطة على الشريعة والدواء تغلب الشريعة على السلطة . ويقول الرباني : الداء مشاركة الله في الجبوت والدواء توحيد الله حقا . » هذه اقوال اهل النظر ، واما اهل الغرائم ، فيقول الايلي : الداء مد الرقاب للسلاسل والدواء الشموخ عن الذل . ويقول الشهم : الداء التعالي على الناس باطلا والدواء تذليل المتكبرين . ويقول المتين : الداء وجود الرؤساء بلا زمام والدواء ربطهم بالقيد الثقال . ويقول المفادي : الداء حب الحياة والدواء حب الموت . »

فاذا تلاقى عند ادبائنا ومفكرينا صفوة من التراث القديم بصفوة من الثورة الفرنسية ومبادئها ، فذلك طبيعي ما دام التراث القديم قد استهدف عدل الحكومات وحرية الناس ورقبيهم ، وما دامت الثورة الفرنسية وادباؤها ومفكرونا قد استهدفوا ايضاً عدل الحكومات وحرية الناس ورقبيهم^(٥) .

« انا الشرق قد جئتكم يا فتى الغرب رفيقاً ! » هي كلمة لامين الريحاني في مناسبة

(٥) في باب « نصوص مختارة » فصول أثبتناها للشيخ رشيد رضا ، وفيها يظهر ظهوراً جلياً قصد التوفيق والملاءمة بين المذاهب والمبتكرات السياسية الحديثة من جهة ، والتفكير الاسلامي من جهة ثانية . ولا شك أن الانقلاب التركي الكمالي حتم السير بهذا التوفيق والملاءمة الى مدى بعيد . ولكن فصول الشيخ رشيد رضا لا يزال فيها قليل أو كثير من التحفظ . أما الفصل الذي اثبتناه للاستاذ عزام في باب النصوص فقد حمل التوفيق والملاءمة الى اقصى الحدود .

ما . وبالطبع ، انها رفقة على صعيد المساواة ، رفقة في سبيل عدل الحكومات وحرية
الناس ورقمهم . وهكذا يلتقي الشرق والغرب ويبقى شعر الشاعر كبلنغ سطوراً
في كتاب ^(٦).

(٦) المقصود قوله : الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا .

القِسْمُ الثَّانِي

نُصُوصٌ مُخْتَارَةٌ

الامير حيدر الشهابي

١٧٦١ - ١٨٣٥

الثورة الفرنسية : انه في سنة ١٧٩٢ مسيحية الموافقة ١٢٠٧ هجرية ، حدث في مدينة باريس بابل عظمة اذ هاج شعب هذه المملكة هياجاً عظيماً ، وتظاهر ظهوراً جسيماً ضد السلطان والامرا والاشراف في يوماً كان شديد الارتجاف . وبرزوا الكمين منذ اعوام وسنين . وطلبوا نظمات جديدة وترتيبات حديثة . وادعوا ان وجود السلطان بصوت منفرداً ، حدث خراباً عظيماً في المملكة ، وان اشرافها يتنعمون في خيراتها ، وباقي شعوبها يكابدون اتعابها ومشقاتها . فلاجل ذلك نهضوا جميعهم سوية ، تلك الشعوب الفرنسية ، ودخلوا على سراية الملك فخاف منهم خوفاً عظيماً مع ارباب دولته . وسألهم عن مرامهم والسبب الداعي الى قيامهم . فاعلموه انه من الآن وساعد (وصاعداً) لا يبرز الملك امراً او بيت رأياً من تلقا ذاته . بل يكون بت الاحكام والترتيب والنظام بموجب ديوان عظيم ومحفل جسيم . ويكون الملك له الصوت الاول . ثم من بعده مشايخ الشعب الذي عليهم المعول فبذلك يهون الصعب ويرتفع الظلم عن الشعب .

فلما فهم الملك لويس قيام هذا الشعب المذكور . وما ابدوه من تلك الامور اجابهم انني وايضاً انا اود عمار هذه المملكة وخيرها وطيع لما تروه مناسباً لرفع ضررها وضيورها .

فقالوا له : ان كنت كما زعمت احتم لنا الشروط التي تلايم اصلاح هذه المملكة وقيام المشيخة . فقبل ذلك خوفاً من الشعب . وختم لهم الشروط التي قدموها له . ثم بعد اياما جهز الملك نفسه للهرب وخرج ليلاً من مدينة باريس وصحبته اخويه وبعض اصحابه قاصداً الانبراطور ملك النمسا لانه كان نسيه شقيق

زوجته .

وعندما بلغ مشايخ الشعب خروج هذا الملك ، جدوا في طلبه فرجده في احدى اللوسطاريات التي في الطريق . فقبضوا عليه ورجعوا به الى المدينة ووضعوه في السجن مع امرأته وولده . واما اخيه فانه نجا منهما . وسار الى بلاد النمسا . وبدا جميع الشعب يصبح صارخاً فليقتل الملك بوجب الشريعة لانه نكث في عهده مع شعبه . وقد هرب لسكي ياتجي الى (ملك) النمسا الذي هو اخو زوجته ، الذي قد تسبب لنا هذا الخراب بسببها .

ثم ان بعد ما سجنوا الملك اربعة اشهر حكموا عليه في الموت ، وأحضروه امام الشعب في اليوم الاثنين الحادي والعشرون من كانون الثاني وقد ابرزوا عليه الموت . وقد طلب الملك لويس ان يخاطب عياله والمتوكلون عليه احضروا امرأته وبنوه وشقيقته واستمروا معهم في المكان الذي كان يأكل به نحو ساعتين ونصف . وخاطب ابنته مريم انطونيتا قايلاً لها تعلمي من مصايب والدك ولا تجزعي من موته . وطلبوا منه عيالته ان ينظروه عند الصباح ، فلم يجيبهم الى ذلك . وفي الصباح اعلوه المتوكلون ان الجمهور قد حكم عليه بالموت . فطلب الملك لويس ذقينة لسكي يتكلم مع معلم اعترافه فاذنوا له بذلك .

ثم اعرض مغلفاً على احد المتوكلين وتوسل اليه ان يرسله الى مجمع الجمهور . فاجابه انني لا استطيع هذا الامر لكوني متفوض ان ارافقك الى منقع الدم . ثم اعطا ذلك المغلف الى شخص آخر . وواعده انه يوصله للجمعية وكان بذلك المغلف وصيته .

اعدام الملك لويس وظهور نابليون : وفي الساعتين ونصف بعد نصف الليل صعد القايد العام نحو الملك لويس وعرفه بانه مزعم ان يذهب الى الموت ، فاجابه الملك انني مستعد لذلك واذا خرج من مكانه وصعد الكروسي حيث كان معلم اعترافه . وقد اصطفت العساكر في التبعية حيث كان مكان الموت . وقد كان صمت كلي . واما الملك لويس ، بعد ما قرأ صلوة المنازعين ، تعرا من ثيابه بشجاعة فريدة وقلب غير

مرتجف . وصرخ بصوت عال : ايها الفرنسيون انني اموت برياً واغفر الى كل اعدائي ، وارغب ان موتي يكون مفيداً الى الشعب . ثم امر القايد العام الى الجلاد ان يتمم وظيفته وفي الحال قطع رأسه . وكان حزناً عظيماً عند الذي كانوا من حزب الملك . واما الشعب كان عنده سروراً عظيماً . وصنعوا في مثل ذلك اليوم عيداً في كل سنة تذكراً لقتل الملك وانتصار الشعب ^(١) . وكان ذلك في مبدي شهر كانون في الرومية ، وجعلوه بدو سنتهم ، ولقبوه تاريخاً للمشيخة ، وغيروا الاشهر النصرانية ورتبوا شهر جديدة وسماها اسامي مختلفة . واما الاشهر بقيتها ثلاثين يوماً كعادتها الاولى . وفي ذلك الوقت رفضوا الديانة . . . وكان خراب عظيم في تلك المملكة . واهوالاً متلفة مهلكة . وحدث عدة مواقع وحروب بينهم وبين حزب السلطان ولا زالت تردد وتتناهى وتمنوا الاحقاد وتتجدد الاجناد . وتهلك العباد . حتى ضعف حزب السلطان وقويت شوكة المشيخة قوة عظيمة . وبعد ان اعتدل ميزانها وتوطدت اركانها واهلكوا اخصامها ، فانفذوا كتابات اسائر الملوك يعرفونهم عن تأييد مشيختهم وهدده ما تضمنه كتاباتهم ، ان كل من يقر بمشيختنا فهو حبيب لنا . ومن لم يقر بمشيختنا فهو عدو لنا . ويستعد الى محاربتنا لاننا قد استعدينا ان نحارب المسكونة بأسرها ! ثم كتبوا بمثل ذلك الى الدولة العثمانية . وقد كانت هذه الدولة المذكورة منذ قيامها متحدة مع الدولة الفرنسية دايماً فقبلت كتابتهم ، وقوت بمشيختهم . واما الملوك الفرنجية حين وصلتهم كتابة الفرنسية نهضوا الجميع باتفاق ، على قدم وساق . وعزموا على محاربة ذلك الشعب الخارج عن الاسلوب لثلاث تشبه به بقية الشعوب . فاول من اشهر عليهم بالحروب ملك النمسا الانبراطور . لانهم قد قتلوا شقيقته وزوجها ملكهم ثم نهضت ضدهم دولة الانكليز . ثم سلطان اسبانيا . ثم سلطان ايطاليا ثم البابا سلطان مدينة رومية العظيمة وجميع الممالك . ولكون ان شعب هذه المملكة هو اوفر عدداً من ساير الشعوب فاعتصبوا جميعهم عصبة واحدة واستعدوا لحرب جميع مضادديهم . وخرجوا من مدينة باريز الى قتال اعدائهم الواردين عليهم من كل ناحية . وابتدوا يحاصروا مدينة بعد مدينة ، ومملكة بعد مملكة . وهم في عساكر كالببحار الزاخرة

(١) لعل المؤلف خلط بين سقوط الباستيل في ١٤ تموز ، وسقوط الملك .

بآلات الحرب الوافرة . والقوات القادرة . الى ان اشتهر باسمهم واقتدارهم . وانتشر
تملكهم وانتصارهم وتلكوا حصون وقلاع وبلدان وضيع . واستولوا على ممالك بلاد
ايطاليا وكانت حكم احد عشر سلطانا . وامتلكوا عدة قلع من بلاد النمسا .
وكان ذلك الانتصار والتملك عن يد ذلك الليث الظاهر والاسد الكاسر الفرد الفريد
والبطل الصنديد . امير الجيوش بونابارته . وكان هذا من بعض كبار المشيخة
الفرنساوية . وكان قصير القامة رقيق الجسم اصفر اللون ، باعه اليمين اطول من اليسار
مملوءاً من الحكمة مشمولاً بالسعد والنعمة . يبلغ من العمر ثمانية وعشرين سنة . وهو
طلياني الاصل من جزيرة كورسيكا . وتربيته في مدينة باريز كرسي دولة فرنسا .

اول منشور لبونابرت اذاعه في مصر : بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله
ولا ولدا له ولا شريك بملكه .

من طرف الجمهور الفرنسي المبني على اساس الحرية . والساري عسكر الكبير
بونابارته امير الجيوش الفرنسية . ونعرف اهالي مصر جميعهم . ان من زمان مديد
السناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة
الفرنساوية . ويظلمون تجارها بانواع الباص والتعدي . فحضرت الآن ساعة عقوبتهم
وحسرة من مدت عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من جبال الابازا
والكرجستان يفسدوا في الاقاليم الاحسن ما يوجد في كرة الارض كلها . فاما رب
العالمين القادر على كل شيء فقد حتم في انقضا دولتهم . يا ايها المصريين قد يقولوا
لكم انني ما تزلت في هذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم . فذلك كذب صريح
فلا تصدقوه . وقولوا للمفتريين انني ما قدمت اليكم الا لكيما اخلص حقكم من
يد الظالمين وانني اكثر من المماليك اعبد الله سبحانه وتعالى . واحترم نبيه محمد
والقرآن العظيم . وقولوا لهم ايضا ان جميع الناس متساويين عند الله وان الشيء الذي
يفرقهم عن بعضهم بعض فهو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين المماليك ما العقل والفضل
والعرفة التي تميزهم عن الآخرين وتستوجب انهم ان يملكوا وحدهم كلها ليجلو به جبهة
الدنيا . حيثما يوجد ارض مخصصة فهي محتصة للمماليك . والجواري الجمال والحلل

الحسان . والمساكن الاشهى فهذه كلها لهم خاصة . فان كان الارض المصرية التزام للماليك فليوردون الحجة التي كتبها لهم الله . فليكن رب العالمين هو روافاً وءادل على البشر . بعونه تعالى من اليوم وصاعداً لا يستثنى احداً من اهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية . وعن اكتساب المراتب العالية . فالعقلا والفضلا والعلماء بينهم سيدبروا الامور ، وبذلك يصلح حال (الامة) كلها . سابقا في الديار المصرية كانت المدن العظيمة والخلجان الواسعة . والمتجر المتكاثر وما زال ذلك الا الطمع وظلم المالك .

طوبى ثم الطوبى الى اهالي مصر الذين يتفقوا معنا بلا تأخير . وينصلح حالهم وتملا مراتبهم . طوبى ايضاً للذين يقدون في مساكنهم غير مبالين من الفريقين المحاربين . فاذا يعرفونا بالاكثر يسرعون الينا بكل قلب لكن الويل ثم الويل للذين يتحدوا مع المالك ويساعدوهم في الحرب علينا . فما يجدوا طريق الخلاص ولا يبقى منهم آثار .

المادة الاولى : جميع القرى القريبة ثلاثة ساعات عن المواضع الذي ير بها العسكر الفرنسي ترسل للساري عسكر بعض وكلا لكي يعرفوا المشار اليه انهم اطاعوا ونصبوا السنجق الفرنسي الذي هو ابيض وكحلي واحمر .

المادة الثانية : كل قرية تقرم على العسكر الفرنسي تحرق بالنار .

المادة الثالثة : كل قرية تطيع العسكر الفرنسي الواجب عليهم نصب السنجق الفرنسي . وايضاً نصب سنجق السلطان العثماني محبنا دام بقاءه .

المادة الرابعة : المشايخ في كل بلد يختصوا حالا جميع الارزاق والبيوت والاملاك متاع المالك . وعليهم الاجتهاد الزايد لكي لا يضيع ادنى شيء منها .

المادة الخامسة : الواجب على المشايخ والقضاة والائمة ان يلازموا وضاينهم ، وعلى كل من اهل البلد ان يبقى في مسكنه مطمأن . وكذلك تكون الصلوة قائمة في الجوامع على العادة والمصريون باجمعهم يشكروا فضل الله سبحانه وتعالى لانقراض دولة المالك قايلين بصوت عالي : ادام الله تعالى اجلال السلطان العثماني ! ادام الله اجلال العسكر الفرنسي ! لعن الله المالك ! واصلح الله حال (الامة) المصرية !

تحريراً في عسكر اسكندرية ، في ثلاث عشر من شهر سيدور ^١ سنة ستة
من اضافة الجمهور الفرنسي اعني اواخر شهر محرم سنة ١٢١٣ هجرية ٠ - (من تاريخ
الامير حيدر الشهابي الجزء الثاني) .



احمد فارس الشدياق

١٨٨٧ - ١٨٠١

الوطني الزائف : من الناس من يبالي في مدح وطنه ويحن اليه حنينه الى
سكنه ، فيصف مروجيه ورياضه وبروجه وحياضه ووهاده وجباله وتلاعيه وتلاله
وربوعه ودياره ونباته واشجاره وبقوله وثماره ودوحه واطياره وطيب هوائه ولذة مائه ،
ويزعم ان فضوله كلها كالربيع حسناً وان جميع اقطاره تتدفق بركة ويمنا وان شهراً
فيه خير من الف عام في غيره وان كل بلد مستمد من خيره ومحتاج الى ميره ، ثم
يزفر زفير الهائم الحيوان ويصرخ صراخ اللهوان الا ان حب الوطن من الايمان ، لقد
جبت السهولة والحزون وركبت الذلول والامون وطوفت في الامصار وجولت في
الاقطار وضربت في مناكب الارض مستقصياً واختبرت احوال من عليها مستفتياً
وسببت اطوارهم واوطارهم وعلمت قوافيهم واسرارهم ، فلم اجد عيشاً هنيئاً الا في
بلادي ولم يرقني شيء غير ما رأيته فيها من طاريء وعادي ، فنعمت البلاد مشوى
وطابت مقاماً ومأوى وانها جديرة بان تكون مقاماً للملوك وما غيابهم عنها الا من
النوك فمن اين يجدون لها مثيلاً ومن ذا الذي ينبغي عنها حوولاً ؟ هي البلاد التي تغزات
بها الشعراء فقال فيها فلان ابياتاً وقال فيها فلان قصيدة غراء واسمع ما قيل في

(١) سيدور : تحريف ميدور ، شهر من شهور السنة ، بحسب التسمية الجديدة بعد اعلان
الجمهورية الفرنسية الاولى ، وهو الشهر العاشر من السنة الجمهورية .

جداولها ونواعيرها وبلابلها وعصافيرها وخمائلها وازاهيرها وصروحها وقصورها ومصانعها ودورها وظبائها ومراتعها وزكائها ومواقعها وفي اريج آفاقها وبهيج أشفاقها ونضرة حدائقها وبهجة شقائقها ، بل قد ذكرت ايضاً في بعض الكتب المنزلة في عدة مواضع مفصلة فقليل انها معدن الخير والكرم ومشوى الصالحين من الامة ومنها كان مبدأ الصنائع والعلوم في كل معمول ومعلوم . فاذا قلت له كيف جارك الادني لعله كان لك عوناً وخدناً قال وييلي انه شر جار وهو على البلاد عار وشنار فكيف جاره الذي يليه عسى انه ممن توالفه وتصافيه قال وييلي انه شر من اخيه . فكيف اهل الحارة طراً قال وييلي انهم كانوا كلهم عليّ شراً ولم اجد منهم الا ضرراً . فكيف اهل البلد اجمعين قال وييلي ما منهم امين ولا معين فما كأنهم خلقوا من .ا. وطين . قال وييلي اني قد اختبرتهم جميعاً فلم اجد لاحد منهم من خلاق وان هم الا جهال اغبياء ينفقون لمن يأمرهم من الاغنياء فانهم عبيد الدرهم والدينار ولا يباليون الا ببل بطونهم ولو من الحشار . فكيف اهل المدن والامصار قال وييلي انهم اولو غبن وغش وتغرير واخفار ما تعامل منهم من احد الا وعينيك بالكمد والنكد واخسار لانهم لما كانوا متقلبين في امور المعاش ومنهم مكن في اتخاذ الاثاث والرياش ، ظنوا ان سائر الناس همج فما عليهم في غبنهم من حرج . فكيف اهل الجبال عسى انهم ممن صنت طويتهم وطاب منهم البال فتلك خلقة قد اختصوا بها في جميع الازمان وشان قد عرفوا به في كل قطر ونعم الشان . قال ويلك ومن اين لهم الصفاء وقد فطروا على الشراسة والجفاء فابتعدوا عن الآداب فكادوا ان يحصوا مع الذئاب فان احدهم ليقتل اخاه على خبزة يسد بها جوعه ويسلب صديقه في اكلة ويجرمه هجوعه ، هذه حالة سكان البلاد الحاضر منهم والباد فلا تكثرن من السؤال ولا يحظرن ببالك غير هذه الحال . فان قلت له ولكن كيف اشتهلت بلادكم على تلك المحاسن واهلها على هذه المساوي . الشوائب ، نال ان اهلها الاولين كانوا من الخيبر فحروثها وزرعوها وعمروها وامرعوها ثم فسد الزمان فجاءت خلفاؤهم فاسدة لكن بقيت تلك المحاسن فيها فائدة . ولكن ما معنى فسد الزمان وهو لم يكن صالحاً قط منذ خلق الانسان والتواريخ على ذلك شاهدة ونصوصها عليه متساندة متعاضة ، ثم كيف فسدت الناس وانت بقيت من بينهم صالحاً

ترى كل من سواك طالحاً ، ولو كنت من الصالحين لما رأيت في غيرك خلقاً يشين فافماً
ينظر في عيوب الناس من كان اسوأ منهم حالاً (ومن يك ذا فم مريض يجد
مرأً به الماء الزلزالاً) كذا قال الشاعر الحكيم فما انت في طعنك على جنسك الا ملهم
وان امرأً يحسب جميع اهل بلاده دونه جدير بان يشيعوا مفتونه ويذيعوا جنونه
ويتجنبوا محضره ويتنكبوا منظره . فيا للعجب ممن يمدح وطنه ليرجع المدح الى نفسه
مع ذم قومه وجنسه وممن لا يعجبه شيء مما يقال الا اذا كان ذاته وصفاته محوراً
المقال ومع ذلك فانه يقول حب الوطن من الايمان وهو لاهله شأن وبذكر عيوبهم
سكران وعن عيوب نفسه وسنان . هكذا حالة اكثر الناس في هذا الزمان وهذه
محبتهم للوطن ، وهي محبة كاذبة ودعوى عائية . ومنهم من يغار على وطنه ويجهد في نفع
سكنه واذا ذكر من قصور اهل بلاد شيئاً فافماً هو لتبنيهم لا لتشويههم ولحشهم على
الوصول الى الكمال لا للتنديد بهم لدى الاجيال ولكي يحلمهم على عظام المساعي
لا لان يقوم بالنعي على افعالهم مقام النائب الناعي ، فتراه كلما سنحت فرصة لنفعهم
انتهرها او لبانة خيرهم تنجزها فمثله كمثل المربي الشفيق والمتعهد الرفيق الذي يحزن
لحزن من يتعهده ويفرح لفرحه ولا يطيب له عيش الا اذا رآه مثله في غبطته وسرحه .
لا جرم ان العيش لا يطيب الا اذا كان لكل واحد من رغده حظ ونصيب فاما
اذا اختص الانسان بنعمة ورأى غيره في كرب وغمة فلن يهتبه ورود مشربها والتمتع بها .
وقولنا الانسان المراد به من كملت انسانيته وصفت سريرته ونيتته فهو يرى سعادة جاره
داعية لبلوغ اوطاره وتشبيد داره لا من كان ذا عينين ولسان يطعن بلسانه طعن
السنان وينظر بعينيه معائب الاقران فشتان ما بينهما ثم شتان ! فقد عرفت ان بعض
الناس يمدح ولا غيره له ، وبعضهم يغار ولا يمدح وان هذا هو الاصلح . الا قل لمن
يطرى نفسه ويذكرها ان انت بهذه التركيبة الا مذكيها وان ما خفي عليك من
شئنها اكثر مما ظهر لك من زينها وانك كما تدين تدان وكما تهين تهان فان كان قد
استحوذ عليك الغفول لاهلك رفيع الفاعل ونصب المفعول واستهواك الغرور لمرفقتك
« بون جور » فاعلم انك ما علمت شيئاً الا ما علمت ، ولا فهمت معنى الا ما فهمت ، فم
تفتخر ومن الذي تحتقر ولم لا تعتبر فتزجر وفيك يدخل الطاهر فيستحيل نجسا واست

ترى الا مفراحاً اشراً او جزءاً مبهتساً ، فافن الحياء وليكن عرفانك بقدرك اول ما تعرفه من الاشياء ، ان الله عليك رقيب ولا يخفى عليه مغيب . - (من مقالاته « مجل ادبية » نقلا عن « مجالي الغرر لكتاب القرن التاسع عشر » القسم الاول) .



رفاعة رافع الطهطاوي

١٢١٦ هـ - ١٢٩٠ هـ

عن الفرنسية المنصوب لهم^(١) : المادة الاولى : سائر الفرنسية مستوون قدام الشريعة . المادة الثانية : يعطون من اموالهم ، بغير امتياز ، شيئاً معيناً لبنيت المال ، كل انسان على حسب ثروته . المادة الثالثة : كل واحد منهم متأهل لاخذ اي منصب كان واية رتبة كانت . المادة الرابعة : ذات^(٢) كل واحد منهم يستقل بها ويضمن له حريتها فلا يتعرض له انسان الا ببعض حقوق مذكورة في الشريعة وبالصورة المعينة التي يطبق بها الحاكم . المادة الخامسة : كل انسان موجود في بلاد الفرنسيين يتبع دينه كما يحب ، لا يشاركه احد في ذلك بل يعان على ذلك ويعنع من يتعرض له في عبادته . المادة السادسة : يشترط ان تكون الدولة على الملة القاثوليكية الحوارية الرومانية . المادة السابعة : تعمير كنائس القاثوليكية وغيرهم من النصرانية يدفع لها شيء من مال النصرانية ولا يخرج منه شيء لتعمير معابد غير هذا الدين . المادة الثامنة :

(١) لما كانت « الشارت » التي اقرها لويس الثامن عشر تنطوي على كثير مما ورد في بيان حقوق الانسان كانت هذه القطعة من اول الاثار الدالة على « بيان حقوق الانسان » في اللغة العربية .

(٢) يعني شخصية .

لا يمنع انسان في فرنسا ان يظهر رأيه وان يكتبه ويطبعه بشرط ان لا يضر ما في القانون فاذا اضر ازيل . المادة التاسعة : سائر الاملاك والاراضي حرم فلا يتعدى احد على ملك آخر . المادة العاشرة : للدولة دون غيرها ان تكره انسانا على شراء عقاره لسبب عام النفع بشرط ان تدفع ثمن المثل قبل الاستيلاء . المادة الحادية عشرة : جميع ما مضي قبل هذا القانون من الآراء والفتن يجب نسيانه وكذلك ما وقع من المحكمة واهل البلاد . المادة الثانية عشرة : اخذ العساكر قد يرتب وينقص عما كان عليه وقد يعين بقانون معلوم وضع عساكر في البر والبحر .

هقوق الناس التي بضمنها البروانه (البرطانه) : قوله في المادة الاولى : سائر الفرنسيين مستوون قدام الشريعة ، معناه سائر من يوجد في بلاد فرنسا من رفيع ووضيع لا يختلفون في اجراء الاحكام المذكورة في القانون حتى ان الدعوة الشرعية تقام على الملك وينفذ عليه الحكم كغيره . فانظر الى هذه المادة الاولى فانها لها تسلط عظيم على اقامة العدل واسعاف المظلوم وارضاء خاطر الفقير بانه العظيم ، نظراً الى اجراء الاحكام . ولقد كادت هذه القضية ان تكون من جوامع الكلم عند الفرنسيين وهي من الادلة الواضحة على وصول العدل عندهم الى درجة عالية وتقدمهم في الآداب الحضرية وما يسمونه الحرية ويرغبون فيه هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والانصاف وذلك لان معنى الحكم بالحرية هو اقامة التساوي في الاحكام والقوانين بحيث لا يجوز الحاكم على انسان بل القوانين هي المحكمة والمعتبرة فهذه البلاد حرية بقول الشاعر :

وقد ملأ العدل اقطارها وفيها توالى الصفا والوفا

وبالجملة اذا وجد العدل في قطر من الاقطار فهو نسبي اضافي لا عدل كلي حقيقي فانه لا وجود له الآن في بلدة من البلدان فانه كالايمان الكامل والحلال الصرف وامثال ذلك ونظائره فلا معنى لحصر المستحيل في القول والعنقاء والخل الوفي كما هو مذكور في قوله :

لما رأيت بني الزمان وما بهم خل وفي للشدائد اصطفني
ايقنت ان المستحيل ثلاثة الغول والعنقاء والخل الوفي

مع ان ذلك ممنوع في العنقاء فانها نوع من الطيور موجود الافراد ، يذكره ارباب علم الحشائش وذكر الثعلبي في قصص الانبياء قضية العنقاء مع سيدنا سليمان في تكذيبها بالقدر . نعم لا وجود للعنقاء بالمعنى المشهور عند العامة من العرب والافرنج من انها من اعلاها عقاب ومن اسفلها اسد ، وعلى كل حال فلها في الجملة وجود . واما المادة الثانية فانها محض سياسية ويمكن ان يقال ان الفرد^(١) ونحوها لو كانت مرتبة في بلاد الاسلام كما هي في تلك البلاد لطابت النفس خصوصاً اذا كانت الزكوات والفى والغنمية لا تقي بحاجة بيت المال او كانت ممنوعة بالكلية وربما كان لها اصل في الشريعة على بعض اقوال مذهب الامام الاعظم^(٢) . ومن الحكم المقررة عند قدماء الحكماء : الخراج عمود الملك ، ومدة اقامتي ببائيس لم اسمع احدا يشكو من المكوس والفرد والجبايات ابداً ولا يتأثرون بحيث انها تؤخذ بكيفية لا تضر المعطي وتنفع بيت مالهم خصوصاً واصحاب الاموال في امان من الظلم والرشوة . واما المادة الثالثة فلا ضرر فيها ابداً بل من مزايها انها تحمل كل انسان على تعهد تعلمه حتى يقرب من منصب اعلى من منصبه وبهذا كثرت معارفهم ولم يقف تمدنهم على حالة واحدة مثل اهل الصين والهند ممن يعتبر توارث الصنائع والحرف ويبقى للشخص دائماً حرفة ابيه . وقد ذكر بعض المؤرخين ان مصر في سالف الزمان كانت على هذا المنوال فان شريعة قدماء القبط كانت تعين لكل انسان صنعة ثم يجعلونها متوارثة عنه لاولاده . قيل سبب ذلك ان جميع الصنائع والحرف كانت عندهم شريعة فكانت هذه العادة من مقتضيات الاحوال لانها تعين كثيراً على بلوغ درجة الكمال في الصنائع لان الابن يحسن عادة ما رأى اياه يفعلها عدة مرات بحضورته ولا يكون له طمع في غيره فهذه العادة كانت تقطع عرق الطمع وتجعل كل انسان راضياً بصنعة لا يتمنى اعلى منها ، بل لا يبحث الا عن اختراع امور جديدة نافعة لحرفته توصل الى كمالها

(١) يستعملها بمعنى الضرائب اطلاقاً .

(٢) يعني ابا حنيفة .

انتهى . ويردّ عليه انه ليس في كل انسان قابلية لتعلم صنعة اييه فقصره عليها ربما جعل الصغير خائباً في هذه الصنعة والحال انه لو اشتغل بغيرها لنجح حاله وبلغ آماله .
واما المادة الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة فانها نافعة لاهل البلاد والغرباء ، فلذلك كثر اهل هذه البلاد وعمرت بكثير من الغرباء .
واما المادة الثامنة فانها تقوي كل انسان على ان يظهر رأيه وعلمه وسائر ما يخطر بباله مما لا يضر غيره فيعلم الانسان سائر ما في نفس صاحبه خصوصاً الورقات اليومية المسماة بالجرنالات والكازيطات، الاولى جمع جرنال والثانية جمع كازيطة ، فان الانسان يعرف منها سائر الاخبار المتجددة سواء كانت داخلية وخارجية اي داخل المملكة او خارجها ، وان كان قد يوجد فيها من الكذب ما لا يحصى الا انها قد تتضمن اخباراً تتشوف نفس الانسان الى العلم بها على انها ربما تضمنت مسائل علمية جديدة التحقيق او تنبيهات مفيدة او نصائح نافعة سواء كانت صادرة من الجليل او الحقير لانه قد يخطر ببال الحقير ما لا يخطر ببال العظيم كما قال بعضهم : لا تحتقر الرأي الجليل يأتيك به الرجل الحقير فان الدرة لا تستهان لهوان غواصها .

وقال الشاعر :

لما سمعت به سمعت بواحد ورأيت فاذا هو الشقلان
فوجدت كل الصيد في جوف الفرا ولقيت كل الناس في انسان
ومن فوائدها ان الانسان اذا فعل فعلاً عظيماً او رديئاً وكان من الامور المهمة كتبه اهل الجرنال ليكون معلوماً للخاص والعام لترغيب صاحب العمل الطيب ويرتدع صاحب الفعلة الخبيثة ، وكذلك اذا كان الانسان مظلوماً من انسان كتب مظلمته في هذه الورقات فيطلع عليها الخاص والعام فيعرف قصة المظلوم والظالم من غير عدول عما وقع فيها ولا تبديل ، وتصل الى محل الحكم ويحكم فيها بحسب القوانين المقررة فيكون مثل هذا الامر عبء لمن يعتبر .
واما المادة التاسعة فانها عين العدل والانصاف وهي واجبة لضبط جور الاقوياء على الضعفاء وتعقيبها بما في العاشرة من باب اللياقة الظاهرة . وفي المادة الخامسة عشر نكتة لطيفة وهي ان تدبير امر المعاملات لثلاثة مراتب : المرتبة الاولى للملك مع وزرائه ، والثانية مرتبة البيريه المحامية للملك ، والثالثة

مرتبة رسل العملات الذين هم وكلاء الرعية والمحابون عنهم حتى لا تظلم من احد وحيثما كانت رسل العملات قائمة مقام الرعية ومتكلمة على لسانها كانت الرعية كأنها حاكمة نفسها ، وعلى كل حال فهي مانعة للظلم عن نفسها وهي آمنة منه بالكلية ولا يخفى عليك حكمة باقي المواد .

نورة سنة ١٨٣٠ في ذكر التغييرات التي حصلت وما ترتب عليها منه الفتن :

قد سبق لنا من القوانين السالفة في الكلام على حقوق الفرنسية في المادة الثامنة ، انه لا يمنع انسان في فرنسا من ان يظهر رأيه ويطبعه ، بشرط ان لا يضر ما في القوانين ، فان اضر به ازيل . فما كانت سنة ١٨٣٠ ، واذا بالملك قد اظهر عدة اوامر منها النهي عن ان يظهر الانسان رأيه وان يكتبه او يطبعه بشروط معينة خصوصاً الكازيطات اليومية ، فانه لا بد في طبعها من ان يطالع عليها احد من طرف الدولة فلا يظهر منها الا ما يريد اظهاره مع ان ذلك ليس حق الملك وحده فكان لا يمكنه عمله الا بقانون ، والقانون لا يصنع الا باجتماع آراء ثلاثة : رأي الملك ورأي اهل ديواني المشورة يعني ديوان البيرية وديوان رسل العملات . فصنع وحده ما لا يتخذ الا اذا كان صنعه مع غيره . وغير ايضاً في هذه الاوامر شيئاً في مجمع اختيار رسل العملات يعني في الذين يختارون رسل العملات ليمعشوها في باريس ، وفتح ديوان العملات قبل ان يجتمع مع انه كان حقه ان لا يفتحه الا بعد اجتماعهم كما فعله في المرة السابقة . وهذا كله على خلاف القوانين . ثم ان الملك لما اظهر هذه الاوامر كأنه احس في نفسه بحصول مخالفة فاعطى المناصب العسكرية لعدة رؤساء مشهورين بانهم اعداء للحرية التي هي مقصد رعية الفرنسية . وقد ظهرت هذه الاوامر بغتة حتى ظهر ان الفرنسية كانوا غير مستعدين لها . وبمجرد حصول هذه الاوامر قال غالب العارفين بالسياسات انه يحصل في المدينة محنة عظيمة يترتب عليها ما يترتب كما قال الشاعر :

ارى بين الرماد وميض حجر ويوشك ان يكون له اضطرام

فان النار بالعيدين تذكو وان الحرب اولها الكلام

ففي مساء اليوم الذي ظهرت فيه هذه الاوامر في الكازيطات ، اخذ الناس في الحركة بقرب المحل المسمى باليروايال يعني السراية السلطانية التي سكنها عيلة اقارب الملك المسماة عيلة اريان ، التي الملك الآن منها . وهذا الوقت ظهر النعم على وجوه الناس . وكان هذا اليوم السادس والعشرين في شهر يولييه ، وفي يوم السابع والعشرين لم يظهر غالب كازيطات الحرية لعدم رضائها بالشروط . فلذلك بلغت الاوامر جميع الناس وحصلت حركة عظيمة بعدم ظهور الكازيطات التي من عاداتها انها لا تغتر عن الظهور الا لمهم عظيم . فاغلقت الورشات والمعامل والفبيقات والمدارس فظهر بعض كازيطات الحرية آمرة بعصيان الملك واخراج من طاعته ومعددة لمساويه ، وفرت على الناس من غير مقابل . وبهذه الديار بل وفي غيرها قد يبلغ الكلام حيث تقصر السهام ، خصوصاً مادة الخطابات فأنها قوية ، وخصوصاً بلاغة الانشاء فلها مدخلة عظيمة كما قيل : ان ينزل الوحي على قوم بعد الانبياء نزل على بلغاء الكتاب ، خصوصاً اذا كان ما يذكر في تلك اليوميات مقبولا عند العامة ومقصوداً عند الخاصة ، فان هذا هو عين البلاغة الصحيحة فأنها (اي البلاغة) ما فهمته العامة ورضيت به الخاصة . فلما سمع بذلك ولاية الحسبة ^(٢) حضروا في المحال العامة ومنعوا الناس من قراءة هذه الكازيطات وحاصروا مطابعها وهموا بكسر آلات الطباعة ، وكسروا بعضها ، وجلسوا من اتهموه من الطباعين وبهدلوا كثيراً ، مما اظهر شيئاً مخالفاً لترتيب الملك من الرعية . وهذا ايضا مما قوى غضب الفرنساوية فكتب ارباب هذه الكازيطات يعني رؤساء الفرنساوية الذين هم يكتبون فيها آراءهم ، ورقة انكار واشهروها وعددوا نسخها ولصقوها بجدران المدينة وامروا فيها الرعية بالحرب وعينوا محله . وكان الميعاد في درب سراية باليروايال ، فازدحم فيه كثير من الامم وفيما حوله من الحارات . فكانت العساكر السلطانية تحاول تفريق هذه الزحمت فعظم دوي الرعية وكثرت اصواتهم وظهر غضبهم في سائر الدروب والحارات فهجم العسكر على الرعية والتعم القتال بين الفريقين . فكانت الرعية تقاتل اولاً بالاحجار والعساكر

بالسيوف وآلات الحرب . فكثير القتال وعظمت المطاردة من الجانبين . ثم بحث
الرعية عن آلات الحرب وظهر صوت البارود من الجانبين في مدينة باريس ، فكأنما
لسان حال الفرنسي الذي هو اصدق من لسان مقالهم جعل يقول : ان بني عمك
فيهم رماح . فعظم القتال وكان اكثر المقتول من الرعية ، فاشتد غضبهم وعرضوا
القتلى في المحال العامة لتحريض الناس على القتال واطهار عيوب العساكر . وقامت
انفس الناس على ملكهم لاعتقادهم انه امر بالقتال . فما مرت بهذا الوقت بحجارة الا
وسمعت فيها : السلاح ! السلاح ! ادام الله الشرطة ، واهلك شدة الملك . فمن هذا
الوقت كثر سفك الدماء واخذت الرعية الاسلحة من السيوفية بشراء او غضب واغلب
العملة والصنائية ، خصوصاً الطبايعين هجموا على القرقولات وخانات العساكر واخذوا
منها السلاح والبارود وقتلوا من فيها من العساكر . وخلع الناس صورة علامة الملك
من الحوانيت والمحال العامة وعلامة ملك الفرنسي هي صورة زهر الزنبق ، كما ان
علامة ملك الاسلام صورة هلال ، وملك الموسقوية صورة عقاب وكسروا قناديل
الحارات وقلعوا بلاط المدينة وجمعوه في السكك المطروقة حتي يتعذر مشي الفرسان
عليه ، ونهبوا جيخانات البارود السلطانية . فلما اشتد الامر وعلم الملك بذلك ، وهو
خارج ، امر بجعل المدينة محاصرة حكماً وجعل قائد العسكر اميرا من اعداء الفرنسيين
مشهورا عندهم بالخيانة لمذهب الحرية . مع ان هذا خلاف الكياسة والسياسة والرياسة .
فقد دهم هذا على ان الملك ليس جليل الرأي ، فانه لو كان كذلك لظهر امارات
العفو والسماح ، فان عفو الملك ابقى للملك ، ولما ولي على عساكره الا جماعة عقلاء
احبابا له وللرعية غير مبغضين ولا اعداء . ولكن اراد هلاك رعاياه حيث نزلهم بمثالة
اعدائه ، مع ان استصلاح العدو اخزم من استهلاكه ويحسن قول بعضهم :

عليك بالحلم وبالجباء والرفق بالمذنب والاغضاء

ان لم تقل عثرة من يقال يوشك ان تصيبك الجبال

فعاد عليه ما فعله بنقيض مراده ، وبنظير ما نواه لاضداده . فلو انعم في اعطاء
الحرية لفرقة بهذه الصفة حرية ، لما وقع في مثل هذه الحيرة ونزل عن كرسيه في
هذه المحنة الاخيرة ، سيما وقد عهد الفرنسيون بصفة الحرية والقوها واعتادوا عليها وضارت

عندهم من الصفات النفسية ، وما احسن قول الشاعر :

وللناس عادات وقد افوا بها لها سنن يرونها وفروض
فمن لم يعاشرهم على العرف بينهم فذاك ثقیل عندهم وبغیض

وفي اليوم الثامن والعشرين اخذت الرعية من يد العساكر محلا يسمى دار المدينة الذي هو محل شيخ مدينة باريس . فعند ذلك ظهر الخفر الجنسي ^(٤) يعني ورديان الرعية وهم عساكر كانت سابقا تحفر الاهالي ، كما كان للملك عساكر ورديان تحفزه . وقد كان عزلهم الملك شارل العاشر . فلما وقعت الفتنة ظهوروا ليمانعوا عن الرعية فاشهروا اسلحتهم للقتال وطرّدوا سائر العساكر من محلهم وحرّقوا كثير منها . وفي هذه الاوقات ارتفعت المحاكم وصار الحاكم هو الرعية ولم يكن للدولة عمل شيء . فقد بذلت ما عندها من القوة لاختاد ذاك وتسكيتها فلم تقدر عليه فكانت جميع القواصة متحركة والطبجية معينة لاثني عشر ألفا من الورديان السلطاني وستة آلاف من عساكر الصف . فكانت جملة العساكر السلطانية ثمانية عشر ألف نفس غير الطبجية والقواصة . وكان من يحمل السلاح من الرعية اقل من هذا العدد ولكن من لا يحمل السلاح يحارب بالاحجار ويعين المتسلح . وبعد اخذ دار المدينة وسلب مدفع من العساكر الحربية ظهر انهزام سائر العساكر السلطانية بالبلدة ، ثم ذهبوا الى محل يقال له لوفر ، والى قصر التولري وهو سراية الملك ، ووقع الحرب فيما بين العساكر واهل البلد . وبينما هم في الخرابة بهذا المحل ، اذ انتشر البريق المثلث الالوان الذي هو علامة الحرية ، على الكنايس والهياكل العامة ودقت النواقيس الكبيرة لاعلام سائر الناس داخل وخارج باريس من اهل المدينة او غيرها ، بطلب حمل السلاح منهم للاستعانة على العساكر . فلما رأّت العساكر ان النصره للرعية وان ضرب السلاح على اهل بلادهم واقاربهم عليهم امتنع اغلبهم وعزل كثير من رؤسائهم نفسه من منصبه . وفي اليوم التاسع والعشرين في الصباح ملكت اهل البلدة ثلاثة ارباع المدينة ووقع ايضا في ايديهم قصر التولري واللوفر فلكوهما ونشروا عليها بريق الحرية . فلما سمع بذلك صاري عسكر المأمور بادخال اهل باريس في طاعة السلطان رجع ، فكان

هذا تمام نصرة اهل البلد . حتى ان العساكر دخلت تحت بيرق الرعية . ومن هذا الوقت نصب حكمهم وقى وديوان موقت لنظم البلاد حتى ينحط الرأي على تولية حاكم دائم . وكان رئيس هذا الحكم الموقت صاري العسكر المسمى لفيتيه وهو الذي قاتل في الفتنة الاولى للحرية ايضاً . وهذا الرجل شهير بانه يجب الحرية ويجاني عنها ويعظم مثل الملوك بسبب اتصافه بهذا الوصف وكونه على حالة واحدة ومذهب واحد في البوليتمية . وليس صاحب قريجة مستخرجاً للعلوم من حيز العدم كغالب رجال الفرنساوية ومشاهيرهم ، خصوصاً في العلوم العسكرية ، ولكن اعظم الناس مقاماً لا قريجة وفهماً ، وليس المراد القدر في معرفته بل في انتهاء الرياسة اليه . ومما يشاهد في سائر بلاد الدنيا ان التصدر ليس دائماً على قدر المعرفة وان كانت المعرفة موجبة له بالشرع والطبع . ومن الغريب ان مثل هذا الامر يقع ايضاً في البلاد الحسنة التمدن . واطن ان هذا كله مصداق الحديث الشريف الذي هو ذكاء المرء محسوب عليه من رزقه . وكما قال الشاعر :

اذا ابصرت ذا فضل فقيراً فلا تعجب لفقر في يديه
فقد قال النبي مقال صدق ذكاء المرء محسوب عليه

وما احسن قول الشاعر :

ولو ان السحاب همى بعقل لما اروى مع النخل القتادا
ولو اعطى على قدر المعالي سقى الهضبات واجتنب الوهادا

(من كتاب « تلخيص الابريز الى تلخيص باريز »)

نوفل نعمة الله نوفل الطرابلسي

١٨٨٧ - ١٨١٢

من اعلام فرنسا في القرن الثامن عشر : خمسة اشخاص حازتهم فرانساً من مشاهير الكتبة بذلوا جهدهم في ايضاح طرق الفلسفة وتشيد مبانيها وهم فونتيل الذي انسجمت مكاتيبه فيها ، وبوفون الذي كان مشتغلاً بتأليف تواريخه الطبيعية في عصر الملك لويس الخامس عشر الذي مر ذكره ويوصف بانه كان مشفع افلاطون وبلين الذي كسا علم الفلسفة رقة التعبير في كتابه الذي خلد ذكره واعرب عن رقة طبعه ودمائة اخلاقه ، ومونتسكيو الذي صرف همه في كتب السياسة وابانت تصانيفه عن غاية براعته فيها ، قال بعضهم وكفى شاهداً على ذلك ما كتبه في سبب ارتفاع والمخطاط الدولة الرومانية وهو كتاب عجيب يحتوي على تعليقات صادقة وعبارات راشقة ، وكتابه الآخر المسمى روح الشرائع الذي بين فيه الحقوق الانسانية وقسمها الى ثلاثة اقسام :

- اولها الحقوق المعتمدة بين الامم في خلطتها السياسية والمتجربة .
- وثانيها حقوق الدولة على رعاياها وبالعكس .
- وثالثها حقوق الاهالي فيما بينهم ثم قسم حال الدول الى ثلاثة اقسام ايضاً :
- الاول الدول الوراثية خلفاً عن سلف ، المطلقة التصرف بلا قيد .
- الثاني الدول الوراثية المقيدة بالقوانين .

الثالث الدول الجمهورية المقيدة بالقوانين ايضاً . (والجمهورية هي كناية عن انتخاب الامة رئيساً للدولة يتصرف في ادارتها بمقتضى القوانين مدة حياته او لمدة معلومة ثم ينتخب غيره) . وبين ما ينشأ عن هذه الاحوال الثلاثة من الخير والشر وهو معدود عند اهل اوربا قانوناً صحيحاً في الاحكام . ومن تمثيلاته البديعة تشبيه المستبد في احكامه بن يتوصل الى اجتناء الثمرة بتقطع الشجرة من اصلها . وله غير ذلك عدة تأليف تلقاها الناس بالقبول من جملتها المراسلات الفارسية وهي اشبه بميزان يشنع فيه

على عوائد الشرقيين والغربيين ايظهر مدام كل منهم ومحامده . وكان ساح في بلاد
اوروبا ليلاحظ في سياحته ما يلايم كل مملكة من الممالك ، فقال ان بلاد المانيا تليق
للسياحة وبلاد ايطاليا للاقامة وبلاد فرنسا للعسرة وطيب العيش . ثم ان رابع هؤلاء
الخمسة اشخاص الذين نحن بصدد الكلام عليهم هو دلمير صاحب التأليف المحلى بقلائد
القواعد ، الحاوي باوضح بيان ما كاد يأتي على سائر الفوائد . وخامسهم كندليك الذي
بسط اشعة التحقيق على تأليف لوك الانكليزي في علم الفلسفة . وبلي هؤلاء الخمسة جان
باتيست روسو صاحب الاشعار ذات المعاني الرائقة والمعلم ساج صاحب التأليف البارع
المعروف بجبل بلاس المحتوي على المقالة الفلسفية وهو احسن مما ألف في بابه .

ومن مشاهير هذا القرن ايضاً وولتير . قال بعض المؤلفين ان هذا الرجل هو ممن اخذ راية الكتابة باليمين وبالشمال واشتهر في فنونها شهرة بالغة ، ولو لم يحمله الخلال العقيدة على عدم احترام الشرائع والديانات لكانت شهرته اتم والنفع به اعم . وقال آخرون ان الشيء اذا تجاوز الحد رجع الى الضد ، وكما ان الجهل مضر فكذلك مقابله اذا صاحبه اساءة الغير . وذلك ان هذا العالم افضت به غزارة علمه الى القدح في الاديان وفي كثير من ملوك عصره فغوب بالطرد عن وطنه وعن كل موضع اراد النزول به . مات في سنة ١٧٧٨ وله مؤلفات عديدة ترجم منها مؤلفان الى العربية وطبعا في مصر . الاول يسمى مطالع شعوس السير في وقائع كرلوس الثاني عشر . وهذا الملك هو ملك لسوج المشهور بالحروب الشديدة بينه وبين بطرس الاكبر امبراطور روسيا والثاني يسمى الروض الازهر في تاريخ بطرس الاكبر وهو الامبراطور المشار اليه . ولكن قل من يثق بتأليف هذا الرجل غير ان لسوء الحظ نجد كثيرين من الذين تعلموا اللغات الاجنبية في بلادنا يرون بان ما من فائدة مما تعلموه الا ان يطالعوا كتبه وامثالها بلذة ويقتنوا خطواته برغبة لينالوا حق التصدر بين صفوف المتعلمين .

ومنهم جانجك روسو وهو نظير وولتير المذكور في الشهرة . وله من حسن التعبير ما لا تستقر معه الاوهام . وهذا الرجل مع وولتير المذكور قبله هما اللذان انشأ الثورة التي اتت بالمصائب الآتي ذكرها الى فرنسا وهيا اسبابها واستعجال وقوعها . - (زبدة الصحائف في سباحة المعارف ، بيروت ١٨٧٩) .

ان شاء الله تعالى

فَرَنْسِيْسُ فَتْحَ اللّٰهِ الْمَرَّاشْ

١٨٣٦ - ١٨٧٣

بحث في الحرية : بينا كان الفيلسوف مواصلا خطابه كان الملك والملكة شاخصين فيه بأعين يخامرهما الذكاء والاصغاء ، مستوعبين معانية بكل اتضاع ودعة . وغب نهاية مقالته جعلت الملكة تقول له هكذا : اننا قد عرفنا عدم امكان وجود حرية للانسان بل ولا لسائر الانواع . وان جميع الاشياء لكونها مرتبطة بخدمة بعضها البعض فهي مقيدة ايضاً بعبودية بعضها البعض . ولكن عندما تكون هذه العبودية غريبة عن الفائدة او مضرة لصالح الامور فالاجتهاد بابطالها ضرب من الازوم وقانون صوابي . وبناء على ذلك عندما نظرنا دولة الاستعباد تتداخل ما بين شعوبنا تحت طرق مختلفة حيثما لا ينجم عن هذا التداخل سوى الاضرار بهم وفساد طبائعهم السليمة ، نهضنا حالا ضدها وسطونا عليها سطوة اسكندر على داريوس وسجنائهم كما علمت .

اما حصول الشخص على لذة الحياة معتوقة من كل حاكم وصافية من كل مكدر ، فهو امر لا يمكنه البتة ولو تطبع على تتبع تلك النواميس التي ذكرتها والتي تصعب في الاجراء بقدر سهولتها في التصور حسب كل الاعمال الفلسفية ، لان التطبع لا ينقلب طبعاً ، وما كان هكذا فهو غير لذيذ عند الطبيعة وبعيد عن السهولة . واذا امكن الانسان السلوك كما اشترت فلا يكون ذلك الا لمن وسمته العناية بسمة الانفراد ، وهذا شاذ وليس حكم الشاذ الا الحفظ وعدم القياس عليه .

وعلى كل حال ان الانسان اذا كان متعبداً لاحكام دولة التمدن والصالح يكون داخلاً في حقيقة الحرية التي تطلبها الواجبات الانسانية . على انه اذا كان ذلك التبعيد لازماً فتلك الحرية ملازمة ، لان اعتناق الانسان واجباته لا يدعى عبودية ، ولكن اذا كان الشخص معتوقاً من رق تلك الدولة فهو يكون بالضرورة داخلاً في عبودية ضدها تبعاً لمقتضى الحال .

والكون الدخول في احكام دولة الحشونة والبربرية يفسد احوال البشر وينثر عظام

جميعيتهم نازعا عنهم كل الصفات الحميدة والسلوك السليم ، وذلك هو الامر الذي لا يوجد
اضر منه لمملكة التمدن والصلاح ، وجب علينا دفعا لوقوع البلبال والوبال فيما بين رعايانا
ان نشور على تلك الدولة الآبقة التي اذا لم نمنح آثارها لم تقم حرية الانسان المطلوبة
اصلا ، وهي الحرية التي لا يمكنك انكارها مهما رددت الهواجس والاوهام الفلسفية التي
لا وجود لها الا في العقل الذي قد يخطر فيه ما لا حقيقة له في الظاهر .

فاردف الفيلسوف كلامه قائلا : انا لم امنع امكان الحرية الادبية بل الطبيعية .
ولا شك اننا اذا اطلقنا انظارنا الى عالم الآداب وتبصرنا بشرائع الحكمة نعاين اقواما
احرارا وآخرين عبيداً حسباً تقتضي احوالهم وكييفياتهم . وعلى كل حال ان الاجتهاد
في عتق العبيد وهدم مباني العبودية هو امر ضروري وواجب .

فطرح الملك انظاره على الفيلسوف وقال :

— اذن مشروعا في محاربة مملكة العبودية واستنقاذ شعوبنا من قيودها لا يستحق

الملام .

— كلا . بل هو حسن وواجب يا ايها الملك المعظم ، لان الاستعباد . مكروه عقلا
وطبعاً ، وقد نهض العالم بأسره ضد هذه العادة المستهجنة وما سواها فحاربوا من ظلم
واعتدى واعدوا له سلاسل واغلالا .

هاته الصالح العام : ان اهم دواعي السياسة واعظم بواعثها هو النظر الدائم
الى الصالح العام وتواصل السهر عليه ، بحيث .هما اتقنت السياسة نظامها واحكمته ولم
تلتفت الى هذا الصالح او تغافلت عنه فلا تعتبر الا كمساعد على نثر عقد الهيئة
الاجتماعية الذي لا يمكن دوامه منظوما ما لم تكن الملاحظة السياسية عاصمة له ، اذ
ان اهيل ما يسبب العار هو تسبب لوقوع الخراب ، وهذه الملاحظة تنحصر جميعها في
توقيع ما يؤول نفعه الى العامة اجمالا وافرادا ودفع ما يفضي الى الضرر .

وذلك يستريح على خمسة اركان ، وهي تمهيد سبل العلوم وتسهيل طرائق
التجارة وتقوية وسائل الصنائع والاشغال ومساعدة الزراعة والفلاحة وقطع اسباب
التعدي .

اما الركن الاول الذي ينباط بتمهيد سبل العلوم ، فهو يتضمن المساعدة على تشييد المدارس وتسهيل الدخول فيها لاجل كل من يرغب ، وترقية الناجحين بالدراسة على قدر الاستحقاق .

واما الركن الثاني الذي يلاحظ تسهيل طرائق التجارة ، فهو يتوقف اولاً : على تقريب ابعاد الاسفار بواسطة اصلاح الطرقات . ثانياً : على ازالة مخاوف ومعثر الطريق وايقاع الامان والسهولة . ثالثاً : على وضع حدود ونظامات تجري على كل ارباب هذه الحرفة بحيث لا يمكن احداً تجاوزها . رابعاً ، وهو الاخير : على منع كل الصعوبات التي يمكنها صدم تقدم التجارة وابطال كل عائق لسيرها .

والركن الثالث الذي يخلص تقوية وسائط الصنائع والاشغال فهو يتأسس اولاً : على اثارة همم ذوي الاختراعات بتعظيم جوائزهم ورفع شأنهم وتشجيع ما به يمكنهم اقتطاف ثمرات اغابهم . ثانياً : على توسيع دوائر الادوات الصناعية وتضييق مساحة التلف والمصاريف . ثالثاً : على رفع كل ما يوقف الخطوات عن الهجوم الى معاناة الاشغال . اخيراً على المساعدة في تكثير المعامل وتسهيل مجراها .

واما الركن الرابع الذي يتعلق بمساعدة الزراعة والفلاحة فهو يقوم برفع الجور عن الفلاح وفتح الطريق للزراع ، وتعجيل خطوات الحصاد ومنع حشر العشار واحتشاد الخزان ، وبملاحة كل موانع البذار وتسديد جميع مطالب الارض .

واما الركن الخامس الذي يشمل رفع اسباب التعدي ، فهو يستوي على ثلاث قضايا فقط وهي حماية المتاع وصيانة الاعمار ووقاية الارواح .

عنه الاستواء : ان اعظم المقومات لصحة السياسة واقامة الحق هو مجرى شرائعها متساوية على كل ابنائها بدون ادنى امتياز بين الاشخاص او تفريق بين الاحوال . فلا يجب الاخذ بيد الكبير ودفع الصغير . ولا الالتفات الى الغني والاعراض عن الفقير . ولا مؤازرة القوي ومواراة الضعيف . بل يجب معاملة الجميع على حد سواء كيلا يقع خلل في نظام الحق لان كل فئة من الناس لها منزلة في طريق السياسة تستدعي النظر اليها . فكما ان العظماء والاغنياء هم القوة الواصلة

كذلك الصغار والفقراء هم الآلة الموصلة . فلولا يد الصغير لم يطل ساعد الكبير . ولولا تعب ذوي الفاقة لم تسهل متاجر ارباب الغنى ولم تحرس امواهم ولم تقم قصورهم العالية وسرادقهم المشيدة . لعل ذلك الغنى عندما يأتي من محل ملاهيه ومراسجه الى مسكنه الواسع ، ويضجع على فراشه المصنوع من ريش النعام وينظر الى رقوش حجرته ونقوشها لا يفكر في ذاك المسكين ، الذي بعد ان يكدح ويكدح طول النهار مقاسياً حر صيفه ومتكبداً برد شتائه لاجل تشييد ذاك المسكن وتنميق تلك الحجرة ، يذهب الى كوخه الحقير ويأكل خبزته اليابسة مع اولاده العراة الجائعين ثم يضجع على طراحته المتخرقة تحت لحاف الاعياء والوصب . فهل كل هذا التباين لا يكفيه حتى يرغب ايقاعه ايضاً في موقف الحق الذي يستوي عنده الجميع ؟ وهل يسوغ لارباب السياسة ان يقبلوا وقوع هذا التباين ويحجفوا بذلك المسكين الذي بدونه لا تصل قوتهم الى مواقعها فلا يخافون من وثوب التسعة والتسعين وفرط عقد الجمعية ؟ ولماذا يوجد حق لاصوات الاغنياء فتن في قاعات السياسة ، ولا يوجد هذا الحق لاصوات بقية الشعب الذين هم الجانب الاكبر والاثم والذين بواسطتهم تقوم سطوة الممالك وقوات الملوك وعليهم يتوقف مدار السياسات ؟ فلا شك ان لسان السياسة نفسه ينادي بوجود حالة الاستواء ويصرخ ضد الضد .

تقيف العقل : انه اذا فحص الجوهر الانساني من حيث فطرته الاولى واصله الطبيعي انما يشاهد لامعاً بكل الصفات الساذجة واخصال البسيطة حسياً يتبين ذلك من كل انسان يتربى منفرداً عن ازدحامات عالم المخالطة . ولما كان عظم لطافة هذا الجوهر وشدة احتياجه الى وقاية نفسه سبباً فعالاً لقبوله التأثير بكل صورة تلوح له ، والتخلق بكل سمة يحافظ بها على ذاته ، كان انضمامه في سلك الجمعية اذ ذاك موجباً لانطباع صور الحوادث الاجتماعية والوقائع الادبية على ستائر قلبه وتطبعه باخلاق وطباع بها يمكنه ان يعارك ويزاحم امواج العالم البشري ويعيش تحت لواء حوادثه .

غير ان كثرة تقالبات الاحوال والاجيال تأدت به الى ان يفقد كل اطوار تلك الفطرة الاولى ويصير من أشر المخلوقات وأوحشها . ومن ثم لم يعد الانسان قادراً على

الدخول في دائرة التمدن الذي يطلب سذاجة الصفات وسلامة الطباع الا اذا كان متزناً بنقيض العقل الذي يعتبر كآلة عظيمة بها يمكن لكل من البشر ان يسترجع الى طبيعته ما افقدها التوحش .

ولا يتم هذا التشقيف الا بالترويض في العلوم والفنون ودراسة المعارف الطبيعية والادبية . ومن المعلوم ان العلم يخلق في الانسان قلباً نقياً وروحاً مستقيمة ويجعله ظافراً بكل الصفات الصافية ونافراً عن كل ما يشين الجوهر الانساني ، ولا يترك له سبيلاً الى التفكير في الامور الدنية والاميال المنحرفة ، وهو الامر الذي تستحق منه كل افعال الشر وعليه تبني كل دعائم التوحش . فكيف يفكر الانسان مثلاً في دناءة السلوك عندما يكون الفلك طائراً به الى اعالي الاجرام السماوية حيثما يرى الوف الوف وربوات ربوات من النجوم التي هي شمس هائلة الحجم وكل منها جالس على عرش الفضاء ثابت في مركزه وتدور حوله كواكب سيارة مختلفة الابعاد والاشكال ، وجميع ذلك له من السمو والعظمة ما يخبر بعظم اعمال الله . وكيف يأخذ بذهنه الهتك بالقرب بينما تكون الطبيعة هاتكة له اسرارها ، ومبهدة لديه غوامضها . فاذا نظر الى الارض يراها تدعوه الى تمييز تراكيب طبقاتها وتعدد مفردات عناصرها ومعرفة نسبة كل من موادها الى غيره . واذا تأمل في الحيوان يراه باسما انواعه لدى حكمه وطالبا منه فصل كل عن الآخر . واذا لحظ النباتات يراها كأنها تدعوه الى معاينة عجائب نموها وماهية جوهرها وكيفية تنذيتها وعملية انتاجها وتأثير خاصياتها وكأنها تكلفه احصاء كل من انواعها وتحديدده تكليفاً فوق وسعه .

وكيف يرتضي بعمل المنكرات حينما تكون الكيمياء مقدمة له مشكلاتها وطارحة عليه مسائل غوامضها ، فما ينتهي من معرفة صفات عنصر منها وادراك نسبة اتحاده بغيره وكيفية قوامه الا ويبرز لديه عنصر آخر ويدعوه الى تفنيده ، فيذهب خابطاً في عباب المشكلات حيثما يقابله مواد الحوامض بايقاده وانارتته ويطارحه مولد الماء برساقته ولهيته ويناقشه حامل الانوار بلمانه واضاءته ويدهشه الذهب بنباتته وثقله وتذهله الفضة بوضائها ونقاوتها ويلطمحه الحديد بكثافته وصداه ويجيره الزئبق بفراره ونفاره .

وكيف يسمح لامباله ان تسرح في عالم الشرور والمعاصي حينما تكون الجغرافية سارحة به على ظهر هذه الكرة الارضية المملوءة من عجائب الخليفة وغرائب الحوادث ، فتارة تطير به الى قمم الجبال العالية فيرى ما بها من الاودية العميقة والسلاسل المستطيلة والينابيع الجارية فيفكر فيما سبب المرتفعات وما احدث المنخفضات وما جمع المياه . وحياناً تمر به على السهول الواسعة والبحار الشاسعة والانهار المتدفقة ، فيقف متفكراً فيما جمد اليابسة وجمع السوائل الى مكان واحد . واوناتاً تسبح به في الاقاليم والاقطار فيسترقفه اختلاف العرض والطول في ميدان التأمل لتباين المناخات والاهوية . وطوراً تترحل به الى بلاد لا عدد لها واماكن لا تحصى وجميعها تختلف باختلاف المواقع والوقائع فيقف متحيراً بما تحويه الارض من الامم والقبائل المختلفة بالمذاهب والمشارب والهيئات ، ومندهشاً لما يراه من احوال البلدان والسياسات والشرائع ، وممعناً فيما يعاينه من الصنائع المتنوعة الاشكال والتجارات المتشكلة الاحوال ، وهكذا يطوف به هذا العلم الى اقاصي العالم بدون ان يترك له سبيلاً للجولان في عالم المآثم وهو جالس على وسادته غير مباح صديقاً ولا مفارق حبيباً .

وكيف لا يبدل الاعمال الرديئة بالصالحة عندما يكشف له التاريخ حجب الاجيال الغابرة ويطلعه على كثيرين من البشر الذين كانت اعمالهم سبباً لآحوالهم ان رديئة فريئة او صالحة فصالحة ؟ ويظهر له كثير من الناس الذين بواسطة سمو افعالهم قد بلغوا اسمى المراتب واعلى المنازل . وكم وكم من الناس الذين بواسطة دناءة افعالهم قد هبطوا الى الخضيض ، لا بل يظهر له ان كثيراً من الممالك العظيمة القوة والراسخة الاركان قد افضت بها قبائح السلوك الى الاضمحلال والملاشاة ، وكثيراً من الولايات الصغيرة قد آلت بها قوة الاطوار الحميدة الى الاتساع والامتداد ورفعتها الى سما. المجد والكرامة . وخاصة يظهر له ان افعال الخشونة والتوحش ليس كانت تبديد الممالك وتستأصل الملوك فقط ، بل كانت ايضاً تشقت العباد وتهدم البلاد مهما كانت حصينة وغنية . أفلا يشعر بحركة غامضة في اعماق قلبه تدعوه الى احتقار العظمت الانسانية والفخفخات الكاذبة الحالية وتجذبه الى الاتصاف بالصفات السليمة والتخلق بالاخلاق

الحميذة وذلك حينما تمتطي تأملاته السرية خيول التاريخ وتجري في برية سوريا ، مثلاً حينما يشاهد ان عظمة ذلك الاقليم القديم العهد والكريم التربة والاصل ، قد استحات بفعل الاجيال الخشنة الى دمار مهول حيث لا يرى سوى خرابات تلقي الكتابة على الابصار وعدد قليل من الشعوب المفتقرة ، بدل تلك العظمت السابقة والمجد الزاهر والغنى الوافر . أفلا يطرق تأسفاً اذ يرى صور مدينة الفينيقيين التي كانت مركز تجارة العالم ومحط رحال الآمال وقد صارت نسبياً منسياً ولم يبق فيها سوى شبك الصيادين ؟ أفلا يرتعد لدى سطوة الحدثان حينما يرى اورشليم مدينة داود ومحل عظمة سليمان قد اصبحت قرية لا يذكر منها سوى المحلات التي لم تحفظها سوى يد القداسة ؟ أفلا يضطرب مخافة من بوائق الزمان عندما يرى انطاكيه مدينة الله العظمى ذات الاسوار العالية والحصون المنيعه قد اضحت رمة مضجعة في قبر الوبال ؟ أفلا يرتجف لدى هيبة الايام اذ يرى مدينة تدمر التي هي مبنية بالصقّاح والحد قد صارت اطلالاً دارسة ورسوماً بالية حتى لا يشاهد فيها سوى عواميد هابطة وعضايد ساقطة وهياكل مهدومة ؟ أفلا يهجم كرباً اذ يعاين ان منبج ذات الصيت الرنان قد غدت كالسمك الذي لا صوت له ؟ أفلا يقف متحيراً عندما يصعد على رأس سمعان ويرى ان جميع ما كان يحويه من المدن العظيمة والقرى الخصبه والمزارع الناضرة والاديرة العامرة والكنائس الرحبة ، قد صار خراباً تماماً ودماراً لا مزيد عليه بحيث لم يبق سوى بعض رسوم واشكال ؟ وبعد هذا أفلا تسحقه صواعق الاشتزاز عندما يتأكد ان جميع هذا الخراب هو نتيجة الجهل والتوحش ؟ فبالاجمال نقول : ان العلم هو الفاعل الاعظم لتثقيف العقل ، والمروض الاكبر لجحاح الطباع والسبب الاهم لتشديد التمدن والعلم ، اذ هو يرفع افكار الانسان الى الحقائق السامية فلا تعود دائرة على مستحققات الاشياء ويرسم في مرآة ذهنه صور الكائنات الدقيقة فلا يعود هاذياً بخزعبلات الامور فتنتظفي من قلبه توقدات الحسد بنظره الى زوال المحسودات ، ويطرد من صدره ضواغط الطمع بادراكه حقيقة المطموعات ، وتتلاشى من روحه بقية الاطوار الممتنة الرجسة الخراب كالتساوة التي غوت مراكب مصر ، والاتطاخ الذي هدم قصور آثور ، والتغفل الذي كسف شمس فارس ، والطمع الذي كسر صولجان

مكدونية ، والضيعة التي مزقت احشاء فلسطين ، والكبرياء التي ثلث عرش الروم ، واخيانة التي قلبت ممالك الرومانيين ، والبغض الذي شتت شمل لبنان وزعزع اركان دمشق . ثم تنمو به الصفات الداعية الى جلاله العمار كالشجاعة والنباهة والحبة والاتضاع والدعة والاجسان والوفاء والامنية ، اذ يعود خبيراً بغوائل تلك الاطوار الطالحة ، وعليها بنتائج هذه الصفات الصالحة .

فبدون تثقيف العقل اذن لا يعدّ الانسان الا مع البهائم التي لا عقل لها ، ولا يمكن ان يدعى متمدنا قط .

اطفروا الاموال من عنابرها : لا يوجد ما يستحق نهوض العالم ضده نظير البخل ، لانه يجتهد على الدوام ان يحشد ارزاق البشر ويحشر قوت العباد احتشاداً وحشراً يوجبان خلل النظام العام واستعباد الانام .

وهاك قائد البخل منتصباً لدينا تجاه الكرم وهو قابض بيديه على ساعد دولاب المعاملات ومساعد قيام الحياة ، فلنوجه خطابنا اليه قائلين :

ها قد نهضت المسكونة عليك يا ايها الروح الحبيث قائد البخل والشح ، وها جميع الناس يقذفونك باللعنات والمسبات ، فانت مستوجب ان يحكم عليك بالخذل والردل بدون تردد لانك تود ان ينفلق كل باب لتقدم الخلائق وتنفتح كل سبل التثقف . فتخزن الاموال ولا تدع لها منفذاً . اما تعلم ان العطاء ينهج طرق الخير ويسند اخاك الجائع ؟ وتكتر الدنانير والدرهم في اعماق الصناديق حذراً من ان يلامسها الهواء ويمسها الضياء . اما تدري ان الدرهم قد صارت الآن محوراً لمدار عالم المعاطاة ، وان حيزها يضيق دائرة العلاقات البشرية ويعيق تبادل المعاملات ؟ وتطرد كل سائل ومحتاج ولو على فلس ، وتميل عن كل عمل كريم او سمة تقتضي بذل الورق . اما تعرف ان العضد الاعظم لترتيب حياتك يؤخذ من مثل السائلين والمحتاجين ؟ فهم يبنون دارك وحانوتك . وهم ينسجون ثوبك ورداك . وهم يجهزون كل ادوات طعامك وشرباك . وهم يتسارعون اليك من كل الجهات ليحرسوك من وثبات المختلس ومخبات العدو . وهم يدون ايديهم ليرفعوك لثلاث تعثر رجلك بحجر . واذا انتشبت

حريقة في منزلك القوا ارواحهم لينقذك واولادك ويحموا امتعتك . فلماذا تدوس في اعناقهم اذا انطرحوا تحت قدميك يطلبون اسعافاً ؟ ولماذا تعرض عنهم وتشتهم اذا مدوا ايديهم اليك ليطلبوا سداد رمتهم ، حتى اذا امكن للالاح ان يقتلع من فولاذ يدك بارة واحدة استشعرت بالم اقتلاع الضرس . ولماذا تعصي الامر باشباع الجائع وستر العريان ؟ اما تخشى وقوعك في ثورتى الدنيا والآخرة ؟ ولم تهجس على مضجك في امر التوفير وتتصل به الى حسابات وكميات تفوق طور الادراك مرتقياً في سلسلة التضعيف والضرب حيث تقول في ضميرك : انني من الغد سأشرع في تنقيص كمية اللحم والبقول والزيت وفي اجهاد الاولاد في تنعيم الاعمال الخدمية استثناء بهم عن الخدم ، ولم ازل انتص مقدار الطعام واعود الاولاد على الخدمة حتى نصير اخيراً قابلي ان نعيش على التزر من الخبز والقليل من الجبن والزعر وقادرين على قضاء كل الاعمال الشاقة . وبهذا العمل يكتفي ان اجمع كل مال العالم ، لان درهماً ودرهماً درهماً . ودرهماً ودرهماً اربعة دراهم . واربعة دراهم في اربعة دراهم ستة عشر درهماً . و $16 \times 16 = 256$. و $256 \times 256 = 65536$. وهكذا ترتقي من المضروب الى المضروب فيه الى ان تباع الحاصل الاعلى حيث لا يوجد رقم ولا يجري قلم . وحينئذ تأخذ نفساً وتقول : ها انا مزعج ان املك العالم بأسره واوقف كل دواليب الاشغال واجعل الناس عبيداً لي . ثم ستفعل هكذا يا هذا البخيل ولكن بعد الوفاء من السنين اذا لم تمت بقاء التكميل . فليعش رأسك الكريم ولا ينجح مقصدك العظيم . ولا عتب عليك اذا فكرت في نفسك هكذا لانك ترافق القمر في مشروعه ، فكما ان هذا الجرم يحال انه سيوقف دوران الارض بعد عدد من الوفاء من السنين لا يحصى ، وذلك بتأخير جاذبيته حركتها ست ثوان في كل جيل ، هكذا تحال انت ايضاً انك ستوقف حركة الاشغال بجذبك كل الاموال من ايدي الناس ، وتعود منفرداً بالسطوة والغنى بعد العمر الطويل .

فلا عتب على العالم اذا اثار عليك الفتن يا قائد البخل ، وارتفعت اصواته ضدك ، وتبادرت قواته الى الفتك بك ، لانك انت العدو المبين له ولكل صواحه ، وانت المصير على هتك ستار هيئته واستعباد قلوب ابنائه بجشرك اهم ادوات مداره ، ومع كل

هذا فلا بأس من ترك ظفر لك في جسد التمدن لتكون مانعاً لهجوم التبذير الكثير
النصر ، ولكن يجب ان تكون ملحقاً بأوامر الكرم لكي تحصل الرتبة المطلوبة
ما بين التبذير والبخل . - (عن كتاب « غابة الحق ») .



جمال الدين الافغانى

١٨٣٩ - ١٨٩٧

جمال الدين الافغانى وتوفى بأشاً غريب مصر : قال الحديوي توفيق باشا
لجمال الدين ما معناه : « اني احب كل خير للمصريين ، ويسرني ان ارى بلادي
وابناءها في اعلى درجات الرقي والفلاح ، ولكن مع الاسف ان اكثر الشعب خامل
جاهل ، لا يصلح ان يلقي عليه ما تلقونه من الدروس والاقوال المهيجة ، فيلقون
انفسهم والبلاد في تهلكة » .

قال جمال الدين مجابوا : « ليسمح لي سمو امير البلاد ان اقول بحجوة واخلص
ان الشعب المصري كسائر الشعوب لا يتجاوز من وجود الخامل والجاهل بين افراده ،
ولكنه غير محروم من وجود العالم والعامل ، فبالنظر الذي تنظرون به الى الشعب
المصري وافراده ، ينظرون به لسمومكم . وان قبلتم نصيح هذا المخلص واسرعت في
اشراك الامة في حكم البلاد على طريق الشورى ، فتأمرون باجراء انتخاب نواب عن
الامة تسن القوانين وتنفذ باسمكم وبارادتكم ، يكون ذلك اثبت لعرشكم وادوم
لسلطانكم . » هذا اهم ما جرى في هذه المقابلة التي كان فيها سمو الحديوي غير راض
واسرّ في نفسه البطش بجمال الدين ولكن لم يظهر له شيئاً من ذلك .

جمال الدين وفكرة مجلس نيابي تسلكه الحكومة : « ان القوة النيابية لاي
امة كانت لا يمكن ان تحوز المعنى الحقيقي الا اذا كانت من نفس الامة ، واي

مجلس نيابي يأمر بتشكيله ملك او امير او قوة اجنبية محرقة لها ، فاعلموا ان حياة تلك القوة ، النيابية الموهومة ، موقوفة على ارادة من احدثها .

« فغزة الملك ينغصها نهضة الشعب المملوك ، خصوصا اذا هو صادم ارادة مالكه او اميره ، والتاريخ لم ينقل لنا ان ملكا او اميرا او دخيلا بقوته على شعب ، يرضى عن طيب خاطر ان يبقى مالكا اسما ، وامته هي المالكه فعلا ، لادارة شؤونها وزمام امورها على مطلق المعنى . واعظم اماني الشعوب المملوكة التخلص من ربقة الاجنبي وتحكمه .

« سترون عما قريب اذا تشكل المجلس النيابي المصري (أنه) سيكون ولا شك بهيكله الظاهري مشابها للمجالس النيابية الاوروبية ، بمعنى ان اقل ما سيوجد فيه من الاحزاب حزب للشمال وحزب لليمين ، ولسوف ترون اذا تشكل مجلسكم ان حزب الشمال لا اثر له في ذلك المجلس لان اقل مبادئه ان يكون معارضا للحكومة ، وحزب اليمين ان يكون من اعوانها .

« تستغربون قولي هذا اليوم ، لان ما نبحث فيه هو امر تصوري لم يخرج لحيز العمل بعد ، ولكن متى رأيتم المجلس النيابي الموهوم تشكل ، ورأيتم كل عضو يفر من ان يكون في حزب الشمال (الناهض والمعارض للحكومة) فراره من الاسد الى حزب اليمين ، اذ ذاك تقولون صدق جمال الدين .

« نعم ، اكون صدقت ، ولكن ليس لي في هذه الفراسة ، وفي صدق التصور التصديقي ادنى فضيلة ، اذا رجعت وعلمت ان المقدمات الصحيحة هي التي تنتج النتائج الصادقة .

« ففقدت مجلس نيابي قوته المحدثه له خارجة عن محيط الامة ، والمحدث له قوة خارجة عن الامة ومجلسها ، يعارضها منافع متضادة ، وهدفان مختلفان ، فمثل هذا المجلس لا قيمة له ، وكما انه لا يعيش طويلا كذلك لا يغني عن الامة فتिला .

« سترون ان الذي سيكون نائباً عن شعب لا اعداد مصائبه ، ولا انواع رزاياه ، لفقدان حريته بكل معناها ، هو الذي كان آلة صماء بيد تلك القوة التي عملت على وصول وطنه ومواطنيه ، الى ما وصلوا اليه .

« تعرفونه اذا شئتم ان تتفكروا قليلا ، وان شئتم وصفه فانا اقول لكم :
نائبكم سيكون على مقتضى ما مر من مهيئات مصركم في زمانكم هو ذلك الوجه
الذي امتص مال الفلاح بكل مساعيه ، ذلك الجبان البعيد عن مناهضة الحكام الذين
هم اسقط منه همه ، ذلك الرجل الذي لا يعرف لايراد الحجة تجاه الحاكم الظالم
معنى ولو كانت من الحجج الساطعة ، ذاك الرجل الذي يرى في ارادة القوة الجائرة
كل « خير وحكمة » ، ويرى في كل دفاع عن وطنه ، ومناقشة للحساب ، « قلة
ادب » ، و « سوء تدبير » !! و « عدم حنكة » !! و « تهور » !! وبالتالي يرى
ان كل صفات العزة النفسية والمقومات الاهلية القومية ، مآلها الويل والشبور .

« وكل ما يدعو الى الذل ، واحتقار القومية وسحق ما تنمو به حرية الامة ،
هو من مجالي حكمته العصرية !!

« هذا مع الاسف الذي اراه سياتكون منه مجلسكم النيابي الموهوم - اذا صحت
الاحلام - والذي سيخالف قاعدة كلية ، لقواعد فلسفية أقرت على ان الوجود خير من
العدم ، فعدم مثل هذا المجلس خير من وجوده . »

جمال الدين وقبصر روسيا : سأل القيصر جمال الدين عن سبب اختلافه
مع الشاه ، فذكر له رأيه في الحكومة الشورية ، وضرورة اتباعها ، وان الشاه ينفر
من ذلك ، ولا يجب ان يقر به .

قال القيصر : « اني أرى الحق في جانب الشاه ، اذ كيف يرضى ملك من
الملوك ان يحكم به فلاحو مملكته ؟ »

فاجاب جمال الدين بجرأة وفصاحة : اعتقد يا جلالة القيصر ان عرش الملك ، اذا
كانت الملايين من الرعية اصدقاء له ، خير من ان تكون اعداء يتربصون الفرص ،
ويكمنون في الصدور بسوم الحقد ونيوان الانتقام . فعلت عند ذلك وجه القيصر
علامة غضب ، فقطب حاجبيه ولم يطل الحديث بعد ذلك مع جمال الدين ، بل قام
من مجلسه ، وودع جمال الدين بغير الشكل الذي استقبله به ، اذ كان وداعاً بارداً .
ثم اوعز القيصر الى اكبر رجال بلاطه ، ان يسرعوا متلطفين باخراجه من روسيا .

جمال الدين وشاه ايران : صادف وجود جمال الدين متجولاً في اوربا فتح معرض باريز سنة ١٨٨٩ م فشنخص اليها ، والتقى بالشاه في (مينخ) عاصمة (باواريا) عائداً من باريز . فاستترده ، واعتذر له عما فرط ، وعتب عليه بعدم عودته الى طهران . وأخيراً دعاه الى مرافقته . فاجاب جمال الدين الدعوة وسار مع الشاه الى بلاد فارس ، فلم يدخل الى طهران حتي عاد الناس ، وفي مقدمتهم الاعراء والعلماء ، الى الاجتماع به ، والانتفاع بعلمه ، والشاه لا يرتاب من امره . واول ما كلفه به ، ان يسن ما يراه موافقاً لروح العصر من القوانين ، (ربما كان ذلك من الشاه بتأثير سياحته في اوربا) فعمل جمال الدين بهمة المعهودة فسن القانون الاساسي للمملكة فارس ، لتكون حكومة ملكية شورية ، فما اتم قواعد الدستور الكلية ، ومواده ، واطلع عليه الشاه ناصر الدين إلا وأعظم الامر ، اذ رأى ان حكمه سيكون مقيداً ، وان اهل فارس سيكونون اوسع سلطة من الشاه يجلسهم النيابي .

فقال لجمال الدين :

— أيصح ان اكون يا حضرة السيد ، وانا ملك ملوك الفرس « شهنشاه » ، كأحد افراد الفلاحين ؟

— اعلم يا حضرة الشاه ان تاجك وعظمة سلطانتك وقوائم عرشك سيكونون بالحكم الدستوري اعظم وانفذ واثبت مما هم الآن .

« والفلاح ، والعامل ، والصانع في المملكة يا حضرة الشاه انفع من عظمتك ، ومن امرائك ، واسمح لاخلاصي ان اؤديه ، صريحاً قبل فوات وقته .

« لا شك يا عظمة الشاه انك رأيت ، وقرأت عن امة استطاعت ان تعيش بدون ان يكون على رأسها ملك ، ولكن هل رأيت ملكاً عاش بدون امة ورعية ؟ »

هذا الحديث الصريح من جمال الدين للشاه ناصر الدين جاء مصداً لما وشى به الصدر الاعظم ، وخوف الشاه منه بقوله : « ان ما يسته جمال الدين من القوانين لا يفيد البلاد شيئاً ، ولكنه يتزع سلطان الشاه منه ، ويعطيه الى السوق . » ونفر نفوراً يئناً من جمال الدين ، واعرض عنه فأحس بهذا التغيير والنفور ، فاستأذن بالذهاب الى

بلدة شاه عبد العظيم على بعد عشرين كيلومتراً من طهران ، فاذن له فساد إليها وتبعه جم غفيرة من العظماء والعلماء والوجهاء ، الذين كان يخطب فيهم ، ويستحثهم على اصلاح حكومتهم ، وما منهم الا وقد انفعل بخطب جمال الدين الحماسية ، وقبلت نفوسهم نزعة الاستقلال ، وسرت تلك الروح في البلاد طويلاً وعرضاً وذاع فيها عزم جمال الدين على اصلاح ايران . فخاف ناصر الدين الشاه عاقبة ذلك ، فانفذ الى بلدة شاه عبد العظيم خمماية فارس ، قبضوا على جمال الدين وكان مريضاً فحملوه من فراشه على برذون ، بصورة فظيعة وعليه دور من الحلى ، درجة حرارتها اربعون ، ولم يسمحوا له باستراحة دقائق حتى اوصلوه الى حدود المملكة العثمانية في ولاية البصرة .

جمال الدين والسلطان عبد الحميد : خرج جمال الدين على عادته ، من حضرة السلطان الى حجرة رئيس القراء ، فقال له بلطف : يا حضرة السيد ، ان اجلال السلطان لحضرتك لم يسبق له مثيل ، واليوم رأيناك تخاطبه بلهجة غريبة ، وانت الذي في السبحة في حضرته .

فقال جمال الدين : « سبحان الله ، ان جلالة السلطان يلعب بمقدرات الملايين من الامة على هواه ، وليس من يعترضه منهم . أفلا يكون لجمال الدين حق ان يلعب في سبخته كيف يشاء ؟ » اما رئيس القراء فترك حجراته مهرولاً خائفاً ، يتربص من هذا الكلام بهذه اللهجة ، ان يوشى به الى السلطان .

رأس بلا تاج او تاج بلا رأس : « لا يسلم ، على الغالب ، الشكل الدستوري الصحيح مع ملك ذاق لذة التفرد بالسلطان ، ويعظم عليه الامر كلما صادمه مجلس الامة بارادته ، أو غلبه على هواه .

« لذلك قلت : اذا اتاح الله رجلاً قوياً عادلاً لمصر وللشرق ، يحكمه بأهله ، ذلك الرجل اما ان يكون موجوداً أو تأتي به الامة ، فتملكه على شرط الامانة والخضوع لقانونها الاساسي وتتوجه على هذا القسم ، وتعلنه أنه يبقى التاج على رأسه ، ما بقي هو محافظاً اميناً على صون الدستور ، وانه اذا حنت بقسمه وخان دستور الامة ، اما ان يبقى رأسه بلا تاج ، او تاجه بلا رأس .

« هذا ما يحسن بالامة فعله اذا هي خشيت من امرائها وملكها عدم الاخلاص لقانونها ، او عدم قابليتهم لقبول الشكل الدستوري قلباً وقالياً . »

الاعمال بفرقة الانسان : « نعم ، ان الانسان من اكبر اسرار هذا الكون ، ولسوف يستجلي بعقله ما غمض وخفي من اسرار الطبيعة ، وسوف يصل بالعلم وباطلاق سراح العقل الى تصديق تصوراته فيرى ما كان من التصورات مستحيلاً قد صار ممكناً ، وما صورته جوده وتوقف عقله عنده بانه خيال قد اصبح حقيقة . »

شكل الحكم مسألة اساسية : « وانظروا اذ ذاك الى نهضة الشرق ، خصوصاً متى تغير شكل الحكم في امله ، فتتروا الشرق قد عاد مشرقاً بالعلماء ، زاهراً بحقائق العلوم مثبتاً ، مقررراً لكل ما هو نافع ويصلح ان يبقى اثرأ . »

الاستعمار لكل شيء له عمر ينتهي عنده : « ولما كان حياة الامم والدول ادوار وآجال ، ولحدوثها وتكررها ، وتعاليلها ثم توقفها ، وانحطاطها اسباب وعوامل ، هكذا وجب ان يكون الاستعمار خاضعاً لتلك النواميس الكونية ، بمعنى انه يصل الى حد محدود واجل معلوم . وانتضاء اجل الاستعمار انما يتم بزوال الاسباب التي مكنت امله من التسلط ، واكرهت الشعوب على الخضوع لهم . - (عن كتاب « خاطرات جمال الدين الافغاني » للمخزومي) .



الدكتور شاكر الحوري

١٨٤٧ - ١٩١١

الحرية السياسية التي نلناها هي : خلاصنا من الجاسوسية والمراقبة . فالاولى تخربلتنا وتجعلنا محتالين غشاشين قاتلين ، وتجعل حياتنا بيد مفسد ذني . يبيعنا حسب شهواته ، والثانية تجعلنا في جهل وتأخر بحيث نرى انفسنا ادنى من الحيوانات . فالمراقبة هي

التي جعلت صاحب مطبعة كاتاني أن يقول طبع في مصر ، مع انه طبعه في بيروت .
والذي علمه الكذب هي (؟) المراقبة ، فلا ظلم امر من الجاسوسية ، ولا ضعف
اذل من المراقبة التي تفتكر ان بمجرد كتاب ، او حرف في كلمة ، او كلمة في
جملة تحرب المملكة وتتغير افكار الرعايا ، فاي كتاب لحد الآن عمل هذا العمل ؟
والسبب لانتشار مبدأ هو جعل الناس مستعدة لقبوله . فالظلم السابق يجعل الانسان
يتغير بسهولة ، وينتقل الى مبدأ ضده . فهذه هي الاسباب التي تغير الافكار .
فالدستور الذي هو الكتاب السياسي المقدس للمملكة العثمانية لا يمكن حفظه ما لم
تحفظه الجندية وتحام عنه . فيلزم ، عند دخول الجندي في العسكرية ، ان يحلف يمناً
بالحفاظة عليه . وكذلك كل مستخدم . والامل من (المبعوثان) تعديله ولا يكون
اجتماعهم كبرج بابل تتبلبل فيه اللغات لكثرتها ، ويتقلدون الخطباء الاقدمين بخطاباتهم
ويخرجون عن موضوع الاصلاح الحالي ، وان يسن لكل ولاية بعض قوانين مخصوصة
حسب عوائدها ، ومناخها ، وعلمها وجهلها ، ليكون الاتحاد اعظم . . . لان مملكتنا
مكونة من ولايات فيها اعظم تمدن ، ومن اخرى متوحشة جداً ، فلا يمكن تكلم
الاثنين بلغة واحدة ، فحكممة (المبعوثان) ترتب ذلك . . .



عَبْدُ اللَّهِ نَدِيمُ

١٢٦١ هـ - ١٣١٤ هـ

فضل السورى : نحن معاشر الشرقيين في حاجة الى نقد الافكار وتنقيش
الآراء حتى فيما يصدر منا في الشؤون الاهلية ، لنبذ الضار والاخذ بالنافع . فقد
يصدر الرأي من انسان عن الاخلاص ويكون قد تلوت عليه المطالب ، فيخرج الرأي
فطيراً يضرنا الاخذ به وان كان صاحبه لم يقصد الضرر . ولا ينبغي الاعتماد على

ذوي المظاهر العلمية والادارية قبل ان نعرض افكارهم على المبادئ والحوادث ، فان الحائر لثقة الناس به كثيراً ما تدعوه العجلة للسقوط في وهدة الارتباك فيقول من غير تروء ويعمل بغير تدبير لعله بانه لا يُعارض قوله ولا يقبح عمله . وقد درست الامم الغربية هذه المقدمات وعلمت ما وراء الاقتداء بالزلاء واهل الشهرة من الانحطاط ، فاعتمدت على مجالس شوراها لتستخلص من تضارب الافكار واختلاف الاحزاب قواعد لا تنقضها الحوادث وقوانين تلائم التابع والمتبوع وتبقى بهادعائم الدولة قائمة على اساس متين . ولم تتوصل لهذا المقصد الحسن الا باعتادها على من يخوض لجميع المنايا في حفظ وطنه من طامع في امتلاكه او عادٍ على اهله ، وبهذا التمهيج نجحت اعمالهم وقويت شوكتهم ونفذت سلطتهم وتحطت سطوتهم اوطانهم الى غيرها فتحاً واستعماراً .

وقد توالى الاعوام والجرائد تنقل لنا ، معاصر الشرقيين ، اخبار اولئك الفائزين وتشرح لنا من اعمالهم التي حيرت الافكار وادهشت العقول ما ساعدهم عليه تمحيص الرأي وتوحيد الكلمة وتمحيص المتشاورين . ونحن قعود على قارعة الكسل والتهاون نكتفي بالتفرج على الامم العاملة ونفرح بما نراه من فوزها ونغضب اذا تأخر فريق منها . وقد انصرفنا عن مصالح اوطاننا وعميننا عن طريق تقدمنا وحيل بيننا وبين مجارة هؤلاء العقلاء بسور الانفة من استشارة الفقراء ومفاوضة الضعفاء ، وان كانوا قد امتلأوا علماً وكسبوا نباهة ، فاذا عولنا على التشاور يوماً جمعنا ارباب الاموال واهل الوجاهة من غير تحير العقلاء منهم ولا تمييز الاغنياء من الازكياء وحشرنا هذا الشئيت في قاعة حبس لا يراهم فاضل ولا يسميهم خبير ، فيحيصون حيصة تنجلي عن نكبات تجلب في صور مضار تدفع او منافع تصنع ، وليس وراء هذا التقصير غير التدهير . ولئن قيل ان التجارب دلتنا على ان الشورى لا تنجح في الشرق ، او ان الشرقيين غير عقلاء كما يزعم محبو الاثرة والانفراد بالسلط ، قلنا : ان اتحاد الشرقي مع العربي في الخلق يرد هذه الدعوى الباطلة ، وانما ثابر الغربيون على العمل بالشورى واخذوا يصححون الاغاليط ويراجعون الخطأ ويتبادلون الجدل عن غرائم صادقة حتى تربت الملكات وتصورت المطالب امامهم بصور الواقعيات ، وما اوصلهم لهذه الغاية الا

اعتمادهم على الفضلاء والاذكياء منهم ، حتى اضطر الاغنياء والوجهاء لدراسة العلوم والفنون السياسية التي بها ترشحوا للدخول في اندية الشورى . وما زالوا يزاولون ويبحثون في الامم والدول حتى قبضوا على ازمة الملك بعصية قوية ووقفوا امام ملوكهم حصوناً تقيهم الفتن الداخلية والعوائل الخارجية . فاذا على الشرقيين لو جاروهم في هذه الطريق وهي سهلة لا حزن فيها ولا وعورة ، ولا يلزم للدخول فيها اكثر من انتخاب العقلاء والفضلاء وانسلاخ اهل الذاتيات لخرج من مضيق هذه المصيبة التي اصاب بها بعض نهاء الشرق من خدمة الاجنبي ولو بيع الوطن اليه ، وما وضعهم في هذه النقطة الذميمة الا التربية الاجنبية من جهة وتنافل الملوك عنهم من جهة اخرى . وهم (الملوك) قادرون على تربية ابناء بلادهم على حب الوطن والملة والدولة وتدريبهم على الاعمال الادارية والحربية والصناعية وترقيتهم بقدر استحقاقهم ، وسد باب الاجنبي امامهم باعطائهم الحقوق الوطنية والمملكية وتسليمهم الاعمال العالية التي ترشحوا لها واستعدوا للقيام باعبائها ، فانهم ان فعلوا ذلك ملأوا صدور الامم محبة لهم واستمالوهم اليهم ، فكانوا اسهل انقياداً اليهم من رجال الاستعباد . فان المستعبد يقاد اضطراراً ، وهذا يُخدم اختياراً ، وشتان بين الحالتين . وسنعود لهذا الموضوع ان شاء الله تعالى معتمدين على الشواهد القرآنية والاعمال النبوية . ويدين ذلك بما كان ايام الخلفاء الراشدين ليتحقق الشرقي ان السلامة والنجاح في الشورى واخذ آراء المحنكين العارفين بالامم واحوالها . - (من مقال له) .

عبد الرحمن الكواكبي

١٨٤٩ - ١٩٠٢

تعريف الاستبداد : الاستبداد لغة هو اقتصار المرء على رأي نفسه فيما ينبغي الاستشارة فيه ، وبعبارة اخرى الاستبداد ان يحكم الحاكم بامرهِ حسب هواه واميله .

يراد بالاستبداد عند اطلاقه استبداد الحكومات خاصة لانها هي اقوى العوامل التي جعلت الانسان اشقى ذوي الحياة ولو انصفت لبعثته اسعد الخلائق . واما تحكم رؤساء بعض الاديان وبعض العائلات وبعض الاصناف فيوصف بالاستبداد مجازاً او مع الاضافة لان ضرره يقتصر على البعض دون الكل .

والاستبداد في اصطلاح السياسيين هو تصرف افراد او جمع في حقوق قوم بلا خوف تبعة او احترام شريعة آلهية او قانون بشري .

وقد تطرق مزيدات على هذا المعنى فيستعملون في مقام كلمة « استبداد » كلمات استعباد واعتساف وتسلط وتحكم . في مقابلتها كلمات شرع مصون ، وحقوق محترمة ، وحس مشترك ، وحياة طيبة .

ويستعملون في مقام صفة « مستبد » كلمات حاكم بامر . وحاكم مطلق . وظالم . وجبار . يقابلها حاكم بالشورى . وحاكم مقيد بقوانين . وعادل . ووديع . وفي مقابلة حكومات مستبدة كلمات عادلة . ومسئولة . ومقيدة . ودستورية .

ويستعملون في مقام صفة « مستبد عليهم » كلمات اسرى . واذلاء . ومستضعفين . ومستبشرين . وفي مقابلتها محتسبون . واباة . واحرار . واحياء .

هذا تعريف الاستبداد بالسلوب ذكر المرادفات والمقابلات . واما تعريفه بالوصف فهو ان الاستبداد صفة للحكومة المطلقة العنان التي تتصرف في شؤون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب محققين .

ومنشأ الاستبداد اما هو من كون الحكومة غير مكلفة بتطبيق تصرفها على شريعة او على امثلة او على ارادة الامة ، وهذه حالة الحكومات المطلقة التي تخلصت من قيود القوانين ليجل رعاياها ، واما من كونها مقيدة بنوع من ذلك ولكنها تملك بنفوذها ابطال قوة القيد بما تهوى ، وهذه حالة اكثر الحكومات التي تسمى نفسها بالمقيدة . والصحيح ان الانسان لم يتوفق حتى الآن لايجاد حكومة دستورية تحكم بشورة الامة بمعنى الشورى الحقيقي .

واشكال الحكومة المستبدة كثيرة ليس هذا البحث محل تفصيلها . ويمكن هنا الاشارة الى ان صفة الاستبداد كما تشمل حكومة الحاكم الفرد المطلق الذي تولى الحكم

بالغلبة او الوراثة ، تشمل ايضاً الحاكم الفرد المقيّد الوارث ، او المنتخب متى كان غير محاسب . وكذلك تشمل حكومة الجمع ولو منتخباً لان الاشتراك في الرأي لا يدفع الاستبداد وانما قد يعدله نوعاً وقد يكون احكم واضر من استبداد الفرد . ويشمل ايضاً الحكومة الدستورية المفرقة فيها قوة التشريع عن قوة التنفيذ لان ذلك ايضاً لا يرفع الاستبداد ولا يُنفّذه ما لم يكن المنفذون مسؤولين لدى المشرعين وهؤلاء مسؤولون لدى الامة التي تعرف ان تراقب وان تتقاضى الحساب ، وهذه افضل الحكومات لو وجدت (١) .

وخلاصة ما تقدم ان الحكومة من اي نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والمحاسبة التي لا تسامح فيها كما جرى في صدر الاسلام فيما نقيم على عثمان بن عفان رضي الله عنه يوم خص بحكمه ذوي قرباه دون المسلمين ، وكما جرى في عهد هذه الجمهورية الحاضرة في فرنسا في مسائل النيشين وبنامها ودريفوس .

ومن الامور المقررة انه ما من حكومة عادلة تأمن المسؤولية والمواخذة بسبب من اسباب غفلة الامة او اغفالها لها ، الا وتسارع الى التلبس بصفة الاستبداد ، وبعد ان تتمكن فيه لا تتركه وفي خدمتها شيء من القوتين الهائلتين الموهنتين : جهالة الامة والجنود المنظمة .

الاستبداد والعلم : ما اشبه المستبد في نسبته الى رعيته بالوصي الخائن القوي على ايتام اغنياء يتصرف في اموالهم وانفسهم كما يهوى ما داموا قاصرين . فكما انه ليس من صالح الوصي ان يبلغ الايتام رشدهم ، كذلك ليس من غرض المستبد ان تتنور الرعية بالعلم .

لا يخفى على المستبد ان لا استعباد ولا اعتساف ما لم تكن الرعية حقاء تحبظ في ظلامه جهل وتيه عماء . فلو كان المستبد طيراً لكان خفاشاً يصطاد هوام العوام في ظلام الجبل . ولو كان وحشاً لكان ابن آوى يتلقف دواجن الحواضر في غشاء الليل .

(١) سبق لنا ان نبهنا الى مقابلة هذا الرأي برأي مونتسكيو في فصل السلطات واستقلال بعضها عن بعض .

العلم قبسة من نور الله وقد خلق الله النور كشافاً مبصراً ولا دماً للحرارة والقوة ، وجعل العلم مثله وضاحاً للخير فضاحاً للشر يولد في النفوس حرارة وفي الرؤوس شهامة .
المستبد لا يخشى علوم اللغة المقومة للسان اذا لم يكن وراء اللسان حكمة حماسة
تعقد الاولوية او سحر بيان يحل الجيوش . لانه يعرف ان الزمان ضنين بان تلد الامهات
كثيراً من امثال الكميت وحسان او مونتسكيو وشيلار .

وكذلك لا يخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد لاعتقاده انها لا ترفع
غباوة ولا تزيل غشاوة وانما يتلهم بها المتهوسون للعلم . فاذا نبغ فيهم البعض ونالوا
شهرة بين العوام لا يعدم وسيلة لاستخدامهم في تأييد امره بنحو سد افواههم
بلقيات من فتات مائدة الاستبداد .

ترتعد فرائض المستبد من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية وحقوق
الامم وسياسة المدنية والتاريخ المفصل وخطابة الادبية وغيرها من العلوم الممزقة للغيوم
المبتقة الشموس المحرقة الرؤوس .

ويقال بالاجمال ان المستبد لا يخاف من العلوم كلها بل من التي توسع العقول
وتعرف الانسان ما هو الانسان وما هي حقوقه وهل هو مغبون ، وكيف الطلب وكيف
النوال وكيف الحفظ . المستبد عاشق للخيانة والعلماء عواذله . المستبد سارق ومخادع
والعلماء منبهون مخدرون ، والمستبد اعمال وضوالح لا يفسدها عليه الا العلماء .

المستبد كما يبعض العلم لنتائجه يبعضه لذاته ، لان للعلم سلطاناً اقوى من كل سلطان ،
فلا بد للمستبد من ان يحترق نفسه كلما وقعت عينه على من هو ارقى منه علماً . ولذلك
لا يحب المستبد ان يرى وجهه عالم ذكي ، فاذا اضطر لمثل الطبيب والمهندس يختار
المتصاغر المتعلق . وعلى هذه القاعدة بنى ابن خلدون قوله : فاز المتملقون ، بل هذه
طبيعة في كل المتكبرين وعليها مبنى ثنائهم على كل من يكون مسكيناً خاملاً لا
يرجى خير ولا شر .

وينتج مما تقدم ان بين الاستبداد والعلم حرباً دائمة وطراداً مستمراً : يسعى العلماء
في نشر العلم ويحترق المستبد في اطفاء نوره . والطرفان يتجاذبان العوام . ومن هم
العوام ؟ هم اولئك الذين اذا جهلوا خافوا واذا خافوا استسلموا . وهم الذين متى

علموا قالوا ومتى قالوا فعلوا .

العوام هم قوت المستبد وقوته ، بهم عليهم يصلو وبهم على غيرهم يطول . يأسرهم فيتهللون لشوكته ، ويعصب اموالهم فيجمدونه على ابقاء الحياة ، ويبيئهم فيشنون على رفعتهم ، ويغري بعضهم على بعض فيفتخرون بسياسته ، واذا اسرف باموالهم يقولون عنه انه كريم ، واذا قتل ولم يثمل يعتبرونه رحياً ، ويسوقهم الى خطر الموت فيطيعونه حذر التأديب ، وان نقم عليه منهم بعض الالابة قاتلوهم كأنهم بغاة .

والحاصل ان العوام يذبحون انفسهم بايديهم بسبب اخوف الناشئ عن الجهل ، فاذا ارتفع الجهل زال اخوف وانقلب الوضع ، اي : انقلب المستبد رغم طبعه الى وكيل امين يهاب الحساب ورئيس عادل يخشى الانتقام واب حليم يتلذذ بالتحاب .

وحينئذ تنال الامة حياة رضية هنية . حياة رخاء وغماء . حياة عز وسعادة . ويكون حظ الرئيس من ذلك رأس الخطوط بعد ان كان في دور الاستبداد اشقى العباد لانه كان على الدوام محاطاً بالاعداء ملحوظاً بالبعضاء غير امين على حياته طرفة عين .

ولا شك ان خوف المستبد من نقمة رعيته اكثر من خوفهم بأسه ، لان خوفه ينشأ عن علم وخوفهم ناشئ عن جهل ، وخوفه من انتقام بحق وخوفهم عن توهيم التخاذل ، وخوفه على فقد حياته وسلطانه وخوفهم على لقيات من النبات وعلى وطن يألقون غيره في ايام .

وكلما زاد المستبد ظلاماً واعتسافاً زاد خوفه من رعيته ومن حاشيته وحتى من هواجسه وخیالاته . وكثيراً ما تختم حياة المستبدین الضعيفين القلوب منهم بالجنون .

ومن قواعد المؤرخين المدققين ان احدهم اذا اراد الموازنة بين مستبدین كثيرين وتيسر مثلاً يكتفي ان يوازن درجة ما كانا عليه من التحذر والتحفظ . واذا اراد المفاضلة بين عادلين كأنوشروان وصالح الدين يوازن مرتبتي امنهما في قومهما .

لما كانت اكثر الديانات القديمة مؤسسة على مبدئي الخير والشر كالنور والظلام والشمس وزحل والعقل والشيطان رأيت بعض الامم الغابرة ان اضر شيء على الانسان هو الجهل واضر آثار الجهل هو الخوف فعملت هيكلًا مخصصًا للخوف يعبد اتقاء شره .

قال احد المحررين السياسيين : اني ارى قصر المستقبل في كل زمان هو هيكل الخوف عينه ، فالملك الجبار هو المعبود واعوانه هم الكهنة ومكتبته هي المذبح المقدس والاقلام هي السكاكين وعبارات التعظيم هي الصاوت والناس هم الاسرى الذين يقدمون القرابين . ويقول اهل النظر في احوال البشر : ان خير ما يستدل به على صفة السياسة في الامم شأن الملوك وفخامة القصور وعظمة الحفلات ومراسم التشريف . يقولون انه كذلك يستدل على عراقة الامة في الاستبداد او الحرية باستنطاق لغتها هل هي كثيرة الفاظ التعظيم غنية في عبارات الخضوع كالفارسية مثلاً ام فقيرة في هذا الباب كالعربية .

والخلاصة ان الاستبداد والعلم ضدان متغالبان ، فكل ادارة مستبدة تسعى جهدها في اطفاء نور العلم وحصر الرعية في حالك الجهل . وكذلك بعض العلماء الذين ينبتون في مضائق صخور الاستبداد يسعون جهدهم في تنوير افكار الناس . والغالب ان رجال الاستبداد يطاردون رجال العلم وينكثون بهم ، فالسعيد منهم من يتمكن من مهاجرة دياره . وهذا سبب ان كل الانبياء العظام عليهم الصلاة والسلام واكثر العلماء الاعلام والادباء النبلاء تقلبوا في البلاد وماتوا غرباء .

قال المدققون : ان اخوف ما يخافه المستبدون الغربيون من العلم ان يعرف الناس حقيقة ان الحرية افضل من الحياة . وان يعرفوا النفس وعزها والشرف وعظمتها والحقوق وكيف تحفظ والظلم وكيف يرفع والانسانية وما هي وظائفها والرحمة وما هي لذاتها .

اما المستبدون الشرقيون وخوفهم من العلم فافئدتهم هوا تترجف من صولة العلم وكأن اجسامهم من بارود والعلم نار . نعم يخافون من العلم حتى من علم الناس معنى كلمة « لا اله الا الله » ، ولماذا كانت افضل الذكر ولماذا بني عليها الاسلام ؟ بني الاسلام بل وكافة الاديان على : لا اله الا الله ، ومعنى ذلك انه لا يعبد حقاً سواه اي سوى الصانع الاعظم ، ومعنى العبادة التذلل والخضوع . فيكون معنى لا اله الا الله : لا يستحق التذلل والخضوع شيء غير الله . فهل والحالة هذه يناسب المستبدون ان

يعلم عبيدهم ذلك ويعملوا بمقتضاه ؟ كلا ثم كلا .

حتى ان هذا العلم لا يناسب صغار المستبدين كخدمة الاديان الاقوياء او الاغنياء والاباء الجاهلاء والازواج الحمقاء ورؤساء كل الجمعيات الضعيفة . ولهذا ما انتشر نور التوحيد في امة قط الا وتكسرت فيها قيود الاسر ، ولكن قتل الانسان ما اكفره بنعم مولاه وما اظلمه لنفسه وجنسه !

الاستبداد والافساد : تفعل العدالة في اخلاق البشر ما تفعله العناية في انماء الشجر . فالاقوام كالأجام ان تركت مهلة تراحت اشجارها وسقم اكثرها وتغلب قويا على ضعيفها فأهلكه وهذا مثل القبائل المتوحشة . وان صادفت بستانياً يهيم بقاؤها وزهوها فديرها حسباً تطلبه طباعها ، قويت واينعت وحسنت ثمارها وهذا مثل الحكومة العادلة . واذا بليت بحطاب لا يعنيه الا عاجل الاكتساب افسدها وخربها وهذا مثل الحكومة المستبدة . وبقى كان البستاني او الحطاب غريباً لم يخلق من تراب تلك الديار وليس له فيها فخار ولا يلحقه منها عار انما هم الحصول على الفائدة العاجلة ولو باقتلاع الاصول فهناك الظامة وهناك البوار . فبناء على هذا المثال يكون مقام الاستبداد بازا . الاخلاق مقام ذلك الحطاب الذي لا يرجى منه غير الافساد .

لا تكون الاخلاق اخلاقاً ما لم تكن مطردة على قانون وهذا ما يسمى عند الناس بالناموس . ومن اين لاسير الاستبداد ان يكون صاحب ناموس وهو كالحيوان المملوك العنان يقاد حيث يراد ويعيش كالرئس يهب حيث تهب الريح لا نظام ولا ارادة . وما هي الارادة ؟ هي ام ناموس الاخلاق . هي ما قيل فيها تعظيماً لشأنها : لو جازت عبادة غير الله لاختار العقلاء عبادة الارادة . هي تلك الصفة التي تفصل الحيوان عن النبات في تعريفه بانه متحرك بالارادة . فاسير الاستبداد الفاقد الارادة هو مسلوب حق الحيوانية فضلاً عن الانسانية لانه يعمل بامر غيره لا بارادته . ولهذا قال الفقهاء : لا نية للرقيق في كثير من احواله انما هو تابع لنية مولاه .

اسير الاستبداد لا نظام في حياته قد يصبح غنياً فيضحى شجاعاً كريماً ويسير فقيراً فيبيت جباناً خسيساً ، وهكذا كل شؤونه تشبه الفوضى لا ترتيب فيها فهو يتبعها

بلا وجهة . فالاسير لا يبعي على الاسير فيزجر او لا يزجر ويبغى عليه فينصر او لا ينصر . ويجوع يوماً فيضوى . ويخضب يوماً فيتخضم . يريد اشياء فيمنع ويأبى شيئاً فيرغم . ومن كانت هذه حاله كيف يكون له خلاق وان وجد ابتداء فكيف لا يفسد ؟

اقل ما يؤثر الاستبداد في اخلاق الناس انه يرغم الاخيار منهم على الفة الرياء والنفاق ولبس السيئتان ، ويعين الاشرار على اجراء غي نفوسهم آمنين حتى من الانتقاد والفضيحة لان اكثر اعمالهم تبقى مستورة يلقي عليها الاستبداد رداء خوف الناس من تبعة الشهادة وعقبي ذكر الفاجر بنا فيه .

اقوى ضابط للاخلاق النهي عن المنكر بالنصيحة والتوبيخ وهو في عهد الاستبداد غير مقدور عليه لغير ذوي المنعة مع الغيرة وقليل ما هم ، وقليل ما يفعلون وقليل ما يفيد نهيمهم لانه لا يمكنهم توجيهه لغير المستضعفين الذين لا يملكون ضراً ولا نفعاً بل ولا يملكون من انفسهم شيئاً ، وينحصر موضوع نهيمهم وانتقادهم في الرذائل النفسية الشخصية فقط مما لا يخفى على احد . اما المتصدرون في عهد الاستبداد لاوعظ والارشاد فيكونون مطلقا ولا اقول غالباً من المتملقين المرائين . وما ابعد هؤلاء عن التأثير لان النصيح الذي لا اخلاص فيه هو بذر ميت . اما النهي عن المنكرات في الادارة الحرة فيمكن كل غيور ان يقوم به بامان واخلاص ويوجهه الى الضعفاء والاقوياء سواء . ويفوق سهام قوارصه على ذوي الشوكة والزعماء ويخوض في مواضع تخفيف الظلم وتسديد النظام ، وهذا هو النصيح الذي يغدي ويجدي .

ولما كان ضبط اخلاق الطبقات العليا من الناس من اهم الامور ، اطلقت الامم الحرة حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات . مستثنية القذف فقط . ورأت ان تحمل مضرة الفوضى في ذلك خير من التحديد لانه لا ضامن للحكام ان يجعلوا الشعرة من التقييد سلسلة من حديد يخنقون بها عدوتهم الطبيعية اي الحرية . وقد حمى القرآن قاعدة الاطلاق بوضعه قاعدة : ولا يضار كاتب ولا شهيد .

وهذه الامم الموفقة خصصت منها جماعات باسم مجالس نواب وظيفتها السيطرة والاحتساب على الادارة العمومية السياسية . وذلك منطبق تماماً على ما امر به القرآن

الكريم في آية : « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » ، وفي كماله هذه الآية وهي : « واولئك هم المفلحون » من التبجيل ما يحمل نفوس الابرار على تحمل ماض القيام بهذه الوظيفة الشريفة في ذاتها ، الممقوتة طبعاً عند المستبد واعوانه . - (نقلا عن كتاب « طبائع الاستبداد ») .

شَبِي السَّمِيل

١٨٥٣ - ١٩١٧

دفاع عن حرية الفلم : ان الآلات التي يخترعها الانسان (ومنها القلم) ليست سوى اعضاء اضافية متممة لاعضائه الطبيعية ، فلا يجوز ان تعامل معاملة استثنائية تحالف معاملة الاعضاء الطبيعية نفسها ، فكما انه لا يشترط على الانسان لاستعمال رجله خوفاً من ان يسعى بهما الى الشر ، او يديه خوفاً من ان يجني بهما ، لا يجوز ان يشترط عليه كذلك لاستعمال اعضائه الاضافية . فاذا جنى بها فالقانون الذي يتكفل بمعاقبة جنائات الاعضاء الطبيعية ، وهو القانون العام ، يجب ان يتكفل بمعاقبة جنائات الاعضاء الاضافية ايضا .

المستقبل لسيادة الامم : ومن يوم خطت اوربا خطاها في سبيل العلم الحقيقي ، واخذ ظل الاوهام يتقلص من العقول ، صار الامل كبيراً بسرعة هذا الارتقاء (ارتقاء نواميس الاجتماع) . ولا يزيد بهذا القول انها (اي اوربا) على وشك بلوغ الغاية القصوى فيه ، وانما هي اليوم على فجر النهضة الحقيقية . ولا ريب في انها ستكون الاولى في الاستفادة ، وسيكون شأنها شأن المنارة التي يستضيء العمران بها في العالم اجمع ، لسهولة ارتباط بعضه ببعض وسيطرة بعضه على بعض اليوم بفضل مكتشفات العلم ومخترعات الصناعة . واول خطاها في هذا السبيل ستكون تأييد سيادة الامم

سيادة حقيقية وسقوط سيادة المملوك .

نظام الحكم وعامله الاساسي في رقي الامم وانحطاطها : ان حكومات الشرق هي التي ساعدت على فساد الاخلاق الى هذا الحد . فقد تقدم ان الفرق من عهد ابقراط الى اليوم بين حكومات المغرب وحكومات المشرق ان تلك تحكمها شرائعها وهذه تحكمها ملوك . وان تعدات الاحكام في بعض ممالك الشرق اليوم فما تعديدها الا صورة لا معنى . فان ملوك الشرق ما زالوا فوق شرائعهم ، فأما ات حكوماتهم من الامة عواطف الشهامة والاقدام بما ثقلت على كواهلهم من الاذلال وسائر ما يجر اليه الاستبداد وقوت فيه كل الصفات الدنيئة الهادمة لصروح الاجتماع بما اخدت من قوى العقل باطفائها نور العلم .

الحكومة والامة : الحكومات مظهر من مظاهر الامة ، وهي تختلف باختلاف الامم . فكما ارتقت امة في العبارة ارتقت حكومتها كذلك ، وهو معنى قوله « وكما تكونون يولى عليكم » فلا ينتظر ان تكون الحكومة اصلح من الامة التي نشأت فيها بل لا تلام الحكومة اذا داست باخصها رقاب الرعية ، وهل تداس رقاب تأبى ان تداس ؟ وان من ينتظر الاصلاح عفواً من اية حكومة كانت يجهل ولا شك تاريخ نشوء الامم والعمران . وها ان التاريخ اماننا يعلمنا ان الحكومات في كل زمان ومكان هي آخر من يدعن للاصلاح اذا لم تُقم العقبات في سبيله . وهل بلغت امم اوربا مبلغها من التمدن اليوم بفضل حكوماتها ؟ لا لعمرى . انما بلغته ولا تزال مجدة فيه بفضل تألبها واتحاد كلمتها ورفع الرؤوس المطأطأة وتقويم الظهور المقوسة ، والمشي على الاقدام ، لا الزحف على الركب ، وربط حكوماتها كما تربط القرناء واتلاها كما تتل السائمة وجرها وراءها قوة واقتداراً . والامم التي لم تستطع ذلك لعدم توفر اسباب القوة فيها عقّاه الدهر واستغرقتها التنازع ولم يبق لها الا آثاراً ، او لم يبق لها اثرأ وتركها خيراً مسطوراً . - (سنة ١٨٩٨) .

أديب اسحق

١٨٨٥ - ١٨٥٦

أديب اسحق يربط الانفاضات الشرفية بثورة فرنسا :

أرى خلل الرقاد وميض نار
ويوشك ان يكون لها ضرام
بل هي شعلة اصلاح كانت في كمن الدهر في عالم الضياء والنور ، فساقتها يد
الحكمة بمعدات الحركة الى عالم الظهور ، وسرت في اوربا من جانب الغرب الاقصى ،
وكنمت في ما وراء المانش اياماً واعواماً متنتلة من صورة الى صورة ومن كيفية الى
كيفية ، حتى اعدت لها طريق البروز ، فظهر ضرامها بعد اخفاء وانبعثت منها جراثيم
الضياء ، فغيرت هيئة الارض وحالة الناس ، وطهرت ذلك الجانب من الارجاس : تلك
ثورة الفرنسيين ! برزت الى عالم الفعل عام ١٧٨٩ وصدمت قوة الاستبداد فزلزلتها
ودفعت سطوة التقليد فضعفتمها ورفعت عن العيون نقابها وعن النفوس حجابها فأنسنت
من جانبها الحرية وخلعت جلايب الرق والعبودية واجتمعت على ولائها وتأملت تحت
لوائها لتدفع عنها من رام اطفاء نورها وافساد امورها فتصدى لها اعوان الرق
وانصار العبودية ، وما آلوا في قتالها جهداً فلقيتهم وهي ترى الموت في الحرية حياة ،
والحياة في الرق موتاً ، فلم يبلغوا منها قصداً ورسخت في عالم الوجود قدمها وكثر الملا
من حولها ، وادهشت الدنيا بشدة حولها . ثم مرت عليها الشهور والاحوال وتقلبت
الامور والاحوال ورأى العدو منها غفلة فدهم ، واغتم من الزمان فرصة فهجم ، وغلب
امرء وتأيد واستقام ملكه وتوطد الى ان ساقته يد القدرة الى التهور في ما جر اليه
واليها البلاء الاليم ^(١) ، فتسنى لها ان تدفع عنها شره ورب شر ينجي . باخير العظيم ،
ثم عادت الى سابق عزها والعود احمد فانفتحت في بلادها ، نعني فرنسا ، كنوز الثروة
وتوفرت اسباب القوة والسطوة وصفت موارد السعادة والهناء ، وانتفت اسباب
المتاعب والشقاء ، وهي الآن على ما نرى من العز والمناعة والتقدم في الزراعة والتجارة

(١) يشير الى نابليون الثالث وحرب السبعين مع الالمان .

والصناعة .

ثم ذكرت تلك الشعلة وطنها القديم ، فحنت اليه ، ولا غرو ان يحن الغريب الى وطنه ، نعني الشرق ، مقرر جراثيم الحركات الدينية والسياسية التي غيرت هيئة الارض ، واحوال الانسان ، فسرت اليه تنبه غافله ، وتفقّه جاهله ، وظايرت في بلاد « اخورا مازدا » بين ابناء « زرادشت » تحت سماء التقاليد ، نزيد ببلاد الفرس . فان مذهب الباييين نسبة الى السيد علي محمد الملقب « باب المهدي » قد ظهر في تلك البلاد منذ نحو من ثلاثين سنة ، وعلق بقلوب الناس فتمذهب به جمع كثير منهم واثاروا الفتنة على الحكومة وبرزوا من الجسارة والاقدام ما لم يسمع بمثله . وبعد مقتل امامهم رمى بعضهم الشاه بالرصاص ، ولم يصب . وقد كان من اعمالهم الاخيرة ان جماعة منهم تشبهوا بالجند وقصدوا الشاه وهو سائر الى مدفن شاه زاده عبد العظيم للزيارة ، ثالث افريل (نيسان) سنة ٧٨ ، وقالوا له انا من جندك وقد طال علينا زمن الخدمة ونزوم الانصراف الى منازلنا ، فوعدهم ان ينظر في امرهم بعد الرجوع الى القصر . ثم انهم هجموا على عربته ورموه بالحجارة الكبيرة وجرحوا جماعة من رجال حرسه . وكان على مقربة من مكان الحادثة طائفة من الجند ، فطير الشاه اليهم الخبر ، فجاؤوا مسرعين وقبضوا على جماعة من اهل الفتنة وعلم الشاه انهم من الباييين . وما افضنا في الكلام على آثار تلك الحركات الفكرية التي سرت في اوربا من جانب غربها الاقصى ، الا لاننا نحسب الحركة التي ظهرت اخيراً في الاستانة ، حلقة من سلسلتها وهي الحركة التي ظهر اثرها الاول في عزل محمود نديم باشا اثر فتنة البلغار ، وخلع السلطان عبد العزيز وتنصيب السلطان مراد ^(٢) ، وقد كثر عدد الداعين اليها في الاستانة واجتهدت الدولة في خفض منارها واهمالها بابعاد زعمائها ، وتفي رؤسائها مع كثرة الشواغل وتواتر النوازل . وقد جاءنا بالتلغراف وارداً من الاستانة بتاريخ ٢١ مايو سنة ٧٨ ، ان جماعة من العامة قد هجموا على سراي جراغان ^(٣) مقر حضرة السلطان السابق ، فحاول رجال الحرس صدهم واعياهم ذلك

(٢) تعرف هذه الحركة في التاريخ العثماني بحركة الدستور الاول ، ابرز اعلامها مدحت باشا .

(٣) تعرف هذه بحركة السعاوي ، وهو تركي هاجر امدا الى اوربا فرارا من الظلم ،

فاطلقوا عليهم الرصاص ، وقتلوا منهم نفراً ، وجرحوا طائفة فاجسنا من ذلك اخبر شراً وخفنا ان يكون نتيجة ما سبق من المقدمات في عهد ساكن الجنة عبد العزيز . ثم جاءنا في غد ذلك اليوم بيان ازال ذلك الخوف وابعد الايجاس . وهو ان الذين هجموا على السراي كانوا من المهاجرين . فتددنا بين تصديق الاول والثاني ، ورجحنا جانب الثاني بدليل ما جاء بعده من ان جماعة من اولئك المهاجرين قد ساروا الى الباب العالي يطلبون الاعانة وحملنا فتنتهم على الحاجة والفاقة . ثم ما لبثنا ان جاءنا بالتعريف ما افسد الظن واعاد الايجاس من ان علي سعاوي افندي احد زعماء تركيا الجديدة كان في مقدمة الهاجين على السراي ، وان رجال الحرس قد قتلوه فايقنا ان هذه الفتنة هي من آثار تلك الحركة المتعلقة بسلسلة الحركات الفكرية التي ستغير لا محالة عاجلا او آجلا هيئة الكرة الارضية ، ونظام الجمعية الانسانية .

الاصح : الامة والجيل من كل حي ومن الرجل قومه وفي عرف اهل السياسة الجماعة المتجنسة جنساً واحداً الخاضعة لقانون واحد . وليس المراد بوحدة الجنس التوفيق بين الانساب لتعذر ذلك فيها ، ولما طرأ على انساب الناس ولا سيما الحضر من المفاسد الكثيرة ناشئة عن تحايط اقوام مختلفة انسابهم ، وتوالي الحروب والغارات ، وتوطن بعض الفاتحين فتوحهم ، وتزوجهم في اهلها ، الى غير ذلك مما جهلت به الانساب وخفيت به الاحساب الا ما حفظ بمناعة اهلهم عن ان يدانيهم فاتح غريب وهو قليل لا يقاس عليه . وانما المراد بوحدة الجنس اتفاق الجماعة على الاعتراف الى جنس واحد بتوالدون فيه ، ويتسمون به ، كالجنس الاميركاني لسكان الولايات المتحدة الاميركية سواء كانوا انكليزاً او فرنسويين او اسبانيين او اميركانيين اصلاً ، والعثماني لسكان البلاد العثمانية في اوربا وآسيا سواء كانوا تركاً او عرباً او تترأ اصلاً ، والاورستري لسكان سلطنة اوستريا سواء كانوا الماناً او صقالبة او ايطاليين اصلاً ، وهلم جرا .

وقد زعم بعض الناس ان من لوازم وحدة الامة وحدة لغتها وهو وهم لانه اما

ثم عاد الى وطئه وسألت ثورتيه مسلماً مشاعاً ، ولكنه كان من الممهدين لانقلاب سنة

ان يراد بذلك الاستدلال باللغة على الجنس اولا ، فان كان الاول فهو فاسد ، لانه قد يولد الانسان بين قوم وينبت فيهم فيتكلم بلغتهم ، وهو بعيد عنهم نسباً . ولان ما ذكرنا من تحالط الاقوام ، واغتراب الفاتحين ، قد احدث في لغات كثير من جماعات الناس فساداً ، بحيث صارت مزيجاً يعجز اربع الكيماويين عن تحليله ، كما في لغة اهل مالطة مثلاً . فامتنع بذلك الاستدلال باللغة على الجنس . وان كان الثاني فهو من قبيل ايجاب ما ليس بواجب ، ولو اقتصر اهل هذا الرأي على استحسان وحدة اللغة في الامة لأحسنوا ^(٤) .

فقد ثبت بما ذكر ان الامة هي الجماعة من الناس تتجنس جنساً واحداً ، اي تنقسم بسمة واحدة على اختلاف اصولها ولغاتها ، وتتعارف باسم تتنسب اليه وتدافع عنه .

عمر الوطن : اما الوطن فهو المسكن يقيم به الانسان ، وفي عرفهم البلاد يتوطنها سواد الامة الاعظم ، ويتوالدون فيها ، ولا يشترط فيه مساحة بدرجات معينة ، واقليم واحد بتخوم معروفة ، وانما تعريفه ما ذكر من توطد معظم الامة به . وقد يضاف الى الوطن بلاد لم تكن منه ، وهي اما ان تكون فنوحاً ضمت اليه عنوة ، واما ان تنضم اليه برضى اهلها . فان كان الاول فاما ان يكون ضمياً قديم العهد ، وتكون معاملة حكومة الوطن لها معاملتها لسائر اهلها فتثبت الملكية ، واما ان لا تكون هذا ولا ذاك ، فلا تثبت ، وان كان فلا مشاحة في صحة الانضمام .

... لا بد لذوي الحياة السياسية من وحدة يرجعون اليها ، ويجمعون عليها اجتماع دقائق الرمل حجراً صلباً ، وان الوطن انما هو خير وجوه الوحدة لامتناع الخلاف والتزاع فيه ...

الوطن في اللغة محل الانسان مطلقاً ، فهو السكن بمعنى ان تقول : استوطن القوم

(٤) سبق لنا ان ذكرنا ان اديب اسحق كان يكتب ايام الامبراطورية العثمانية ، ولذلك وقف هذا الموقف من وحدة اللغة في الامة ، والصحيح ان لامة بلا لغة واحدة .

هذه الارض وتوطنوها اي : اتخذوها سكناً . وهو عند اهل السياسة مكانك الذي تنسب اليه ويحفظ حقك فيه ويعلم حقه عليك . وتأمين فيه على نفسك وآلك ومالك . ومن اقوالهم فيه : لا وطن الا مع الحرية . وقال لابرويير الحكيم الفرنسي : لا وطن في حالة الاستبداد . وكان حد الوطن عند قدماء الرومانيين : المكان الذي فيه للمرء حقوق وواجبات سياسية .

وهذا الحد الروماني الاخير لا ينتقض قولهم : لا وطن الا مع الحرية ، بل هما سيان . فان الحرية انما هي حق القيام بالواجب المعلوم ، فان لم توجد فلا وطن لعدم الحقوق والواجبات السياسية ، وان وجدت فلا بد معها من الواجب والحق ، وهما شعار الاوطان التي تقتدى بالاموال والابدان ، وتقدم على الاهل والخلان ، ويبلغ حبها في النفوس الزكية مقام الوجد والهيمان .

اما السكّن الذي لا حق فيه للساكّن ولا هو آمن على المال والروح فغاية القول في تعريفه انه مأوى العاجز ، ومستقر من لا يجد الى غيره سبيلا .

الوطنية : وقد اختلف في سبب حب الوطن ، ف قيل ان السبب فيه الالفة ، فان الانسان اذا الف شيئاً احبه . واجيب بانه يخرج الانسان من وطنه صغيراً فينبت في آخر ، ولا ينسى مع ذلك حب وطنه . وقيل ان حب السكان يورث حب المكان ، كما قيل :

وما حب الديار يهيج وجدي ولكن حب من سكن الديارا

واجيب بانه قد ينتقل الانسان عن وطنه ، بمعظم اهله واصدقائه ، ولا ينفك مؤثراً وطنه بالحب . وعندنا ان ياء الاضافة في قولي وطني هي السبب في حيي لوطي ، كما ان ياء النسبة في قولنا فرنسوي هي السبب في حب الفرنسي لأُمته فتأمله . فله من ياءين ياء نسبة وياء اضافة تدعوان الى فضيلتين حب الامة وحب الوطن .

وللقائل انك قد جعلت مصدر حب الوطن والامة ، الانانية (حب الذات) وهي نقیصة ، فكيف صح في قياسك صدور الفضيلة عن تقيضها ؟ وجوابه ان الفضيلة هي الدرجة الرفیعة في الفضل ، والفضل ضد النقص . اما الانانية فهي نسبة لضمير المتكلم

على غير قياس ، وهي في عرفهم ايثار الانسان نفسه بما يراه خيراً سواء جنى بذلك على غيره خيراً أم شراً ، وليس في حب الوطن او الامة شيء من ذلك كما ترى .

اما وجه كونهما فضيلة ، اي : درجة رفيعة في الفضل ، فهو لانهما يقضيان على صاحبهما بخدمة الارض التي يغتذي بخيراتها ، والانسانية التي جعلته في جماعة من نوعه يعمينونه على استحصال حاجاته ، ويدفعون عنه اذى سائر الانواع . ولعلك لا ترضى بهذا تعليلاً فتقول : ان خدمة الانسانية والارض لا ينبغي ان تنحصر في جماعة من الانسان ، او في جهة من الارض ، وانما يجب ان تكون عامة فيهما . والجواب انه لما رأى الانسان من نفسه عجزاً عن القيام بجميع حاجاته الطبيعية ، ودفع اذى سائر الحيوان ، تألف جماعة تفرقت فيها تلك الحاجات ، فصار هذا زارعاً ، وهذا حاصداً ، وذاك طاحناً ، وذاك عاجناً ، والآخر خائزاً ، وكل منهم في شأنه ساع . فلما كبحت هذه الجماعة عن ان يسعها قسم واحد من الارض تفرقت فيها فصارت جماعات منفصل بعضها عن بعض حسباً ، مع تواصلها بالتنوع . واقتبلت كل جماعة منها على العمل في الارض التي اختارتها مقاماً استحصالاً لحاجاتها واخذ كل من اهلها يعمل في ما ارتضاه لنفسه من الصناعات ، ليعين بمصنوعه رفيقه مستعيناً بما يصنعه ذلك الرفيق ، ولو حاول الانسان الاهتمام في جميع الارضين بجميع المهن والمشاغل لفني عمره ولم يأت بفائدة تامة بخلاف ما اذا اقتصر على العمل بمهنته ، في جماعته ، اذ تتيسر له اسباب الاعانة والاستعانة ، فتحصل الفائدة التامة في الجماعة وينتهي ذلك الى حصولها في النوع لما بين الجماعات من علاقات الانسانية . وهذا وجه الفضيلة في حب الامة ، وحب الوطن ، فليرسمن اسمهما على صفحات كل قباب وليلمجن بذكرهما لسان كل انسان ، فانما المرء باصغرية القلب واللسان .

... ان النسبة للوطن تصل بينه وبين الساكن صلة منوطة باهداب الشرف الذاتي ، فهو يغار عليه ويذود عنه كما يذود عن والده الذي ينتمي اليه ، وان كان سيئ الخلق شديداً عليه . ولذلك قيل في هذا المقام ان ياء النسبة في قولنا مصري وانكليزي وفرنسوي هي من موجبات غيرة المصري على مصر والفرنسوي على فرنسا

والانكليزي على انكلمترا ، فانكر ذلك بعض الناس وكان الامر لا شك سوء فهم او سوء افهام .

وجملة القول ان في الوطن من موجبات الحب والحرص والغيرة ثلاثة تشبه ان تكون حدوداً : الاول انه السكن الذي فيه الغذاء والوقاء والاهل والولد ، والثاني انه مكان الحقوق والواجبات التي هي مدار الحياة السياسية وهما حسيان ظاهريان ، والثالث انه موضع النسبة التي يعلو بها الانسان ويعز او يسفل ويذل ، وهو معنوي محضاً . - (عن كتاب « الدرر ») .

الثورة : قد رأيتهم شهداء طاعة عمياء ينجرهم خبيثا النفوس على مذابح الجور ، ترفلاً لطواغيت الفجور . فوقفت بربع العدل منادياً باهل الانسانية : يا لثارات الضعفاء ! فاجابني هاتف العصور ، من اغوار القبور : لقد انتجعت بوراً واتبعت غروراً ، فاذنا ملأنا من قبلك الارض نداء وزفيراً ، فلم نجد من الناس نصيراً فعلمنا انهم لا يسخون بالنجدة لمن ضمن بنفسه وتوكل على بني جنسه فاقنحنا الاوجال في طلب الآمال ، فلم تكن الا جولة ولت الحرب اولادها ، وصوله سلبت السيوف اغمارها ، حتى سقينا غروس الاماني بالدم المهرق ، فنمت باسقة القروع مخضرة العود يانعة الثمار ، فقلنا في ظلالها آمين تحسبنا امواتاً وتخالنا رفاتاً ، ونحن في نعيم جنتها خالدون ، فاقنحوا بنا ان رمتم النجاح ، وانشطوا للسعي بالغدو والرواح .

فالما رجل الدنيا وواحدما من لا يعول في الدنيا على رجل فعدت الى بقايا الضحايا احرك في عروقهم دم الغيرة ، وابث في صدورهم روح العزم ، وانشر من همهم ما طوت الايام في قبور الاوهام ، بما اذكر من اخبار الامم وما اظهر من آثار ذوي الهمم لعلهم يستنجزون موعود الحق بتراعمة اعدائه الذين تردوا وسعوا في الارض مفسدين ، ولعلهم يفلحون .

ولقد جعلت خبر الثورة ثورة الفرنسيين تهيداً للخطاب وتعييناً للقدوة فظهرت كيف تسنى لهؤلاء القوم ان يخرجوا من مضائق الظلم ، وما رزق العبودية ، اذ انفصل نوابهم عن المعتسفين من النبلاء واهل الكهنوت وجهروا بما كان يخفيه السكوت ،

حتى انقطع الجور مجمله المبثوث ، وكيف توافقوا على الاتحاد في خدمة الحق ليفوزوا فيشكروا او يبيدوا فيذكروا واقسموا : انّا لا نفترق وفيينا رمت حتى نؤيد في بلادنا امر الحرية . فاعلق الملك باب مجلسهم فاجتمعوا في ملعب القرية متوازين متألّفة قلوبهم يرومون القسم بالسوية والعدل في الرعية ويدعون الى الحق والى طريق مستقيم (٥) .

فكبر ذلك على عبيد الطمع وحلفاء الجرع (٦) فاغروا الامير بفض مجلس النواب فاصدر الامر بذلك في الثالث والعشرين من شهر حزيران سنة تسع وعشرين ، فتلقاه النبلاء ورؤساء الكهنوت بالطاعة والقبول . اما وكلاء الامة فقالوا : لا نطيع الامراء بما نعصي به اخق والعدل وانما

نطيعهم ما اصبح العدل فيهم ولا طاعة للعرء والمرء ظالم فاتاهم وزير الملك يذكرهم امره ويدعوهم لطاعته ويحذرهم عاقبة الفتنة ، فاجابه خطيبهم ميوابو : عد الى هولاك وقل انّا مجتمعون في هذا المقام بامر الامة ، فلا نتفرق الا بقوة النصال !

فعاد الوزير باخنية والفشل يغالب عامل الغيظ ، ويقاوم فاعل الوجل . فعظم هذا الامر على رجال القصر وصنائع النبلاء ، وانصار الامتياز ، فجملوا الامير على مقاومة النواب ، واخذهم بالعنف ، ف عزل من كان مستوزراً من وسط النيباس أي من غير الشرفاء ، وبث الجند في ارجاء العاصمة فاهتز لذلك اهلها اضطراباً ، وخرجوا على الدولة ثائرين يرومون وقاية النواب ، ويلتمسون الحرية والمساواة ، واندفعوا كالسيل على قلعة المدينة فاقبلعوها من ايدي الجند منشدين :

الا هيا بني الاوطان هيا فوقت فخاركم لكم تهيا
اقيموا الراية العليا سويا وشنوا غارة الهييجا مليا

(٥) (٦) في هذين السطرين كلمات من خطبة لابي حمزة الخارجي القاها في المدينة .
نقل اديب اسحق هذه الكلمات ولم ينه بها .

عليكم بالصوارم يا اهالي
فاما مات كهل في الزال
ونظم صفوفكم مثل اللاكي
فان الارض تنبت به صيبا
منيتكم بالمقيم من العناء
فموتوا ان طمعتم في البقاء
فكان وجودكم عين الفناء
فمن اودى شهيد اعاد حيا^٧

فانخلع بذلك قلب الامير جزءاً ، ورام الفرار التماس النجاة فقبض عليه في
فارين واعد الى العاصمة اسيراً . ثم كان من امر محاکمته واهدار دمه ما يخرج بيانه
عن حد مطلبنا ، فاناً لم نجعله تاريخاً لثورة الفرنسيين وانما اتينا بذكرها مثلاً وعبرة
لقوم يذكرون . وليعلم الصابرون على العنف ، الطامعون في النجاة من الخسف ،
كيف ادرك الناس من قبلهم هذه الغاية ، فانتقلوا من الضعف الى القوة ، ومن الدل
الى العز ، ومن الرق الى الحرية ، فارتفعت رؤوسهم وانبسطت نفوسهم وصارت
اوطانهم بغية المرتجي وعقوة المتلجي لا يخاف تزيها ضيماً ، ولا يخشى دركاً اذ الترقيون
عموماً ، والمصريون خصوصاً بين انياب الطامعين ومخالب الظالمين .
واني لا اطمع الآن للمصريين في مثل هذه الحال وان خاضوا لها غمار الاخطار
واقترحوا اليها الاهوال فان الطفرة محال . ولا احثهم على الفتنة وان كانوا كما تصور
المتنبى حيث قال :

كفى بك داء ان ترى الموت شافياً وحسب المنيا ان يكن امانياً
وانما ابين لهم ان النعمة لا تثلك من غير تعب ، وان الغاية لا تدرك من غير
طلب ، وان النجاة وقف على سبيل المهمة ، وان النجاح بارادة الامة لتظهر عليهم
علائم القصد فتكون طليعة لجيوش العزم ، فيعلم المستخفون بهم انهم لا يزالون احياء ،

(٧) ظاهر ان هذه الايات تعرب لبعض مقاطع من المارسيلياز ، النشيد الوطني الفرنسي . وواضح
من سياق الكلام ان اديب اسحق يضع هذا النشيد في افواه الهاجمين على الباسيل ، وهو
غير صحيح . فالمارسيلياز انشدها اول مرة في باريس ، المارسيليون القادمون لنجدة محاصري
قصر التويلري ، وذلك بعد هرب الملك والقبض عليه في فارين .

وان كانوا من ظلمهم في ظلمات القبور ، فيقبضون عنهم ايدي الظلم ، ولا يطعمون في بيع اولادهم من الاجنبي عبيداً يحفرون المعدن ويفلحون الارض ويطوون الشراع ، ولا يطعمون كراعاً ولا يطعمون في باع .

اقول قولي هذا واسأل الله ان يرفع من شأن اوطاننا ما وضع السفهاء ، وان يحفظ من حقوق اهلها ما ضيع الخائنون . - (عن كتاب « الدرر » وهي خاتمة رسائله الاربع التي وجهها من باريس الى الشرق بعنوان « نفثة مصدور ») .



حُسَيْنُ بَاشَا

سأله الرقبى والغائه^{١)} : الى مسيو اموس بيوري قنصل جنرال العصبة الاميريكانية

بجاضرة تونس .

اما بعد فانه شرفني مكتبكم الذي مضمونه انكم حيث كنتم بارض كانت الحرية والعبودية بها متجاورتين وناليتين منذ مدة مديدة وصارتا الآن مشتبكتين في حرب شديدة لغاية قهر احدهما الاخرى ووجدتم في تاريخ تونس حوادث مهمة متعلقة بهذين المبدأين المتضادين ، اردتم ان تعرفوا تأثير العبودية في بلادنا وهل اعقت تأسفاً من الاهلين على فقدها او اثراحاً بذلك فطلبتم منا شرح ذلك وبيان ما اثبتت التجربة اصلحيته هل هو الخدمة الجبرية ، اي خدمة العبيد بدون اجر ، ام الخدمة الاختيارية باجر معلوم وايهما اوفق بنظام الجماعة عند الدولة التونسية ؟ اما الجواب عما وجدتم في تاريخ بلادنا من تحرير العبيد ومنعنا الملك الآدمي في المستقبل بعد ان كان مباحاً فبسبب

(١) كتب المستر اموس بيوري قنصل الولايات المتحدة الى حسين باشا ناظر المعارف التونسية يسأله عن اثر الغاء الرقيق في تونس ، وذلك ابان الحرب الاهلية الاميريكية بين ولايات الشمال والجنوب لاعتاق العبيد ، فاجابه ، في جمادى الاولى سنة ١٢٨١هـ ، بالرسالة المنشورة اعلاه .

ذلك هو : ان دولتنا كسائر الدول الاسلامية كما تسمونها دولة تيوكراتيك في المعنى ،
 اي : احكامها جامعة بين الديانة والسياسة . والشريعة الاسلامية وان اقرت الملكية
 (ولنا اقرت لان ملك الآدمي متقدم على الشرائع الثلاث فقد كان حكم السارق
 في شرع يعقوب اسرائيل الله ان يسترق سنة بدل القطع في الشريعة المحمدية) انما
 اباحتها بعد حصول سبب الملك بشروط وواجبات يعسر القيام بها ، فان منها عدم
 الاضرار بالمملوك حتى جعل الشارع الاضرار موجباً للعقوبة كما قال : اي مملوك مثل به
 فهو حر . ومع ذلك فلم تزل الشريعة تؤكد الوصاية بالعبيد حتى كان آخر كلام نبينا صلى
 الله عليه وسلم : الصلاة وما ملكت ايمانكم . وكان يقول : اخوانكم خولكم جعلهم
 الله تحت ايديكم فمن كان اخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا
 يكلفه فوق طاقته . وكان عمر بن الخطاب الخليفة الثاني يذهب كل يوم الى الموالي
 فكل عبد وجده في عمل لا يطيقه وضع عنه منه ، وكذلك كان يخرج كل يوم سبت
 يتفقد الدواب فاذا وجد دابة في عمل شاق خفف عنها . ثم ان من القواعد الشرعية
 تشوف الشارع الى الحرية حتى ان من اعتق جزء عبد لزمه عتق باقيه . وكان من
 مصارف الزكاة المحصورة في الاصناف الثمانية بنص القرآن فك الرقاب قالوا بان يشتري
 من مال الزكاة عبيد فيعتقون كما ان من لزمته كفارة يمين او قتل او فطر او اظهار
 فله التكفير بعتق رقبة . فلولا ان تحرير العبيد من المصالح المهمة لما ضيقت الشريعة به
 على الفقراء والمساكين . ومن آثار التشوف المذكورة كثرة ترغيب الشارع في العتق
 كقوله : ايما امرئ مسلم اعتق امرأ مسلماً استنقذ الله بكل عضو منه عضواً منه من النار .
 وتلك الشروط والواجبات حيث كان القيام بها عسيراً في زمن عنفوان شباب الدين
 فما ظنك به في زمن هرمه لاسيما مع صنف السودان المباينين للبيض في الطبيعة الغريزية ،
 فكثيراً ما يقع بين العبيد ومواليهم المشاجرة التي لا منشأ لها الا التنافر الطبيعي وذلك
 مما يفضي الى مزيد الاضرار بالعبيد وتجاوز الحدود الشرعية في حقهم . ولم يزل ذلك
 الامر يتزايد حتى اقتضى نظر الدولة تحجير الاسترقاق من اصله لانه لما تعذر الرفق بهم
 والاحسان اليهم على الوجه المطلوب شرعاً لم يبق الا الامر ببيعها او بعتقها ، والاول لا
 يحصل به الغرض المقصود لما فيه من التسلسل وعود الضرر مع المشتري فتعين الوجه

الثاني ومن ذلك الوقت بطلت ملكية العبيد عندنا دفعة وذلك في شهر المحرم سنة ١٢٦٢ في مدة المرحوم المشير احمد باشا باي . واول ما خاطب به المجلس الشرعي في هذا الشأن قوله : اما بعد فقد ثبت عندنا ثبوتاً لا ريب فيه ان غالب اهل ايلتنا في هذا العصر لا يحسن ملكية هؤلاء الممالك السودان ، ولذلك اقتضى نظرنا والحالة هذه رفقا باولئك المساكين ان نمنع الناس من هذا المباح وعندنا في ذلك مصالح سياسية الخ . والمصالح المشار لها هنا يمكن شرحها بامور كثيرة منها ما يقوله اهل الاقتصاد السياسي في ايامنا ان البلدان التي فيها عموم الحرية وعدم الملكية اعمر من غيرها بالاستقرار . وقد رأيت خطبة لبعض الافاضل من اهل القلم بملكتنا كتبها في ذلك الوقت يحث بها اهل المملكة على اجابة رئيس الدولة بالقلب والقلب يقول فيها : « فيا للنفوس الزكية والقلوب التي بالشفقة حرية شرعكم متشوف للحرية ورق الآدمي بلية والرب يقدر على عكس القضية . »

واما الجواب عن تأثير العبودية وما اعقب فقدها في الاهلين فهو ان ملك الآدمي لما لم يكن من الابور الضرورية ولا الحاجة في المعيشة لم يصعب العدول عنه ولم تجزع لفقده نفوس اهل مملكتنا . وكيف يتأسف المعني بشؤون الترف والكمال في الاحوال والعوائد على تحرير عبده وهو قادر على استرقاق الاحرار بالدرهم والدينار مع اعتقادهم الديني انهم ينالون بعنق عبيدهم ثواباً من الله في الدار الآخرة ؟ على ان ذلك وان صعب في اول الامر على بعض من الناس لرؤيتهم استخدام العبيد بدون اجر ايسر لهم واربح من استخدام غيرهم باجر او لشح نفوسهم بالعتق ايثاراً للعاجل على الآجل . الا ان هؤلاء تساوا من قريب لما اثبتت لهم التجربة اصلحية الخدمة الاختيارية دون الجبرية كما اثبتها العقل ايضاً ، ورأى من عجز عن استخدام الحر بالاجر ممن كانوا يستخدمون العبيد رجوعه الى الامر الطبيعي والسيرة المستحسنة وهو ان يباشر الانسان قضاء اوطاره اللازمة بنفسه ويقلل احتياجه الى ابناء جنسه ، فان النفس اذا تعودت باستخدام الغير قد يفضي بها ذاك الى العجز عن ادنى الضروريات . والانسان ابن عوائده ومألفاته لا ابن طبيعته وزاجه وبذلك التعود تكثر شروط

استمرار حياته وما كثرت شروطه عز وجوده . وبالجملة فالناس في باب الخدمة على اربعة اصناف : انسان يخدم نفسه بنفسه ولا شك ان هذا يعمل ما يستطيعه في يومه ويجهد نفسه ، والثاني يؤجر نفسه لغيره طوعاً وهذا دون الاول في نتيجة العمل حيث لا يجهد نفسه ، والثالث يعمل لغيره بلا اجر وهو مجبور . فذاك هو العبد المملوك ولا غرو ان تكون نتيجة عمله دون الثاني بمراحل ، والرابع الذي لا يعمل لنفسه ولا لغيره وهو العبد البطل الذي يبغضه الله تعالى ، ومن هذا الصنف الاخير الناس الذين يترفعون عن خدمة انفسهم وقضاء اوطارهم استنكافاً عن مزاحمة العبيد في اشغالهم ، وقد ينفع في هذا القسم العلاج اذا رأوا من كان ارفع منهم يتعاطى تلك الاشغال التي انكروا . باشرتها ، وايضاً ربما نفع هذا التعاضد الكسالى اذا رأوا مع ذلك التفاتاً وترغيباً وترهيباً من رعاتهم اذ لا يجدون محيصاً عن المسير اقتداءً بمن سار . والانسان اقرب الى خلال الخير منه الى خلال الشر باصل فطرته وقوته الناطقة العاقلة لان الشر انما جاءه من قبل القوة الحيوانية المركبة فيه . واما من حيث هو انسان فهو الى الخير وخلاله اقرب ، فاذا وجد طبيباً ماهراً وداوى ما طرأ عليه من المرض فانه يرجعه الى احسن تقويم وتجتمع الايدي ويكثر التعاون وتتوفر بذلك اسباب العمران . ومن هذا يتبين لكم السر في كون البلدان التي فيها عموم الحرية وعدم الملكية عمر من غيرها كما أشرنا الى ذلك آنفاً ، ولا سبب لذلك الا كون نتيجة فعل الانسان المختار اربح وابرك من نتيجة فعل العبد المجبور . وعندى ان عموم الحرية وانتفاء الملكية كما يؤثر في نمو العمران يؤثر ايضاً في تهذيب خلق الانسان . اما تأثيره في نمو العمران فظاهر اذ لا عمران الا بعدل والحرية نتيجة العدل فاذا انعدمت جاء الظلم المؤذن بخراب العمران ونقصه بنقصها . واما تأثيره في تهذيب الانسان فان تعميم الحرية يبعده عن الاخلاق الردية من الشراسة والتكبر والتجبر ونحوها التي لا تنفك في الغالب عن يملك العبيد لما تعودوا به من الامرة والترفع وربما رأيتهم ينظرون الناس بالعين التي ينظرون بها عبيدهم لاسيما اذا رأوا انساناً اسود فلا يرونه الا كسائر الحيوانات العجم . وكنت حضرت مرة في ايام الكرنفال سنة ١٨٥٦ بالابره الكبيرة بباريس ومعى غلام اسود فمارعني الا ان رأيت رجلاً اميريكانيا

وثبت عليه وثوب القطعة على الفأرة واراد ان يأخذ بثيابه قائلاً ولسانه يتلجلج من سطوة النشوتين : ما يفعل هذا العبد السوداني بصالون ؟ اي بيت نحن فيه ومتى ممكن العبيد من مجالسة السادات ؟ فاخذت الفتى السوداني البهتة اذ لم يكن يدري ما يقول ولا علم لماذا يحول ذلك الرجل ويصل ، فدنوت منهما وقلت للرجل : يا حيبي هون على نفسك فاننا نحن ببائيس ولسنا بريدشمنود . ولينا هما كذلك اذ وافاهما احد حفظة المحل وعرفه بان لا فرق في حكمهم بين الجلود الا بالجودة واتقان الدبغ . فالحاصل ان ذلك الاسود المسكين لم تحصله من اظفار ذلك الرجل محرمته البيضاء . ولا فوائتواته الصفراء (اشار بالحرمة والفوائتوات الى ما اعتادته الافرنج من التزين بذلك عند الذهاب الى المحافل) وانما خلصه بياض الحق وعدل الحرية . وبالجملة فالالوفق بنظام الجماعة عند الدولة التونسية هو عدم الملكية ، ولا الثقات لما عسى ان يستند اليه المخالف من ان بعض العبيد ندموا على خروجهم من بيوت سادتهم وطلبوا الرجوع اليها على شروط العبودية اذ

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم على ان ذلك انما كان في اول الامر حين خرجوا جافلين كما تخرج الدواب اذا انفلتت من رابطها قبل الاستعداد الى لوازم المعيشة والحرية . اما الآن بعد الاستعداد فهل ترى لهم ادنى ميل الى العبودية ؟ ندع هذا الاعتراض الساقط ونزج الى ما هو اهم منه فنقول : انتم ايها الامة الامريكانية اخوان الامة التي قال فيها عمرو بن العاص صاحب نبينا صلى الله عليه وسلم انهم لأحلم الناس عند فتنة وأسرعهم افاقة بعد مصيبة واوشكهم كرة بعد فرة وخيرهم لمسكين ويقيم وضعيف وخامسة حسنة جميلة وامنهم من ظلم الملوك . ولعمري لأنتم كما قال امنع الناس من ظلم الملوك حيث انعم الله عليكم بتمام الحرية في انفسكم وجعل سائر اموركم السياسية والمدنية بايديكم والبعض من غيركم يقنع بالحقوق المدنية لحماية النفس والعرض والمال فلا يجدها فما ضركم لو تفضلتم على عبيدكم بما لا يؤثر وهنا في شوكتكم شكراً لربكم على ما خولكم من تلك النعم الجليلة ، ثم انتم من التمدن والحضارة بمراحل عن ان تقتدوا بن يدورون وعيونهم مكنبلة على دائرة انا وجدنا آباءنا على امة . واعلموا ان الشفقة والحنانة البشرية

تدعوكم لان تنبذوا من حريتكم الزيادات التي تسوؤها وتكدرها وتلقوا بها البشر على شفاة اولئك العبيد المساكين . والله يجب من عباده الرحما فارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء . هذا وارجوكم ايها القنصل الجنرال ان تعتقدوا غاية تكدرنا من حروبكم هذه الواقعة بينكم توجعاً على النوع الانساني وغاية شققنا على اولئك العبيد المساكين كما ارجوكم ان تعتقدوا خلوص مودتي لكم .

كتبه بيده الفانية الفقير الى ربه تعالى حسين رئيس المجلس البلدي ، تحريراً في
اواخر جمادى الاولى سنة ١٢٨١ هجرية ، الموافق لاواخر اكتوبر سنة ١٨٦٣
سيحجية ٠٠٠ - (عن كثر الرغائب في منتخبات الجواب ، الجزء السادس) .



روح الخيالدي

١٨٦٤ - ؟

فيكتور هوغو : نبغ فيكتور هوغو في عصر الانقلاب والتجدد وطال عمره وكثر عمله . وكان لقومه الحظ الاوفر من التقلبات السياسية والتبدلات الاجتماعية واستوقفوا نحوهم انظار العالم المتمدن بأسره . فكان هذا الشاعر لسان حال الامة وترجمانها في كل انقلاب حدث فيها وتبدل طراً عليها وغير حكومتها من ملكية مطاة الى جمهورية مفرطة ، الى امبراطورية ديمقراطية ، الى ملكية مقيدة بقليل او بكثير من القيود ، الى جمهورية ثانية ، الى امبراطورية ثانية ، ثم الى جمهورية ثالثة . فهذه التقلبات هيجت الافكار العمومية وكثرت الاحزاب السياسية ودعت الى استماع قول الشاعر الحكيم والتمثل بشعاره في نوادي السمر الادبية والسياسية على اختلاف الآراء وتبدل المشارب . ومتى تحدث اهل العاصمة بامر سارت الركبان بجديهم الى الولايات

(١) لما طبع كتابه الطبعة الثانية سنة ١٩١٢ كان لا يزال حياً .

واطراف المملكة ثم فشا في الممالك المجاورة وجسمه البعد في الخيالات فاصبح صداه في الخارج اشد من صوته في الداخل . وبعد ان استبد نابوليون الثالث بالحكم مال لابهة الملك وعظمة السلطنة وتفاخر بالصيت والشهرة واشتد حرصه على السمعة في البلاد الاجنبية . وانتشرت اللغة الفرنسية على عهده في اكثر الممالك المتقدمة وصارت اللسان الرسمي المتداول بين الدول في المناسبات الدبلوماسية وفي الاجتماعات السياسية والادبية وفي قصور الملوك والامراء وفي حفلاتهم وسهراتهم ومراقصهم وعلى موائد ضيافتهم وفي تحرير المراسلات والمعاهدات كما اصبحت اللسان الرسمي في نظارة الخارجية العثمانية وفي كثير من دوائر الدولة العلية ومعاملاتها ولم تزل الى يومنا هذا . فلما اقترن اسم فيكتور هوغو باسم نابوليون بسبب مدحه نابوليون الاول وهجوه نابوليون الثالث زاد شوق الناس للاطلاع على اشعاره وقصصه في داخل فرنسا وخارجها وراجت بضاعته في الادب فلم يدع باباً من ابواب الشعر الا طرقة ولا مسألة الا بحث فيها . ثم ساعدته الظروف بالانتصار على نابوليون الثالث بعد حرب السبعين الالمانية وتشكل الجمهورية الثالثة فزاد ذلك في اهمية الشاعر وفي انتشار شعره وبالع رجال الجمهورية في الاحتفاء به والاحتفال له كاحتفال الامبراطورية بشخص الامبراطور .

اما السبب الثاني اشتهرته فهو سهولة اشعاره ووضوحها وتصويرها المسائل العظيمة والافكار الدقيقة . فظهر بشعره فرجه وسروره بنعمة الحياة وابتهاجه بالمخلوقات . ورأى في امنا الدنيا بقرّة حلوباً تدر على ابنائها بلبن سائغ للشاربين وتكلم على افراح العائلة وزينة البيوت بالاولاد ولذة اجتماع الاهل على المائدة ومحبة الوالدين وحنوهما . وحض على الاحسان للفقراء والمساكين والشفقة عليهم وبين اعتقاده بالله الغفور الرحيم ورجاءه بتقديم نوع الانسان في الحضارة وبتحسن الحياة البشرية والمعيشة الانسانية بسبب انتشار الافكار الجديدة وتغلب الحق رويداً رويداً على القوة والنور على الظلمة حتى تتساوى الناس في الحقوق ويرتفع عنهم الضغط والاستبداد ويزول من بينهم الظلم والاستعباد وينشر العدل ويزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً . . . فجميع ذلك مما يرغب الجمهور في تلاوة اشعاره وتعليمها للاولاد ونشرها في البيوت بين النساء والبنات . بخلاف اشعار المعري التي لا يذكر فيها الا نجل ام دفر على بنيتها بالحقوق

ومبادرتهم لها بالعقوق . ولا يرى بقرة فيكتور هوغو تجود الا بسم قطيب اي ممزوج
بجلاوة . ومع غنى المعري وثروته لم يلتذ بالمال والبنين ولا بشي . من زينة الحياة الدنيا
وزهد في اكل اللحوم وشرب المكيفات وعي بصره عن مشاهدة المناظر الطبيعية
والرياض النضرة . وحيث كان لفكتور هوغو اعتقاد ثابت في الله ورجاء كبير في
حسن المستقبل وارتقاء الانسان الى دار السعادة عرف وظيفة الشاعر وبيّن ما يترتب عليه
وعلى كل عاقل مفكر في الامر من نشر الحقائق بين قومه وابناء لسانه وزعم ان
الشاعر ينبغي ان يكون رسولا للامة ونوراً يسعى بين يديها ليهديها الصراط المستقيم .
وفكتور هوغو موحد اعترف في كثير من اشعاره باعتقاده بالله وحسن رجائه
باليوم الآخر واهتدى للتوحيد بنظره في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار
كما اهتدى ابراهيم جد الانبياء عليه وعليهم السلام : « واذا قال ابراهيم لأبيه آزر
أنتخذ أصناماً آلهة اني أراك وقومك في ضلال مبين . وكذلك نري ابراهيم ملكوت
السموات والارض وليكون من الموقنين . فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا
ربي فلما أفل قال لا احبّ الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال
لئن لم يهدينى ربي لآكون من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي
هذا اكبر فلما افلت قال يا قوم اني بري . مما تشركون . اني وجهت وجهي للذي
فطر السموات والارض حنيفاً وما انا من المشركين . »

وهكذا قال فيكتور هوغو لقومه اني بري . مما تعبدون . فلم يكن مشركاً
بالله ولا كان منكراً جاحداً انكار الشاعر فولتير وججوده ^(١) بل ربما كان حنيفاً .
والحنيف هو الذي يؤمن بالله ولا يتخذ شكلاً مخصوصاً للعبادة وكان منهم اناس في
جزيرة العرب قبل الاسلام مثل ورقة بن نوفل وغيره . فاذا أمعنا النظر في كلام
فيكتور هوغو نراه من الذين يذكرون الله قياماً وعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق
السموات والارض . ونراه ايضاً كثير البغض في الجباة المستبدين ويدعو الناس الى

(١) رأينا انه لا يصح نعت فولتير بالجاحد . ومن الغريب ان يجمع على هذا الاعتقاد
كثيرون من الكتاب العرب في مطلع النهضة ، حتى لقد ألف الدكتور ميخائيل مشاقه كتاباً
في الرد على الفولتيريين الجاحدين .

عدم اتخاذ ارباب من دون الله .

قال الحكيم الفيلسوف ارنيست رينان عن فيكتور هوغو وعن فولتير بانهما سارا من قطبين متخالفين ولم يتلاقيا الا على محبة العدل والانسانية .

والباعث الثالث على شهرة فيكتور هوغو هو كثرة عمله وغزارة معارفه ، عدا معرفته بدقائق اللغة الفرنسية ، وبعلم القوافي والعروض والموسيقى ، وما يلزم للشعر ، وكان حكيما فيلسوفاً يضع كل شيء في موضعه وكل معنى في قلبه ولم يغب عن علمه شيء من التاريخ والجغرافيا واسماء البلدان وله اطلاع على العلوم الرياضية وجميع المسائل الاجتماعية وكليات القوانين البشرية والسياسية . وله اقتدار عجيب في التخيلات والتصورات والاختلاقات . واذا نظر في شيء تمكن من رؤيته بعين لم يتيسر لغيره من الشعراء الرؤية بها . فوقف على كنه الاشياء وحقيقتها وعلى جميع ما يعرض لها من الصور والاشكال والالوان وبقية الخواص الظاهرة والباطنة . واذا ذكر اسبانيا مثلاً لم يترك فيها مدينة الا وصفها بالوصف اللائق بها سواء كان وصفاً جغرافياً او طبيعياً او تاريخياً بالنظر لمن اشتهر فيها او لما ينبت في ارضها او لمراها الطبيعي ومنظرها الخارجي ، وذكر كذلك كثيراً من مدن فرنسا وايطاليا .

... وكان له وبع بالامور العظيمة والمقامات العالية والمناظر الواسعة والمعاني الدقيقة فعرف لبحر الذي لا يرى ساحله وبعده الفضاء الذي لا تدرك نهايته وقلد اصوات الاشياء ووصف الجمادات وصفاً يخال منه للقارى . انها حية تنطق . ولذا قالوا ان فيكتور هوغو انطق الجماد ونفخ فيه باساليه الشعرية روح الحياة . وله ابتكارات بديعة وتشايبه ظريفة وتعبيرات لطيفة . ونجد لما ورد في كلامه من التشبيه والتخيل والبديع امثالا كثيرة في الشعر العربي والاندلسي تكلم عليها الباقلاني في اعجاز القرآن والجرجاني في اسرار البلاغة المطبوع في جريدة المنار ومن سلك مسلكهما من علماء اللغة والبلاغة . ولكن فيكتور هوغو يفوق بسعة الاطلاع والاحاطة بالمسائل . واكثر شعراء العرب انحصرت اقوالهم في الدائرة الذين (؟) هم فيها فلم يخرجوا منها ولا تعدوا الاساليب التي وضعها شعراء الجاهلية . والذين خرجوا عن تلك الاساليب واتسعت مداركهم قليلون مثل المتنبي والمعري الذي تكلم على كثير من المسائل الاجتماعية

والسياسية ونادى بأخوة والمساواة بين افراد البشر وبين ماهية الحق والعدل وشرح كثيراً من المسائل الفلسفية وظهر شعوره واحساسه بالوسط الذي القينا فيه فكان سجناً لنا لا خلاص منه الا بالموت . فهو متحيز في هذه العقدة التي اضلت الادباء في حلها .

ثم ان اهل النقد الادبي من باءاء الافرنج يقولون : نعم ان فيكتور هوغو انطق الجماد وتوصل بأساليبه الشعرية الى وصف المناظر الطبيعية وتصوير العصور الحالية والهيبة الاجتماعية باحسن تصوير وابدع وصف . فهذا لا ينكر ولكنه لم يتوصل الى معرفة باطن القلب الانساني ولا لايجاد اوصاف تامة ولا حياة طبيعية للاشخاص الذين اختلقهم على مسرح التمثيل . ولذا لم يكن اوجد الادباء في تأليف روايات الدرام . فهو وان انطق الجماد لكنه اخس البليغ .

نعم ان شارلكين في رواية ارناني Hernanie هو بيت القصيد وهو من ملوك الكلام ولا ننكر فصاحته وبلاغته وانما عيبه عندنا هو عدم وجود الروح فيه . فهذه النفس الناطقة التي ارانا اياها الشاعر على مسرح اللعب والتشخيص هي نفس المؤلف اي نفس فيكتور هوغو وليست نفس المشبه به وهو شارلكين ، فالحاسة التي اظهرها المؤلف في شعره ليست بطبيعية ولا هي حقيقية بل هي عندية اي من عند الشاعر ولم تبين على الحجج والبراهين الادبية التي اشتطها اصحاب الطريقة الحقيقية وسماها اميل زولا « دوكيان » . فاصحاب هذه الطريقة الجديدة يامون فيكتور هوغو على تعظيمه الامور ويشبهون قريحته براءة مكبرة تكبر الشيء المعكوس فيها وتجسمه تجسماً خارجاً عن الحقيقة وعن العرف والعادة . ومن عادة فيكتور هوغو ارخاؤه العنان للقوة الواهمة والخيالية ولذا نجد في مؤلفاته مثل كازيودو ومثل الرجل الضاحك من الاشخاص الموهومة التي لا توجد الا في كتاب الف ليلة وليلة وما كان على نسقه .

ومما ائتمد فيه على فيكتور هوغو من جهة الاخلاق تبدل رأيه السياسي وتقلبه فيه ذات اليمين الى ذات الشمال ومن حزب الملكية الى حزب الجمهورية . ورأينا جوابه على هذا الاعتراض بقوله : ان مدخنا الرجل بالثبات على رأي واحد في السياسة

• مدة طويلة ليس بمدح مستحسن وانما هو كمدحنا الماء الراكد وتفضيلنا اياه على الماء الجاري • والجواب الصحيح على هذا الاعتراض ان فيكتور هوغو مع ظهور معجزاته في المعاني • ما هو الا بشر غير معصوم تميل نفسه الى شهواتها التي منها التقرب من الملوك واولي الامر ، ولكننا نجده محافظاً على الاعتدال في أمر الشهوات النفسية صبوراً متجلداً عند الحاجة • وبينما نرى امثاله واقارانه من أدباء باريس لا يقنع احدهم بعشر نسوة نجده اقتصر هو على اثنتين أم اولاده ، والمثلة البارعة جوليت • ومن غريب أمر هذا الشاعر انه خالف القاعدة المطردة في عظماء الرجال • فكان في شبابه من حزب الملكيين المحافظين على بقاء الحال على ما كانت عليه فانقلب من ذلك رويداً رويداً حتى صار في شيخوخته من حزب المفرطين في محبة الحرية المائلين للانقلاب والارتقاء شديد العداوة للاستبداد والمستبدين • وهذا خلاف المطرد في اخلاق الرجال فانهم كلما تقدموا في السن عدلوا عن حب التجدد ولانقلاب الحرية ومالوا للبقاء على حالتهم الراهنة • - (عن كتاب تاريخ علم الادب عند الافرنج والعرب) .



المطران يوسف الدبس

١٨٣٣ - ١٩٠٧

منه حوادث سوريا ابام السلطان عبد الحميد الاول : ان السلطان مصطفى الثالث توفي سنة ١٧٧٤ وخلفه اخوه السلطان عبد الحميد الاول • وبما كان في ايامه بسوريا انه لما كان الجزائر قد نصب والياً على صيدا سنة ١٧٧٦ ، خاف الامير يوسف حاكم لبنان لما كان بينهما من العداوة ، واسر بالامر لحسن باشا المكلف باصلاح شؤون سوريا فاجابه : كن آمناً فاذا رجعت الى الاستانة عزلته • وطلب منه ان يدفع له مائة الف قرش كانت باقية عليه من المال الاميري • فوضع الامير يوسف

يده على ربيع عقارات تخص الحكومة كانت بيد اقربائه ، فثار الامراء عليه ونهضوا الى البقاع . فحشد الامير رجالا سار بهم ففروا من وجهه . واسترضاه الامير اسماعيل حاكم حاصبيا عنهم وبقي اخواه الاميران ، سيد احمد ، وافندي ^(١) يجرّبان عليه . فاضطر الامير ان يرد عليهما اقطاعهما .

وسافر حسن باشا الى الاستانة ، ونهض الجزار بعسكر من صيدا الى بيروت فاستحوذ عليها وضبط املاك الشهابيين بها ، وشدد على الامير يوسف بطلب الاموال عن ثلاث سنين ماضية . فكتب الامير الى حسن باشا وكان قد بلغ الى قبرص ، فعاد واخرج الجزار من بيروت وطيب قلب الامير . وبينما كان فرسان الجزار راجعين الى صيدا امكن لهم المشايخ النكدية في السعديات بقرب الدامور ، فاندفع الفرسان عليهم وقتلوا منهم كثيرين واسروا شيخين منهم . وكتب الامير يوسف الى الجزار معتذراً بان ذلك لم يكن بعلمه والتمس اطلاق الشيخين وجعل له فدية عن ذلك مائة الف قرش . فاجابه الجزار الى ذلك . ووزع الامير المبلغ على البلاد فابى الامراء اللعيون دفع ما نابهم منه ، فالتمس الامير من الجزار ارغامهم على الدفع فارسل عسكرياً على المتن فاحرق المكلس والدكواني والجديدة وقتل جماعة . ثم دهم الشويقات فصده رجالها ، فقتل الى بيروت ، ثم سار الى صيدا وخرج منها بعسكر الى البقاع وضبط كل ما بها للبنانيين من الغلات . فاتفق حينئذ الامير يوسف مع الامراء اللعيون وجمع منهم عسكرياً زحف بهم الى المغيشة وكان بين الفريقين وقعات كان النصر فيها لعساكر الجزار . . .

وفي سنة ١٧٨٢ احدث الامير يوسف ^(٢) ضريبة على التوت سموها البرية . فانثار اخواه ^(٣) الجنبلاطية عليه وجمعوا حشداً وساروا به الى قرب دير القمر قاصدين طرده وقتل مدبره سعد الخوري . فوعد الامير بابطال الضريبة ، فانفض الحشد ، واستمر

(١) افندي هنا اسم علم .

(٢) هو سلف الامير بشير في اماره لبنان . وكانت بينه وبين الامير بشير مناوشة وتناوب على كرسي الامارة ، مثل فيها الجزار والي عكا دوراً عظيماً .

(٣) هما سيد احمد وافندي .

الاميران والجنبلاتية على عزهم . وفي سنة ١٧٨٣ اجتمعوا في دار الامير افندي ليلاً ليمضوا الى كنيسة التلة ليقسموا على اتفاقهم على طرد الامير وقتل مدبره . وعرف الامير ذلك فاكن لهم المغاربة في طريقهم فقبضوا على الامير افندي وفر الامير سيد احمد . ولما رأى الامير يوسف اخاه (افندي) حملته سورة غضب فقتل اخاه بيده .

واما الامير سيد احمد فاتفق مع الشيخ حسن جنبلاط والشيخ عبد السلام العماد على خلع الامير يوسف ، فخاف الامير يوسف واسرع الى الجزائر ووعده بثلاثماية الف قرش ، فولاه وارسل معه عسكرياً قام به الى اقليم الخروب ، وحشد الامير سيد احمد عسكرياً وارسله مع ابن اخيه الامير قعدان ، والتقى الجيشان بعانوت فانكسر عسكر الامير قعدان وهو نجا منهزماً . وارتاع الامير سيد احمد ففر ومعه الشيخ قاسم جنبلاط الى صليبا عند الامير اسماعيل المعني . فضبط الامير يوسف املاكهم وهدم مساكنهم . والتجأ الامير سيد احمد الى محمد باشا العظم والي دمشق فولاه على وادي التيم والبقاع واصحبه بعسكر ، واتى معه الجنبلاتية الى قب الياس . والتقاها الامير فكانت الحرب بينهم ثلاثة ايام . فانهم الامير سيد احمد والجنبلاتية الى التريديني وعاد الامير يوسف الى دير القمر واخذ يصادر محازبي اخيه ، ثم تدخل الامير اسماعيل خال الامير يوسف بالصلح بينهم وبين ابن اخيه ، فرضي الامير يوسف عنهم بشرط ان يدفعوا مائة وخمسين الف قرش فدفعوها . وعادوا الى وطنهم وامر الامير يوسف الامير سيد احمد ان يسكن بالشويفات فاطاعه .

الثورة على الامير بئر والجزائر سنة ١٧٩٠ — ١٧٩١ : توفي السلطان

عبد الحميد الاول سنة ١٧٨٩ وخلفه السلطان سليم الثالث .

ومما كان في ايامه بسوريا ان الامير يوسف كتب الى الجزائر يستأذنه بالحضور الى عكا ، فاذنه ، فدخل عليه وفي عنقه منديل الخضوع فأمنه واکرمه واقام عنده خمسة اشهر . وفي سنة ١٧٩٠ خلع عليه خلع الولاية على لبنان بعد ان تعهد له بدفع ستمائة الف قرش ، ورهن عنده على ذلك ابنه الامير حسيناً ومدبره الشيخ غندور

الخوري^(٤) واتخذ فارس الشدياق مديراً عوضاً عن غندور . فقام الامير بشير^(٥) الى نيجاشم الى عكا وتعمد للجزار بدفع زيادة على ما دفع الامير يوسف ، فانعم عليه بخلعة الولاية على لبنان وامر أن يلقي الامير يوسف بالسجن ومعه عشرة من خدمه من بيت الدحداح وسمعان البيطار وفارس الشدياق . وامر الامير بشير ان يسرع الى دير القمر ويأخذ معه الامير حسيناً ابن الامير يوسف . ولما وصل الى دير القمر قبض على كل من وجده من محازبي الامير يوسف وادعهم السجن ووجه جباة يجمعون المال فاجتمع الامراء اللامعون ووجوه المتن في أتم الامير محمد اللامي واثتمروا على الامير بشير واختاروا مكانه الاميرين حيدر ملحم وابن اخيه قعدان وبثوا الى وجوه البلاد ما عزموا عليه ، وطرّدوا جباة المال . فجمع الامير بشير رجاله وسار الى عين داره واجتمع المتن في حماها وسار الامير حيدر ملحم الى عبيه واتفق مع ابن اخيه الامير قعدان وضوى اليها بعض المشايخ النكدية والعبادية ، وخاف الامير بشير ان يسبقه الى دير القمر فاسرع اليها وارسل الجزار الفأ من الارناؤوط الى حرش بيروت . فخاف الامير حيدر ملحم وقام الى العبادية واتفق مع المتن وارسل الامير بشير رجالا لمساعدة عسكري الجزار فكانت بينهم وبين المتن وقعت انهزم بها المتنيون وقتل منهم خلق كثير ، وكتب الامير بشير الى الجزار يخبره وينسب هذه الثورة الى الامير يوسف . وكان الجزار في طريق الحج فغضب وكتب الى نائبه في عكا ان يشنق الامير يوسف ومديره غندور الخوري . ثم خمد غضبه وكتب الى نائبه ان يتوقف عن شتقها . وبلغ الامر الثاني قبل الاول فاخفاه النائب باشارة ابن السكروج لانه كان عدواً للشيخ غندور واخذها الى المشنقة ، فشنق الامير يوسف واما الشيخ غندور فمات خوفاً وقيل شتقاً .

ان قتل الامير يوسف والشيخ غندور لم يخمد الثورة التي ابتدأت في المتن على الامير بشير . وعند رجوع الجزار من الحج اسف على قتل الامير يوسف وامر بقتل

(٤) كان مدير الامير يوسف الشيخ سعد الخوري ، ثم اصبح غندور الخوري ، ثم اصبح فارس الشدياق .

(٥) كان الجزار قد ولى الامير بشيرا اماره لبنان مكان الامير يوسف ، ثم راح يجعل الامارة مزايده بين المتراحمين .

ابن السكروج والتمس الأمير بشير منه اطلاق المسجونين من أتباع الأمير يوسف وكفلهم ، فاطلقوا . وكتب الجزار الى والي دمشق ان يرسل عسكرياً لمساعدة الأمير بشير وارسل هو عسكرياً الى البقاع وامر الارناؤوط الذين كانوا في حرش بيروت ان يحضروا الى صيدا . ولما شعر النكدية برورهم بالتقوهم بالسعديات وقتلوا منهم نحو مائتي رجل . فكتب الجزار الى قائدي عسكريه في صيدا والبقاع ان ينهضوا بالعساكر الى المتن . وسار الأمير بشير بعسكر من صيدا وظهر حينئذ العصيان اهل الغرب والشحار والجرد واهل دير القمر ايضاً وتجمعوا واكفوا للأمير عند صحراء الشويفات . لكنهم اندحروا وقتل منهم نحو عشرين رجلاً .

وكانت بعد ذلك اي سنة ١٧٩٠ وسنة ١٧٩١ سلسلة حروب متصلة في ساحل بيروت والبقاع وحاصبيا واقلية الخروب والشوف ، وكانت النهاية ان الجزار لما رأى أن عساكره لا تستطيع ان تكره اللبنانيين على طاعته كتب الأمير بشير ان يرجع بالعساكر الى عكا فرجعوا وامر الأمير ان يقيم بصيدا وجعل له نفقة كافية ، وكان الاميران حيدر ملحم وقعدان اقاما في دير القمر حاكمين فصرفا اهل البلاد كلاً الى محله لكنهم بطروا وقردوا وسطا بعضهم على اهل الساحل وبيروت فاقتل المسلمون ابواب المدينة على من كان فيها من الجبل وقتلوا ستين رجلاً ورفع اعيان البلاد عريضة للجزار التمسوا فيها الصفح وان يولي عليهم الاميرين حيدر وقعدان وتعهدها بدفع الاموال مع زيادة اربعة آلاف كيس عليها ، وبعد التوثق على ذلك ارسل اليهما اخلع وأمر بحجز الأمير بشير بصيدا واخاه الأمير حسناً ببيروت .

الثورة على اولاد الأمير يوسف سنة ١٨٠٠ : كان ابنا الأمير يوسف قد عجزا عن جمع المال المطلوب للجزار فانفذ الف فارس لجباية المال من البقاع والح بطلب المال كاملاً مع مطالب اخرى فارسل الاميران محصلين لجمعها فهاج اهل البلاد وطرد المتنيون المحصلين وارسل الجزار الارناؤوط اليهم فاستعدوا لقتالهم واجمعوا على اعادة الأمير بشير الى الولاية ووافقهم اكثر اعيان البلاد فارسلوا ثلاثية رجل الى الحصن يستدعون الأمير بشير فعاد معهم الى لبنان . فاضطرب الاميران واسرع جرجس باز

الى الجزار فجهز الفتي مقاتل من الارناؤوط . ووعده بارسال عسكر من الفرسان . وقام الامير بشير الى حمانا فالتقاء الجميع بالسروور واتحد معه اكثر الامراء اللعيفين فنهض الى الباروك ثم كفرنبرخ ، ووصل جرجس باز بالارناؤوط الى دير القمر وقل اصحاب اولاد الامير يوسف فاقنع بعضهم جرجس باز بعقد الصلح على ان يتولى الاميران بلاد جبيل ويتولى الامير بشير باقي البلاد ، فرضي بذلك وقام الامير حسين بعسكر الجزار الى ساحل بيروت ودخل الامير بشير دير القمر .

على ان جرجس باز عدل عن الصلح وجرت وقعت كان النصر في آخرها للامير ، فاذعن جرجس باز وعقد الصلح بشروطه المار ذكرها . ولما علم الجزار بما كان تمزق غيظاً ، وكان ذلك سنة ١٨٠٠ .

عامية انطلياس سنة ١٨٢٠ : وفي سنة ١٨٢٠ طلب الوزير ^(٦) مبلناً لم يتيسر للامير دفعه للحال . ووجه المعلم بطرس كرامة يعتذر له . فحنق الوزير وامر بتوجيه عسكر الى حدود ولاية الامير وامر متسلمي صيدا وبيروت ان يقبضا على من يجدانه من اللبنانيين . فقبض متسلم بيروت على مائة وثلاثين لبنانياً ، ومتسلم صيدا على اربعين منهم . فارسل الامير يعتذر للبasha ويستعطفه . فامر بان يتعهد الامير بالفي كيس يدفعها بعد مضي شهرين . فتعهد بذلك وامر الوزير باطلاق اللبنانيين ، وارسل الى الامير خلع الولاية .

وارسل الامير جباة لجمع المال فهاج اهل المتن وابوا دفع المطلوب وكاتبوا اهل كسروان ان يحذوا حذوهم فاجابوهم الى ذلك . واجتمع الفريقان بانطلياس واقسموا ان لا يدفعوا الا بحسب العادة . واتاهم الشيخ فضل الخازن فجعلوه شيخاً للعامية المعروفة بعامية انطلياس . وكتبوا الى عبد الله باشا ان ظلم الامير بشير انما هو الذي اوجد الهياج في البلاد ، فاجابهم ان لا يدفعوا الا بحسب عادتهم . وارسل الامير يحذرهم وينذرهم فلم يراعوا . فكتب الى الوزير : اني عجزت عن الولاية وتركت بلادي

(٦) هو عبد الله باشا الوالي العثماني الذي خلف سليمان باشا على عكا ، وسليمان باشا هو الذي خلف الجزار المتوفي سنة ١٨٠٦ .

منتظراً ان يصفو خاطرهم عليّ . فوجه الوزير بعض مشايخ الدروز واصحابهم يسبع مائة مقاتل وارسل معهم خلعة الولاية الى الامير حسن علي والامير سلمان سيد احمد الشهابيين .

فنهض الامير بشير باولاده وخدمه الى حمانا فاقسم له الامراء اللعيون انهم لا يقبلون والياً غيره . ثم نهض الى قب الياس ثم الى وادي التيم . وسار الامير سلمان بالعسكر الى وادي التيم مصحوباً بامر من عبدالله باشا الى امراء حاصبيا وراشيا ان لا يقبلوا الامير بشير . فنهض الامير الى حوران وضبط الامير سلمان املاك الامير بشير واصحابه . فكتب الامير بشير الى عبدالله باشا يستعطفه فاجابه : لو لم تترك الولاية لما وليت غيرك ، فاسرع الآن الى عكا . فاجابه الامير : ارجو ان تأذن لي بالاقامة ببلاد جبيل ، وكنت اود ان اتشرف الآن برحابك ولكن لم اتكن من ترك اتباعي ولا من احضارهم معي . فاذن له بالاقامة ببلاد جبيل وطلبه ان يحضر الى عكا بنفسه . وكان الاميران حسن وسلمان قد تعهدا لعبد الله باشا بدفع الفين ومايةي كيس .

ولما وصل الامير بشير الى شفا عمرو استأذن الوزير ان يحضر لديه ، فاجابه ان حضوره الى عكا وقتئذ يؤخر دفع ما تعهد به الاميران وخيره بكان اقامته . فاختار جزين وحضر اليها . فالتقاء الناس بالتجلة وارسل الاميران يحييان المال الذي تعهدا به فطرد الجباة من المتن وكسروان وبلاد جبيل ، وتقاطر مشايخ البلاد واعيانها الى الامير بشير . فطلب الاميران من مشايخ العقل ان يتوسطوا للصلح بينهم وبين الامير بشير فتم الاتفاق ان الاميرين يتنزلان عن الولاية وان الامير بشير يأخذها . فعهد الوزير اليه بها مدة حياته فقلبت الاوامر بها بكل احتفاء .

غامبة ظهر سنة ١٨٢١ : ان الاميرين حسن وسلمان رفعوا عريضة الى عبد الله باشا يبديان خوفهما من الامير ، فامر بشنق رسولهما ثم سار الامير بشير الى بلاد جبيل وطلب الامير سلمان ان يكون بخدمته ، فابى .

فكتب الامير حسن الى الامير سلمان واستغواه ان ياتيا الجبيليين الشائرين على

الامير بشير . فانقاد لرأيه ، وقام الامير الى غرفين احدى قرى جبيل . وكان اهل تلك الجهة مجتمعين بشامات . فبقي الامير سائراً الى لحفد .

فاجتمع في حافل اهل بلاد جبيل والبترون وبعض من كسروان واتى رجال جبة بشري الى اهمج وجمهر المتأولة في رام مشمش وارساوا يقولون للامير انهم لا يدفعون الا مالا واحداً وجزية واحدة . وكان الاميران حسن وسلمان يجسرانهم . فارسل يقول لهم : ارتضي بال واحد ، وهم يجمعون المال ويوردونه له . وقبل عود الرسول ظهر نحو النبي رجل من جهة ميفوق وظهر امامهم من الجنوب جماعة من المتأولة واخذوا يطلقون الرصاص ، والامير لا يسمح بالقتال الى ان اصاب احد رجاله ، فثار بعض العسكر واقتحموا اولئك الرجال وتبعهم الفرسان واطبقوا عليهم واعملوا فيهم السلاح وقتلوا منهم نحو ثمانين رجلاً فانهزموا والقى بعضهم انفسهم من شاهق الى اسفل ، واسر منهم كثيرون . فعفا الامير عنهم وقتل من عسكر الامير تسعة رجال .

وقام هو في اليوم التالي الى عمشيت فتعرضوا له في غرفين فارسل اليهم عشرين فارساً يناوشونهم القتال وانكسروا امامهم ليلحقوهم ، فلم يجسروا ان يلحقوهم ، فسار الامير الى عمشيت ثم جبيل (عن كتاب موجز تاريخ سوريا ، الجزء الثاني) .

ولي الدين يكن

١٨٧٣ - ١٩٣١

الببل « بطل الحرب » : وفيما ذكران يفكر ، اذا صوت تسامى اليه في سكون الليل متنقلاً على اثناء الظلم ، احسن ايقاع باشجي ترجيع . فكان الببل . الببل والربيع ، كالمغني والمهرجان . وانما يشدد تلازمهما في مآف لا يتعديانها الى

غيرها . وأحب تلك المآلف اليهما هي فروق .

إذا تراءت الربى في مجاسد الخصب وبدت انماطها وحواشيها محارزة ومعلمة ، منمقة بحاسن الزهر في اختلاف أشكاله والوانه وارتفعت التلاع في منخفض الوهاد كالضارب ، وصفت قبالتها طوائف السرح والسرور كالخواشي والجنود ، اقبلت لتحتشد عند ملك عظيم ، وانسلت الانهار في الاودية كالزئبق وسرت النسايم بين الصدور والارعاء بزفير او اريج ، انطق البلبل من عشه ، وملاً الفضاء تطريباً .
بالعشيات او بالبكور . في الروضة الغناء او الوادي الممرع . على الاثلاث او تحت الشبائك . عند اعتلاق الانداء بالفضاء بين السماء والثرى .

جناحاه في نفوق وسكون . وريشه في تجعد واستواء . يتنقل بين الاوراق الخضر والاعضان الهيف راقصاً معربداً . كلما طرب لنغمة جاوبها بحارة وكلما استنكر صوتاً صمت عنه مداراة . وهو مع كل حالاته شاعر الطبيعة . بديياته طوعه وخواتمه . لا يتصنع ولا يتكلف . يقيم الاوزان ويسدد القوافي بغير كد وبغير تعنت . يترفع عن تمليق الملوك والزلفة عند الكرام . ينسب ويتشبه . ويبكي ويستبكي . غناؤه انين وشعره روح .

ريب الجمال وتبعيه . يزوى بماء المزن ويشمل بشذا . ما تنشر الحمائل . شجي معنى . تهيجه الذكريات وقيته الحشرات . حليف الوجد وهو ابعد المخلوقات عن حمله . يريك لساناً كريشة الكاتب . يقطر لوعة . ويتحرك حزناً . وعينين مروعتين بجوادث الليالي تلمعان على احسن رأس ركب على احسن عنق الى جثمان كالقلب بل هو اصغر واوهن .

ليت شعري ما تضمنت تلك الضلوع الضعاف . وما يهيج تلك الروح المروعة . أكلف بالحرية ؟ أجل كلف بالحرية . هو مجنونها ومعذبها ومدللها بل هو على ضعفه وصغره بطلها . ما اودع قفصاً الا ومات فيه غماً او انتحر يأساً . يزو الى ملك الله في سعته ويتملى من محاسنه . بعيداً عنها ، محجوزاً دون الجولان بينها ، فيفنيه ذلك أسى ولا يستشفى عنه بصبر ولا جلد . آه من البلبل وآه على البلبل .

فَرَحْ أَنْطُونْ

١٨٧٤ - ١٩٢٢

منه مذكرات مفكر مر ابام عبر الحبيب : علمت في زمن الصبى وانا في سوريا بان اسكندر ديماس الاكبر كتب رواية في الثورة الفرنسية ، فاهتديت اليها . وما شرعت في مطالعتها حتى سباني موضوعها واسلوبها لا لامر ما سوى شيء . من المشاركة بين بعض حوادثها وحوادث السياسة في البلاد العثمانية في ذلك الزمن . وكانت سكية كسكية المقابر تخيم يومئذ على البلاد والعباد ، والجرائد السورية لا تنشر شيئاً (ينجش الاذهان) لان المراقبة كانت لها بالمرصاد والصحافة المصرية على قلتها يومئذ قليلة الانتشار في سوريا . فقلما كان للمطالع مصادر يستقي منها غير المصادر التي يجتازها ويسعى اليها . ففي وسط هدوء كذلك الهدوء ، وخول كذلك الخول ، احسست بان عبارات ديماس في روايته هذه كانت كهوق تسطع وتشق جو الفكر ، او اسواط تقرع الاذان وتنبيه العزائم والاذهان . وقد يكون اليوم لعبارات كتلك العبارات تأثير كذلك التأثير في نفوس الرجال الذين اشتدت سواعدهم وقويت الواحم حتى بعد زوال الضغط القديم ومشاهدتهم حوادث يومية كحوادث تلك الرواية ، فكيف بتأثيرها في فتي صغير السن قليل الخبرة والاطلاع .

ولذلك اولعت بهذه الرواية ولعاً شديداً دون سائر روايات ديماس . ولا اتذكر انني قرأت رواية له غيرها قراءة جدية . وكمن مرة قضيت في مطالعتها الليل حتى الساعة الثالثة او الرابعة صباحاً ثم انحدرت بها من فراشي الى حفرة في الحديقة كنت ادفن فيها صندوقاً صغيراً يحتوي الكتب والاوراق التي اخشى عليها من عمال الحكومة خوفاً من التفتيش الفجائي الذي كان شائعاً . فكنت اضعوا في الصندوق بين تلك الكتب والاوراق واعيد التراب على الصندوق ثم انام مطمئناً .

وقد تكون هذه التفاصيل تافهة في ذاتها ولكنني لم اذكرها الا لسبب سترد الاشارة اليه . على ان ولوع المرء بكتاب او رواية سبب كاف في حمله على اشراك

قرائه في ما احبه منها ، حينما يتخذ الكتابة صناعة له ، وهذا ما جعلني افكر في تعريب هذه الرواية والحاقها بـ « الجامعة » ^(١) حين رأيت الحاقها برواية . وهناك ايضاً سببان آخران ، الاول : تلذذي يومئذ (بمضايقة) مراقبي الجرائد والمجلات في البلاد العثمانية جزاء لهم على ما عانيتهم بسببهم من الحذر والالتقاء والاحتراس في اثناء مطالعاتي الاولى . والثاني ، وهو السبب الوجيه : رغبتني في ايقاد تصورات ابناء الشرق بهذه الرواية ، كما انتقدت تصوراتي بها في صباي . وقد خيل اليّ انني بتعريبها في اثناء ذاك السكون التام والحول الشامل افتح ، في ذلك البناء القديم ، نوافذ مطلة على سماء الحرية ليبد منها النور والهواء ، وانصب امام قرائها مثلاً يحتذونه ، قته تحيط بها زرقة السماء وقاعدته مغموسة في الدماء . وقد يكون هنالك سبب اوجه من جميع تلك الاسباب التي تقدمت وهو الداء الذي يقع فيه كثيرون من الصحافيين والكتاب ، واعني به الرغبة في اجتذاب القراء بالمواضيع الجذابة . ولكن ليس من مصلحة الكتاب ان يعترف مثل هذا الاعتراف ويسجل هذا الكلام على نفسه لان صناعة الكتاب كصناعة الكهنوت فيها كثير من الاسرار .

وقد شرفت الحكومة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد هذه الرواية حين الشروع في نشرها في « الجامعة » بوضع تلغرافات كانت تبعث بها الى الولايات السورية كلها صدر جزء من الجامعة وفيه جزء من الرواية . ولما كانت اجزاء الجامعة يبعث بها (مضمونة) في البريد الفرنسي فقد كان البريد الفرنسي يعيد الى ادارة الجامعة الاجزاء المرسله الى داخلية البلاد العثمانية والتي تسبقها الى الثغور السورية لتلغرافات الاستانة ، بينما كانت الاجزاء التي تسبق تلك التلغرافات الى الثغور تمر وتصل الى اصحابها في الداخلية دون ممانع . ولما تحققت ان كل الضرر وارد من اطلاع قلم المطبوعات بالاستانة على « الجامعة » قطعت الجامعة عن قلم المطبوعات في الاستانة والنظارات ، قطعاً مطلقاً ، حتى عن مشتركها في الاستانة ، فبطل ارسال التلغرافات مدة من الزمن . وقد ظننت انني بقطعي « الجامعة » عن الاستانة قد وجدت دواء للداء ، وما كنت ادري ان داء الاستانة يومئذ داء لم يكن له دواء قبل قيام شوكت

(١) اسم المجلة التي انشأها فرح انطون .

باشا وجيشه . فان حكومة الاستانة لم تلبث ان امرت بمنع دخول مجلة الجامعة الى البلاد العثمانية بسبب نشرها هذه الرواية على الاخص .

وقد انقضى الآن عشر سنوات على نشري هذه الرواية قضيت منها ٤ سنوات في جهات اوربا والولايات المتحدة وكندا . وعند وصولي الى باريز ، لأول مرة في حياتي ، كان اول ما عملته اني زرت اشهر الاماكن التي وقعت فيها وقائع هذه الرواية كالتويلري والمجلس البلدي وفرسايل وساحة الباستيل التي ليس فيها اليوم من آثار الباستيل شيء سوى تذكار نُصِبَ في وسط ذلك المكان يذكر الناس بهجوم الشعب على الباستيل ، واطهاره لأول مرة قوته على قوة الملكية . والمكان اليوم ساحة متسعة تحيط بها القهاوي ، وكان ارضه في ظلام الليل ونور النهار لهدونها وقلة الزحام فيها كائن تعب لحمله ثقلاً هائلاً عدة قرون جالس يستريح ويتنفس الصعداء خلاصه من ذلك الثقل الهائل الذي كان فوقه كصخرة هائلة ملقاة على قلبه ، او « كوحش هائل رابض على قارعة الطريق يفترس الناس » كما قال ديباس⁷ . وقد وقفت غير مرة في ذلك المكان واخذت اقول وانا اجول في النحاء تلك الساحة الهادئة : هنا كان سجن الفكر والقلم والعقل . هنا كان مدفن الكتاب والفلاسفة والساسة من معارضي الحكومة ، دفنوا فيه احياء ولكنهم ما لبثوا ان تمطوا وهم في مدفنهم فرفضوا عنهم بقوة الفكر الذي لا يسجن حجارة القبر ونبذوا الاكفان وفتحوا جميع قبور الاستعباد لجميع المدفونين واخرجوهم الى نور السماء ! هنا كان اول ما سطع نور الله على الارض وانبأ طريق الشعوب وفتح السبل في وجهها بعد ان كانت مسدودة ! هنا كانت اول واقعة فاصلة بين حق الشعب وحق الملك فصرع الاول الثاني ! هنا كان مولد الديموقراطية ومدفن الاوتوقراطية والارستقراطية ! هنا كان مهبط رسالة جديدة للبشر كرسالة احمد يصونها سيف ماض كسيفه ! هنا كان مزود بيت لحم الثاني الذي ولد فيه المسيح الثاني ولكنه (عُمَد) بالسيف والنار والدماء لا بئاء الاردن ! هنا ظهر الله يوماً ظهوراً اجلى من ظهوره على جبل سيناء او عليقة موسى ! هذه هي الافكار الشائعة بين الجمهور في شأن الثورة الفرنسية ومبادئها . وقد تغذى في صباي لحمي ودمي من هذه المبادئ ، وقرأت تاريخ تيمرس وميشله وشيناً من

تاريخ كارليل في شأنها حتى أصبحت احرم على نفسي رشقي لها ولو بوردة حتى في المبادئ التي بطل اعتقادي بها ٠٠٠ - (مقطع من مقدمة فرح انطون لرواية ديماس التي عر بها عن الثورة)



مُصْطَفَى كَامِل بَاشَا

١٨٧٤ - ١٩٠٨

اشراك الشعب في حكم نفسه سبب الرقي : من الشعوب من يسلم زمام اموره الى حكومته ويجري طوع ارادتها ، ومنها من يجعل للحكومة حداً في السلطة والنفوذ ويراقبها مراقبة شديدة ، ان احسنت كافأها وان اساءت قضى عليها . فشعوب الشرق من النوع الاول ، وشعوب الغرب من النوع الثاني . ولذلك كان الشرق في تأخر والمخطاط وكان الغرب في تقدم وارتقاء ، لان الشعب هو في الحقيقة صاحب البلاد وسيدها وحارس الوطن من كل الاخطار . وما الحكومة الا وكيل عنه تختار من نخبة ابنائه ومن اشد هم حرصاً على مصالحهم .

انه الشعب هو القوة الوهيدة الحقيقية : على اننا لو تأملنا قليلاً الى ما اقيم في هذه البلاد من عظام الاعمال ، لوجدنا ان الشعب هو المنشئ له والموجد اكيانه . فهؤلاء الافراد الصغار الذين لا يعبا بهم الكبراء والعظماء هم في الحقيقة قوام مصر ومصدر نعمتها ولولاهم ما عرفنا العيش ابداً . من المؤلف للجيش ؟ افراد الشعب . ومن المكون للشرطة وحفظ النظام ؟ افراد الشعب . ومن الموجد لمحصلات مصر وخيراتنا ؟ افراد الشعب . ومن يُعيش العظماء والكبراء والامراء ؟ افراد الشعب . فهم دون غيرهم قوام الوطن ومصدر خيره ومجده وسعادته . فكيف يجحف بحقوقهم ؟ وكيف يهانون ؟ الا ترى ان العظماء انما هم كذلك ، لان افراد

الشعب يحملونهم فوق رؤوسهم ويطيعون اوامرهم ؟ والا فلو تحول الشعب ضدهم فذا يفعلون ؟ وهل يستطيعون مقاومته او يقدرّون على الوقوف امامه ؟ كلا ثم كلا ! ان الشعب هو القوة الوحيدة الحقيقية ، وهو السلطان الذي يخضع لارادته اكبر العظماء واعظم الاقوياء

المساواة امام الوطن : ان الناس سواء امام الوطن في الحقوق والواجبات .

المواطنون منطّفلون منضامنون : اذا ظلمت الحكومة احدنا ولم نعمل لرد هذه المظلمة ، كان ظلم الحكومة واقعاً لا محالة على الجميع (مقاطع من خطاب الزعيم الوطني المصري ومفالاته نقلا عن كتاب « مصطفى كامل باشا في ٣٤ ربيعاً ») .



امين البستاني

١٨٥٤ - ١٩٣٧

الديموقراطية^(١) : الديموقراطية لفظة يونانية تركبت من كلمتين : ديموس ومعناها الامة او الشعب وكراموس ومعناها السلطة : اي سلطة الشعب ويقابلها الاوتوقراطية . واللفظة يونانية ايضاً ومعناها سيطرة الفرد او الملك المطلق لا الدستوري المقيد . هذه انكلترا « ديموقراطية » على رأسها ملك الا انه دستوري مقيد يسوس الامة ولكن على يد الامة فهو ملك جمهوري .

قلت ولم تزل الحرب مستعرة بين الديموقراطية والاوتوقراطية منذ تبليج فجر المدنية ، دلنا على هذا تاريخ اثينا ورومية في القدم وتاريخ فرنسا وانكلترا وغيرهما في الطارىء .

(١) نقلا عن كتاب « مختارات امين البستاني » ، مصر .

الحديث . فمن اوتوقراطية الى ديوقراطية ومن ديوقراطية الى اوتوقراطية حتى ظفرت الديوقراطية ، الا الولايات المتحدة الاميركانية فانها استمرت من الاصل على الديوقراطية لا تنصرف عنها ابد الايام وذلك لتمكن المذهب الديوقراطي منها واشرا به نفوس قومها . ولا غرو ان تسود الديوقراطية آخر الامر لانها حكومة الامة والحكومة الامة لا للملك الذي هو رجل منها اختارته ان يكون رأس دولتها او اغتصب هو هذا الملك اغتصاباً وغلاباً في حرب وقعت او فتنة فرقت بين الامة ادرك بها طالب العرش مناه . لما قبض الملوك على صوالجة عروشهم انتحلوا حق السماء وقالوا ان ملكهم من الله لا من عباد الله . ومن هذا قيل لامبراطور الصين ابن السماء ولسلطان العثمانيين ظل الله على الارض . ثم ظلت الامم تلقي على ملوكها مثل هذه النعوت الضخمة حتى هـوا من تلك العروش الا الملوك الذين دانوا لسنة الديمقراطية فاستقروا على عروشهم وهم اشباه رؤساء الجمهوريات لا ابناء السماء ولا ظلال الله على الارض . على ان تبدل طريقة الحكم من سنن اوتوقراطي اي من سنن التحكم والاستبداد الى سنن الحرية والدستورية فجأة وبيرة واحدة افضى الى فتن سالت فيها الدماء وتناولت رؤوس الملوك انفسهم فلم تسلم من سيوف الفتنة ان تجزها وتجزمها . والشواهد كثيرة في التاريخ القديم والجديد اذ لا بد للملوك من احزاب تنصرهم وتنفر معهم للدود عن عروشهم فتقتل الرعية ولم تزل بالاقتتال حتى يظفر فريق بآخر ، وغلب ان يظفر فريق الحرية ان لم يكن عاجلاً فبعد حين . لانه متى عصفت فتنة الحرية بأمة واذقتها شيئاً من حلاوة الديمقراطية فلا تنكص عنها حتى تبلغ امانيتها . الا ان حكماء الامم اجمعوا على ان التدرج والتدرب على طريقة الديمقراطية هما اسلم عاقبة واثبت اثراً من الضمور ، فقد جاز ان تلتوي امانى الاحرار بمثل هذا التسرع وتقوم الفتنة ويفسد القصد على طالبيه .

لقد غلبت الديمقراطية وعتت بسيط هذه الارض فمن غالبها من ذوي التيجان فقد غلب على امره وهوى من عل . وان تسأل من له اليد البيضاء في اعزاز هذه الديمقراطية المباركة اجبتك جمهورية قدماء اليونان وقنصلية الرومان اللتان وان باتتا في ذمة التاريخ الا انهما لم تبرحا . مثالين صادقين واستاذين كريمين لامم اوروبا . فهبت

ثورة الانكليز اولا في طلب الديمقراطية وعقبها ثورة الفرنسيين عام ١٧٨٩ وكانت ام الثورات ومطلع فجر الحرية للعالم كله . ثم ان سنة الانصاف لتدعونا ايضاً ان نذكر للولايات المتحدة الاميركانية يداً جميلة على الديمقراطية في هذا العصر ، وحق لفرنسا نصيب من هذا الشكر لانها نصرت الاميركان في حرب الاستقلال وبعثت اليهم قوادها الذين قادوها مع واشنطن للنصر والاستقلال .



امين الرّيحاني

١٨٧٦ - ١٩٤٠

الثورة الافرنسية : لو قصد المؤرخ ان يطالع كل ما كتب عن الثورة الافرنسية في اللغتين الافرنسية والانكليزية فقط لصرف زمانه كله في المطالعة . بل انه يموت دون ان يتم هذا العمل الخطير غير المفيد . وقد انقم مؤرخو الثورة الى قسمين فمنهم من تحرى سرد الحوادث دون تحيز وتحيز ومنهم من ألحق بكل حادثة نقفاً من فلسفته السياسية الخصوصية فندد بنجرب ونصر آخر وكان اما ملكياً او جمهورياً .

اما كارليل الكاتب الانكليزي الشهير فقد حاد عن الخطتين في كتابه المسمى « تاريخ الثورة الافرنسية » فهو لا يطري الجمهوريين كهوغو ولا يندد بهم كتيارس ولا يتعامل على الملكية بانتقاده اكثر مما لو كانت حكومة جمهورية . بل اراد في تاريخه هذا ان يكون خالي الغرض غير متحيز لحزب من الاحزاب ، ولكن نيته هذه الحميدة اوقعت في الفتور الذي لا يسلم فيه صاحبه من عدم الاكتراث والشك . ومن كلف نفسه قراءة شيء من تأليف كارليل العديدة بيان له بعد قليل من التفكير ان الرجل عصبي المزاج اسير السويداء والتخمة ، وقد كان مصاباً بداء آخر اهم من الاثنين

لا فائدة من ذكره في هذا الصدد ، وان نتيجة هذه العوارض الخبيثة تتجلى دائماً في كتاباته في شكل من التهكم فظيع ، والكتاب الذي نحن بصده الآن مفعم بمثل هذا الازدراء والسخرية . ومعلوم عند الناقدين ان هذا الاسلوب لا يليق في سرد التاريخ فهو كثيراً ما يشوش المعنى الحقيقي ويجعل القصة البسيطة متشعبة متلونة غامضة لا يستطيع القارئ فهمها دون ان يجردها من ثوبها المزخرف الكثير الالوان . ليس من العدل اذاً ان يدعى هذا التأليف تاريخاً فهو خالٍ من الاعتقاد والرأي في الحوادث التي يسبرها ومفعم بوساوس الفيلسوف العديدة التي تروقنا في بقية مؤلفاته وترجعنا في كتاب دعاه تاريخاً .

كتاب يفتقر الى روح جدية لترفعه من طبقة الخلقيات الى طبقة العقليات . ولا نقدر ان ندعو الكتاب رواية لان فصوله غير متصلة بعضها ببعض اذ نقرأ كل فصل بذاته ولا تتولد فينا رغبة معرفة السابق واللاحق . فالكتاب اذاً مجموع مقالات متفرقة في حوادث الثورة الافرنسية ورجلها مسطرة على قرطاس القنور والشك ببراءة التهكم والازدراء . ولا رأي خصوصي له في تلك الحوادث واولئك الزعماء سوى انه ينصر تارة الكل وطوراً يقاوم الكل ، وهذه هي المزية التي خدعت الناقدين في زمن كارليل فانزلوا كتابه هذا منزلة التاريخ في الوقت الذي يجب ان يعد في كتب الخلقيات والوصف . كيف لا ومزاج المؤلف العصبي ظاهر في كل صفحة من الكتاب ، فهو يقيس كل حادثة ويحكم على كل فرد له علاقة في هذه الفتنة الهائلة بتقتنى هذا المزاج المركب من السويداء والتخمة والتهكم .

ولسنا من الذين ينكرون على الكاتب حق التهكم في بض الاحايين اذ اننا نعتقد بصلاحيته هذا الاسلوب ونعده من الظرائف الجدلية الفعالة التي يقاوم بها الكاتب كل سخيف سقيم . اما توكم كارليل فحاد اذا خف وفظ اذا اشتد . وبينما نحن نطالع هذا الكتاب لم نتمكن ان اعدا الفكرة الى ما كنا نطالعه من نفثات فولتر فزنا نرى بين مؤلفين نابعتين الواحد منهما لاتيني والآخر سكسوني شبيهاً عظيماً من حيث اسلوب الكتابة السخري الذي استخدماه في مقاتلة الفساد والظلم والخرافة . ولكن اين تهكم الانكليزي الكالح الجاف من تهكم الافرنسي الواضح المنير ، فهذا شبيهه

بهر كان وذاك برض عضال مزمن . هذا يهلك ما يلقاه عاجلاً وذاك يدخل جسم الفساد واخرافة فيضعفه ويلاشيته تدريجياً . فضلاً عن ان تهكم كارليل خال من الذكاء الذي يزين تهكم فولتر . كان كارليل يردد اذا غضب ويطر واما فولتر فكان يبتسم ابتسامته المشهورة ويسير بهدوء الى غايته المطاوعة .

لنعد الآن الى الكتاب الذي نحن بصدده . اراد المؤلف ألا يتحيز في تاريخه وان يكون مع الحق اينما وجد سواء كان في جانب زعماء الثورة او حول عرش الحكومة القديمة . ولكن رغبته هذه ادت به الى القصور وعدم الاكتراث . والحق يقال ان من لا يكثرث لحادثة ما لا يستطيع ان يكتب عنها بدقة واصابة واخلاص . وكارليل يبحث عن اكبر حادثة في العالم كما تبحث صحف الاخبار عن جريمة بيتية او حادثة خصوصية يزول اثرها بعد ان يقرأ خبرها . فهو ابدأً يفتش عن الحوادث الطفيفة التي كان الاحرى بها ان تدون في الروايات الغرامية ويستنتج منها نتائج عمومية فاسدة ويصور من هذه صوراً خيالية فظيعة يسأم هو منها في النهاية ويرفع يديه الى السماء صارخاً : « اممكن ان تخلق ربي مثل هذا الشعب ؟ »

وهل دعوة الافرنسيس يا ترى خالية من الحقيقة وهل الثورة بذاتها نهضة فاسدة مضللة ؟ وكيف يتملص الكتاب القاتر المشكك من لوم الناس الذين حاربوا الثورة او نصروها وبعض بنيتهم واحفادهم لم يزالوا حتى يومنا هذا يقاومون نتائجها وبعضهم ينصرونها . فلو كانت فاسدة على الاطلاق لامحت آثارها بعد مئة سنة من الزمان . نحن من الذين قالوا بعدم الاكتراث في بعض المسائل الدينية التي لا تولد الا النزاع والشقاق ، ولكن الوقت لم يكن لنبد الحاسة السياسية والغيرة القومية ، فالمرء الذي لا يكثرث لامور حكومته يعد خاملاً ، والكتاب الذي لا يجد خيراً في اي نوع من الحكومات يعد فوضوياً .

ان الحقيقة التي نفصلها عن اخواتها - عن اسبابها ونتائجها - وندونها معتزلة مستقلة كثيراً ما تغش المؤلف وتضر بالغاية الاصلية التي ينبغي ان تظل نصب عينيه . اما الثورة في رأي كارليل فلا سابق ولا لاحق لها . هي فلتة اجتماعية لا سبب لها ولا نتيجة . هي ضربة من ضربات الله . هي مصيبة من مصائب الزمان . هي بنت الاتفاق

الذي نشأت عنه وماتت فيه . هي حادثة معتلة عن حياة البشر السابقة وعن مستقبلهم . ان عدداً من الناس ينتسبون الى بلاد تدعى فرنسا قاموا في وقت من الزمن فهاجوا وهاجوا وحدث بينهم شعب عظيم وقتال من اجل قوانين ونظامات سياسية جمعوها فلقبوها بالقانون الاساسي . ومن ثم اهلك بعضهم بعضا وختموا القانون بدمائهم وعادت الاشياء الى عالم النسيان ، الى ظلمات الزوال . هذا كل ما يراه كارليل في الثورة الافرنسية ، فهو لا يكلف نفسه النظر في البواث التي من اجلها سفكت دماء الالوف من الناس . ومع ذلك هو يحاول اظهار الفاسد من الصحيح فيها . وكيف يستطيع الكاتب ان يحكم على احوال امة في عصر لم يكن هو منه بعد ان اهمل التنقيب في تاريخ الامة الماضي وفي اخلاق الشعب واحواله السياسية والزراعية والتجارية .

قد اوجب الاقدمون على المؤرخين ابداء الحكم في كل قضية يدونونها واقاموهم مقام القضاة . وبعد ان يدون المؤرخ الحوادث بدقة واخلاص يحصص الصحيح من الفاسد فيها ويستنتج من ذلك نتيجة تسوغ له وضع قاعدة ادبية فيها نور وهدى للاجيال المقبلة . وقد قام كارليل ببعض هذا الواجب في تدوين الحوادث غير انه اغفل امراً جوهرياً هو ذكر السبب الرئيسي الذي نشأت عنه الثورة فهو لا يرى فيها عملاً واحداً يستحق الشكر اذا ذكر ولكن حادثة واحدة فظيعة لا تقدر في نهضة عمومية خطيرة وان تعددت هذه الحوادث المرعبة فالنظر اليها الى اسبابها الاولى معاً لامر واجب على المؤرخ .

ان صلب المسيح بالنظر الى مصلحة الشعب الاسرائيلي عادل في الظاهر وبالنسبة الى البشرية هو جائر فظيع ، اما الحادث هذا وحده فلا معنى له ولا اهمية . وان من يقرأ سجلات الحكومة الافرنسية ومعلومات السياسيين والكتّاب الذين شاهدوا الحوادث وكانت لهم يد فيها يبالغ لا شك في التعنيف والتنديد بما يدعى « دور الهول » اذا اغفل الغاية الرئيسية التي بسببها ومن اجلها تأسس .

ومن كان نظير كارليل سريع التأثر صعب المراس حاد المزاج يحكم على الحوادث هذه بالنسبة الى انفعالات نفسه لا بالنسبة الى الظروف التي نشأت عنها ، ولذلك لا نرى في كتابه الا مجموعة قصائد مدح وفخر وهجو ورثاء . قلت مجموعة قصائد لان في اسلوب

نثره جمال الشعر وزخرفته فهو يسير منشداً وراء عربة المنتصرين وباكياً في موكب المهزمين . يرفع اليوم قوس نصر للقوة المادية ويبني في الغد مذبحاً للشفقة والحنان . وبين هذه المتناقضات يصبح القارىء حائراً تأثراً . كيف لا وهو يتوقع من المؤرخ اكثر مما يتوقعه من الشاعر . نريد ان نعرف كيف تخض آلام البشر وشقاؤهم لا كيف نندب هذا الشقاء ونرثيه .

ان في حياة الاجيال الماضية امثولة للاجيال الحاضرة والمقبلة ، والمؤرخ الذي لا يظهر هذه الامثولة فيلهم عنها في وصف البؤس والشقاء لا يخفض شقاءنا ولا يعلمنا شيئاً . ان في اعمالنا اليوم امثولة ثمينة لابناء الغد هي الكنز الوحيد الدائم الذي يرثه عنا الخلف بواسطة التاريخ . ومن واجبات المؤرخ المحافظة على هذا الكنز الثمين بعد الوقوف عليه ، واذا كان ضائعاً بين انقراض التورات والحروب او محتفياً في بحار الاهواء والتعصب فعليه ان يفتش عنه بصبر وعناء وينيره في الناس مصباح هدى وسلام .

ان الحلقة التي تصل الماضي بالمستقبل هي حلقة الترقى الدائم مما كان الى ما سيكون ، والحوادث التي تتخللها هي حلقات بعضها يشترك ببعض وليست متفرقة متشتتة كما يزعم كارليل ، والمؤرخ الذي يكمل سلسلة الترقى او بالحري يزيد في توثيقها يخدم الناس خدمة حقيقية . ولكن كارليل لا يعتقد بحياة جامعة شاملة ، حياة روحية دائمة يتصل آخرها باولها ^(١) ، بل هو شديد الاعتقاد بالتفرد والافراد وقد قال مراراً ان تاريخ العالم هو تاريخ عظماء الناس . على ان الفرد اما هو صوت واحد ينطق باسم ملايين من الناس الصامتين ، فالرجل العظيم اما هو عظيم بشعبه لا بنفسه ، هو يستمد معظم قوته مما يحيط به من الاشياء والظروف والرجال ، هو خاضع كأصغر الناس لناموس الترقى الدائم الازلي بل هو صنعة هذا الناموس وخادمه الخاص علم ذلك او جهله . فلو ولد نابليون في بلاد الصين مثلاً وعاش فيها لما كنا نعرفه الان . ورب قائل لو ولد نابليون هناك هل كانت حصلت فرنسا على المجد الذي اكسبها اياه ؟ اجيب بالايجاب اذ لو لم يولد نابليون فيها لنشأ غيره وهذا ما يجعلني شديد التمسك بما يدعى ناموس الترقى الدائم الذي يقضي بوجود رجل عظيم كل فترة من الزمن لتأييد هذا الناموس وتعزيزه .

ان القنوط والشك واليأس والفتور كلها طبائع تظهر في كل صفحة من هذا التاريخ وفي اسلوب انشائه الجميل الفخم . وقد قلت ان كارليل هو شبه الشاعر مما هو بالمؤرخ ، والشاعر لا يكون استاذاً في الاقتصاد السياسي ولا فيلسوفاً في العمران ، فهو اذا قرأ سجلات الحكومة الافرنسية ومعلومات من شاهدوا الثورة يشور ثأره الشعري فيحصل فيه انفجار اشبه بالبركان ويدهمنا بجمم تحرق ولا تنير ، فتسود منها آفاق البصيرة وتظهر اشباح ابطال الثورة التي يصفها وهي تنهادر في الظلمة غير المتناهية . ولكن ما هي غاية هذه الاشباح وما هو غرضها ولماذا اشغلت فكر كارليل فألف فيها مجلدين ضخمين ؟ ألانها كانت تندب وتنوح عبثاً وتقاتل وتحارب باطلاً وتصبح وتنادي دون غاية ودون مرمى ؟ ماذا فعلت هذه الاشباح ؟ اكلمها الزمان فتلاشت من ذاكرة الانسان . بلعثها الظلمات فامحت من لوح الحياة . هذا جواب كارليل وزبدة فلسفته المختبئة في اكهام الفصاحة واشواك البيان . وبناء على ذلك لا يحق لتأليفه ان يدعى تاريخاً ، وانما هو ملحق تصويري لتاريخ الثورة الافرنسية وان فصوله لأشبه بصور رسمتها يد ماهرة . صور تساعدنا على الدخول الى تاريخ الثورة الجدي ولكن لا تنبئنا به كثيراً ، فهي من هذا القبيل اشبه بالصور التي ترين بها الروايات التاريخية تحملنا الى بعض ما يقصده الكتاب ولا تكشف لنا الستار عن القصة بكاملها .

ومن جهة فلسفية يمكننا ان نقول ان المؤرخين اثنان : الاول يعتقد بالنشوء والارتقاء الاجتماعي بالتدريج الدائم بالصعود المستمر . والثاني لا يعتقد بشيء من هذا . فلسفة ذاك في العمران شبيهة بنحط مستقيم عمودي وفلسفة هذا بالدائرة صعود . البشر في رأي الاول دائم مستمر وفي رأي الثاني محدود تصل الشعوب فيه الى نقطة لا يستطيعون ان يتجاوزوها فيهبطون عائدين الى الهوة التي خرجوا منها . وهم في هذا يشبهون الحية التي تأكل ذنبها . ومثل هذا المؤرخ الذي لا يكثرث بالاشياء ولا يحترم روح التاريخ ولا ينظر الى ما وراء الحوادث يجرد على الفساد والظلم سلاح التهكم والازدراء ولا يفوز بغير الهدم والتدمير . ومثال ذلك ان كارليل يشغل فكرته وقرينته غالباً بطيف الحوادث وتافهها شأن القصصي او الكاتب الاخلاقي ^(٢) فضلاً عن انه لا يعتقد

في تاريخه هذا بغير الزوال الدائم :

كل بيت للهدم ما تبني الورقاء والسيد الرفيع العباد
والليب اللبيب من ليس يغتر بكون مصيره للفساد

والمؤرخ الدهري يتلف عن الفيلسوف الدهري في ان هذا يعتقد على الاقل بأزلية
المادة وخلودها وذلك لا يعتقد لخلود شيء . انما حياة الاشياء والمخلوقات الى اجل
مسمى . بل هي خيال زائل يظن ذاته حقيقة ثابتة دائمة . في مثل هذه الاقاويل
يبرهن كازليل على ان الثورة الافرنسية لا تؤثر ابداً في تزيخ الشعوب والعمران ولن
تؤثر حتى في احوال اوربا السياسية والاجتماعية .

وفي الفصل الثاني من الكتاب الاول يرفع الستار حتى النهاية عن فلسفته الاجتماعية
الدهرية ، ومن يقرأه مفكراً تنجلي له النتائج التي استخلصها منه وهي ان تعظيم
الصغار يلذ متى كان النافع في فقاقيعها كاتب عظيم ككارليل ، ولكن الحفول في
الصغار يبعدنا عن الجوهر الحقيقي . وان الفكر الروحي الداخلي زائل لا ازلي هو
ولا خالد بل هو يتغير ويتحول ويتلاشى كالمادة صحيحاً كان او فاسداً . وان النهضة
الاجتماعية السياسية تظهر فجأة واتفاقاً لا بعد ان تنضج في خفايا الزمان . وان الفلاسفة
مخطئون على الاطلاق في مبادئهم الاقتصادية وفلسفتهم الاجتماعية . وفي بقية الفصول
دليل واضح على كل هذا . وفي ما كتبه عن ميرابو بالاخص وعن ليلة رابع آب
دليل انصع واوضح . ومعلوم ان مجلس النواب الغي في تلك الليلة الشهيرة في مدة ساعتين
من الزمن نصف شرائع الحكومة القديمة وقوانينها . واذا اراد القارىء ان يطلع على
مثال جلي من تهكمه اللفظ وانتقاده العنيف الشديد فليقرأ الفصول التي يصف فيها
فرار الملك والمخافة الوطنية في شأن ديار والمشاغب التي نجمت عن نلة الخنطة
واحتكارها . ولم مرة ردد في كتابه عن مجلس الامة الذي نشل فرنسا من الهوة
التي كادت تبتلعها قوله ان « قد اجتمع اعضاء المجلس ليصلحوا قواعد الافعال الشاذة » .
قد لا يحترم كارليل الا القوة المادية وكثيراً ما يكبر نزوات الانسان واهواءه ويمجدها .
فهو لا يرى في نهضة الافرنسيين على ارباب الظلم والظلام سوى معدة فارغة وخمة
وعشرين مليوناً من الاسنة الملتهبة حماساً الملتوية جنوناً في عالم من الفساد مضطرب

مدلهم . فالحزب في مذهب كارليل هو سبب الثورة ونتيجتها ، هو الاول وهو الآخر .
واما المؤرخ الذي يعتقد بالصعود المتواصل بالتتقي الدائم فهو لا شك يرى ان ليس
بالحزب فقط يحيا الانسان .

ان بين الكمالات النظرية والاختلال الحقيقي في حياتنا الاجتماعية علاقة خفية
تكاد لا تنظر بالعين المجردة ولا تتجلى دقائق الحكمة فيها الا لمن خصتهم الطبيعة
بشيء من البصيرة والذكاء . وبنفس صافية شفافة صحيحة تنعكس فيها الاشياء انعكاساً
تاماً جلياً صحيحاً . ولا شك ان بين ما هو كائن في تصوراتنا وما هو حادث في
حياتنا فرناً ظاهراً ومع ذلك فان هذا الا انعكاس ضعيف مختل لذلك . كأن العقل
البشري اليوم اشبه بآلة مكسرة لا تنعكس فيها الاشياء كما ينبغي . والا يجوز لنا
مع ذلك ان ننفخ في الحوادث روح الكمالات النفسية فتبقى مدفونة فيها الى ان
ينشرها الزمان فتظهر ولو بعد الوفاة من السنين بظهر من الحياة سامٍ نقي جميل . « الا
نستطيع ان نمزج القليل مما هو كائن في تصوراتنا بما هو كائن حادث في حياتنا ؟ الا
نستطيع بكلمة اوضح ان نزرع فيها نقص وفسد من الاعمال بذور ما تعالى من الآمال
لتنبت وتثمر ولو في جيل بعيد بل آت من الاجيال ؟ »

هذه سؤالات يضجك منها كارليل الساخر بآمال الناس المستخف بتشوقات الروح
الكمالية . فهو لا ينجنا شيئاً ولا يدعونا الى شيء ولا يؤملنا بشيء . القوة الحيوية
المادية التي تظهر في عظام الرجال وابطال التاريخ انما هذه في مذهبه كل شيء .
انا آكلك وآخر يأكلني . برافو ! والاخير من البشر فريسة من يكون ؟

ولا نظن ان المؤلف حاول ان يضع تعليماً جديداً في الثورة الافرنسية ، فالمؤرخون
كما سبق القول ينصرون الثورة او يقاومونها ، اما كارليل فشاء ان ينصرها ويقاومها
معاً . ولكن هي التخمسة وعرض بل مرض آخر وأدا فيه السويداء فاصيب بالفتور
والشك واصبح لا معها ولا عليها ، ولا نظنه ولو شاء يستطيع ان يؤسس حزباً ثالثاً
غير متحيز لانه في كل ما كتبه عن الثورة لم يبد قط رأياً وضعياً ثابتاً يتخذة الحزب
دستوراً لأعماله بل كان كريحشة في مهب الريح طوع تثراته واسير وساوسه .

هل الملكية لازمة نافعة للناس ؟ كلا ، انها مبنية على اساس فاسد . هل الجمهورية

اصلاح منها ؟ كلا ، فهي قد نشأت من الظلمة وشيدت على جثث الملايين من العباد .
 علينا اذاً بالفوضى ، هذي هي نتيجة فلسفة غير المتحيزين من المؤرخين .
 وقد علمنا التاريخ حقيقة نود لو لم تكن وهي ان من اراد تأسيس حزب او
 وضع تعليم او انشاء ديانة ينبغي له ان ينظر الى وجه واحد من المسألة فقط .
 اذا شاء ان يكون صريحاً في رأيه حازماً في قوله ثابتاً في عقيدته ، وبكلمة اخرى اذا
 شاء ان يكون مؤسساً لحزب او تعليم او دين ما عليه ان يكون متحزباً متعصباً
 مأخوذاً بدعوته مهما كانت . عليه ان يكون اعمى اصم في ما سوى ذلك . فالنفي
 والشك والتردد وعدم الاكتراث والفتور هذه لا تؤسس ممالك واحزاباً وديانات .
 وهذه كلها من مزايا كارليل المشهورة . فقد احب الا يكون متعصباً لا مع الثورة
 ولا لها فجاءنا بتعصب جديد خصوصي لا يضر بالحقيقة الجوهرية ولا ينجعها وقد يلذ
 لمن تتوق نفسه الى الجديد من الاشياء والآراء . وبما انه توسع في الصغائر والتوافه
 التي تتعلق في الثورة ولذ له سردها بل نظمها في نثره الفخيم فهو اشبه بنور تضعضعت
 اشعته المرسلة في كل الجهات ولم تتعدّها الى ما وراءها من الجوهريات . وانه لو
 صوب نور مصباحه الى غرض واحد في جهة واحدة لارانا في الزوايا شيئاً من الحقيقة
 الثابتة الدائمة . لو فعل ذلك لغاز بوضع تعليم جديد او تأسيس حزب ثالث ينظر
 في شؤون الثورة نظر الغريب عن هذه الارض وقيس منافعها واضرارها بغير مقاييس
 هذا العالم .

اما التنديد برجال الثورة والاستياء من النهضة بجملتها والنفور من هولها والفرار
 من نارها المحرقة المنيرة فهذه ذنوب لا تغتفر للمؤرخ اذا اقترفها . فالطفل يولد في
 الالم والعذاب والجمهوريات تنشأ في الثورات والحروب . الأم تتألم ساعة الولادة
 وكذلك الامة . يموت الانسان والعذاب دلازمه ويولد الطفل والالم حليفه . وكذلك
 الحكومات بانواعها والامم . فلا تموت حكومة بسلام ولا تنشأ حكومة بسلام .
 ولا بأس في الختام من قصة صغيرة اوردها فقد ذكرتها بها مطالعة هذا الكتاب
 الذي اود ان يطالعه كل من يحسن اللغة الانكليزية من قرائي . ورب قائل : ولم
 تدعونا الى مطالعته بعد ان تحققت فسادته وبان ذلك الضرر الذي ينجم عن اقتباس

الافكار التي جاءت فيه ؟ اريد ان يقرأه كل من كلف نفسه قراءة هذا البحث
ليستطيع ان يقابل بين الاثنين . لا اريد ان يرتأي احد رأيي دون ان يشغل قليلاً
فكره . لنعد الآن الى القصة .

اراد احد الملوك الاقدمين المولعين بالعلم ان يطالع على تاريخ الامم فطلب احد
وزرائه وامره بتأليف او جمع تاريخ عام فذهب الوزير وغاب سنين ثم عاد الى الملك
ومعه عدد من الجمل محملة كتباً ، فوقف امام ملكه وقال : « ها هو التاريخ الذي
تطلبه . » ولكن الملك وقد هالته اجمال اجمال امر الوزير ان يختصر التاريخ فغاب
هذا ثانية وعاد بعد سنين ومعه جمل واحد فقط يحمل التاريخ المختصر . اما الملك
فكان قد ضعف بصره ووهنت قواه فأمر الوزير ان يختصر ايضاً فغاب الوزير المرة
الثالثة وعاد فرأى مليكه يتقلب على فراش الموت فلما رآه الملك قال : « آه ثم اواه !
ساموت قبل ان اطالع على تاريخ الامم . » فأجابه الوزير معزياً : « لا تقل ذلك يا مولاي
فقد احضرت لك مجموعة صغيرة تنبئك عن كل اعمالهم باختصار غريب وهاهي . » ثم
اخرج الوزير من جيبه ورقة صغيرة وقرأ بصوت مرتفع : « هاك يا ملك الزمان تاريخ
شعوب الارض مختصراً : فانهم تنفسوا فتنافسوا فغرقوا فماتوا . »

وتاريخ كارليل المقسوم الى عشرين كتاباً وكل كتاب مقسوم الى فصول لم يفدنا
عن الثورة الفرنسية اكثر مما افاد الوزير . مليكه عن تاريخ شعوب الارض ، فالكلمات
الاربع التي تؤلف تاريخ الوزير تكفي لتأليف مثل هذا التاريخ دون ان يفوتنا منه
شيء كثير . ولو شاء كارليل ان يختصر لقال مع الوزير عن الافرنسيس : قد تنفسوا
فتنافسوا فغرقوا فماتوا . « ولكن في الامة الافرنسية ما لا يموت ، في الامة الافرنسية
من نتائج الثورة العظيمة ما تبقى آثاره بادية حية نامية في ترقى الامم والناس . -
(مقالة في انتقاد تاريخ الثورة الفرنسية تأليف توماس كارليل ، « الريجانيات » جزء ١) .

الشيخ رشيد رضا

١٨٦٥ - ١٩٣٥

جمع بين القديم والجديد في الفكر والعمل السياسي : ان التطورات الاجتماعية كانت تقضي بوقوع ما وقع من التصرف في شكل الحكومة الاسلامية ، ولم يكن يمكن في تلك الازمنة ان يوضع لها نظام يكفل ان تجري على سنة الراشدين ، ولا طريقة اوائل الامويين والعباسيين ، في الجمع بين عظمة الدنيا ومصالح الدين . ولما صار هذا ممكناً كان امر الدين قد ضعف ، وتلاه في جميع الشعوب الاسلامية ضعف حكوماتها ، وضعف حضارتها ، فلم تهتد الى مثل ما اهتدى اليه الافرنج من القضاء على استبداد ملوكهم شعباً بعد شعب ، فنهزم من قضى على الحكومة الملكية قضاء مبرماً ، ومنهم من قيد سلطة الملوك فلم يدع لهم من الملك الا بعض المظاهر الفخمة التي يستفاد منها في بعض الاحوال ، دون ان يكون لهم من الامر والنهي في الحكومة ادنى استبداد .

ذلك بان كل من يعطى تصرفاً في امر يجب ان يكون مسؤولاً عن سيرته فيه ، والتقاليد المتبعة في الملك ان الملك فوق الرعية فلا يتطاولون الى مقامه الاعلى ليسألوه عما فعل ، وهذا شيء ابطله الاسلام بجعله امام المسلمين كواحد منهم في جميع احكام الشريعة ، ونص على انه مسؤول عما يفعل بقوله (ص) : « كالكم راع وكالكم مسؤول عن رعيته » فالامام راع وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل راع في اهله وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيته « الخ (متفق عليه من حديث ابن عمر) . وكان المسلمون يراجعون الخلفاء الراشدين ويردون عليهم اقوالهم وآراءهم فيرجعون الى الصواب اذا ظهر لهم انهم كانوا مخطئين ، حتى ان عمر بن الخطاب (رض) خطأته امرأة في مسألة فقال على المنبر : امرأة اصابته وأخطأ عمر - او - ورجل أخطأ .

غفل المسلمون عن هذا فتركوا الخلافة لاهل العصبية يتصرفون فيها تصرف الملوك

الوارثين الذين كانوا يزعمون ان الله فضلهم على سائر البشر لنواتهم وليوتهم واوجب طاعتهم والخضوع لهم في كل شيء ، فلم يوجد في اهل الحل والعقد من الرؤساء من اهتدى الى وضع نظام شرعي للخلافة بالمعنى الذي يسمى في هذا العصر بالقانون الاساسي يقيدون به سلطة الخليفة بنصوص الشرع ، ومشاورتهم في الامر ، كما وضعوا الكتب الطوال للاحكام التي يجب العمل بها في السياسة والادارة والحماية والقضاء والحرب ، ولو وضعوا كتابا في ذلك معززا بأدلة الكتاب والسنة وسيرة الراشدين ، ومنعوا فيه ولاية العهد للوارثين ، وقيدوا اختيار الخليفة بالشورى ، وبينوا ان السلطة الامة يقوم بها اهل الحل والعقد منها ، وجعلوا ذلك اصولا متبعة ، لما وقعنا فيما وقعنا فيه . فاما الراشدون رضي الله عنهم فقد كانوا واثقين بتحريمهم للحق والعدل ويصرحون بسلطة الامة عليهم وهم واقفون في موقف الرسول (ص) من منبره كما قال ابو بكرؓ : وليت عليكم ولست بخيركم ، فاذا استقمت فأعينوني ، واذا زغت فقوّموني . وكما قال عمر : من رأى منكم فيّ اعوجاجاً فليقومه . وكما قال عثمان : احري لامركم تبع . وأقوال علي وأعماله بالشورى معروفة على اضطراب الامر وظهور الفتن في زمنه ، وموت كثير من كهلاء اهل العلم وتفرق بعضهم ، ثم انهم لم يكونوا قد دخلوا في عهد التصنيف ووضع النظم والقوانين ، ولا شعروا بشدة الحاجة الى ذلك لكثرة الصلاح وخضوع الامة لوازع الدين .

وما جاء عصر التأليف والتدوين الا وكانت الخلافة قد انقابت الى طبيعة الملك بالبدعتين الكبيرتين اللتين ابتدعهما معاوية ، وهما جعل الامر تابعاً لقوة العصبية ، وجعل الخلافة تراثاً ينتقل من المالك الى ولده او غيره من عصبته ، وشغل الناس عن سوء هاتين البدعتين سكون الفتنة التي اثارها السبئيون والمجوس واقترصها الامويون ، وما تلاه من اجتماع الكلمة وحقن الدماء في الداخل ، والعود الى الفتوح ونشر هداية الاسلام وسيادته في الخارج ، وذلك ان تأثير الفساد الذي يطرأ على الصلاح العظيم ، لا يظهر الا بتدرج بطيء .

هذا ، وان ما فات المسلمين في القرون الوسطى لا ينبغي ان يفوتهم في هذا

العصر الذي عرف البشر فيه من سنن الله تعالى في الاجتماع البشري ومن فوائد النظام واحكامه ما لم يكونوا يعرفون .

وكان اجدر المسلمين بالسبق الى هذا رجال الدولة العثمانية ، ولا سيما الذين يقيمون في الاستانة والرومي من بلاد اوربة ، يشاهدون تطور شعوبها وترقيهم في العلوم والفنون والنظام ، ولكن دولتهم لم تكن دولة علوم وفنون ، لانه لم يكن لهم لغة علمية مدونة قابلة لذلك الا في اثناء القرن الماضي . ولم يكن يتعلم علوم الاسلام منهم الا قليل من المقلدين ، ولهذا جعلوا سلطة سلاطينهم شخصية مطلقة ، حتى بعد تحليتهم بلقب الخلافة ، فلما صاروا يدرسون تاريخ اوربة وقوانينها ، وثوراتها على حكوماتها لازالة استبدادها ، ظنوا ان لا سبيل لتقييد استبدادهم ومنع ظلمهم الا بتقليد اوربة في شكل حكوماتها ، الملكية المقيدة ، ثم رجحوا في هذا الزمن الجمهورية لانهم رأوا ان جعل الساطان مقدسا غير مسؤول كما قرروه في قانونهم الاساسي لم يف بالغرض . ولو درسوا الشريعة دراسة استقلاية كما يدرسون القوانين لوجدوا فيها مخرجا اوسع وافضل من القانون الاساسي السابق ، ومن الخلافة الروحية وحكومة الجمعية الوطنية الحاضرة (من كتاب الخلافة او الامامة العظمى) .



مُصطفى لطفي المنفلوطي

١٨٧٦ - ١٩٢٤

هنا أُم عزاء : فاروق مصر على اثر اعلان الدستور العثماني كثير من فضلاء السوريين ، بعدما عمروا هذه البلاد بفضائلهم ومآثرهم وصيروها جنة زاخرة بالعلوم والآداب ، ولقنوا المصريين تلك الدروس العالية في الصحافة والتأليف والترجمة ، وبعدما كانوا فينا سفراء خير بين المدنية الغربية والمدنية الشرقية ، يأخذون من كمال

الأولى ليتمموا ما نقص من الأخرى ، وبعدما علموا المصري كيف ينشط للعمل وكيف يجد ويجهد في سبيل العيش ، وكيف يشب ويتجدد في معركة الحياة .
 قضاوا بيننا تلك البرهة من الزمان يحسنون إلينا فسيء إليهم ، ويعطفون علينا فنسئ إليهم تارة دخلاء وأخرى ثقلاء ، كأنما كنا نحسب أنهم قوم من شذاذ الآفاق أو نفايات الأمم ، جاؤوا إلينا يصادروننا في ارزاقنا ، ويتطفلون على موائدنا ، ولو انصفناهم لعرفناهم ، وعرفنا ان أكثرهم من بيوتات المجد والشرف ، وإنما ضاقت بهم حكومة الاستبداد ذرعاً ، وكذلك شأن كل حكومة مستبدة مع احرار النفوس وأبادة الضيم ، فاحرجت صدرهم ، وضيق عليهم مذاهبهم ، ففروا من الظلم تاركين وراءهم شرفاً ينعاهم ، ومجداً يبيكي عليهم ، ونزلوا بيننا ضيوفاً كراماً ، واساتذة كباراً ، فما أحسننا ضيافتهم وشكرنا لهم نعمتهم .

وبعد فقد مضى ذلك الزمن بخيره وشره ، واصبحنا اليوم كلما ذكرناهم خفقت افئدتنا مخافة ان يلحق باقيهم بماضيهم ، فلا نعلم أنشكر للدستور ان فرج عنهم كربتهم ، وامنهم على أنفسهم ، وردهم الى أوطانهم ، أم ننقم منه انه كان سبباً في حرماننا منهم بعد أنسنا بهم ، واغتيابنا بحسن عشرتهم وجميل مودتهم ، ولا ندري هل نحن بين يدي هذا النظام العثماني الجديد في هناء أم في عزاء ؟

فيا أيها القوم المودعون ، والكرام الكاتبون :

أذكرونا مثل ذكرانا لكم رب ذكرى قربت من نزحنا
 واذكرونا صباً اذا غنى بكم شرب الدمع وعاف القدحا

جبران خليل جبران

١٨٨٣ - ١٩٣١

طابع البعث الجديد : كتبت الفيكونتس « سيسيليا اف لوتنبيرغ » رسالة الى جبران خليل جبران ، سنة ١٩١٠ ، وهي من النساء الشهيرات في عالم الادب الاوروي ومن المستشرقين الذين يحبون سوريا والسوريين ، ولها كتابات جميلة عن الاراضي المقدسة وبلاد فارس ومصر وشبه جزيرة العرب ، فأجابها جبران بالرسالة التالية :

سيدتي الفيكونتس ،

جاء في كتابك الذي تكرمت بارساله اليّ :

« انا احب سوريا لانها جميلة ولجمالها خاصة معنوية تنبه في نفسي عواطف غريبة سحرية وتذكارات بعيدة لطيفة . واحب السوريين لانهم اذكياء وتعماء . لكنني اكره هذه الطبقة لانها تركت محاسن التمدن الشرقي القديم ومالت الى المكروه من المدنية الغربية الحديثة . فهي الآن بغير لون تتميز به عن طبقات البشر . »

هذه حقيقة جارحة يا سيدتي يسمعها المحافظون من الشرقيين فيحنون رقابهم متأسفين ويعيها المصريون بينهم فيمتسمون . وبين اوجاع ذلك الاسف وسخرية هذا الابتسام تقف سوريا الان موقف حائر ضائع في ملتقى السبل . اما انا فلا اتأسف جزعاً عندما ارى رقعة جديدة قدرة في ثوب سوريا القديم . ولا ابتسم فرحاً عندما اجد جسداً جديداً لروح عتيقة . انا انظر الى سوريا نظرة الابن الشفوق الى امه المريضة بعلمتين هائلتين ، علة التقليد وعلة التقاليد . التقاليد يا سيدتي تجعل المرء كالاعمى السائر في نور النهار . والتقليد يجعله كالبصير السائر في ظلمة الليل . وما الفرق بين الرجلين سوى ان نفس الاول « تحيط » بالظلام ونفس الثاني « محاطة » بالظلام .

ان المحافظين في سوريا هم رؤساء الاديان ووجهاء القبائل وشيوخ الاسر القديمة . فرؤساء الاديان يحافظون على التقاليد لا حباً بجمالها وبساطتها بل لانهم يجدون بالحفاظة عليها بقاء سلطتهم . اما وجهاء القبائل وشيوخ الاسر القديمة فهم كرصائفهم في كل بلاد

يميلون بالطبع الى تأييد نفوذهم بمصارعهم كل روح جديدة تجيء سوريا من المغرب * ولا لوم عليهم لان الارواح الجديدة التي يرونها مرفرفة في فضاء بلادهم تسبيح حرمة الآداب الشرقية بغالبتها الخرافات وتمزق نقاب « المجد » عن وجه سوريا بتمزيقها اثواب العباوة عن جسدها .

اما العصريون الذين تخرجوا في مدارس الافرنج او الذين هاجروا الى العالم الجديد فاكثرتهم كالمثار في حديقة العالم الادنى ذات منظر بهيج لكنها ملوثة بالدخان غير انهم اقل ضرراً من المحافظين لان تأثرهم اوهى ، وظلمهم اقصر ، ومطامعهم اقل . لكن سيديتي تعلم ان في سوريا طبقة ثالثة اوسع فكرياً من المحافظين واكثر حكمة من العصريين المقلدين . وهؤلاء هم الذين نبذوا سلطة رؤساء الاديان حباً بجبال الدين نفسه . ونفروا من الانقياد الى ابناء الشرف الموروثة احتراماً لشرف النفس . وابتعدوا عن تقليد عوائد الافرنج القبيحة توصلاً الى معارفهم وآدابهم المستحبة . ولا ادعو هذه الطبقة بالمعتدلة لانها لا تريد ان توفق بين فضائل عبيد التقاليد ومحاسن ابناء التقليد لعلمها بان الورد لا يجنى من القطرب والحجر لا يعصر من الاشواك . ولا ادعوها بالمتساهلة لانها لا ترفق بالمستسلمين الى خرافات الشرق ، ولا تشفق على المنغمسين برذائل الغرب لادراكها جهالة هؤلاء . وانحطاط اوائك . بل هي طبقة مستقلة باخلاقتها ومداركها ومزاياها شرقية بامياها واهوائها . تتكلم العربية في مجتمعاتها لانها تحسن اللغة العربية . وتتعلم في درس اللغتين الافرنسية والانكليزية لا حباً بالروايات السافلة والقصص القذرة التي تنفذها جوانب باريس ولندن ، بل شغفاً بآداب فرنسا العالية وعلوم انكلترا النبيلة . فهي لا تعرف شيئاً عن مؤلفي نوادر العشاق وحكايات المهتكين في اوربا . لكنها تعرف كل شيء عن شكسبير وغوت ودانتي وبلازك . وهي لا تلتفت الى ما تذيبه الصحف عن غرائب التمدن الحديث التي اوجدها داروين وكنت ونيشيه ورنان . هذه هي الطبقة التي تمتاز بها سوريا عن البلاد الشرقية وهؤلاء الرجال الذين احدثوا النهضة الادبية في مصر والشام . هؤلاء هم الذين اوجدوا في نفوس الشرقيين استعداداً لقبول الحكم النيابي .

ان الامم كالشجر تنبت وتنمو وتتعالى ثم تبلغ مبلغها فتعطي ثماراً جيدة وردنية .

ثم قر عليها السنون فتشيخ وتجف جذوعها وفروعها . ثم تمر بها العواصف فتنيخها الى الحضيض وتكفنها باوراق اخريف وتلوج الشتاء . وسوريا كرمة ، قد نمت قدماً امام وجه الشمس واعطت عنبا لذيذاً تمجدت بطعمه الالهة ، وخرراً سحرانيا شربت منه الانسانية فسكرت ولم تصبح بعد من نشوتها . واليوم بعد ان داست اقدام ابن السبيل جذوع تلك الكرمة واتلف اللصوص سياجها يمر عابر الطريق فيجدها قد اورقت ثانية واهتزت قضبانها مرتعشة بمرور نسيات الفجر . . . تلك معجزة لم يأت التاريخ بمثلا ، ولا يستعظمها سوى من عرف مآتي الاجيال التي مرت بين ايام نبوخذ نصر وعهد عبد الحميد !

وهوب الثورة : من يصبر على الضيم ولا يتجرّد على الظلم يكون حليف
البطل على الحق وشريك السفاحين بقتل الابرياء .



كتاب محاكمه مدحت باشا

الخربة مفتاح كل شيء : وقد يتعجب بعض الناس من احتياج رعايا الدولة العثمانية الى جلب كل شيء من الخارج ، مع وجود الاراضي المنبتة الواسعة في حوزة الدولة في قطعي آسيا واوروبا . وطالما تذاكر العقلاء اكثر من مرة في هذه المسألة وقرروا ان السبب في ذلك هو سوء ادارة الحكومة ، فان الامن مسلوب في طول البلاد وعرضها والاراضي خالية من السكان . وقد القى الظلم جرانه في كل بقعة من البلاد واذا اراد احد الزراع استثمار قطعة من الارض اثقلت الحكومة ظهوره بالضرائب . وقد يقول بعض الناس ان خراب المزارع ناتج عن جهل الامة فنجيمه بان ابناء البلاد يهجرونها طلباً للحرية ، ويقصدون الاقطار النائية ويعملون اعمالاً تدل على اجتهادهم ونشاطهم . وسيقول بعضهم : ان السلطان قد امر باعمار البلاد فهو

بريء من كل ما يعزوه اليه اعداؤه وان الذنب كل الذنب على الوزراء . وهناك قسم ثالث يقول : ان الحكومة يجب عليها نشر الصنائع وتأسيس المعامل لافادة الشعب ، فنجيب هذا القسم بان الحكومات في اوربا لا تنشئ المعامل ولكن الشعب يؤسس الشركات وينشئ المصانع اذا تمتع بانواع الحرية ووضع مجلس نوابه قوانين تحوله استعمال حقوقه الطبيعية واستخراج ثروة بلاده ، وهذا لا يتم الا اذا تأسست في البلاد حكومة عادلة يكون معها الانسان آمناً على ماله وتجارته وعمله . ولم لا يشتغل سكان البلاد العثائية بتأسيس المعامل وتأسيس الشركات مع وجود ارباب رؤوس الاموال من رعايا الحكومة المحلية ؟ ولاي سبب يتأخر رعايا الدولة العلمية عن صناعة الاقشة مع وجود القطن بكثرة في بلادنا وانخفاض اجرة العمال في البلاد عن اجرة مثلم في اوربا ؟ ولم لا يشتغلون باعمال المصنوعات الجلدية والكاغد^(١) مع وجود ما يلزم لاحتضارهما في بلادنا ؟ انهم لا يتأخرون عن صنع ذلك وحده فهم لا يعملون ايضاً اللبن والآجر والكبريت في هذه البلاد ولا يصنعون الطرايش التي فوق رؤوسنا فلم نحتاج الى اوربا في جلب هذه البضائع ؟ لا يشكّن احد ان كل هذه الاسباب ناتجة عن عدم وجود الحرية والقوانين في بلادنا .

ان عندنا قوانين ومحاكم ومجالس وليست عندنا قوة لاجبار المجالس والمحاكم على اتباع القوانين الموضوعية . فالمحاكم تظلم الناس نهائراً جهاراً وقد ثبت ان الشركات التي تتشكل في بلادنا لا يحميها احد فتذهب ارباحها ورؤوس اموالها ، والسبب الثاني هو ان البلاد محرومة من المعارف وليس الاهالي باحرار ليعلموا ما تضطربهم اليه مرافق الحياة .

والسبب الثالث هو ان الدراهم لا توجد في بلادنا الا بفوائد فاحشة فليست عندنا بنوك تسهل للانسان الاقدام على اعمال نافعة فيستفيد ويفيد . وليست في البلاد قوانين تجبر البنوك والصيارف على الاعتدال في معاملاتهم ، فع كل هذه الموانع لا يتسنى لاي فرد تشويق الاهالي وحشهم على الاعمال النافعة ومن اقدم على ذلك كان كمن

يحاول تسيير سفينة بلا ريح ولا بخار .
 وقول بعضهم ان الحكومة لا تعمل الاعمال التي تعود على الاهالي بالفوائد
 مردود ، لان الحكومات تنشئ الطرق الحديدية والمرافئ وتجمع الاموال من الاهالي
 وتنشئ المعامل وتديرها على حساب الشعب ، وهي اعمال غير نافعة للامم كما اثبتت
 ذلك التجارب . وعليه فتكليف الحكومة باحداث المعامل وتسليمها للاهالي مردود
 من كل الوجوه ولا سبيل الى عزو ذلك الى تقصير الوزراء واهمال الحكومة .
 والذي يجب على الحكومات ازاء الشعوب هو منحها الحرية التامة . - (عن كتاب
 » محاكمة مدحت باشا » تعريب يوسف كمال حثاته) .



مَحَمَّدُ كَرْدُ عَلِيٍّ

تحيةً باريز : سلام عليك مرضعة الحكمة ، وربيعة الرخاء والنعمة ، وروح
 الانقلابات الاجتماعية والسياسية ، ومحمية المدنية الاصلية في الاقطار الغربية والشرقية ،
 ومعاملة العالم كيف يكون اخلاص من الظالمين ، والضرب على ايدي الرؤساء والنبلاء
 والمالكيين ، انت هذبت طبائع البشر حتى غدوا يشعرون باللطف والدوق وفائدة العلم
 والعمل ، انت كنت في مقدمة العواصم التي انبعث منها تمجيد العقل بل تأليهه ،
 فقضيت بالتقدم له على كل شيء في الوجود وبالغت في اكرام رجال العقول من
 ابنائك ...

سلام عليك يا واضعة حقوق الانسان ، وملقحة الاذهان بالتناغي بحب الاوطان ،
 والداعية الى ثل عروش الجبارين والمخربين ، أنت لم ترهبك تقاليد ابطال القرون
 الوسطى ، ولا بطش الباطشين من المحافظين عليها ، ولم تعلقي مسائلك على القضاء
 والقدر ، بل اخذت بالاسباب والمسببات ، فقتلت من اراد قتلك ، ووضعت من لم
 يهجمه رفعك ، وكنت للناهضين من الناس خير مثال ...

سلام عليك يا ملقنة الخلق معنى الاخاء والحرية والمساواة ، ليتعاشروا بالمعروف ويقوم نظام اجتماعهم على تبادل المنافع حتى لا يبقى تمييز في الحقوق والواجبات ، بين المختلفين في الموالد والديانات ، وقطعت التفاضل الا بالاعمال الصالحة والاحلام الراجعة ٠٠٠

السلام على هذه العاصمة التي احسنت الى الشرق فيما مضى فعلمته حتى استمد منها النور ، فان قلنا معاشر الشرقيين ولا سيما سكان الشرق الاقرب اننا نأخذ عن المدنية الغربية فلما نعي المدنية الفرنسية وبعبارة اصح المدنية التي تنبعث اشعتها من باريز ومن طريقها وبلغتها واسلوبها تيسر لنا ان نستطلع طلع سائر مدنات الارض ٠٠٠

سلام عليك انت العاصمة التي تركت القصور الفخمة التي عمرت بدماء الامة مباحة للناس يدخلونها وكانت بؤرة المظالم والمغارم ، ومنبعث الشهوات والاهواء ، ولطالما جارت جوانبها بالدعاء الى السماء من حيف الكبراء ، ايام كان يوقع احد ملوكها وهو على سرير نومه توقيعاً واحداً يترك من الغد مئة الف اسيرة في هذه البلاد تبيت جائعة عريانة ليعمر بنا يجمع قصرأ له ، او يدفعه لمحبوته صبرة واحدة ، فلما اضناك الظلم والعنت قمت تجعلين من تلك القصور الناشئة متاحف عامة ، ومن دور الظلم والظلمات مجالس عدل وعلم ونور ٠٠٠

سلام عليك يا بلد كونت وروسو وفولتير وديدرو وسيمون ومونتسكيو وهوغو وباسكال ورنان ومئات اضرابهم ممن بذلوا حياتهم في حسن خدمتك ، فلم تنس عوارفهم عليك بعد مماتهم ٠٠٠

انت ان خجلت من ذكرى الحروب الصليبية ، وديوان التفتيش الديني ، ومذبحة القديس برتلموس ٠٠٠ وغير ذلك من الاعمال البربرية في عصور الظلمة ، فان سكانك يفاخرون وحق لهم الفخر بانهم احفاد ثورة سنة ١٧٨٩ قاموا من الاعمال المشكورة في عصور النور بما ينسي الماضي الا اقله ، ان الحسنات يُذهبن السيئات ! - (عن كتاب « غرائب الغرب ») .

يُوسُفُ جُرْجِسُ زُخْمُ

كل سبي ، يتوقف على الشعب : الاصلاح جاء . ويحيي . وسيجيء . من طريقين ، اما من طريق الحكومة واما من طريق الشعب . ومثال الاول حكومة اليابان ومثال الثاني الجمهورية الفرنسية والجمهورية الاميركية . والانقلاب العشاني لم يأت من طريق الحكومة ولا من طريق الشعب من حيث مجموعه بل من طريق الجيش . اما والحكومة العثمانية منصرفه قواها جملة الى حل مسائلها ومشاكلها وقد بدا حتى الان انها لا تكثرث او لا تريد ان تكثرث بالعربية حيث ام ماتت فقد تحتم على ابنائها ان يفعلوا منارها ويحموا ذمارها ويحملوا لواءها وهذا لا يكون فقط بالاحتفاظ ببقايا تلك الكتب العتيقة الباحثة في مذاهب سيمويه ونفطويه واضرابها مثلا بل يكون في نشر الصحافة الحرة بكثرة في المدائن وفي القصبات وفي المديریات وفي الضواحي والنواحي . فالصحافة الحرة الصادقة بلا مدافع اكبر كلية للدولة واكبر مدرسة للامة واكبر جامعة للشورات الادبية المحطمة قيود الجهل والظلم وللنهضات الجالبة رفعة القدر ووفرة الفخر . ويقاس رقي الامم برقي صحافتها ، فكل أمة لها صحافة راقية لها منزلة راقية في السياسة والاجتماع والآداب والعمران والعرفان .

لم تكن الصحافة موجودة بعرفي في دور نيرون القرن العشرين . فتملك التي كان العبيد المستعبدون يدعونها صحافة لم يكن اكثرها الا وريقات او نشرات لنشر آيات التقديس والتدليس والتدنيس بل لاذاعة المين كل المين والتمويه كل التمويه والتجهيل كل التجهيل والتضليل كل التضليل وكان الاستدلال والاستعباد يقضيان بدفن الحقائق واستحياء المخارق . اما وقد عادت الى الشعب بعض حقوقه المعطاة له من الله فمن الغضاضة على الصحافة ان تستر العيوب والعورات وكل صحافة لا تدل الدولة والامة على حسناتها وسيئاتها بشكل ما في كلمة الحرية من معنى الحرية لا تدعى صحافة ولا يوجب لامتها وحكومتها صلاح واصلاح .

نعم ان مضار الانتقاد اوسع في اميركا منه في الدولة العلية بداعي تقييد الصحافة

العثمانية واطلاق حرية اميركا ، غير ان الذنب على الشعب . فشعب اميركا مطالب وناهض وقائم والشعب العثماني قاعد وجامد ونائم . النواب هم الذين قيدوا حرية الصحافة وهم ضيقوا الحناق عليها والشعب هو الذي انتخب اولئك النواب وارسلهم الى عاصمته وهو الذي يدفع مرتباتهم ونفقاتهم ، فالشعب هو سيد النواب والنواب خدامه ولم اسمع ولم يسمع غيري ان ٢٥٠ خادما يستطيعون ان يستبدوا بثلاثين مليون « سيد » . فيا ايها الشعب مر نوابك بتعديل قانون صحافتك واحملهم على تلبية امرك فان لبوه كان ما تريد والا فاقلب لهم ظهر الحن في الانتخاب المقبل وانتخب الاصلح فالاصح حتى تبلغ ضالتك وتعمل عمل البلاد الشعبية . فهل من سامع او مجيب لهذا الصوت الضعيف ؟ - (عن مجلة « المقتبس » ، سنتها الخامسة) .



الدُّكْتُورُ أَيُّوبُ تَابَتْ

الثورة : اسبابها ، اسنارة الشعب سُرط لجامها : اذا كان الملك مطلقاً لا قيد يقيده ولا نظام فوق ارادته فالغالب انه يستأثر في الرأي وهو اكثر ما يكون فاسداً ويستبد بالقوة وهي لما تصرف في سبيل الحق والعدل . ويجوم حواليه جماعة من المتملقين والمترفين فيزوقون له انه ظل الله على الارض وان الناس واعراضهم واموالهم ملك له يتصرف بهم كيف شاء فيزداد بذلك عتواً واستبداداً . ولما كانت الرعية تحشى بطشه وتحاف بأسه لا تجرؤ على انتقاد اعماله وتقويم اعواجهه فقد ساءت احكامه وزادت مظالمه . واذا هي تملكت من ثقل الوطأة اتهمها بالتمرد وشق عصا الطاعة وامسى قلق الافكار مضطرب البال اذا هب نسيم السحر خاله عاصفة او مال خيال ظنه يداً قاتلة . ويقويه على هذه الهواجس والشكوك المقربون اليه لما يبيحه لهم استحكام التباض والتنافر بينه وبين الرعية من استنزاف الاموال واستدراغ المغامر فيشد في الضنط على الامة ويزيد في التشكيل باحارها . فطالما هي هائمة في ظلمات

الجلل فهو في أمنٍ من نهوضها وفكاك قيودها . انما لا تعدم الا ريثما تستنير ويشملها العلم فتشعر بشغل الوطأة وسوء الحالة فتبهب مستهلكة الى المطالبة بحقوقها المضمومة .

فاذا كان الملك حكيماً يرى ضعف جانبه بازاء الشعب الثائر فيسترسل الى ارادته وينيله مبتغاه . غير ان ذلك نادر قليل الحدوث ، فان التنازل عن السلطة المطلقة بل عن اية سلطة مهما كان نوعها ليس هو بالامر السهل . والغالب ان الملك يأبى الاستسلام لمطالب الامة ويأنف من تقييد سلطته المطلقة او ربما اظهر الرضى واكمن الغدر^{١)} حتى اذا ما امكنته الفرص من دعاء الاصلاح اوقع بهم وبدد ثلهم واعاد ملكه الى ما كان عليه من سوء الحال بل ربما شدد في الضغط على الامة وزادها عسفاً وظلماً بغية استبقائها في ظلمات الجهل وديجور الفقر وهماً منه بان ذلك ينمعهما من النهوض والعود الى المطالبة بحقوقها . وانما الويل لمثل هذا الملك فايامه مظلمة واحلامه مزعجة وبلاده تنتابها القلاقل والفتن . وما كان ضغطه على الامة الا ليزيدها ميلاً الى فك القيود وشوقاً الى الانتقام . وهناك البكاء وهرق الدماء يوم يتفجر بركان الثورة الخامد ويندفع الشعب الناقم فلا وعود تحيله ولا وعيد يهوله ولك في شارل الاول ملك انكلترا ولويس السادس عشر ملك فرنسا عبرة وذكرى .

وما عليك الا ان تعود الى تواريخ الامم فتري ان ما اشترنا اليه من دواعي الثورة هو ما ادى اليها في عهد هذين الملكين وغيرهما . من الملوك السالفين . بل هذه ثورتنا وثورتا جارتينا ايزان وروسيا فاذا بحثت في اسبابها تبينت انها هي على ما قدمناه .

ومما يجمل ذكره وان خرج عن مدار بحثنا هذا هو ان اكثر الثورات يتبع بعضها بعضاً وتتفاوت ازمان وقوعها بتفاوت الامم النازعة اليها في الاستنارة والعلم . ومثال ذلك حدوث الثورة الافرنسية على اثر الثورة الاميركية والامتان يومئذ في منزلة واحدة من الرقي ثم حدوث ثورات سائر الشعوب الاوروبية المتقاربة في العرفان من مثل

(١) هنا ، في الاصل ، تعاقب لكاتب المقالة يذكر فيه شواهد تاريخية على رضى الملوك بتراجعهم ، وقتياً ، امام شعوبهم ريثما يثبون وثبة يحاولون فيها تجريد تلك الشعوب من انتصاراتها .

بروسيا والنمسا وبلجيكا على اثر الثورة الافرنسية الثانية ثم ثورات الروس والفرس والعثمانيين وهم على درجات متشابهة في العرفان وقد جاءت كل واحدة تلو الاخرى .
ولقد ادرك الملوك المطلعون ذلك فكانوا يتألمون على اخماد جذوة الثورة اين شبت خوف تطاير شرارها الى ممالكهم من تآب انكلترا والنمسا وروسيا وبروسيا على اخماد الثورة الافرنسية الاولى ام الثورات ونور اخرية . ولا اخالنا نحن العثمانيين قد نسينا نظر الروسية الينا شذراً يوم نلنا الدستور للمرة الاولى ولم يكن قد تشكل فيها بعد مجلس الدوما .

قد لا يدرك الشعب الذي طال عليه عهد الاستعباد ان الانسان يولد حراً وان استعباده انما هو امر اغتصابي حتى لقد يتوهم ان حالة العبودية هي حالة طبيعية له لا يستغريبها ولا يستنكف منها بل لو قام من طالب له بحقوقه المعتصبة رأيناه واقفا الى جانب السلطة حائلاً بينها وبين حقوقه . ولا يلبث من يشك بصحة هذا القول الا ريثما يرجع الى تاريخ ثورات الامة فتبين له مكانة هذه الدعوى من الحقيقة . حتى انه لا وجوب لمراجعة التاريخ فهذه الثورة الروسية وعهدها غير بعيد بل لا يزال شرارها متطيراً هي شاهد ناطق بذلك . ولا عبرة بالقول ان الجيش وليس الشعب هو الحائل بين الامة والحكم الدستوري ، فانما الجيش من الشعب فلو كان الشعب متنوراً عالمًا بحقوقه لكان الجيش المستمد منه قد عرفها ايضاً .

ومما يدلك على مكانة وقوف الشعب على حقوقه الطبيعية من الخطورة في الثورات السياسية ان فلاسفة الافرنسيين واكابر كتّابهم من مثل فولتر وجان جاك روسو ومنتسكيو توخوا تعليم الامة ذلك قبل اعلان الثورة الافرنسية بمدة بعيدة فما ثارت الا وهي عالمة بنا تطالب به السلطة وملمة بالطرق الموصلة اليه . وكان من بادى اعمال دعاة الثورة لاول التمام الجمعية الوطنية انهم نشروا على رؤوس الاشهاد منشوراً عنوانه « اعلان حقوق الانسان » .

وانك لترى في رجوعك الى تاريخ الثورة الاميركية انه قد كان اعلانها على اثر منشور هو بنفس العنوان المذكور وبما يقارب مضمونه معنى . بل لو بحث باحث بجشاً دقيقاً في نظامات الحكومات الشوروية وقوانينها الاساسية لاتضح له انها مبنية على

حقوق الانسان الطبيعية .

ولم يتعمد رجال الثورة من كلتا الامتين في اعلان حقوق الانسان مجرد تحريض الشعب ودفعه الى الهياج والفتنة بل رموا الى امر مهم هو تعليم الفرد من الناس ما له من الحقوق على الامة ^(٢) وما اللامة من الحقوق على السلطة ومثلة السلطة من الامة حتى اذا ما عرف ذلك نهض مع دعاة الثورة وكاتفهم في كبح جماح السلطة واكرامها على ردها اليه حقوقه المغتصبة وحصرها ضمن دائرة لا تتعداها .

اذا ظل السواد الاعظم من الشعب جاهلاً لحقوقه الطبيعية ولمنزلة السلطة من الامة وانحصر العلم في ذلك بفتنة معدودة فقامت تطالب الملك المطلق بحقوق الشعب فالارجح انه لا يتيسر لها ذلك وكان مصيرها الويل والفشل . حتى انها لو تمكنت من بغيتها وقيدت الملك بالشورى فليس ثمة ما يضمن للامة بقاء الحالة الناشئة بل الاقرب ان الملك يستعيد الحالة الماضية اما باغراء زعماء الثورة وهم قليلون واما باستمالة الشعب الجاهل لحقوقه والذي يُخيل له كما اسلفنا ان العبودية حالة طبيعية وان السلطة هابطة على الملك من قوة وراء الطبيعة لا يسوغ للبشر مساسها .

والك في توارينخ الامم الحاضرة ما ينطبق على مثل ما نحن في صددده . بل لا اسألك العود الى التاريخ لترى ذلك فان لك في جارتنا الامة الفارسية بل الامة العثمانية نفسها لاول عهد جلالة السلطان الخالي مثلاً قريباً . فكل من الملكين ، قياماً بطلب فئة معدودة من الشعب ، انال امته الدستور انما ما عثم ان تمكن من ملكه فاسترد ما اناله واعاد الحكم الاستبدادي المطلق . فكان من وراء ذلك ان الامة العثمانية بقيت نحو من ثلاث وثلاثين سنة في حالة من العبودية لم يسطر التاريخ الحديث لها مثيلاً . - (عن كراس « عبرة وذكرى » وفيه مجموعة مقالات للدكتور ثابت كتبها لمناسبة اعلان الدستور العثماني ١٩٠٩) .



عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَزَّامٌ^(١)

النبي محمد اول وصوله الى المدينة بضع أسس دولة ديموقراطية : شرع في الحال في بناء المسجد ، وما هذا المسجد ؟ وفيه كانت الآساس التي وضعها لصلاح الدين والدنيا ، واصبح معبداً و « برلماناً » ومقراً للسلطة التنفيذية ، ومركزاً للقيادة العليا ، منه تصدر الدعوة الى الله ، والشرائع خلقه ، وجميع الخطط والتدابير الادارية والسياسية والعسكرية ، وفيه تستقبل الوفود ، ويلقن العلم .

كان المسجد على سذاجة بنائه واساسه ، وعلى قلة الأوضاع فيه ، يتناسب كل التناسب مع تياسر محمد واصحابه ، وانصرافهم للجوهري من الامر . ويذكر الناس في كل حين بهذه الحقيقة ، وهي ان الانقلابات العظيمة ، وأن النجاح فيها أثر لهذه السهولة التي تعنى بالروح والخلق ، لا بالافتنان في الأوضاع والاسراف في المظاهر .

ومن هذا المسجد نمت تدريجياً الادارة الاسلامية الى ان شملت الجزيرة كلها ، ودانت الروم والفرس لها ، وفي هذا المسجد اتخذت تدابير قد تكون مما استلزمته أسباب مؤقتة ، واحوال طارئة ، ولكنها بما انطوت عليه من الحكمة السامية ، وما صدرت عنه من الادراك ، كانت بذوراً لاوسع الادارات الامبراطورية ، وقواعد لاكبر اصلاح بشري . من هذه التدابير ظهرت يثرب وطناً لأهلها ، لا مسكناً لاقوام متنازعين فيها ، وطناً آمناً للمسلمين والمشركون واليهود ، وللنازحين اليها من أية قبيلة كانوا ، ولاي عنصر انتسبوا ، عرباً أو عجماً .

فظهر لأول مرة معنى الوطن ، تتساوى الناس فيه تحت نظام يعطي حقوقاً ويلزم تكاليف ، من غير نظر الى الاحساب والانساب والعصبيات والعقائد .

انظروا اليه صلى الله عليه وسلم يضع دستور الوطن الجديد في صحيفة بين أهل الاديان والاجناس ، تجعلهم جميعاً وطنيين مكلفين الدفاع عن الوطن أي امام اعتداء

(١) من كتاب مصر المعاصرين .

عليه ، متكافلين في الحرب والسلام ، لا ينصرون غيرهم ، ولا يثأرونه على اهل الوطن ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم ، وتكفل حرية العقيدة لاهل الوطن ، وحرمة أموالهم ودمائهم وأعراضهم .

تبتدى الصحيفة باسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قریش ويثرب ، ومن تبعهم ، ولحق بهم ، وجاهد معهم ، انهم أمة واحدة من دون الناس .

ثم نقرر ان من تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة غير مظلومين ، ولا متناحر عليهم ، وان يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، والمسلمين دينهم ومواليهم وانفسهم ، ثم نقرر لبقية اليهود المعاهدين ما ليهود بني عوف . ثم تذكر الصحيفة أن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب اهل هذه الصحيفة ، وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم ، الى ان تقول : وإن يثرب حرام جوفها لاهل هذه الصحيفة ، وان الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وانه لا تجار حرمة الا باذن اهلها ، وان ما كان بين اهل هذه الصحيفة من حدث او اشتجار يخاف فساد ، فان مردّه الى الله عز وجل والى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

بهذه الصحيفة انقادت الى النبي سلطة يثرب الزمنية دون قصد ، فقد اقتضت العهود ان تنص على حكم في حالة الخلاف ، ولم يكن الا هو ليحكم ، ومنذ تلك الساعة وضع الحجر الاساسي لدولة الاسلام .

فقضى رسول الله على الفوضى ، والاباحة للقوة ، وجعل لأول مرة في البلاد العربية حق الامة فوق حق القبيلة ، وجعل مرجع إقامة الحدود الى الله أي الى شريعته ، والى رسوله منفذ هذه الشريعة ، وكانت الى ذلك الحين تتولاها القوة الغاشمة وحدها ، قوة العصبية لا تفرق بين المذنب والبري ، وبذلك غرس لاجىء الى يثرب بذرة الحضارة في اشد الاقوام نزوعاً الى الاختلال والهمجية ، ووضع نواة الامبراطورية التي ازهرت قروناً طويلة ، ولا تزال فيخر المشرق ، وحديث المغرب ... (عن مجلة « الراوي الجديد » ، آب ١٩٤٣) .

محمد جميل بيهم

الثورة الفرنسية والمرأة : بينما كان الفريق الاكبر من نساء اشراف فرنسا مسترسلا بالملذات في اواخر القرن الثامن عشر ، كان فريق آخر من نسوة الشعب يتداول بما صارت اليه حالة المرأة ، ويتجدد على المطالبة بمساواة الجنسين . بيد ان الروح العامة كانت غير ملائمة لهذا الطاب ، لان معظم الامة وفي مقدمتها العلماء الذين يسمون بالجماعين « Encyclopédistes » كانت تنكر عليهن المساواة . ولا جرم فقد كانت افكار جان جاك روسو « ١٧١٢ - ١٧٧٨ » هي السائدة على الرأي العام . ومعلوم كم كانت تعتبر المرأة قاصرة ومخلوقة لاجل لذة الرجل وانشرح قلبه .

وكانت الآمال في تحرير المرأة معقودة على الثورة الافرنسية « ١٧٨٩ » ولا سيما لما بذله الجنس اللطيف على مذهبها من التضحيات ، من مثل مدام رولاند ولوسيل سمون . ولكن حكومة تلك الثورة انكرت الجميل وايدت استعباد النساء . غير انها مع ذلك افادت القضية النسائية بطريق العرض بما الفتت اليها الانظار حينما اعلنت المساواة العامة ، فانتصر للنساء بعضهم مثل سياس ^(١) وكندرست ^(٢) وكتب كثيرون - رجالا ونساء - مؤيدين حقوق المرأة واشتهرت من بينهم في اثناء ذلك الانسة اولامب دي كوج « ١٧٤٨ - ١٧٩٣ » وهي تعتبر في فرنسا بثابة ماري ولستنكرفت في بريطانيا العظمى ، اول حاملة لواء القضية النسائية .

اما حكومة الثورة فهي في الواقع لم ترد ان تقف محايدة ازاء القضية النسائية ، وانما انكرت على اربابها اجتماعاتهم وضجتهم ، واستكبرت تطرف بعض النساء ، فاصدرت امراً في سنة ١٧٩٥ تحظر فيه على النساء الاشتغال بالسياسة والاشتراك بالاجتماعات ، وشرعت تطاردهن حتى لم يعد يسمع نقضيتهن همس . ولما تبوأ العرش نابليون الاول قضى على كل امل نسائي وبنفوذه على مشرعي فرنسا جعل الاسرة في

(١) الراب Sieyès .

(٢) Condorcet .

القانون بمثابة الفرقة العسكرية ، قائدها الاب ، وعلى المرأة والاولاد الطاعة العمياء ، طاعة الاجناد .

ولما استعاد آل البوربون العرش « ١٨١٤ - ١٨٣٠ » شرع بعض المفكرين يحركون من جديد بكتاباتهم اسلاك القضية النسائية ، فتهتز معها افئدة جمهور من النساء على وجه خاص . وقد انشأ بعضهن صحيفتين لهذه الغاية ، وهما جريدة « المرأة الحرة » و « الشرارة » . ولكنهما لم تكونا من ذوات الاعمار الطويلة لان الرأي العام كان لا يزال غير مستعد لقبول فكرتهما .

وقد عقد النسائيون الآمال على الجمهورية الثانية التي اعلنت سنة ١٨٤٨ ، واستبشروا حينما استقبلت ممثلاتهم في قصر الحكومة ، ووعدتهن خيراً ، ولكن اجل هذه الجمهورية كان قصيراً ، فعادت الملكية سنة ١٨٥٢ ، وعادت معها الصرامة ضد المرأة ، واصدرت امراً بنفي مدبرات الحركة النسائية .

وفي اثناء ذلك صار لبعض نساء فرنسا ضلع بالعلوم والمعارف ، فشرعن يطلعن بحقوق المرأة بالحجة العلمية والبرهان ، فالف فريق منهن الكتب : مثل مدام آدم ^(٢) وجني داريكورت . وكتب فريق آخر منهن بالصحف مثل : مدام اندره له يو ، وغيرها . وانشأت حنة درون جريدة سمتها رأي النساء ، وفضلاً عن ذلك استملن كثيراً من الرجال واشهرهم ليون ريشر فنهضوا بقوة للانتصار لهن .

واستمر انصار المرأة ، ولا سيما في اثناء شدة وطأة الملكية عليهم ، يذكرون مواعيد الجمهورية فيحنون الى عهدها . فعقدت بينهم وبين الحزب الجمهوري رابطة المصلحة ، وشرعوا بظاهرة هذا الحزب . ولما اعلنت الجمهورية الثالثة ١٨٧٠ الحاكمة الآن اعترفت لهم بتجديدهم ، وهي وان لم تحقق لهم امانيتهم الا انها اطلقت لهم حرية العمل ، فدخلت القضية النسائية منذ ذلك في دور جديد . - (عن كتاب « المرأة في التمدن الحديث ») .

(٣) جوليت آدم اشتهرت في البلاد العربية لصداقتها مع مصطفى كامل (الزعيم الوطني

١) الشيخ مصطفى الغلاييني

الحرية الصحيحة هي التي بناها الشعب بقوته : نالت الامة العثمانية حريتها واكثر البلاد غير مستعد لذلك ، فان لم نبذل الجهد لترقية الاقوام الذين لم يفهموا - الى الآن - معنى الحرية والاستقلال الشخصي ، فلا تلبث الحكومة ان تتسفل وتندنى الى اخلاق هذه الاقوام ثم لا يمضي زمن حتى ترجع الحالة الى شر مما كانت عليه . ذلك لان الحرية الصحيحة هي التي ينالها الشعب بقوته دون مساعدة خارجية عنه ، كالجيش مثلاً او كأن تمنح الحكومة الحرية للشعب من قبل نفسها دون مجبر . اما الحرية التي تنال بواسطة الجيش فانها تنتزع بواسطته كما كاد يحصل في ثورة استانة الاخيرة الشهيرة بفتنة ٣١ من مارس و ١٣ من نيسان ، او تنتزع متى سكنت نائرة ذلك الجيش وذهب رجاله الى اهلهم .

وكذا الحرية التي تمنحها الحكومة دون ثورة من الشعب ، فانها تنتزع متى مات او سقط السلطان المانح الحرية كما حصل في الحرية التي منحتها سلطان العجم لشعبه ، فان خلفه انتزعها قسراً واهرق دماء كثيرة في سبيل ذلك ، فلو كانت الامة هي التي طالبت بحقوقها واصرت على نيل حريتها فلا يمكن ان تنتزع منها حريتها ما دام فيها رمق من الحياة .

فالثورة الحقيقية ليست ثورة الجيش لطلب الحرية ولا ثورة خارجة لطلب حرية أمة ، وانما هي ثورة الامة ، وافضل معاني الثورة هي الثورة الادبية او الاخلاقية ، لانها هي كل شيء . وكل معنى من معاني الثورة هو تابع لها على الدوام .

القوانين يجب ان توافي البيئة والحالة الاجتماعية^(٢) ، هو اللفظ : وان من

(١) معاصر من وجوه رجال الدين والادب في بيروت . كل هذه النصوص المختارة له كُتبت في مجلته النهراس ، لمناسبة الانقلاب العثماني .

(٢) موافق لرأي مونتسكيو .

الخطأ البين ان تقاس الامة العثمانية الحديثة العهد بالحرية والدستور بامسة الفرنسيين او السكسون فتحكم بقانون احدهما ، لان الفرق الشاسع بيننا وبينهم يوجب علينا ان نسن لانفسنا قوانين توافق بيئتنا وحالتنا الاجتماعية .

يجب ان يكون القانون الذي تحكم به استانة وسلانيك وبيروت ودمشق وغيرها غير القانون الذي تحكم به اليمن والاناطول وقسم عظيم من بلاد الارناؤوط ، فان البلاد الاولى وما هي على شاكلتها تحتاج الى حكم ارقى من الحكم الذي تحتاج اليه البلاد الاخرى ، وهذا مشاهد حتى يكاد يلهس باليد ، وقد وضع وضوح الشمس بعد اعلان القانون الاساسي ، فقد كان بون شاسع بين هاتين البلادين من حيث تأثير روح الحرية والدستور في نفوس اهليهما وعدم تأثيرها ...

... واما ما يختص بالمعارف فالنظر فيه لا يقل عن النظر فيما سبق ، فان المعارف روح البلاد وهي السبب الوحيد لايقاظها وانهاضها ، فيجب الاهتمام بنظامها اهتماماً عظيماً بحيث يكون عاماً شاملاً لحاجات كل قطر من الاقطار العثمانية على اختلاف لغاتها ومذاهبها ، فان كانت الانظمة المتعلقة بالحقوق والجزاء والمعاملات تصلح مثلاً لبعض البلاد العربية والتركية معاً فان النظام المتعلق بالمعارف لا يصلح منه ما يصح العمل به في استانه وسلانيك لبيروت وحلب وبغداد وغيرها من الولايات العربية لاختلاف اللغة وهذا من جملة شكاوى ابناء العرب التي ملأت اخافقين ، فان اللغة التركية كادت تمحو اثر اللغة العربية ، فانها - فضلاً عن كونها لسان الدولة الرسمي - لسان العلم في مدارس الحكومة عامة في البلاد التركية والعربية على السواء ، وكان الأولى بالحكومة ان تجعل لسان التدريس في كل بلاد بلغة اهلها ... فانها ان فعلت ذلك تكون قد سعت لترقية البلاد ترقية محسوسة ، لان التلاميذ لا يدركون معنى العلم ان درسوه بغير لغتهم إلا بعد اثنان اللغة التي يدرسونه بها ، ولا يتأتى لهم اتقانها إلا بعد مدة ليست بالقصيرة ، وفي اثناء تلبّي العلم يكون التلميذ مشغولاً بتفهم العلم وتفهم الالفاظ التي تحوي ذلك العلم . فيكون علمه بسبب ذلك ناقصاً مقتضباً ، فلو درس التلميذ العلم بلغة ابيه وامه فلا يشغل الا بشيء واحد وهو تفهم معنى العلم الذي يتلقاه ، وهذا سرّ عظيم يجب ان تنبهه اليه نظارة المعارف ، وان كان يسمى اكثر

الشبان الاتراك المغرورين الذين يسعون جهدهم لتتريك عناصر الدولة . . .

الثورة وغواطر في الانقلابات: الثورة نهوض يُقصد منه تغيير في السياسة او الاجتماع او الاخلاق . من قبيح الى حسن او حسن الى قبيح ، وقد يعبر عن الغاية الاولى بالانقلاب وعن الثانية بالهيجان^(٤) . وقد يُخص القيام لطلب الحق بالانقلاب ، والنهوض لمنصرة الباطل بالثورة ، والثورة للحق من مطالب الامم الراقية . غير ان النهوض لتغيير نظام السياسة لا يفلح انصاره ولا تثبت دعائم مطالبهم ان لم يسعوا قبل ذلك لتغيير نظام الاجتماع والاخلاق حتى يكون للامة استعداد لتلقي ما يراد ايجاده . وحتى لا تثور ضد ما يخالف الانظمة القديمة والعادات السائرة فينتج حب التغيير عكس المقصود . ولو فرضنا انها لم تثر ولم تعارض في جديد النظام وحديث التغيير ، فانها لا يمكن ان تستفيد من الاصلاح شيئاً ، بل ربما يكون الاصلاح شراً عليها . من عاداتها القديمة ولو كانت ضارة ، وهذا قول ربما لا يسلم به كثير من الناس .

وانه بقدر استعداد الاممة للحكم الدستوري والاصلاح تنفع من ذلك . فان نالت الدستور وابيح لها الاصلاح غير انها لم تستنتج شيئاً فاعلم انها أمة غير صالحة لهذه النعمة ، لانها لم تقدرها قدرها ولم تهنيء لها الاسباب اللازمة الكافلة ببقائها والمستخرجة لفوائدها . وليس الذنب على القوانين ولا على القائمين بتنفيذها . وانما الذنب على الاممة التي تحكم بتلك القوانين ، لانها تدع منفذها يفسرون موادها حسب مشتبهاتهم دون معارضة وما مصادمة .

. . . ان الاممة التي هي على هذه الشاكلة ان ثار في مشنوريتها وعظاء رجالها ثائرة الاصلاح السياسي قبل ان يتقدمه الاصلاح الاخلاقي وثورة الفلاسفة واهل التربية يكون ويلاً عليها كما اسلفنا ، فان تم نوال الاصلاح السياسي قبل الاخلاقي وانتشرت في الاممة القوانين الراقية وحمل الحكماء على القضاء بها ، فترى تلك الاممة آسفة كل الاسف على ماضيها وعلى الحالة التي كانت فيها ، وتتمنى لو ترجع في حافرتها ، مع

انه لا يشك عاقل في ان حالتها الحاضرة هي خير من حالتها الماضية ، واي ذي لب يشك في ان العدل والمساواة خير من الجور والحكم يقتضى الهوى ورغبات النفوس الظالمة الفاسدة ...

... لا جدال في ان شكوى هؤلاء انما هي من الحكم لا من القوانين والانقلاب

الدستوري .

— من هؤلاء الحكماء ؟ أليسوا من الامة ؟ فلو كانوا راقية افكارهم صحيحة اخلاقهم فهل كانوا كما هم اليوم ؟ لا ريب انهم لو تربوا تربية صحيحة وعودوا الحكم بالحق دون مراعاة ولا ميل لمنفعة لرأينا منهم في هذا الدور السعيد رجالا ينهضون بالامة ويقومون من اعوجاج اعمالها . فلنستخط اذن على الحكم لا على الدستور والحرية !

فان قيل ان الدور الماضي والدور الحاضر سواء لان اكثر الحكماء اليوم هم الحكماء بالامس ، نقول : ذلك حق ، ولكنهم بعد ان كانوا مطلقين صاروا مقيدين بارادة الامة ، غير انه لما لم يكن الامة ارادة بل سلمت ارادتها اليهم اخذوا يرجعون الى ما اعتادوه من ذي قبل شيئاً فشيئاً ، فهل الامة ان تقف في وجوههم وتجبرهم على عدم الخروج عن مواد القوانين الدستورية ؟ فان فعلت ذلك نجحت وجنت فوائده الانظمة الجديدة ، وان بقيت كما هي اليوم خاملة مستكينه فالعاقبة غير حميدة ! — (عن مجموعة « اريج الزهر » ، بيروت ١٩١١) .

ملحق شمري

الياس صالح

١٨٧٠ - ١٨٩٥

الحربة

لا تلهني يا عاذلي بهواها فأنا قيس هذه العامرية
وعلام الملام ، والقلب قلبي ومعي فيه حجة شرعية ؟
فاذا كنت تدعيه فقدّم عرض حال اللاعين ^(١) التركية
... وخبطنا العشواء لو كنت تدري في ليالي تلك الشعور الدجيه
واتخذنا سلال الشعر قيّداً ونسينا المسكينة الحريه !
انت حرّ ، يا ايها المزمع ، فاعلم ولك العلم فيه والاسبقية
انت حرّ ، فاعلم بهذا ، وعلم انت حرّ وهذه أوليه !
يتمنى الانسان لو كان عبداً ويقيم الادلة العلمية
ولكم قد رأيت من حيوان يقضم الجبل بغية الحرية !
يا بني امنا ذوي الفضل بل يا معشر الناطقين بالعربية
لست عبداً انا ولا انت مولى أيها اللابس الحلى الذهبية !



احمد شوقي

١٨٦٨ - ١٩٣٢

جبل الجبابر لا بد منه

لو كان من سفر اياك ^(٢) امس او فتح مبين

١ (الاعين : الجواسيس .

٢ (الخطاب موجه الى نوت عشق أمون .

او كان بعثك من ديب الروح او نبض الوتين
 وطلعت من وادي الملوك عليك غار الفاتحين
 اخيل حولك في الجلال العسجدية يمشين
 وعلى نجادك هاتان من القنا والدارعين
 والجنود يدفع في ركابك بالملوك مصفدين
 لرأيت جيلاً غير جيلك بالجبابر لا يدين
 ورأيت محكومين قد نصبوا وردوا الحاكمين
 روح الزمان ونظمه وسيله في الآخرين
 ان الزمان واهله فرغا من الفرد اللعين
 فذا رأيت مشايخاً او فتية لك ساجدين
 لاق الزمان تجدهم عن ركبته متخلفين
 هم في الاواخر مولداً وعقولهم في الاولين !

النفوس لها ثورة

ان ملكت القلوب فابغ رضاها فلها ثورة وفيها مضاء
 يسكن الوحش للوثوب من الاسر ، فكيف الخلائق للعقلاء ؟



خليل مطران

من قصيدة « نبروه »

ذاك الشعب الذي آتاه نصراً هو بالسبة من نيرون أخرى
 أي شيء كان نيرون الذي عبدوه ؟ كان فظ الطبع غراً !
 قزوة هم نصبوه عالياً ، وجشوا بين يديه فاشجراً !
 ضخموه وأطالوا فيه فترامى يماً الآفاق فنجرا

منحوه من قوهم ما به صار طاغوتا عليهم ، او اضرا
انما يبطش ذو الامر اذا لم ينف بطش الأولى ولوه أمرا

لست محزوناً على القوم ، وهل كبد تلفى على الانذال حرى
ما علينا من غريم غارم ان أزرى اخلق شعب مات صبدا
ليس بالكف لعيش طيب كل من شق عليه العيش حراً !
ان روما جعلت نيرونها وهو شر القوم مما كان شراً
بلغته الملك عفواً ، فبغى ، كل ملك جاء عفواً راح هدرا
ليس في تشنيعه من بدعة ان للظالم عند الذكر ثارا !
لا ولا في ظلمه من عجب ان للظالم عند العدل وترا !

من يلم نيرون ، اني لاثم امة لو كبرته ارتد كبرا^(١)
امة لو ناهضته ساعة لانتهى عنها وشيكاً واثبجرا^(٢)
فاز بالاولى عليها ، وله دونه معذرة التاريخ اخرى
كل قوم خالقو نيرونهم قيصر قيل له ام قيل كسرى !



جميل صدقي الزهاوي

١٩٣٦ - ٩

ملك عن فعلم ليس يسأل

لقد عبثت بالشعب اطماع ظالم يحمله من جوره ما يحمل
فيا ويح قوم فوضوا امر أنفسهم الى ملك عن فعله ليس يسأل !

(١) جبهته جبياً .

(٢) اعتدل .

ارادة شخص واحد

نحن في غفلة نيام وعنا نائبات الزمان غير نيام
 نحن في دولة تداركها الله نبيج المحذور للحكام
 وعدّها بالاصلاح جهم ولكن لا يجوز الاصلاح حد الكلام
 نحن قوم قضت ارادة شخص واحد ان نعيش كالانعام



معروف الرصافي

باملوك الانام هلا اعتبرتم

انما نحن امة تدرأ الضيم ولا تستكين قط لوال
 امة سادت الانام وطابت عنصراً من اواخر واوال
 فاذا ما علا الغشوم نهضنا فقدفناه سافلا من عال
 نحن من شعلة الجحيم خلقنا لدوي الجور لا من الصلصال
 يا ملوك الانام هلا اعتبرتم بملوك تجور في الافعال
 فاتركوا الناس مطلقين والا عشم موتقين بالادوال



بشاره الخوري

(الاخطل الصغير)

بين لويس وعبد الحميد

عاهل الغول لفقة ثم رحب بطريد من الملوك شريد
 قل له ، يا لويس ، ماذا جنى الملك وماذا جناه خفر العهود
 قل له كيف ثل عرشك ، والعرش عليه يرف مجد الجدود
 قل له كيف قaddock الجند بين الشعب للقتل راسفأ بالقيود

الدساتير والثورات

ان الدساتير لا تعطي اعنتها الا الاعاصير من جن ومن بشر
من هابط كقضاء الله مكتسح او صاعد كفهم البركان منفجر

دماء الشباب في سبيل الحرية

يا دماء الشباب ما انت الا ذائب الطيب ، يا دماء الشباب
ادققي رحمة ونوراً ، وكوني جدول السفوح او هزار الغاب
لا تضني على الحراب وان آذتك ، بل عطري رؤوس الحراب
املأها شذاً ، كما يملأ الورد يد الجارحية ، بالاطياب
قطرة منك بسمه في فم الرفق ، وسوط على يد القرضاب
كم سياج من الحديد تعفى وسيج باق من الاداب !
ما خلا الغيل من دمشق الى الشهباء من حافر ومن وثاب
بسلاح من الحقوق المدماة نسيج القلوب والالباب
شهرت مثله فرنسا على الظلم فردته من دم مخضاب !

يا فرنسا

لقني الطغيان درسا	ليس ينسى
وصلي باليوم امسا	يا فرنسا ...
يظماً المجد فلا يشرب	الا من يديك
ويضام الحق حتى	يرفع الصوت اليك
كل فجر من جمال	بسمه في شفتيك

يا فرنسا

يعرف النصر على بعد لواءك ويغني السيف في الهيكل علاك

يا فرنسا

لا يسيل العطر الا من دمسك

يا فرنسا

انشري الاضواء في الافق البعيد وابعثي فينا صداقات « الرشيد »

انت والارز شعار للخلود

يا فرنسا

سيفك المسلول في الشرق سيرف الدهر دونه

باركته القدس التكلي وحيته « المدينة »

صافح اليمن يمينه قبل الشرق جبينه

يا فرنسا

لقني الطغيان درسا ليس ينسى

وصلي باليوم امسا يا فرنسا ...



الياس ابو شبكة

من قصيدة الشاعر الحر مخاطب السلطان الظالم

فأغمد الحرّ في عينيه ^(١) فرهة من ناظريه ، كبركان بهر كان
وفال : ملكك ليس الشعب يملكه فلست تملك الا بعض عميان
كن من تشاء ، كن الدنيا بكاملها فلست تعدل صديقاً بيزاني
جمال قلبي عربان على شفتي ونور نفسي معقود باجفاني
وكيف اكذب ، والدنيا تصارحني حتى قشوري ، حتى جسمي الفاني
انظر الى النهر في صفو وفي كدر فهل تحفّي على الصفصاف والبان ؟
لنور في كل مجرى منه مصقلة ، وكل منعطف للحب ثديان
وانظر الى حرمون الشيخ كيف بدا فهل لهيته السماء وجهان ؟
فذلك الجبل الجبار اطعمني قوت النسور وهذا النهر رواتي
خفف عتوك واغسل قلبك الجاني للظلم يوم والظلوم يومان
عرش العتي على بركان منكروه شتيمة رخت في قلب سكران
ما كان سلطان هذا الشعب سيده ، ان السيادة ما احتاجت لتيجان

(١) الضمير راجع الى السلطان الظالم .

خاتمة

... وهنا ، ايها القارئ ، نشرف على هنيئة الوداع بعد صحبة طويلة . وما

أحبك ان تطوي الكتاب الا وقد حملت معك هذه الخلاصة ذات السطور القليلة .

لقد شهدت موكباً حافلاً من ادياء ومصالحين وقادة ثائرين وحوادث جسام ، في بلاد من العالم . وشهدت موكباً حافلاً من ادبائنا ومصالحينا . شهدت الافئداني والكواكبي والمراش والنديم واسحق والشميل والريحاني وجبران وغيرهم وغيرهم ... فعرفت ، اولاً ، ان تاريخنا الفكري في مطلع نهضتنا الحديثة ، يباهي بصفحات خيرة نيرة ، من رجال جريئين متعمقين . وعرفت ، ثانياً ، ان هؤلاء الافئداز من ادبائنا ومفكرينا لم يبتروا ما بينهم وبين ماضينا ، ثم لم يقطعوا ما بينهم وبين الدنيا ، ثم لم يقفلوا على انفسهم في « صوامع وابراج » ، ولكنهم شخصوا الى قديمنا وتعلموا ، وأطأوا على العالم وتفقوا ، ونظروا في احوالنا وشؤوننا ، وطلعوا من ذلك كله بلواء نقشوا عليه مطامحنا ورسوموا امانينا . اما هذا اللواء فهو الوطنية ، واما هذه المطامح والاماني فهي الحرية والرفي والهنا للامة بخاصتها وعامتها .

لقد عرفت ، ايها القارئ ، ان وطنيتنا الحديثة ولدت في حضن الشورى والديموقراطية ، واتجهت الى الشعب ، واستندت الى قوته وكفاءته ومصالحته . طالبت وطنيتنا ، اول شيء ، بدستور ديموقراطي تصان حرمة . طالبت بمجلس نواب تنتخبه الامة انتخاباً حراً ، ليعبر عن ارادتها . طالبت باطلاق الحريات للقول والاجتماع والكتابة والتنظيم . طالبت بالغاء الامتياز واعلان المساواة امام القانون . طالبت بنشر الثقافة ، وادخال مجانية التعليم والزامية التعليم . طالبت بانهاض مستوى المرأة ، لان « الامة نسيج الامهات » . طالبت بتربية قومية جامعة تشعر الفرد بالمسؤولية امام المجموع ، وتوآخي بين ابناء الوطن الواحد على اختلاف المنابت والمذاهب ، لان « الدين لله والوطن للجميع » . طالبت بتشجيع المشاريع العمرانية لتحسين الزراعة وحالة

الزراع . وطالبت بتنشيط ارباب الصناعة الوطنية وترقية حالة الصناع . . .
 لقد عرفت ، ايها القاريء ، كل هذا . وانه لتراث مجيد ، اثره العقل النير وجاد
 به الشعور الخير ، هذا التراث الذي خلفه لنا ادباؤنا ومفكرونا . وان مسألة حفظه
 وحمايته وتكميله ، في الدور الجديد الذي نقبل عليه ويقبل العالم خارجاً من اشد
 المعامع هولاً ، لهي مسألة تتعاق بشرفنا ومصيرنا ، نحن ورثة اولئك الميامين ، السابقين
 في محاربة الاستبداد من اجل الشورى ، ومكافحة الاستعباد من اجل الحرية !

انتهى طبع هذا الكتاب على
مطابع الكشاف
في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٤٣

~~4659~~

5058



